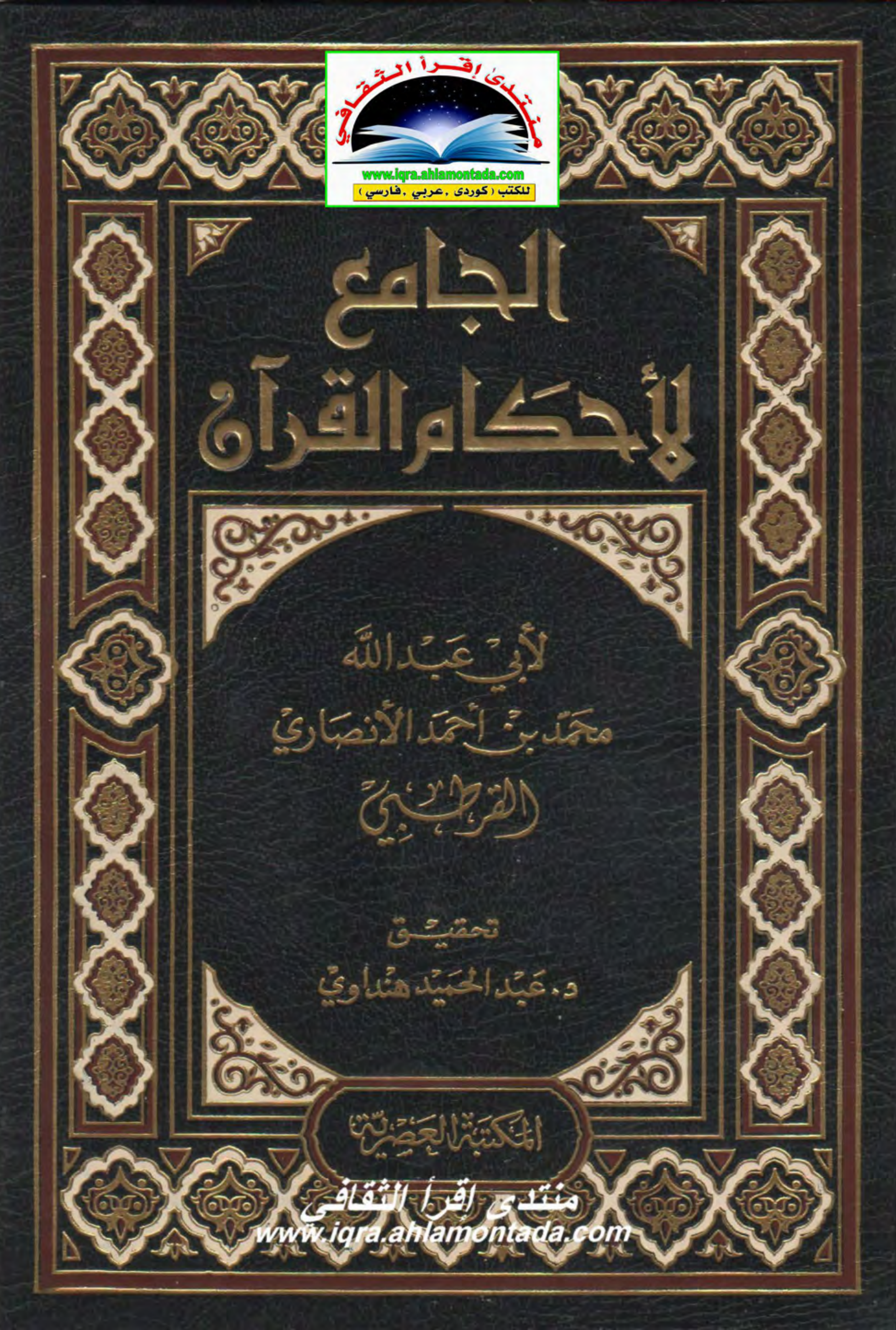

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)
الجامع
لأحكام القرآن
لأبي عبد الله
محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي
تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي
المكتبة العصرية
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري
القرطبي

تحقيق
د. عبد الحميد هنداوي

المجلد التاسع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: 11/8355
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
230195 07 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا - لبنان

1437 هـ - 2016

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
alassrya.com

ISBN 978-614-414-942-3
9 786144 149423
ISBN 978-614-414-942-3

سورة ق

مقدمة السورة:

مكية كلها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (ق: ٣٨). وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت: لقد كان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحدا سنتين ـ أو سنة وبعض سنة ـ وما أخذت "ق والقرآن المجيد" إلا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[١]. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ "ق والقرآن المجيد" و"اقتربت الساعة وانشق القمر"[٢]. وعن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ "ق والقرآن المجيد" وكانت صلاته بعدُ تخفيفا[٣]. قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ قرأ العامة "قاف" بالجزم. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم "قافِ" بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم، فلما سكن آخره حركوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفي بفتح الفاء حركه إلى أخف الحركات. وقرأ هارون ومحمد بن السميقع "قافُ" بالضم؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذ وقطُّ وقبلُ وبعدُ. واختلف في معنى "ق" ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك: هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء اخضرت السماء منه، وعليه طرفا السماء والسماء عليه مقبية[٤]، وما أصاب الناس من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس. قال الفراء: كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في "ق"؛ لأنه اسم وليس بهجاء. قال: ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه؛ كقول القائل:

قلت لها قفي فقالت قافْ

أي أنا واقفة. وهذا وجه حسن وقد تقدم أول "البقرة". وقال وهب: أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف، قال: فما هذه الجبال حولك؟ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).
(٣) أخرجه مسلم (٤٥٨).
(٤) يقال السماء مقبية أي: مرفوعة.

هي عروقي وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي، فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض؛ فقال لـه: يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله؛ قال: إن شأن ربنا لعظيم، وإن ورائي أرضا مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم به بعضها بعضا، لولا هي لاحترقت من حر جهنم. فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها؛ وأين هي من الأرض. قال: زدني، قال: إن جبريل عليه السلام واقف بين يدي الله ترعد فرائصه، يخلق الله من كل رعدة مائة ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوف بين يدي الله تعالى منكسو رؤوسهم، فاذا أذن الله لـهم في الكلام قالوا[1]: لا إلـه إلا الله؛ وهو قولـه تعالى: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن لـه الرحمن وقال صوابا ﴾ (النبأ: ٣٨) يعني قول: لا إلـه إلا الله.

وقال الزجاج: قولـه "ق" أي قضي الأمر، كما قيل في "حم" أي حُمَّ الأمر. وقال ابن عباس: "ق" اسم من أسماء الله تعالى أقسم به. وعنه أيضا: أنه اسم من أسماء القرآن. وهو قول قتادة. وقال القرظي: افتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض. وقال الشعبي: فاتحة السورة. وقال أبو بكر الوراق: معناه قف عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهُمَا. وقال محمد بن عاصم الأنطاكي: هو قرب الله من عباده، بيانه ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (ق: ١٦) وقال ابن عطاء: أقسم الله بقوة قلب حبيبه محمد ﷺ، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حالـه.

قولـه تعالى: ﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قالـه الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد، من قولـهم: كثير فلان في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: "في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار". أي استكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قالـه ابن بحر. وجواب القسم قيل هو: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم" على إرادة اللام؛ أي لقد علمنا. وقيل: هو "إن في ذلك لذكرى" وهو اختيار الترمذي محمد بن علي قال: "ق" قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد، ثم اقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان لـه قلب ﴾ (ق: ٣٧) فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال: "ق" أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما اقتصصت في هذه السورة ﴿ لذكرى لمن كان لـه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (ق: ٣٧). وقال ابن كيسان: جوابه "ما يلفظ من قول". وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم "بل عجبوا". وقال الأخفش: جوابه محذوف كأنه قال: "ق والقرآن المجيد" لتبعثن؛ يدل عليه "أئذا متنا وكنا ترابا".

قولـه تعالى: ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ "أن" في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم، يعني محمدا ﷺ والضمير للكفار. وقيل: للمؤمنين والكفار جميعا. ثم ميز بينهم بقولـه تعالى: "فقال الكافرون" ولم يقل فقالوا، بل قبح حالـهم وفعلـهم ووصفهم بالكفر، كما تقول: جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق أنت كذا وكذا. "هذا شيء عجيب" العجيب الأمر الذي يتعجب منه، وكذلك العجاب بالضم، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه، وكذلك الأعجوبة. وقال قتادة: عجبهم أن دعوا إلى إلـه واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور. والذي نص عليه القرآن أولى.

---

(١) لا يصح.

قولـه تعالى: ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا ﴾ نبعث؛ ففيه إضمار. "ذلك رجع بعيد" الرجع الرد أي هو رد بعيد أي محال. يقال: رجعته أرجعه رجعا، ورجع هو يرجع رجوعا، وفيه إضمار آخر؛ أي وقالوا أنبعث إذا متنا؟. وذكر البعث وإن لم يجر هاهنا فقد جرى في مواضع، والقرآن كالسورة الواحدة. وأيضا ذكر البعث منطو تحت قوله: "بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم" لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب في الآخرة. قولـه تعالى: "قد علمنا ما تنقص الأرض منهم" أي ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شيء حتى تتعذر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿ قال فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ (طه: ٥١-٥٢). وفي الصحيح: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُرَكَّبُ)(١) وقد تقدم. وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرض أجسادهم؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم. وقد بينا هذا في كتاب "التذكرة" وتقدم أيضا في هذا الكتاب. وقال السدي: النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى؛ لأن من مات دفن فكأن الأرض تنقص من الناس. وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين. "وعندنا كتاب حفيظ" أي بعدتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ أي محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شيء. وقيل: الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبت عليك هذا أي حفظته؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بني آدم لنحاسبهم عليها.

قولـه تعالى: ﴿ بل كذبوا بالحق ﴾ أي القرآن في قول الجميع؛ حكاه الماوردي. وقال الثعلبي: بالحق القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمد ﷺ. "فهم في أمر مريج" أي مختلط. يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن؛ قالـه الضحاك وابن زيد. وقال قتادة: مختلف. الحسن: ملتبس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد، ومنه مرجت أمانات الناس أي فسدت؛ ومرج الدين والأمر اختلط؛ قال أبو دؤاد:

مـرج الديـن فأعـددت لـه ... مشرف الحارك محبوك الكتد

وقال ابن عباس: المريج الأمر المنكر. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: "مريج" مختلط. وأنشد:

فجالت فالتمست به حشاها ... فخـر كأنه خـوط مريـج

الخوط الغصن. وقال عنه العوفي: في أمر ضلالة وهو قولـهم ساحر شاعر مجنون كاهن. وقيل: متغير. وأصل المرج الاضطراب والقلق؛ يقال: مرج أمر الناس ومرج أمر الدِّين ومرج الخاتم في إصبعي إذا قلق من الـهزال. وفي الحديث: (كيف بك يا عبد الله إذا كنت في قوم قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وهكذا) وشبك بين أصابعه(٢). أخرجه أبو داود وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة".

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٤٥٩٤).

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم" نظر اعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة. "كيف بنيناها" فرفعناها بلا عمد "وزيناها" بالنجوم "وما لها من فروج" جمع فرج وهو الشق؛ ومنه قول امرئ القيس:

لها ذنب مثل ذيل العروس تسد به فرجها من دبر

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق. "والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي" تقدم في الرعد بيانه "وأنبتنا فيها من كل زوج" أي من كل نوع من النبات "بهيج" أي حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدم في "الحج" بيانه. "تبصرة" أي جعلنا ذلك تبصرة لندل به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا "وذكرى" معطوف عليه. "لكل عبد منيب" راجع إلى الله تعالى، مفكر في قدرته.

قوله تعالى: "وأنزلنا من السماء" أي من السحاب "ماء مباركا" أي كثير البركة. "فأنبتنا به جنات وحب الحصيد" التقدير: وحب النبت الحصيد وهو كل ما يحصد. هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامع وربيع الأول وحق اليقين وحبل الوريد ونحوها؛ قاله الفراء. والأصل الحب الحصيد فحذفت الألف واللام وأضيف المنعوت إلى النعت. وقال الضحاك: حب الحصيد البر والشعير. وقيل: كل حب يحصد ويدخر ويقتات. "والنخل باسقات" نصب على الحال ردا على قوله: "وحب الحصيد" و"باسقات" حال. والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة. وقال قتادة وعبد الله بن شداد: بسوقها استقامتها في الطول. وقال سعيد بن جبير: مستويات. وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء: مواقير حوامل؛ يقال للشاة بسقت إذا ولدت، قال الشاعر:

فلما تركنا الدار ظلت منيفة بقُرَّانَ فيه الباسقات المواقر

والأول في اللغة أكثر وأشهر؛ يقال بسق النخل بسوقاً إذا طال. قال:

لنا خمر وليست خمر كرم لكن من نتاج الباسقات
كرام في السماء ذهبن طولا وفات ثمارها أيدي الجناة

ويقال: بسق فلان على أصحابه أي علاهم، وأبسقت الناقة إذا وقع في ضرعها اللبن قبل النتاج فهي مبسق ونوق مباسيق. وقال قطبة بن مالك: سمعت النبي ﷺ يقرأ "باصقات"(١) بالصاد؛ ذكره الثعلبي.

---

(١) لا يصح.

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال: صليت وصلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ "ق والقرآن المجيد" حتى قرأ "والنخل باسقات" قال فجعلت أرددها ولا أدري ما قال؛ إلا أنه لا يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف. "لـها طلع نضيد" الطلع هو أول ما يخرج من ثمر النخل؛ يقال: طلع الطلع طلوعا وأطلعت النخلة، وطلعها كُفُرّاها قبل أن ينشق. "نضيد" أي متراكب قد نضد بعضه على بعض. وفي البخاري "النضيد" الكُفُرّي ما دام في أكمامه ومعناه منضود بعضه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد. "رزقا للعباد" أي رزقناهم رزقا، أو على معنى أنبتناها رزقا؛ لأن الإنبات في معنى الرزق، أو على أنه مفعول لـه أي أنبتناها لرزقهم، والرزق ما كان مهيأ للانتفاع به. وقد تقدم القول فيه. "وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج" أي من القبور أي كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع. وقال "ميتا" لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ كذبت قبلـهم قوم نوح ﴾ أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكّرهم نبأ من كان قبلـهم من المكذبين وخوّفهم ما أخذهم. وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم. "كل كذب الرسل" من هذه الأمم المكذبة. "فحق وعيد" أي فحق عليهم وعيدي وعقابي.

قولـه تعالى: ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولـهم: ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ (ق: ٣). يقال: عييت بالأمر إذا لم تعرف وجهه. "بل هم في لبس من خلق جديد" أي في حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم مكذب؛ يقال: لبس عليه الأمر يلبسه لبسا.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ يعني الناس، وقيل آدم. "ونعلم ما توسوس به نفسه" أي ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفى بها. ومن قال: إن المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة، ثم هو عام لولده. والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفي. قال الأعشى:

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

وقد مضى في "الأعراف". "ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال. روي معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف في اللغة. والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين. وقال الحسن: الوريد الوتين وهو عرق معلق بالقلب. وهذا تمثيل للقرب؛ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة. وقيل: أي ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، لأنه عرق يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عرق يخالط القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة، وأبعاض الإنسان يحجب البعض البعض ولا يحجب علم الله شيء.

قوله تعالى: ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ أي نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان، وهما الملكان الموكلان به، أي نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة، وتوكيدا للأمر عليه. وقال الحسن ومجاهد وقتادة: "المتلقيان" ملكان يتلقيان عملك: أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا مت طويت صحيفة عملك وقيل لك يوم القيامة: ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (الإسراء: ١٤) عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك. وقال مجاهد: وكل الله بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله، ويكتبان أثره إلزاما للحجة: أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: "عن اليمين وعن الشمال قعيد". وقال سفيان: بلغني أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب العبد قال لا تعجل لعله يستغفر الله. وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبي ﷺ: (كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر)[١]. وروي من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن مقعد ملكيك على ثنيتك لسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك فلا تستحي من الله ولا منهما)[٢]. وقال الضحاك: مجلسهما تحت الثغر على الحنك. ورواه عوف عن الحسن قال: وكان الحسن يعجبه أن ينظف عنفقته[٣]. وإنما قال: "قعيد" ولم يقل قعيدان وهما اثنان؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه؛ ومنه قول الشاعر [قيس بن الخطيم] :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وقال الفرزدق:

(١) "ضعيف جداً"، أخرجه الطبراني والبيهقي عن أبي أمامة، وانظر ضعيف الجامع (٣٤٦٢).

(٢) ضعيف.

(٣) ما بين الذقن وطرف الشفة السفلى.

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى وأبى فكان وكنت غير غدور

ولم يقل راضيان ولا غدورين. ومذهب المبرد: أن الذي في التلاوة أوَّل أخِّرَ اتساعا، وحذف الثاني لدلالة الأول عليه. ومذهب الأخفش والفراء: أن الذي في التلاوة يؤدي عن الاثنين والجمع ولا حذف في الكلام. و"قعيد" بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: "قعيد" بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم.

وقال الجوهري: فعيل وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ (الشعراء: ١٦) وقوله: ﴿ والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ (التحريم: ٤). وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

ألكني إليها وخير الرسو ل أعلمهم بنواحي الخبر

والمراد بالقعيد ها هنا الملازم الثابت لا ضد القائم.

قوله تعالى: ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أي ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم. وفي الرقيب ثلاثة أوجه: أحدها أنه المتبع للأمور. الثاني أنه الحافظ، قاله السدي. الثالث أنه الشاهد، قاله الضحاك. وفي العتيد وجهان: أحدهما أنه الحاضر الذي لا يغيب. الثاني أنه الحافظ المعد إما للحفظ وإما للشهادة. قال الجوهري: العتيد الشيء الحاضر المهيأ؛ وقد عتده تعتيدا وأعتده إعتادا أي أعده ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وأعتدت لهن متكأ﴾ (يوسف: ٣١) وفرس عتَد وعتد بفتح التاء وكسرها المعد للجري.

قلت: وكله يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئن كنت مني في العيان مغيبا فذكرك عندي في الفؤاد عتيد

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين في مرضه. وقال عكرمة: لا يكتب إلا ما يؤجر به أو يؤزر عليه. وقيل: يكتب عليه كل ما يتكلم به، فإذا كان آخر النهار محي عنه ما كان مباحا، نحو انطلق اقعد كل مما لا يتعلق به أجر ولا وزر، والله أعلم. وروي عن أبي هريرة وأنس أن النبي ﷺ قال: (ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله في أول الصحيفة خيرا وفي آخرها خيرا إلا قال الله تعالى لملائكته اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة)[١]. وقال علي ﷺ: (إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا في أولها وفي آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك). وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة قال حدثنا جدي محمد بن إسحاق قال حدثنا محمد بن موسى الحرشي قال حدثنا سهيل بن عبد الله قال: سمعت الأعمش يحدث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الحافظين إذا نزلا على العبد أو الأمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ به العبد أو الأمة فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهما للآخر فك الكتاب المختوم الذي معك فيفكه له فإذا فيه ما كتب سواء فذلك قوله تعالى "ما

(١) رواه البزار وفيه تمام بن نجيح وثقه ابن معين وغيره وضعفه البخاري وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح. كذا في "المجمع"، (١٠/٢٠٨). وضعفه الشيخ الألباني كما في ضعيف الجامع (٥١٦٦).

يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" غريب، من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلا سهيل) . وروي من حديث أنس أن نبي الله ﷺ قال: (إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى: إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى: إن أرضي مملوءة من خلقي يسبحونني فيقولان يا رب فأين نكون فيقول الله تعالى: كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة)[٢] .

قوله تعالى: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾ أي غمرته وشدته؛ فالإنسان ما دام حيا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده. وقيل: الحق هو الموت سمي حقا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير، وتقديره وجاءت سكرة الحق بالموت، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضى الله عنهما؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. وقيل: يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت؛ ذكره المهدوي. وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصديق فقرأ: وجاءت سكرة الحق بالموت. فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان: إحداهما موافقة للمصحف فعليها العمل، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها، أو الغلط من بعض من نقل الحديث. قال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا علي بن عبد الله حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال: لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر: هلا قلت كما قال الله: "وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد" وذكر الحديث. والسكرة واحدة السكرات. وفي الصحيح عن عائشة أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة ـ أو علبة ـ فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه ويقول: (لا إله إلا الله إن للموت سكرات) ثم نصب يده فجعل يقول: (في الرفيق الأعلى) حتى قبض ومالت يده. خرجه البخاري. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة)[٣] وقال عيسى ابن مريم: "يا معشر الحواريين ادعوا الله أن يهون عليكم هذه السكرة" يعني سكرات الموت. وروي: (إن الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض). "ذلك ما كنت منه تحيد" أي يقال لمن

---

(١) هذا تعقيب أبي نعيم بعدما أخرج الحديث كما في "الحلية"، (٤/ ١٧٣)، وسهيل هو ابن أبي حزم: عبد الله القطعي، وهو ضعيف كما في التقريب (١/ ٣٣٨).

(٢) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٣/ ٢٢٩).

(٣) ضعيف.

جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفر منه وتميل عنه. يقال: حاد عن الشيء يحيد حيودا وحيدة وحيدودة مال عنه وعدل. وأصله حيدودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فعلول غير صعفوق. وتقول في الإخبار عن نفسك: حدت عن الشيء أحيد حيداً ومحيداً إذا ملت عنه؛ قال طرفة:

أبا منــذر رمــت الوفـــاء فهبـــته وحدت كما حاد البعير عن الدحض

قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ۝ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ ونفخ في الصور ﴾ هي النفخة الآخرة للبعث "ذلك يوم الوعيد" الذي وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ اختلف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدي والأرجل؛ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال أبو هريرة: السائق الملك والشهيد العمل. وقال الحسن وقتادة: المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها. وقال ابن مسلم: السائق قرينها من الشياطين سمي سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثها. وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان. وعن عثمان بن عفان ﷺ أنه قال وهو على المنبر: "وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد" سائق: ملك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد: يشهد عليها بعملها.

قلت: هذا أصح فإن في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن ابن آدم لفي غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك اكتب رزقه وأثره وأجله واكتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك الملكان ثم جاء ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أدخل حفرته رد الروح في جسده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا كتابا معقودا في عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد). ثم قال الله تعالى: "لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد" قال رسول الله ﷺ: (لتركبن طبقا عن طبق) قال: (حالا بعد حال) ثم قال النبي ﷺ: (إن قدامكم أمرا عظيما فاستعينوا بالله العظيم) خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن علي عن جابر وقال فيه: هذا حديث غريب من حديث جعفر، وحديث جابر تفرد به عنه جابر الجعفي وعنه المفضل[1]. ثم في الآية قولان: أحدهما أنها عامة في المسلم والكافر وهو قول الجمهور. الثاني أنها خاصة في الكافر؛ قاله الضحاك.

قوله تعالى: ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ﴾ قال ابن زيد: المراد به النبي ﷺ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم. وقال ابن عباس والضحاك: إن المراد

(١) الحلية (٣/ ١٩٠)، والمفضل بن عبد الله ضعيف، وكذا شيخه جابر بن يزيد الجعفي، وقد تفرد به.

به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم. وقال أكثر المفسرين: إن المراد به البر والفاجر. وهو اختيار الطبري. وقيل: أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلـهية. "فكشفنا عنك غطاءك" أي عماك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها إذا كان في بطن أمه فولد؛ قالـه السدي. الثاني إذا كان في القبر فنشر. وهذا معنى قول ابن عباس. الثالث وقت العرض في القيامة؛ قالـه مجاهد. الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد. "فبصرك اليوم حديد" قيل: يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تبصر العين ما قابلـها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك. قال مجاهد: "فبصرك اليوم حديد" يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك. وقالـه الضحاك. وقيل: يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرقّ ويعمى. وقرئ "لقد كنتِ" "عنكِ" "فبصركِ" بالكسر على خطاب النفس.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وقال قرينه ﴾ يعني الملك الموكل به في قول الحسن وقتادة والضحاك. "هذا ما لدي عتيد" أي هذا ما عندي من كتابة عملـه معد محفوظ. وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من بني آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عملـه. وقيل: المعنى هذا ما عندي من العذاب حاضر. وعن مجاهد أيضا: قرينه الذي قيض لـه من الشياطين. "ألقيا في جهنم" قالـه ابن زيد في رواية ابن وهب عنه: إنه قرينه من الإنس، فيقول الله تعالى لقرينه: "ألقيا في جهنم" قال الخليل والأخفش: هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحلاها وازجراها، وخذاه وأطلقاه للواحد. قال الفراء: تقول للواحد قوما عنا، وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبلـه وغنمه ورفقته في سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه، ومنه قولـهم للواحد في الشعر: خليلي، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

خليلي مرا بي على أم جندب   نقــض لبانات الفؤاد المعذب

وقال أيضا:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال آخر:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر   وإن تدعــاني أحم عرضا ممنعا

وقيل: جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازني: قولـه "ألقيا" يدل على ألق ألق. وقال المبرد: هي تثنية على التوكيد، المعنى ألق ألق فناب "ألقيا" مناب التكرار. ويجوز أن يكون

"ألقيا" تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملكين. وقيل: هو مخاطبة للسائق والحافظ. وقيل: إن الأصل القين بالنون الخفيفة تقلب في الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف. وقرأ الحسن "ألقين" بالنون الخفيفة نحو قوله: ﴿ وليكونا من الصاغرين ﴾ (يوسف: ٣٢) وقوله: ﴿ لنسفعا ﴾ (العلق: ١٥). "كل كفار عنيد" أي معاند؛ قال مجاهد وعكرمة. وقال بعضهم: العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عند يعند بالكسر عنودا أي خالف ورد الحق وهو يعرفه فهو عنيد وعاند، وجمع العنيد عند مثل رغيف ورغف. "مناع للخير" يعني الزكاة المفروضة وكل حق واجب. "معتد" في منطقه وسيرته وأمره؛ ظالم. "مريب" شاك في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة. يقال: أراب الرجل فهو مريب إذا جاء بالريبة. وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى: "الذي جعل مع الله إلها آخر" وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: "مناع للخير "أنه كان يمنع بني أخيه من الإسلام. "فألقياه في العذاب الشديد" تأكيد للأمر الأول.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذبه. "ولكن كان في ضلال بعيد" عن الحق وكان طاغيا باختياره وإنما دعوته فاستجاب لي. وقرينه هنا هو شيطانه بغير اختلاف. حكاه المهدوي. وحكى الثعلبي قال ابن عباس ومقاتل: قرينه الملك؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذي كان يكتب سيئاته: رب إنه أعجلني، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر رب إنه زاد علي في الكتابة، فيقول الملك: ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة؛ فحينئذ يقول الله تعالى: " لا تختصموا لدي" يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين. قال القشيري: وهذا يدل على أن القرين الشيطان. "وقد قدمت إليكم بالوعيد" أي أرسلت الرسل. وقيل: هذا خطاب لكل من اختصم. وقيل: هو للاثنين وجاء بلفظ الجمع. "ما يبدل القول لدي" قيل هو قوله: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ (الأنعام: ١٦٠) وقيل هو قوله: ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (السجدة: ١٣). وقال الفراء: ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب. "وما أنا بظلام للعبيد" أي ما أنا بمعذب من لم يجرم؛ قاله ابن عباس. وقد مضى القول في معناه في "الحج" وغيرها.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾ قرأ نافع وأبو بكر "يوم يقول" بالياء اعتبارا بقوله: "لا تختصموا لدي". الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهي نون العظمة. وقرأ الحسن "يوم أقول". وعن ابن مسعود وغيره "يوم يقال". وانتصب "يوم" على معنى ما يدل القول لدي يوم. وقيل: بفعل مقدر معناه: وأنذرهم "يوم نقول لجهنم هل امتلأت" لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده. "وتقول" جهنم "هل من مزيد "أي ما بقي في موضع للزيادة؛ كقوله ﷺ: (هل ترك لنا عقيل من ربع أو منزل)[1] أي ما ترك؛ فمعنى الكلام الجحد. ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الاستزادة؛ أي هل من مزيد فأزداد؟. وإنما صلح هذا للوجهين؛ لأن في الاستفهام ضربا من الجحد. وقيل: ليس ثم قول وإنما هو على طريق المثل؛ أي إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطني مهلا رويدا قد ملأتَ بطني

وهذا تفسير مجاهد وغيره. أي هل فيّ من مسلك قد امتلأت. وقيل: ينطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح. وهذا أصح على ما بيناه في سورة "الفرقان" وفي صحيح مسلم والبخاري والترمذي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط به بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة)[2] لفظ مسلم. وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: (وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رجله ويقول لها قط قط فهنالك تمتلئ وينزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا)[3]. قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا فهْم قوم يقدمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيت رجْلا من الناس ورجْلا من جراد، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رجْلٌ من الناس وانزوى إليهم من الحيِّ اليمانين أرْجُلُ
قبائل من لخم وعكل وحمير على ابني نزار بالعداوة أحفل

ويبين هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنه قال: ما في النار بيت ولا سلسلة ولا مقمع ولا تابوت إلا وعليه اسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف اسمه وصفته، فإذا استوفى كل واحد منهم ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة: قط قط حسبنا حسبنا! أي اكتفينا اكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر. فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقدم؛ ويشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث: (ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة) وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من

---

(١) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين.
(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨) واللفظ له.
(٣) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦).

الكتاب الأسنى والحمد لله. وقال النضر بن شميل في معنى قولـه ﷺ : (حتى يضع الجبار فيها قدمه) أي من سبق في علمه أنه من أهل النار.

قولـه تعالى: ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ أي قربت منهم. وقيل: هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لـهم اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول قربت لـهم مواضعهم فيها فلا تبعد. "غير بعيد" أي منهم وهذا تأكيد. "هذا ما توعدون" أي ويقال لـهم هذا الجزاء الذي وعدتم في الدنيا على ألسنة الرسل. وقراءة العامة "توعدون" بالتاء على الخطاب. وقرأ ابن كثير بالياء على الخبر؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين. "لكل أواب حفيظ" أواب أي رجاع إلى الله عن المعاصي، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع، هكذا قالـه الضحاك وغيره. وقال ابن عباس وعطاء: الأواب المسبح من قولـه: ﴿ يا جبال أوبي معه ﴾ (سبأ: ١٠). وقال الحكم بن عتيبة: هو الذاكر لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبي ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها. وهو قول ابن مسعود. وقال عبيد بن عمير: هو الذي لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه. وعنه قال: كنا نحدث أن الأواب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبت في مجلسي هذا. وفي الحديث: (من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إلـه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله لـه ما كان في ذلك المجلس)[(١)]. وهكذا كان النبي ﷺ يقول. وقال بعض العلماء: أنا أحب أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحب أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان واتباع الحديث أولى. وقال أبو بكر الوراق: هو المتوكل على الله في السراء والضراء. وقال القاسم: هو الذي لا يشتغل إلا بالله عز وجل. "حفيظ" قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها. وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته وأتمنه عليه. وعن ابن عباس أيضا: هو الحافظ لأمر الله. مجاهد: هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر. قال الضحاك: هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول. وروى مكحول عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : (من حافظ على أربع ركعات من أول النهار كان أوابا حفيظا)[(٢)] ذكره الماوردي.

قولـه تعالى: ﴿ من خشي الرحمن بالغيب ﴾ "من" في محل خفض على البدل من قولـه: "لكل أواب حفيظ" أو في موضع الصفة لـ "أواب". ويجوز الرفع على الاستئناف، والخبر "ادخلوها" على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لـهم: "ادخلوها". والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب. "وجاء بقلب منيب" مقبل على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الوراق: علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته وواليا لـه، متواضعا لجلالـه تاركا لـهوى نفسه. قلت: ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم؛ كما قال تعالى: ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (الشعراء: ٨٩) على ما تقدم؛ والله أعلم. "ادخلوها" أي يقال لأهل هذه الصفات: "ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود" أي

---

(١) "صحيح" بنحوه في صحيح الجامع (٦١٩٢).
(٢) ضعيف.

بسلامة من العذاب. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم. وقال: "ادخلوها" وفي أول الكلام "من خشي"؛ لأن "من" تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ يعني ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم. "ولدينا مزيد" من النعم مما لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف. وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعة إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس: ٢٦) قال: الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم. وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام، قالا: أخبرنا المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض فيكونون منه في القرب. قال ابن المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: لمسارعتهم إلى الجمع في الدنيا، وزاد (فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك). قال يحيى: وسمعت غير المسعودي يزيد فيه قوله تعالى: "ولدينا مزيد".

قلت: قوله (في كثيب) يريد أهل الجنة، أي وهم على كثب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كثيب من كافور)[(١)] الحديث وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة". وقيل: إن المزيد ما يزوجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدري مرفوعا[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشد منهم بطشا وقوة. "فنقبوا في البلاد" أي ساروا فيها طلبا للمهرب. وقيل: أثروا في البلاد؛ قاله ابن عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل: دوروا. وقال قتادة: طوفوا. وقال المؤرج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس:

وقد نقبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلبا للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصا؟ وقيل: طوفوا في البلاد يلتمسون محيصا من الموت. قال الحرث بن حلزة:

نقبوا في البلاد من حذر المو ت وجالوا في الأرض كل مجال

وقرأ الحسن وأبو العالية "فنقبوا" بفتح القاف وتخفيفها. والنقب هو الخرق والدخول في الشيء. وقيل: النقب الطريق في الجبل، وكذلك المنقب والمنقبة؛ عن ابن السكيت. ونقب الجدار نقباً، واسم

---

(١) ضعيف لإرساله.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥)، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٢٧) إلى أحمد وأبي يعلى وابن جرير، وحسن إسناده.

تلك النقبة نقب أيضا، وجمع النقب النقوب؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها. وقيل: أثروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب. وقرأ السلمي ويحيى بن يعمر "فنقبوا" بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طوفوا البلاد وسيروا فيها فانظروا "هل من" الموت "محيص" ومهرب؟ ذكره الثعلبي. وحكى القشيري "فنقبوا" بكسر القاف مع التخفيف؛ أي أكثروا السير فيها حتى نقبت دوابهم. الجوهري: ونقب البعير بالكسر إذا رقت أخفافه، وأنقب الرجل، إذا نقب بعيره، ونقب الخف الملبوس أي تخرق. والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حيصا وحيوصا ومحيصا ومحاصا وحيصانا؛ أي عدل وحاد. يقال: ما عنه محيص أي محيد ومهرب. والانحياص مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدو وللأعداء انهزموا. قوله تعالى: "إن في ذلك لذكرى" أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة "لمن كان له قلب" أي عقل يتدبر به؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه؛ قال معناه مجاهد وغيره. وقيل: لمن كان له حياة ونفس مميزة، فعبر عن النفس الحية بالقلب؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها؛ كما قال امرؤ القيس:

أغرك مني أن حبك قاتلي   وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وفي التنزيل: ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ (يس: ٧٠). وقال يحيى بن معاذ: القلب قلبان؛ قلب محتش بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة. "أو ألقى السمع" أي استمع القرآن. تقول العرب: ألق إلي سمعك أي استمع. وقد مضى في "طه" كيفية الاستماع وثمرته. "وهو شهيد" أي شاهد القلب؛ قال الزجاج: أي قلبه حاضر فيما يسمع. وقال سفيان: أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب. ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنها في أهل القرآن خاصة.

قوله تعالى: ﴿ ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ تقدم في "الأعراف" وغيرها. واللغوب التعب والإعياء، تقول منه: لغب يلغب بالضم لغوبا، ولغب بالكسر يلغب لغوبا لغة ضعيفة فيه. وألغبته أنا أي أنصبته. قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك:

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ خطاب للنبي ﷺ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أي هون أمرهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال فهي منسوخة. وقيل: هو ثابت للنبي ﷺ وأمته. وقيل معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إن الله استراح يوم السبت.

الثانية: قوله تعالى: "وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب" قيل: إنه أراد به الصلوات الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا؛ قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة

قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) ـ يعني العصر والفجر ثم قرأ جرير ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (طه: ١٣٠) متفق عليه واللفظ لمسلم(١). وقال ابن عباس: "قبل الغروب" الظهر والعصر. "ومن الليل فسبحه" يعني صلاة العشاءين: وقيل: المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخراساني وأبو الأحوص. وقال بعض العلماء في قوله: "قبل طلوع الشمس" قال ركعتي الفجر "وقبل الغروب" الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثمامة بن عبد الله بن أنس: كان ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ يصلون الركعتين قبل المغرب. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة فإذا أذن المؤذن لصلاة المغرب ابتدروا السواري فركعوا ركعتين، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صليت من كثرة من يصليهما. وقال قتادة: ما أدركت أحدا يصلي الركعتين إلا أنسا وأبا برزة الأسلمي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كله، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخرة، قاله ابن زيد. قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح في الليل فيعضده الصحيح (من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)(٢). وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله، ومنه سبحة الضحى. وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه.

الرابعة: "وأدبار السجود" قال عمر وعلي وأبو هريرة والحسن بن علي والحسن البصري والنخعي والشعبي والأوزاعي والزهري: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفي عن ابن عباس، وقد رفعه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ركعتان بعد المغرب أدبار السجود)(٣) ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بت ليلة عند النبي ﷺ فصلى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: (يا ابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود)(٤) وقال أنس: قال النبي ﷺ (من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين)(٥). قال أنس فقرأ في الركعة الأولى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ (الكافرون: ١) وفي الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ (الإخلاص: ١) قال مقاتل: ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن ابن عباس أيضا: هو الوتر. قال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة، قال النحاس: والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى اتباع الأكثر وهو صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال أبو الأحوص: هو التسبيح في أدبار السجود. قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أن النبي ﷺ كان يقول في دبر الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٥٨)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٦٣٣) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري وغيره من حديث عبادة.
(٣) ضعيف.
(٤) ضعيف.
(٥) ضعيف.

المكتوبة (لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه لـه الملك ولـه الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1] وقيل: إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات، نقل ذلك الجماعة.

الخامسة: قرأ نافع وابن كثير وحمزة "وإدبار السجود" بكسر الـهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدبارا إذا ولى. الباقون بفتحها جمع دبر. وهي قراءة علي وابن عباس، ومثالـها طنب وأطناب، أو دبر كقفل وأقفال. وقد استعملوه ظرفا نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في آخر "والطور". ﴿وإدبار النجوم﴾ (الطور: ٤٩) أنه بالكسر مصدر، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشق من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي استمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل. الزمخشري: وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هلموا إلى الحساب فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم. وقيل: المكان القريب صخرة بيت المقدس. ويقال: إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلا. وقال كعب: بثمانية عشر ميلا، ذكر الأول القشيري والزمخشري، والثاني الماوردي. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادي بالحشر: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، ويا عظاما نخرة، ويا أكفانا فانية، ويا قلوبا خاوية، ويا أبدانا فاسدة، ويا عيونا سائلة، قوموا لعرض رب العالمين. قال قتادة: هو إسرافيل صاحب الصور. "يوم يسمعون الصيحة بالحق" يعني صيحة البعث. ومعنى "الخروج" الاجتماع إلى الحساب. "ذلك يوم الخروج" أي يوم الخروج من القبور. "إنا نحن نحيي ونميت" نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة "يوم تشقق الأرض عنهم سراعا" إلى المنادي صاحب الصور إلى بيت المقدس. "ذلك حشر علينا يسير" أي هين سهل. وقرأ الكوفيون "تشقق" بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء "المنادي" في الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذف الباقون في الحالين.

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

قلت: وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذي عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ في حديث ذكره؛ قال وأشار بيده إلى الشام فقال: (من ها هنا إلى ها هنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه)[1] في رواية أخرى (فخذه وكفه) وخرج علي بن معبد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث ذكره: ثم يقول - يعني الله تعالى - لإسرافيل: (انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثم تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السم في اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية)[2] وذكر الحديث، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره في "التذكرة" مستوفى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ أي من تكذيبك وشتمك. "وما أنت عليهم بجبار" أي بمسلط تجبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال. والجبار من الجبرية والتسلط إذ لا يقال جبار بمعنى مجبر، كما لا يقال خراج بمعنى مخرج؛ حكاه القشيري. النحاس: وقيل معنى جبار لست تجبرهم، وهو خطأ لأنه لا يكون فعال من أفعل. وحكى الثعلبي: وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعال بمعنى مفعل وهي شاذة، جبار بمعنى مجبر، ودراك بمعنى مدرك، وسراع بمعنى مسرع، وبكاء بمعنى مبك، وعداء بمعنى معد. وقد قرئ ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (غافر: ٢٩) بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى. وقيل: هو الله. وكذلك قرئ ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ (الكهف: ٧٩) يعني ممسكين. وقال أبو حامد الخارزنجي: تقول العرب: سيف سقاط بمعنى مسقط. وقيل: "بجبار" بمسيطر كما في الغاشية ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾ (الغاشية: ٢١). وقال الفراء: سمعت من العرب من يقول جبره على الأمر أي قهره، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. قيل: الجبار من قولهم جبرته على الأمر أي أجبرته وهي لغة كنانية وهما لغتان. الجوهري: وأجبرته على الأمر أكرهته عليه، وأجبرته أيضا نسبته إلى الجبر، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر. "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" قال ابن عباس: قالوا يا رسول الله لو خوفتنا فنزلت: "فذكر بالقرآن من يخاف وعيد" أي ما أعددته لمن عصاني من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر:

وإنـــي وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وكان قتادة يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك. وأثبت الياء في "وعيدي" يعقوب في الحالين، وأثبتها ورش في الوصل دون الوقف، وحذف الباقون في الحالين. والله أعلم. تم تفسير سورة "ق" والحمد لله.

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما بسند ضعيف.

(٢) ضعيف كسابقه.

سورة الذاريات

قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) ﴾

قوله تعالى: ﴿ والذاريات ذروا ﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يعقوب ابن إبراهيم، حدثنا مكي بن إبراهيم، حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر ﷺ: إني مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر: اللهم أمكني منه؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثياباً وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين ما "الذاريات ذروا" فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحملوه على قتب وأبلغوا به حيه، ثم ليقم خطيبا فليقل: إن صبيغا طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعا في قومه بعد أن كان سيدا فيهم. وعن عامر بن واثلة أن ابن الكواء سأل عليا رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين ما "الذاريات ذروا" قال: يلك سل تفقها ولا تسأل تعنتا "والذاريات ذروا" الرياح "فالحاملات وقرا" السحاب "فالجاريات يسرا" السفن "فالمقسمات أمرا" الملائكة. وروى الحرث عن علي رضي الله عنه "والذاريات ذروا" قال: الرياح "فالحاملات وقرا" قال: السحاب تحمل الماء كما تحمل ذوات الأربع الوقر "فالجاريات يسرا" قال: السفن موقرة "فالمقسمات أمرا" قال: الملائكة تأتي بأمر مختلف؛ جبريل بالغلظة، وميكائيل صاحب الرحمة، وملك الموت يأتي بالموت. وقال الفراء: وقيل تأتي بأمر مختلف من الخصب والجدب والمطر والموت والحوادث. ويقال: ذرت الريح التراب تذروه ذروا وتذريه ذريا. ثم قيل: "والذاريات" وما بعده إقسام، وإذا أقسم الرب بشيء أثبت له شرفا. وقيل: المعنى ورب الذاريات، والجواب "إنما توعدون" أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب "لصادق" لا كذب فيه؛ ومعنى "لصادق" لصدق؛ وقع الاسم موقع المصدر. "وإن الدين لواقع" يعني الجزاء نازل بكم. ثم ابتدأ قسما آخر فقال: ﴿ والسماء ذات الحبك. إنكم لفي قول مختلف ﴾ (الذاريات: ٧) وقيل: إن الذاريات النساء الولودات لأن في ذرايتهن ذرو الخلق؛ لأنهن يذرين الأولاد فصرن ذاريات؛ وأقسم بهن لما في ترائبهن من خيرة عباده الصالحين. وخصى النساء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين: أحدهما لأنهن أوعية دون الرجال، فلاجتماع الذروين فيهن خصصن بالذكر. الثاني: أن الذرو فيهن أطول زمانا، وهن بالمباشرة أقرب عهدا. "فالحاملات وقرا" السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمل. والوقر بكسر الواو ثقل الحمل على ظهر أو في بطن، يقال: جاء يحمل وقره وقد أوقر بعيره. وأكثر ما يستعمل الوقر في حمل البغل والحمار، والوسق في حمل البعير. وهذه امرأة موقرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا. وأوقرت النخلة كثر حملها؛ يقال: نخلة موقر وموقرة، وحكي موقر وهو على غير القياس، لأن الفعل للنخلة. وإنما قيل: موقر بكسر القاف على قياس قولك امرأة حامل، لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء؛ فأما موقر بالفتح فشاذ، وقد روي في قول لبيد يصف نخيلا:

عصب كوارع في خليج محلم حملـــت فمنها موقر مكموم

والجمع مواقر. فأما الوقر بالفتح فهو ثقل الأذن، وقد وقرت أذنه توقر وقرا أي صمت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدم في "الأنعام" القول فيه. "فالجاريات يسرا" السفن تجري بالرياح يسرا إلى حيث سيرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يسرا على هذا القول وجهان: أحدهما: إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع. الثاني: هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب، كما قال الأعشى:

كأن مشـيتها مـن بيـت جـارتها مشي السحابة لا ريث ولا عجل

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ قيل: المراد بالسماء ها هنا السحب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ابن عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدوي والثعلبي والماوردي وغيرهم. وفي "الحبك" أقوال سبعة: الأول: قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع: ذات الخلق الحسن المستوي. وقاله عكرمة؛ قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه؛ يقال منه حبك الثوب يحبكه بالكسر حبكا أي أجاد نسجه. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته. والثاني: ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير، وعن الحسن أيضا: ذات النجوم وهو الثالث. الرابع: قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حبك. ونحوه قول الفراء؛ قال: الحبك تكسر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لـها حبك، والشعرة الجعدة تكسرها حبك. وفي حديث الدجال: أن شعره حبك[(١)] قال زهير:

مكلل بأصول النجم تنســـجه ريح خريق لضاحي مائه حبك

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها. الخامس: ذات الشدة، قاله ابن زيد، وقرأ ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾ (النبأ: ١٢). والمحبوك الشديد الخلق من الفرس وغيره، قال امرؤ القيس:

قـد غـدا يحملني فـي أنفه لاحقُ الإطلين محبوك ممر

وقال آخر:

مـرج الديـن فأعـددت لــه مشرف الحارك محبوك الكَتَد

وفي الحديث: أن عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدرع في الصلاة؛ أي تشد الإزار وتحكمه. السادس: ذات الصفاقة؛ قالـه خصيف، ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بين الصفاقة.

---

(١) أخرجه أحمد في "المسند"، (٤/ ٢٠).

السابع: أن المراد بالطرق المجرة التي في السماء؛ سميت بذلك لأنها كأثر المجر. و"الحبك" جمع حباك، قال الراجز:

كأنما جللها الحُـــوَّاك طنفسة في وشيها حباك

والحباك والحبيكة الطريقة في الرمل ونحوه. وجمع الحباك حبك وجمع الحبيكَة حبائك، والحبكة مثل العبكة وهي الحبة من السويق، عن الجوهري. وروي عن الحسن في قولـه: "ذات الْحُبُك" "الْحُبْك" و"الحِبك" و"الحِبْك" والحبَك والحبُك وقرأ أيضا "الْحُبُك" كالجماعة. وروي عن عكرَمة وأبي مجلَز "الحُبُكَ". و"الحُبُكَ" واحدَتها حبيكة؛ "والْحُبْكُ" مخفف منه. و"الحبَك "واحدتها حبُكة. ومن قرأ "الحُبَك" فالواحدة حُبُكَة كبُرقة وبرَق أوحُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قَرأَ "الحبك" فهَو كإبل وإطل و"الحبْك" مخففة منه. ومن قرأ "الحبُك" فهو شاذ إذ ليس في كلام العرب فَعُلٌ، وهو محمَول على تداخلَ اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسرَ الباء ثم تصور "الحُبُك" فضم الباء. وقاَل جميعه المهدوي.

قولـه تعالى: ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ هذا جواب القسم الذي هو "والسماء" أي إنكم يا أهل مكة "في قول مختلف" في محمد والقرآن فمن مصدق ومكذب. وقيل: نزلت في المقتسمين. وقيل: اختلافهم قولـهم ساحر بل شاعر بل افتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأولين. وقيل: اختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه. وقيل: المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره. قولـه تعالى: "يؤفك عنه من أفك" أي يصرف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صرف؛ عن الحسن وغيره. وقيل: المعنى يصرف عن الإيمان من أراده بقولـهم هو سحر وكهانة وأساطير الأولين. وقيل: المعنى يصرف عن ذلك الاختلاف من عصمه الله. أفكه يأفكه أفكا أي قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ أجئتنا لتأفكنا ﴾ (الأحقاف: ٢٢). وقال مجاهد: معنى "يؤفك عنه من أفك" يؤفن عنه من أفن، والأفن فساد العقل. الزمخشري: وقرئ "يؤفن عنه من أفن" أي يحرمه من حرم؛ من أفن الضرع إذا أنهكه حلبا. وقال قطرب: يخدع عنه من خدع. وقال اليزيدي: يدفع عنه من دفع. والمعنى واحد وكلـه راجع إلى معنى الصرف.

قولـه تعالى: ﴿ قتل الخراصون ﴾ في التفسير: لعن الكذابون. وقال ابن عباس: أي قتل المرتابون؛ يعني الكهنة. وقال الحسن: هم الذين يقولون لسنا نبعث. ومعنى "قتل" أي هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين. وقال الفراء: معنى "قتل" لعن؛ قال: و"الخراصون "الكذابون الذين يتخرصون بما لا يعلمون؛ فيقولون: إن محمدا مجنون كذاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الـهالك. قال ابن الأنباري: علمنا الدعاء عليهم؛ أي قولوا: "قتل الخراصون" وهو جمع خارص والخرص الكذب والخراص الكذاب، وقد خرص يخرص بالضم خرصا أي كذب؛ يقال: خرص واخترص، وخلق واختلق، وبشك وابتشك، وسرج واسترج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحاس. والخرص أيضا حزر ما على النخل من الرطب تمرا. وقد خرصت النخل والاسم الخرص بالكسر؛ يقال: كم خرص نخلك والخراص الذي يخرصها فهو مشترك. وأصل الخرص القطع على ما تقدم بيانه في "الأنعام" ومنه الخريص للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخرص حبة القرط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخرص العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخرص الذي به جوع وبرد لأنه ينقطع به،

يقال: خرص الرجل بالكسر فهو خرص، أي جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد خرص. ويقال للبرد بلا جوع خرص. والخرص بالضم والكسر الحلقة من الذهب أو الفضة والجمع الخرصان. ويدخل في الخرص قول المنجمين وكل من يدعي الحدس والتخمين. وقال ابن عباس: هم المقتسمون الذين اقتسموا أعقاب مكة، واقتسموا القول في نبي الله ﷺ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمان به. قوله تعالى: "الذين هم في غمرة ساهون" الغمرة ما ستر الشيء وغطاه. ومنه نهر غمر أي يغمر من دخله، ومنه غمرات الموت. "ساهون" أي لاهون غافلون عن أمر الآخرة. قوله تعالى: "يسألون أيان يوم الدين" أي متى يوم الحساب؛ يقولون ذلك استهزاء وشكا في القيامة.

قوله تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ نصب "يوم" على تقدير الجزاء أي هذا الجزاء "يوم هم على النار يفتنون" أي يحرقون، وهو من قولهم: فتنت الذهب أي أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبني بني لإضافته إلى غير متمكن، وموضعه نصب على التقدير المتقدم، أو رفع على البدل من "يوم الدين". وقال الزجاج: يقول يعجبني يوم أنت قائم ويوم أنت تقوم، وإن شئت فتحت وهو في موضع رفع، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع. وقال ابن عباس: "يفتنون" يعذبون. ومنه قول الشاعر:

كل امرئ من عباد الله مضطهد ببطن مكة مقهور ومفتون

قوله تعالى: "ذوقوا فتنتكم" أي يقال لهم ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقكم. ابن عباس: أي تكذيبكم يعني جزاءكم. الفراء: أي عذابكم "هذا الذي كنتم به تستعجلون" في الدنيا. وقال: "هذا" ولم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به. "آخذين" نصب على الحال ما آتاهم ربهم" أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات؛ قاله الضحاك. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: "آخذين ما آتاهم ربهم" أي عاملين بالفرائض. "إنهم كانوا قبل ذلك" أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا "محسنين" بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كانوا قليلا من الليل ما يهجعون﴾ معنى "يهجعون" ينامون؛ والهجوع النوم ليلا، والتهجاع النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأسلت:

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوما غير تهجاع

وقال عمرو بن معد يكرب يتشوق أخته وكان أسرها الصمة أبو دريد بن الصمة:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرقني وأصحابي هجوع

يقال: هجع يهجع هجوعا، وهبغ يهبغ هبوغا بالغين المعجمة إذا نام؛ قاله الجوهري. واختلف في "ما" فقيل: صلة زائدة ـ قاله إبراهيم النخعي ـ والتقدير كانوا قليلا من الليل يهجعون؛ أي ينامون قليلا من الليل ويصلون أكثره. قال عطاء: وهذا لما أمروا بقيام الليل. وكان أبو ذر يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصة ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ (المزمل: ٢) الآية. وقيل: ليس "ما" صلة بل الوقف عند قوله: "قليلا" ثم يبتدئ "من الليل ما يهجعون" فـ "ما" للنفي وهو نفى النوم عنهم البتة. قال الحسن: كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نشطوا فجدوا إلى السحر. روي عن يعقوب الحضرمي أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية فقال بعضهم: "كانوا قليلا" معناه كان عددهم يسيرا ثم ابتدأ فقال: "من الليل ما يهجعون" على معنى من الليل يهجعون؛ قال ابن الأنباري: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم، وبعد فلو ابتدأنا "من الليل ما يهجعون" على معنى من الليل يهجعون لم يكن في هذا مدح لهم؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون "ما" جحدا.

قلت: وعلى ما تأوله بعض الناس ـ وهو قول الضحاك ـ من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله: "إنهم كانوا قبل ذلك محسنين" أي كان المحسنون قليلا، ثم استأنف فقال: "من الليل ما يهجعون" وعلى التأويل الأول والثاني يكون "كانوا قليلا من الليل" خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدمه ويكون الوقف على "ما يهجعون"، وكذلك إن جعلت "قليلا" خبر كان وترفع "ما" بقليل؛ كأنه قال: كانوا قليلا من الليل هجوعهم. فـ "ما" يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا، ويجوز أن تكون رفعا على البدل من اسم كان، التقدير كان هجوعهم قليلا من الليل، وانتصاب قوله: "قليلا" إن قدرت "ما" زائدة مؤكدة بـ "يهجعون" على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوعا قليلا يهجعون، وإن لم تقدر "ما" زائدة كان قوله: "قليلا" خبر كان ولم يجز نصبه بـ "يهجعون"؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ "يهجعون" مع تقدير "ما" مصدرا قدمت الصلة على الموصول.

وقال أنس وقتادة في تأويل الآية: أي كانوا يصلون بين العشاءين: المغرب والعشاء. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين. وقاله ابن وهب. وقال مجاهد: نزلت في الأنصار كانوا يصلون العشاءين في مسجد النبي ﷺ ثم يمضون إلى قباء. وقال محمد بن علي بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة. قال الحسن: كأنه عد هجوعهم قليلا في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومطرف: قل ليلة لا تأتي عليهم إلا يصلون لله فيها إما من أولها وإما من وسطها.

الثانية: روي عن بعض المتهجدين أنه أتاه آت في منامه فأنشده:

وكيف تنام الليل عين قريرة ولم تدر في أي المجالس تنزل

وروي عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حلل، فوقفا على كل مصل وكسواه حلة، ثم انتهيا إلى النيام فلم يكسواهم، فقلت لهما: اكسواني من حللكما هذه؛ فقالا لي: إنها ليست حلة لباس إنما هي رضوان الله يحل على كل مصل. ويروى عن أبي خلاد أنه قال: حدثني صاحب لي قال: فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مثلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوههم، وأشرقت ألوانهم، وعليهم الحلل من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناس عراة، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلون بين الأذان والإقامة، والذين وجوههم مشرقة

فأصحاب السهر والتهجد، قال: ورأيت أقواما على نجائب، فقلت: ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقربا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب؛ قال: فصحت في منامي: واها للعابدين، ما أشرف مقامهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ مدح ثان؛ أي يستغفرون من ذنوبهم، قالـه الحسن. والسحر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء. وقد مضى في "آل عمران" القول فيه. وقال ابن عمر ومجاهد: أي يصلون وقت السحر فسموا الصلاة استغفارا. وقال الحسن في قولـه تعالى: "كانوا قليلا من الليل ما يهجعون" مدوا الصلاة من أول الليل إلى السحر ثم استغفروا في السحر. ابن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قباء فيصلون في مسجد النبي ﷺ. ابن وهب عن ابن لـهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قالوا: كانوا ينضحون لناس من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلا، ثم يصلون آخر الليل. الضحاك: صلاة الفجر. قال الأحنف بن قيس: عرضت عملي على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا لا نبلغ أعمالـهم "كانوا قليلا من الليل ما يهجعون" وعرضت عملي على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذبون بكتاب الله وبرسولـه وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ وفي أموالـهم حق للسائل والمحروم ﴾ مدح ثالث. قال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا الزكاة المفروضة. وقيل: إنه حق سوى الزكاة يصل به رحما، أو يقري به ضيفا، أو يحمل به كلا، أو يغني به محروما. وقالـه ابن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة. ابن العربي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقولـه تعالى في سورة "المعارج": ﴿ والذين في أموالـهم حق معلوم. للسائل والمحروم ﴾ (المعارج: ٢٥) والحق المعلوم هو الزكاة التي بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدر ولا مجنس ولا موقت.

الخامسة: قولـه تعالى: "للسائل والمحروم" السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قالـه ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما. "والمحروم" الذي حرم المال. واختلف في تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهما: المحروم المحارف الذي ليس لـه في الإسلام سهم. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المحارف الذي لا يتيسر لـه مكسبه؛ يقال: رجل محارف بفتح الراء أي محدود محروم، وهو خلاف قولك مبارك. وقد حورف كسب فلان إذا شدد عليه في معاشه كأنه ميل برزقه عنه. وقال قتادة والزهري: المحروم المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئا ولا يعلم بحاجته. وقال الحسن ومحمد بن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس لـه فيها سهم. روي أن النبي ﷺ بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعدما فرغوا فنزلت هذه الآية "وفي أموالـهم". وقال عكرمة: المحروم الذي لا يبقى لـه مال. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القرظي: المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ ﴿ إنا لمغرمون. بل نحن محرومون ﴾ (الواقعة: ٦٦-٦٧) نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا: ﴿ بل نحن محرومون ﴾ (القلم: ٢٧) وقال أبو قلابة: كان رجل من أهل اليمامة لـه مال فجاء سيل فذهب بمالـه، فقال رجل من أصحابه: هذا المحروم فاقسموا لـه. وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتدبر عنه. وهو يروى عن ابن عباس أيضا. وقال عبد الرحمن بن حميد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتف شاة فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت

نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حرم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره. وروى ابن وهب عن مالك: أنه الذي يحرم الرزق، وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال. وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي. وأصلـه في اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه أنى توجه والمحروم محروم

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: (ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضت لنا عليهم فيقول الله تعالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنهم) ثم تلا رسول الله ﷺ "وفي أموالـهم حق للسائل والمحروم" [١] ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ لما ذكر أمر الفريقين بين أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما، ومنها أنه قدر الأقوات فيها قواما للحيوانات، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الـهلاك النازل بالأمم المكذبة. والموقنون هم العارفون المحققون وحدانية ربهم، وصدق نبوة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها.

قولـه تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" قيل: التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين. وقال قتادة: المعنى من سار في الأرض رأى آيات وعبرا، ومن تفكر في نفسه علم أنه خلق ليعبد الله. ابن الزبير ومجاهد: المراد سبيل الخلاء والبول. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط؛ فتلك الآية في النفس. وقال ابن زيد: المعنى أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (الروم: ٢٠). السدي: "وفي أنفسكم" أي في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: وفي الـهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشيب بعد السواد. وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتيها لما خلقت لـه، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (المؤمنون: ١٤). "أفلا تبصرون" يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته. وقيل: إنه نجح العاجز، وحرمان الحازم.

---

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط، وفيه الحارث بن النعمان وهو ضعيف. كذا في المجمع (٣/ ٦٢).

قلت: كل ما ذكر مراد في الاعتبار. وقد قدمنا في آية التوحيد من سورة "البقرة" أن ما في بدن الإنسان الذي هو العالم الصغير شيء إلا وله نظير في العالم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويغني لمن تدبر.

قوله تعالى: ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك: الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق. قال سعيد بن جبير: كل عين قائمة فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم. وقال أهل المعاني: "وفي السماء رزقكم" معناه وفي المطر رزقكم؛ سمي المطر سماء لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وقال ابن كيسان: يعني وعلى رب السماء رزقكم؛ نظيره: ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ (هود: ٦). وقال سفيان الثوري: "وفي السماء رزقكم" أي عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى وفي السماء تقدير رزقكم، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب. وعن سفيان قال: قرأ واصل الأحدب "وفي السماء رزقكم" فقال: ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو في الثالثة بدوخلة رطب، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الله بالموت بينهما. وقرأ ابن محيصن ومجاهد "وفي السماء رازقكم" بالألف وكذلك في آخرها "إن الله هو الرازق. "وما توعدون" قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة. الضحاك: "وما توعدون" من الجنة والنار. وقال ابن سيرين: "وما توعدون" من أمر الساعة. وقاله الربيع.

قوله تعالى: ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه بأنه لحق ثم أكده بقوله: "مثل ما أنكم تنطقون" وخص النطق من بين سائر الحواس؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه، كالذي يرى في المرآة، واستحالة الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدويّ والطنين في الأذن، والنطق سالم من ذلك، ولا يعترض بالصدى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مشوب بما يشكل به. وقال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره. وقال الحسن: بلغني أن نبي الله ﷺ قال: (قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدقوه) قال الله تعالى: "فورب السماء والأرض إنه لحق" [1]. وقال الأصمعي: أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي جلف جاف على قعود له متقلدا سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلم وقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصمع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن؛ قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٣٨) وعزاه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهو ضعيف.

قال: فاتل علي منه شيئا؛ فقرأت "والذاريات ذروا" إلى قوله: "وفي السماء رزقكم" فقال: يا أصمعي حسبك! ! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعني على توزيعها؛ ففرقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرحل وولى نحو البادية وهو يقول: "وفي السماء رزقكم وما توعدون" فمقت نفسي ولمتها، ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي وهو ناحل مصفر، فسلم علي وأخذ بيدي وقال: اتل علي كلام الرحمن، وأجلسني من وراء المقام فقرأت "والذاريات" حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقا، وقال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: "فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون" قال: فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله! من الذي أغضب الجليل حتى حلف! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجئوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثا وخرجت بها نفسه. وقال يزيد بن مرثد: إن رجلا جاع بمكان ليس فيه شيء فقال: اللهم رزقك الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع وروي من غير طعام ولا شراب. وعن أبي سعيد الخدري قال: قال النبي ﷺ: (لو أن أحدكم فر من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت)[1] أسنده الثعلبي. وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا: دخلنا على النبي ﷺ وهو يعالج شيئا فأعناه عليه، فقال: (لا تيأسا من الرزق ما تهززت رؤوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشر ثم يرزقه الله)[2]. وروي أن قوما من الأعراب زرعوا زرعا فأصابته جائحة فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابية فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسكم، وضاقت صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرة في البحر راسية ... صما ململمة ملسا نواحيها
رزق لنفس براها الله لانفلقت ... حتى تؤدي إليها كل ما فيها
أو كان بين طباق السبع مسلكها ... لسهل الله في المرقى مراقيها
حتى تنال الذي في اللوح خط لها ... إن لم تنله وإلا سوف يأتيها

قلت: وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي ﷺ، فسمع قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ (هود: ٦) فرجع ولم يكلم النبي ﷺ وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب؛ وقد ذكرناه في سورة "هود". وقال لقمان: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة﴾ (لقمان: ١٦) الآية. وقد مضى في "لقمان" وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله. وهذا هو التوكل الحقيقي الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الرب؛ رزقنا الله إياه ولا أحالنا على أحد سواه بمنه وكرمه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، وابن عدي في "الكامل" وغيرهما، من طريق علي بن يزيد الصدائي، نا فضيل بن مرزوق عن العوفي عن أبي سعيد مرفوعاً. وسنده مسلسل بالضعفاء، العوفي فمن دونه، لكن أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، (٧/ ٩٠) وغيره بنحوه من حديث جابر بسند حسن ولفظه: "لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت". وهو في صحيح الجامع (٥٢٤٠)

(٢) "ضعيف"، انظر ضعيف سنن ابن ماجه (٩١٠).

قولـه تعالى: ﴿ مثل ما أنكم تنطقون ﴾ قراءة العامة "مثل" بالنصب أي كمثل "ما أنكم" فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أي كمثل نطقكم و"ما" زائدة؛ قالـه بعض الكوفيين. وقال الزجاج والفراء: يجوز أن ينتصب على التوكيد؛ أي لحق حقا مثل نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف وقول سيبويه: إنه مبني بني حين أضيف إلى غير متمكن و"ما" زائدة للتوكيد. المازني: "مثل" مع "ما" بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن من العرب من يجعل مثلا منصوبا أبدا؛ فتقول: قال لي رجل مثلك، ومررت برجل مثلك بنصب مثل على معنى كمثل. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش "مثل" بالرفع على أنه صفة لحق؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و"مثل" مضاف إلى "أنكم" و"ما" زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا. ويجوز أن تكون بدلا من "لحق".

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط. "هل أتاك" أي ألم يأتك. وقيل: "هل" بمعنى قد كقولـه تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ (الإنسان: ١). وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في "هود" "والحجر". "المكرمين" أي عند الله دليلـه قولـه تعالى: ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ (الأنبياء: ٢٦) قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ زاد عثمان بن حصين ـ ورفائيل عليهم الصلاة والسلام. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه تسعة. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر. قال ابن عباس: سماهم مكرمين لأنهم غير مذعورين. وقال مجاهد: سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه. قال عبد الوهاب: قال لي علي بن عياض: عندي هريسة ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسن رأيي فيها؛ قال: امض بنا؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب، فما راعني إلا به ومعه القمقمة والطست وعلى عاتقه المنديل، فقلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، لو علمت يا أبا الحسن أن الأمر هكذا؛ قال: هون عليك فإنك عندنا مكرم، والمكرم إنما يخدم بالنفس؛ انظر إلى قولـه تعالى: ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾.

قولـه تعالى: ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ﴾ تقدم في "الحجر". "قال سلام" أي عليكم سلام. ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردي لكم سلام. وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما "سلم" بكسر السين. "قوم منكرون" أي أنتم قوم منكرون؛ أي غرباء لا نعرفكم. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم، فقال: "قوم منكرون". وقيل:

أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نكـرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

قولـه تعالى: ﴿فراغ إلى أهلـه﴾ قال الزجاج: أي عدل إلى أهلـه. وقد مضى في "والصافات". ويقال: أراغ وارتاغ بمعنى طلب، وماذا تريغ أي تريد وتطلب، وأراغ إلى كذا أي مال إليه سرا وحاد، فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى. "فجاء بعجل سمين" أي جاء ضيفه بعجل قد شواه لـهم كما في "هود": ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيذ﴾ (هود: ٦٩). ويقال: إن إبراهيم انطلق إلى منزلـه كالمستخفي من ضيفه، لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لـهم من الطعام.

قولـه تعالى: "فقربه إليهم" يعني العجل. "قال ألا تأكلون" قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر، واختاره لـهم سمينا زيادة في إكرامهم. وقيل: العجل في بعض اللغات الشاة. ذكره القشيري. وفي الصحاح: العجل ولد البقرة والعجول مثلـه والجمع العجاجيل والأنثى عجلة، عن أبي الجراح، وبقرة معجل ذات عجل، وعجل قبيلة من ربيعة.

قولـه تعالى: ﴿فأوجس منهم خيفة﴾ أي أحس منهم في نفسه خوفا. وقيل: أضمر لما لم يتحرموا بطعامه. ومن أخلاق الناس: أن من تحرم بطعام إنسان أمنه. وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن. قال: كلوا وأدوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تسمون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لـهذا اتخذك الله خليلا. وقد تقدم هذا في "هود" ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف "قالوا لا تخف" وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسلـه. "وبشروه بغلام عليم" أي بولد يولد لـه من سارة زوجته. وقيل: لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدقهم، فدعوا الله فأحيا العجل الذي قربه إليهم. وروى عون بن أبي شداد: أن جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار. ومعنى "عليم" أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله وبدينه. والجمهور على أن المبشر به هو إسحاق. وقال مجاهـد وحـده: هو إسماعيل وليس بشيء فإن الله تعالى يقول: ﴿وبشرناه بإسحاق﴾ (الصافات: ١١٢). وهذا نص.

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿فأقبلت امرأته في صرة﴾ أي في صيحة وضجة؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرنة والتأوه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان. قال الفراء: وإنما هو كقولك أقبل يشتمني أي أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صرة أي في جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة. قال الجوهري: الصرة الضجة والصيحة، والصرة الجماعة، والصرة الشدة من كرب وغيره، قال امرؤ القيس:

فألحـقه بالهاديات ودونه جواحرها في صرة لم تزيل

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة. وصرة القيظ شدة حره. فلما سمعت سارة البشارة صكت وجهها؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النسوان عند التعجب؛ قالـه سفيان الثوري وغيره. وقال ابن عباس: صكت وجهها لطمته. وأصل الصك الضرب؛ صكه أي ضربه؛ قال الراجز:

يا كروانا صك فاكبأنّا

قال الأموي: كَبَن الظبي إذا لطأ بالأرض واكبأن انقبض. "وقالت عجوز عقيم" أي أتلد عجوز عقيم. الزجاج: أي قالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد كما قالت: ﴿ يا ويلتا أألد وأنا عجوز ﴾ (هود: ٧٢) "قالوا كذلك" أي كما قلنا لك وأخبرناك "قال ربك" فلا تشكي فيه، وكان بين البشارة والولادة سنة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهى بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة وقد مضى هذا. "إنه هو الحكيم العليم" حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه.

قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لـهم: "فما خطبكم" أي ما شأنكم وقصتكم "أيها المرسلون" "قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين" يريد قوم لوط. "لنرسل عليهم حجارة من طين" أي لنرجمهم بها. "مسومة" أي معلمة. قيل: كانت مخططة بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحمرة. وقيل: "مسومة" أي معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسم من يهلك به. وقيل: عليها أمثال الخواتيم. وقد مضى هذا كلـه في "هود". فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشذاذهم فلم يفلت منهم مخبر. "عند ربك" أي عند الله وقد أعدها لرجم من قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخ الآجر، قالـه ابن زيد؛ وهو معنى قولـه تعالى: ﴿ حجارة من سجيل ﴾ (الحجر: ٧٤) على ما تقدم بيانه في "هود". وقيل: هي الحجارة التي نراها وأصلـها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور. وإنما قال: "من طين" ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البرد. حكاه القشيري.

قولـه تعالى: ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قولـه تعالى: ﴿ فأسر بأهلك ﴾ (هود: ٨١). "فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين" يعني لوطا وبنتيه وفيه إضمار؛ أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت. وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل. وقولـه: "فيها" كناية عن القرية ولم يتقدم لـها ذكر؛ لأن المعنى مفهوم. وأيضا فقولـه تعالى: ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يدل على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة. والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواء فجنس اللفظ لئلا يتكرر،

كما قال: ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ (يوسف: ٨٦). وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا. فسماهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. وقد مضى الكلام في هذا المعنى في "البقرة" وغيرها. وقوله: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ﴾ (الحجرات: ١٤) يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم وغيره. وقد بيناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وتركنا فيها آية﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم؛ نظيره: ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ (العنكبوت: ٣٥). ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخربة. وقيل: الحجارة المنضودة التي رجموا بها هي الآية. "للذين يخافون" لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وفي موسى ﴾ أي وتركنا أيضا في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: "وفي الأرض آيات" "وفي موسى". "إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين" أي بحجة بينة وهي العصا. وقيل: أي بالمعجزات من العصا وغيرها. قوله تعالى: "فتولى بركنه" أي فرعون أعرض عن الإيمان "بركنه" أي بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قول مجاهد، ومنه قوله: ﴿ أو آوي إلى ركن شديد ﴾ (هود: ٨٠) يعني المنعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته. ومنه قول عنترة:

فما أوهى مراس الحرب ركني ولكن ما تقادم من زماني

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش: بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿ أعرض ونأى بجانبه ﴾ (فصلت: ٥١) وقاله المؤرج. الجوهري: وركن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء "وقال ساحر أو مجنون" "أو" بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعا. قاله المؤرج والفراء، وأنشد بيت جرير:

أثعلبة الفوارس أو رياحا عدلت بهم طهية والخشابا

وقد توضع "أو" بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿ ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾ (الإنسان: ٢٤) والواو بمعنى أو، كقوله تعالى: ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ (النساء: ٣) وقد تقدم جميع هذا. "فأخذناه وجنوده" لكفرهم وتوليهم عن الإيمان. "فنبذناهم" أي طرحناهم "في اليم وهو مليم" يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وفي عاد ﴾ أي وتركنا في عاد آية لمن تأمل. "إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم" وهي التي لا تلقح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة؛ ومنه امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد.

ثم قيل: هي الجنوب. روى ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبي ﷺ قال: (الريح العقيم الجنوب)[١] وقال مقاتل: هي الدبور كما في الصحيح عن النبي ﷺ (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[٢]. وقال ابن عباس: هي النكباء. وقال عبيد بن عمير: مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور. وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصبا؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أي كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد. ومنه قول الشاعر:

تركتني حين كف الدهر من بصري ... وإذ بقيت كعظم الرمة البالي

وقال قتادة: إنه الذي ديس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسدي: كالتراب المدقوق. قطرب: الرميم الرماد. وقال يمان: ما رمته الماشية من الكلأ بمرمتها. ويقال للشفة المرمة والمقمة بالكسر، والمرمة بالفتح لغة فيه. وأصل الكلمة من رم العظم إذا بلي؛ تقول منه: رم العظم يرم بالكسر رمة فهو رميم، قال الشاعر:

ورأى عواقب خلف ذاك مذمة ... تبقى عليه والعظام رميم

والرمة بالكسر العظام البالية والجمع رمم ورمام. ونظير هذه الآية: ﴿ تدمر كل شيء ﴾ (الأحقاف: ٢٥) حسب ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وفي ثمود ﴾ أي وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا "حتى حين" أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ (هود: ٦٥). وقيل: معنى "تمتعوا" أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم. "فعتوا عن أمر ربهم" أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة "فأخذتهم الصاعقة" أي الموت. وقيل: هي كل عذاب مهلك. قال الحسين بن واقد: كل صاعقة في القرآن فهو العذاب. وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن محيصن ومجاهد والكسائي "الصعقة" يقال صعق الرجل صعقة وتصعاقا أي غشي عليه. وصعقتهم السماء أي ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى في "البقرة" وغيرها. "وهم ينظرون" إليها نهارا. "فما استطاعوا من قيام" قيل: معناه من نهوض. وقيل: ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر أي لا أطيقه. وقال ابن عباس: أي ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. "وما كانوا منتصرين" أي ممتنعين من العذاب حين أهلكوا، أي ما كان لهم ناصر.

---

(١) ضعيف.
(٢) أخرجاه في الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿وقوم نوح من قبل ﴾قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو "وقوم نوح" بالخفض؛ أي وفي قوم نوح آية أيضا. الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفا على الـهاء والميم في "أخذتهم" أو الـهاء في "أخذناه" أي فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو ﴿فنبذناهم في اليم ﴾(الذاريات: ٤٠) ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى اذكر.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد ﴾لما بيّن هذه الآيات قال: وفي السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان. ومعنى "بأيد" أي بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره. "وإنا لموسعون" قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي وإنا لذو سعة، وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده. وقيل: أي وإنا لموسعون الرزق على خلقنا. عن ابن عباس أيضا. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضا: وإنا لموسعون الرزق بالمطر. وقال الضحاك: أغنيناكم؛ دليلـه: ﴿على الموسع قدره ﴾(البقرة: ٢٣٦). وقال القتبي: ذو سعه على خلقنا. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينهما وبين الأرض سعة. الجوهري: وأوسع الرجل أي صار ذا سعة وغنى، ومنه قولـه تعالى: ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾أي أغنياء قادرون. فشمل جميع الأقوال. "والأرض فرشناها" أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها. "فنعم الماهدون" أي فنعم الماهدون نحن لـهم. والمعنى في الجمع التعظيم؛ مهدت الفراش مهدا بسطته ووطأته، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها. قولـه تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" أي صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك. مجاهد: يعني الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجن والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشي، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأراييح والأصوات. أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة. وقيل: "ومن كل شيء خلقنا زوجين" لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عز وجل وتر ﴿ليس كمثلـه شيء ﴾(الشورى: ١١). "لعلكم تذكرون".

قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا

قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾ لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لـهم يا محمد؛ أي قل لقومك: "ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين" أي فروا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان: "ففروا إلى الله" اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين بن الفضل: احترزوا من كل شيء دون الله فمن فر إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الوراق: فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجنيد: الشيطان داع إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففروا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن عثمان: فروا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فروا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. "إني لكم منه نذير مبين" أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية.

قولـه تعالى: ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلـها آخر﴾ أمر محمداً ﷺ أن يقول هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطاب من الله للخلق. "إني لكم منه" أي من محمد وسيوفه "نذير مبين" أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي؛ قالـه ابن عباس.

قولـه تعالى: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلـهم من رسول﴾ هذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كذب من قبلـهم وقالوا مثل قولـهم. والكاف من "كذلك" يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذارا كإنذار من تقدمني من الرسل الذين أنذروا قومهم، أو رفعا على تقدير الأمر كذلك أي كالأول. والأول تخويف لمن عصاه من الموحدين، والثاني لمن أشرك به من الملحدين. والتمام على قولـه: "كذلك" عن يعقوب وغيره. قولـه تعالى: "أتواصوا به" أي أوصى أولـهم آخرهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه؛ والألف للتوبيخ والتعجب. "بل هم قوم طاغون" أي لم يوص بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكفر. قولـه تعالى: "فتول عنهم" أي أعرض عنهم واصفح عنهم "فما أنت بملوم" عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقولـه تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقيل: نسخ بآية السيف. والأول قول الضحاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة. وقال مجاهد: "فتول عنهم" فأعرض عنهم "فما أنت بملوم" أي ليس يلومك ربك على تقصير كان منك "وذكر" أي بالعظة فإن العظة "تنفع المؤمنين". قتادة: "وذكر" بالقرآن "فإن الذكرى" به "تنفع المؤمنين". وقيل: ذكرهم بالعقوبة وأيام الله. وخص المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا

مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون. قال القشيري: والآية دخلـها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾ (الأعراف: ١٧٩) ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا﴾ (الحجرات: ١٤) وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفراء والقتبي. وفي قراءة عبد الله: "وما خلقت الجن والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون" وقال علي ﷺ: أي وما خلقت الجن ولإنس إلا لآمرهم بالعبادة. واعتمد الزجاج على هذا القول، ويدل عليه قولـه تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلـها واحدا﴾ (التوبة: ٣١). فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضامه فإنه غير ممتنع منه. وقيل: "إلا ليعبدون" أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها؛ رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. فالكره ما يرى فيهم من أثر الصنعة. مجاهد: إلا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده. ودليل هذا التأويل قولـه تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (الزخرف: ٨٧)﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ (الزخرف: ٩) وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضا: إلا لآمرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة؛ فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية. وعن الكلبي أيضا: إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء؛ يدل عليه قولـه تعالى: ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين لـه الدين﴾ (لقمان: ٣٢) الآية. وقال عكرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى إلا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبد بيِّن العبودة والعبودية، وأصل العبودية الخضوع والذل. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبد. قال:

وظيفا وظيفا فوق مور معبد

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخذه عبدا. وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتعبد التنسك. فمعنى "ليعبدون" ليذلوا ويخضعوا ويعبدوا. "ما أريد منهم من رزق" "من" صلة أي رزقا بل أنا الرزاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها. وقيل: المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم "إن الله هو الرزاق" وقرأ ابن محيصن وغيره "الرازق". "ذو القوة المتين" أي الشديد القوي. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والنخعي "المتين" بالجر على النعت للقوة. الباقون بالرفع على النعت لـ "الرزاق" أو "ذو" من قولـه: "ذو القوة" أو

يكون خبر ابتداء محذوف؛ أو يكون نعتا لاسم إن على الموضع، أو خبرا بعد خبر. قال الفراء: كان حقه المتينة فذكره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفراء:

لـكل دهـر قـد لبـست أثوبا حتى اكتسى الرأس قناعا أشيبا

من ريطة واليمنة المعصبا

فذكر المعصب؛ لأن اليمنة صنف من الثياب؛ ومن هذا الباب قولـه تعالى: ﴿فمن جاءه موعظة﴾ (البقرة: ٢٧٥) أي وعظ ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ (هود: ٦٧) أي الصياح والصوت.

قولـه تعالى: ﴿فإن للذين ظلموا﴾ أي كفروا من أهل مكة "ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم" أي نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة. وقال ابن الأعرابي: يقال يوم ذنوب أي طويل الشر لا ينقضي. وأصل الذنوب في اللغة الدلو العظيمة، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذنوب نصيب من هذا؛ قال الراجز:

لنا ذنوب ولكم ذنوب فـإن أبيتم فلنا القليب

وقال علقمة:

وفي كل يوم قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

وقال آخر:

لعمرك والمنايا طارقـات لكل بني أب منها ذنوب

الجوهري: والذنوب الفرس الطويل الذنب، والذنوب النصيب، والذنوب لحم أسفل المتن، والذنوب الدلو الـملأى ماء. وقال ابن السكيت: فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر، ولا يقال لـها وهي فارغة ذنوب، والجمع في أدنى العدد أذنبة والكثير ذنائب، مثل قلوص وقلائص. "فلا يستعجلون" أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ (الأعراف: ٧٠) فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجل بهم انتقامه، ثم لـهم في الآخرة العذاب الدائم، والخزي القائم، الذي لا انقطاع لـه ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد. تم تفسير سورة "الذاريات" والحمد لله.

سورة الطور

مقدمة السورة: مكيه فى قول الجميع وهى تسعٌ وأربعون آية.

روى الأئمة عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بالطور في المغرب. متفق عليه.

قوله تعالى: ﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ والطور ﴾ الطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة. وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة ملاحم من ملاحم الجنة) قيل: فما الأجبل؟ قال: (جبل أحد يحبنا ونحبه والطور جبل من جبال الجنة ولبنان جبل من جبال الجنة والجودي جبل من جبال الجنة)[1] وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب "التذكرة" قال مجاهد: الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طور سينا. وقاله السدي. وقال مقاتل بن حيان: هما طوران يقال لأحدهما طور سينا والآخر طور زيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون. وقيل: هو جبل بمدين واسمه زبير. قال الجوهري: والزبير الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

قلت: ومدين بالأرض المقدسة وهي قرية شعيب عليه السلام. وقيل: إن الطور كل جبل أنبت، وما لا ينبت فليس بطور؛ قاله ابن عباس. وقد مضى في "البقرة" مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وكتاب مسطور ﴾ أي مكتوب؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ؛ كما قال تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ (الواقعة: ٧٨). وقيل: يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء، وكان كل كتاب في رق ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم. وقال الفراء: هو صحائف الأعمال؛ فمن آخذ كتابه بيمينه، ومن آخذ كتابه بشماله؛ نظيره: ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ﴾ (الإسراء: ١٣) وقوله: ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ (التكوير: ١٠). وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرؤون فيه ما كان وما يكون. وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين؛ بيانه: ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ (المجادلة: ٢٢).

قلت: وفي هذا القول تجوز؛ لأنه عبر بالقلوب عن الرق. قال المبرد: الرق ما رقق من الجلد ليكتب فيه، والمنشور المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح، قال: والرق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق. ومنه قوله تعالى: "في رق منشور" والرق أيضا العظيم من السلاحف. قال

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٤/ ١٤) وقال: "رواه الطبراني في الكبير، وفيه كثير بن عبد الله وهو ضعيف".

أبو عبيدة: وجمعه رقوق. والمعنى المراد ما قالـه الفراء؛ والله أعلم. وكل صحيفة فهي رق لرقة حواشيها؛ ومنه قول المتلمس:

فكأنما هي من تقادم عهدها رق أتيـح كتابهـا مسـطور

وأما الرق بالكسر فهو الملك؛ يقال: عبد مرقوق. وحكى الماوردي عن ابن عباس: أن الرق بالفتح ما بين المشرق والمغرب.

قولـه تعالى: ﴿ والبيت المعمور ﴾ قال علي وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حيال الكعبة يدخلـه كل يوم سبعون ألف ملك، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه. قال علي ﷺ: هو بيت في السماء السادسة. وقيل: في السماء الرابعة؛ روى أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، قال: قال رسول الله ﷺ: (أوتي بي إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حيال الكعبة لو خر خر عليها يدخلـه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه)(١) ذكره الماوردي. وحكى القشيري عن ابن عباس أنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكواء عليا ﷺ قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال لـه الضراح. وكذا في "الصحاح": والضراح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن ابن عباس. وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة. وقال المهدوي عنه: حذاء العرش. والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ في حديث الإسراء: (ثم رفع إلي البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخلـه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم)(٢) وذكر الحديث. وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (أتيت بالبراق) الحديث؛ وفيه: (ثم عرج بنا إلى السابعة فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد ـ ﷺ ـ قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخلـه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه)(٣). وعن ابن عباس أيضا قال: لله في السموات والأرضين خمسة عشر بيتا، سبعة في السموات. وسبعة في الأرضين والكعبة، وكلـها مقابلة للكعبة. وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كل سنة بستمائة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة، وهو أول بيت وضعه الله للعبادة في الأرض. وقال الربيع بن أنس: إن البيت المعمور كان في الأرض موضع الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى الماء رفع فجعل بحذائه في السماء الدنيا، فيعمره كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يرجعون إليه حتى ينفخ في الصور، قال: فبوأ الله جل وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان؛ قال الله تعالى: ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (الحج: ٢٦).

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١١٣) بنحوه من حديث ابن عباس مرفوعاً، وكذا السيوطي في الدر المنثور، (٦/ ١١٤) وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف.

(٢) أخرجاه في الصحيحين.

(٣) أخرجه مسلم وغيره.

قولـه تعالى: ﴿ والسقف المرفوع ﴾ يعني السماء سماها سقفا؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه: ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ (الأنبياء: ٣٢). وقال ابن عباس: هو العرش وهو سقف الجنة. "والبحر المسجور" قال مجاهد: الموقد؛ وقد جاء في الخبر: (إن البحر يسجر يوم القيامة فيكون نارا). وقال قتادة: المملوء. وأنشد النحويون للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة   ترى حولها النبع والساسما

يريد وعلا يطالع عينا مسجورة مملوءة. فيجوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقول المتقدم. وكذا قال الضحاك وشمر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور. ومنه قيل: للمسعر مسجر؛ ودليل هذا التأويل قولـه تعالى: ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (التكوير: ٦) أي أوقدت؛ سجرت التنور أسجره سجرا أي أحميته. وقال سعيد بن المسيب: قال علي ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال: ما أراك إلا صادقا، وتلا: "والبحر المسجور". ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ (التكوير: ٦) مخففة. وقال عبد الله بن عمرو: لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم[1]. وقال كعب: يسجر البحر غدا فيزاد في نار جهنم؛ فهذا قول وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية. وروى عطية وذو الرمة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أمة لتستقي فقالت: إن الحوض مسجور أي فارغ، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرمة حديث إلا هذا. وقيل: المسجور أي المفجور؛ دليله: ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ (الانفطار: ٣) أي تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء. وقول ثالث قاله علي ﷺ وعكرمة. قال أبو مكين: سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال علي: تحت العرش فيه ماء غليظ. ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون في قبورهم. وقال الربيع بن أنس: المسجور المختلط العذب بالملح.

قلت: إليه يرجع معنى "فجرت" في أحد التأويلين؛ أي فجر عذبها في مالحها: والله أعلم. وسيأتي. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور المحبوس.

قولـه تعالى: ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ هذا جواب القسم؛ أي واقع بالمشركين. قال جبير بن مطعم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أسارى بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب "والطور" إلى قولـه: "إن عذاب ربك لواقع. ما لـه من دافع" فكأنما صدع قلبي، فأسلمت خوفا من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[2]. وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ "والطور" حتى بلغ "إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع" فبكى الحسن وبكى أصحابه؛ فجعل مالك يضطرب حتى غشي عليه. ولما ولي بكار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصلح بينهما، وأنه يعطي خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأول "والطور" إلى أن قال لـه قل "إن عذاب ربك لواقع" إن كنت كاذبا؛ فقالها فخرج فكسر من حينه.

---

(١) هذا الأثر عن ابن عمر ولا يصح؛ لأنه يخالف الحديث الصحيح، وهو أن قوماً سألوا رسول الله ﷺ: أفنتوضأ من ماء البحر؟ قال: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته".

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في "التفسير"، (٤٨٥٤)، وأحمد (٤/ ٨٣) وهذا لفظه.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم تمور السماء مورا ﴾ العامل في يوم قوله: "واقع" أي يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذي تمور فيه السماء. قال أهل اللغة: مار الشيء يمور مورا، أي تحرك وجاء وذهب كما تتكفأ النخلة العيدانة، أي الطويلة، والتمور مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دورا. أبو عبيدة والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأن مشـــيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

وقيل تجري جريا. ومنه قول جرير:

وما زالت القتلى تمور دماؤها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض. والمور أيضا الطريق. ومنه قول طرفة:

. . . فوق مور معبد

والمور الموج. وناقة موارة اليد أي سريعة. والبعير يمور عضداه إذا ترددا في عرض جنبه، قال الشاعر:

على ظهر موار الملاط حصان

الملاط الجنب. وقولهم: لا أدري أغار أم مار؛ أي أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد. والمور بالضم الغبار بالريح. وقيل: إن السماء ها هنا الفلك وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره؛ قاله ابن بحر. "وتسير الجبال سيرا" قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستوي بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا؛ بيانه ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ (النمل: ٨٨). وقد مضى هذا المعنى في "الكهف". "فويل يومئذ للمكذبين" "ويل" كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة. "الذين هم في خوض يلعبون" أي في تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حسابا ولا جزاء. وقد مضى في "التوبة".

قوله تعالى: ﴿ يوم يدَعُّون ﴾ "يوم" بدل من يومئذ. و"يدعون" معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف، يقال: دععته أدعه دعا أي دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ (الماعون: ٢). وفي التفسير: إن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعا على وجوههم، وزخا في أعناقهم حتى يردوا النار. وقرأ أبو رجاء العطاردي وابن السميقع "يوم يدعون إلى نار جهنم دعا" بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة: "هذه النار التي كنتم بها تكذبون" في الدنيا.

قولـه تعالى: ﴿ أفسحر هذا ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع؛ أي يقال لـهم: "أفسحر هذا" الذي ترون الآن بأعينكم "أم أنتم لا تبصرون" وقيل: "أم" بمعنى بل؛ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون. "اصلوها" أي تقول لـهم الخزنة ذوقوا حرها بالدخول فيها. "فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم" أي سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ "سواء" خبره محذوف، أي سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ (إبراهيم: ٢١). "إنما تجزون ما كنتم تعملون".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَـٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ﴾ لما ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضا "فاكهين" أي ذوي فاكهة كثيرة؛ يقال: رجل فاكه أي ذو فاكهة، كما يقال: لابن وتامر؛ أي ذو لبن وتمر؛ قال:

وغررتني وزعمت أنـــ ـــك لابنٌ بالصيف تامر

أي ذو لبن وتمر. وقرأ الحسن وغيره: "فكهين" بغير ألف ومعناه معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره؛ يقال: فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا. والفكه أيضا الأشر البطر. وقد مضى في "الدخان" القول في هذا. "بما آتاهم" أي أعطاهم "ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم" "كلوا واشربوا" أي يقال لـهم ذلك. "هنيئا" الـهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر. قال الزجاج: أي ليهنئكم ما صرتم إليه "هنيئا". وقيل: أي متعتم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً وقيل: أي كلوا واشربوا هنئتم "هنيئا" فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: "هنيئا": أي حلالا. وقيل: لا أذى فيه ولا غائلة. وقيل: "هنيئا" أي لا تموتون؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء.

قولـه تعالى: ﴿ متكئين على سرر ﴾ سرر جمع سرير وفي الكلام حذف تقديره: متكئين على نمارق سرر. "مصفوفة" قال ابن الأعرابي: أي موصولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفا. وفي الأخبار أنها تصف في السماء بطول كذا وكذا؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت لـه؛ فإذا جلس عليها عادت إلى حالـها. قال ابن عباس: هي سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت، والسرير ما بين مكة وأيلة. "وزوجناهم بحور عين" أي قرناهم بهن. قال يونس بن حبيب: تقول العرب زوجته امرأة وتزوجت امرأة؛ وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: "وزوجناهم بحور عين" أي قرناهم بهن؛ من قول الله تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (الصافات: ٢٢) أي وقرناءهم. وقال الفراء: تزوجت بامرأة لغة في أزد شنوءة. وقد مضى القول في معنى الحور العين.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾

قولـه تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم ﴾ قرأ العامة "واتبعتهم" بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو "وأتبعناهم" بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون؛ اعتبارا بقولـه: " ألحقنا بهم" ليكون الكلام على نسق واحد. فأما قولـه "ذريتهم" الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم. وقرأ الباقون "ذريتهم" على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع. فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون "ذريتهم" على التوحيد وفتح التاء. واختلف في معناه؛ فقيل عن ابن عباس أربع روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عينه، وتلا هذه الآية. ورواه مرفوعا النحاس في "الناسخ والمنسوخ" لـه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعملـه لتقربهم عينه) ثم قرأ "والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان" [1] الآية. قال أبو جعفر: فصار الحديث مرفوعا عن النبي ﷺ وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعلـه وبمعنى أنه أنزلـها جل ثناؤه. الزمخشري: فيجمع الله لـهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلـهم بهم. وعن ابن عباس أيضا أنه قال: إن الله ليلحق بالمؤمن ذريته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوي. والذرية تقع على الصغار والكبار، فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قولـه تعالى: "بإيمان" في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير "بإيمان" من الآباء. وإن جعلت الذرية للكبار كان قولـه: "بإيمان" حالا من الفاعلين. القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون. وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إل الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون في اسم الذرية؛ كقولـه تعالى: ﴿وآية لـهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ﴾(يس: ٤١). وعن ابن عباس أيضا يرفعه إلى النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لـه إنهم لم يدركوا ما أدركت

(١) أخرجه ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٢٤٢) وعزاه إلى البزار عن سهل بن بحر عن الحسن بن حماد الوراق عن قيس ابن الربيع عن عمرو بن مرة عن ابن جبير عن ابن عباس مرفوعاً. وقال الهيثمي في "المجمع": "رواه البزار، وفيه قيس بن الربيع، وثقه شعبة والثوري، وفيه ضعف".

فيقول يا رب إني عملت لي ولـهم فيؤمر بإلحاقهم به)[١]. وقالت خديجة رضي الله عنها: سألت النبي ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي: (هما في النار) فلما رأى الكراهية في وجهي قال: (لو رأيت مكانهما لأبغضتهما) قالت: يا رسول الله فولدي منك؟ قال: (في الجنة) ثم قال: (إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار) ثم قرأ "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان"[٢] الآية.

قولـه تعالى: ﴿وما ألتناهم من عملـهم من شيء﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالـهم لقصر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالـهم شيئا بإلحاق الذريات بهم. والـهاء والميم راجعان إلى قولـه تعالى: "والذين آمنوا". وقال ابن زيد: المعنى "واتبعتهم ذريتهم بإيمان" ألحقنا بالذرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالـهاء والميم على هذا القول للذرية. وقرأ ابن كثير "وما ألتناهم" بكسر اللام. وفتح الباقون. وعن أبي هريرة "آلتناهم" بالمد؛ قال ابن الأعرابي: ألته يألته ألتا، وآلته يؤلته إيلاتا، ولاته يليته ليتا كلـها إذا نقصه. وفي الصحاح: ولاته عن وجهه يلوته ويليته أي حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه فعل وأفعل بمعنى، ويقال أيضا: ما ألاته من عملـه شيئا أي ما نقصه مثل ألته وقد مضى بـ "الحجرات".

قولـه تعالى: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار. قال ابن عباس: ارتهن أهل جهنم بأعمالـهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولـهذا قال: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين﴾ (المدثر: ٣٨). وقيل: هو عام لكل إنسان مرتهن بعملـه فلا ينقص أحد من ثواب عملـه، فأما الزيادة على ثواب العمل فهي تفضل من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مرتهنين بكفرهم.

قولـه تعالى: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي أكثرنا لـهم من ذلك زيادة من الله، أمدهم بها غير الذي كان لـهم. قولـه تعالى: "يتنازعون فيها كأسا" أي يتناولـها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة. والكأس: إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره؛ فإذا فرغ لم يسم كأسا وشاهد التنازع والكأس في اللغة قول الأخطل:

وشارب مربح بالكأس نادمني لا بالحصور ولا فيها بسوار
نازعته طيب الراح الشمول وقد صاح الدجاج وحانت وقعة الساري

وقال امرؤ القيس:

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذي شماريخ ميال

وقد مضى هذا في "والصافات". "لا لغو فيها" أي في الكأس أي لا يجري بينهم لغو "ولا تأثيم" ولا ما فيه إثم. والتأثيم تفعيل من الإثم؛ أي تلك الكأس لا تجعلـهم آثمين لأنه مباح لـهم. وقيل: "لا

---

(١) أخرجه الحافظ ابن كثير في الموضع السابق، من طريق الطبراني، وذكره الهيثمي في "المجمع" (٧/ ١١٤) وقال: "رواه الطبراني في الصغير والكبير، وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، وهو ضعيف".

(٢) ضعيف.

لغو فيها" أي في الجنة. قال ابن عطاء: أي لغو يكون في مجلس محله جنة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! "ولا تأثيم" ولا كذب؛ قاله ابن عباس. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضا. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: "لا لغو فيها ولا تأثيم" بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين. وقد مضى هذا في "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ ولا خلة ولا شفاعة﴾ (البقرة: ٢٥٤) والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي بالفواكه والتحف والطعام والشراب؛ ودليله: ﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ (الزخرف: ٧١)، ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ (الصافات: ٤٥). ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقر الله تعالى بهم أعينهم. وقيل: إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم. وقيل: هم غلمان خلقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبدا "كأنهم" في الحسن والبياض "لؤلؤ مكنون" في الصدف، والمكنون المصون. وقوله تعالى: ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ (الواقعة: ١٧). قيل: هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة. وليس في الجنة نصب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم. وعن عائشة رضي الله عنها: أن نبي الله ﷺ قال: (إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلهم لبيك لبيك)[(١)] . وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ : (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه)[(٢)] . وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم؟ فقال: (ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب)[(٣)] . قال الكسائي: كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته في نفسي أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنى في الكن وفي النفس جميعا؛ تقول: كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومكن. وكننت الجارية وأكننتها فهي مكنونة ومكنة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قال ابن عباس: إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضا. وقيل: في الجنة "يتساءلون" أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة؟ "قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين" أي قال كل مسئول منهم لسائله: "إنا كنا قبل" أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله. "فمن الله علينا" بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية. "ووقانا عذاب السموم" قال الحسن: "السموم" اسم من أسماء النار وطبقة من طباق

(١) ضعيف.
(٢) ضعيف.
(٣) ضعيف.

جهنم. وقيل: هو النار كما تقول جهنم. وقيل: نار عذاب السموم. والسموم الريح الحارة تؤنث؛ يقال منه: سم يومنا فهو مسموم والجمع سمائم قال أبو عبيدة: السموم بالنهار وقد تكون بالليل، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار؛ وقد تستعمل السموم في لفح البرد وهو في لفح الحر والشمس أكثر؛ قال الراجز:

اليوم يوم بارد سمومه من جزع اليوم فلا ألومه

قوله تعالى: ﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أي في الدنيا بأن يمن علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: "ندعوه" أي نعبده. "إنه هو البر الرحيم" وقرأ نافع والكسائي "أنه" بفتح الهمزة؛ أي لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء. و"البر" اللطيف؛ قاله ابن عباس. وعنه أيضا: أنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج.

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فذكر﴾ أي فذكر يا محمد قومك بالقرآن. "فما أنت بنعمة ربك" يعني برسالة ربك "بكاهن" تبتدع القول وتخبر بما في غد من غير وحي. "ولا مجنون" وهذا رد لقولهم في النبي ﷺ؛ فعقبة بن أبي معيط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم الله تعالى ورد عليهم. ثم قيل: إن معنى "فما أنت بنعمة ربك" القسم؛ أي وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قسما، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل؛ أي برأك الله من ذلك.

قوله تعالى: ﴿أم يقولون شاعر﴾ أي بل يقولون محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العباد بما جرى في كلامهم. قال أبو جعفر النحاس: وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبين ولا مشروح؛ يريد سيبويه أن "أم" في كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث؛ كما قال:

أتهجر غانية أم تلم

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أم الحبل واه بها منجذم

فما جاء في كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث، والنحويون يمثلونها ببل. "نتربص به ريب المنون" قال قتادة: قال قوم من الكفار تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بني فلان. قال الضحاك: هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر؛ أي يهلك عن قريب كما هلك من قبل من الشعراء، وأن أباه مات شابا فربما يموت كما مات أبوه. وقال الأخفش: نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول: قصدت زيدا وقصدت إلى زيد. والمنون: الموت في قول ابن عباس. قال أبو الغول الطهوي:

هم منعوا حمى الوقبى بضرب يؤلـف بـين أشـتات المنون

أي المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرقي الأمكنة لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرقة، فاجتمعوا في موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة. وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: "ريب" في القرآن شك إلا مكانا واحدا في الطور "ريب المنون" يعني حوادث الأمور؛ وقال الشاعر:

تربص بها ريب المنون لعلـها تطـلق يوما أو يموت حليلـها

وقال مجاهد: "ريب المنون" حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذؤيب:

أمن المنون وريبه تتوجـع والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال الأعشى:

أأن رأت رجلا أعشى أضر به ريـب المنون ودهر متبل خبل

قال الأصمعي: المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه: أنه قيل للدهر منون، لأنه يذهب بمنة الحيوان أي قوته وكذلك المنية. أبو عبيدة: قيل للدهر منون؛ لأنه مضعف، من قولـهم حبل منين أي ضعيف، والمنين الغبار الضعيف. قال الفراء: والمنون مؤنثة وتكون واحدا وجمعا. الأصمعي: المنون واحد لا جماعة لـه. الأخفش: هو جماعة لا واحد لـه، والمنون يذكر ويؤنث؛ فمن ذكره جعلـه الدهر أو الموت، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية.

قولـه تعالى: ﴿ قل تربصوا ﴾ أي قل لـهم يا محمد تربصوا أي انتظروا. "فإني معكم من المتربصين" أي من المنتظرين بكم العذاب؛ فعذبوا يوم بدر بالسيف.

قولـه تعالى: ﴿ أم تأمرهم أحلامهم ﴾ أي عقولـهم "بهذا" أي بالكذب عليك. "أم هم قوم طاغون" أي أم طغوا بغير عقول. وقيل: "أم" بمعنى بل؛ أي بل كفروا طغيانا وإن ظهر لـهم الحق. وقيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله؛ أي لم يصحبها بالتوفيق. وقيل: "أحلامهم" أي أذهانهم؛ لأن العقل لا يعطى للكافر ولو كان لـه عقل لآمن. وإنما يعطى الكافر الذهن فصار عليه حجة. والذهن يقبل العلم جملة، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحدود الأمر والنهي. وروي عن النبي ﷺ أن رجلا قال: يا رسول الله، ما أعقل فلانا النصراني! فقال: (مه إن الكافر لا عقل لـه أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾[١] (الملك: ١٠). وفي حديث ابن عمر: فزجره النبي ﷺ، ثم قال: (مه فإن العاقل من يعمل بطاعة الله)[٢] ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده.

قولـه تعالى: ﴿ أم يقولون تقولـه ﴾ أي افتعلـه وافتراه، يعني القرآن. والتقول تكلف القول، وإنما يستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال قولتني ما لم أقل! وأقولتني ما لم أقل؛ أي ادعيته علي. وتقول عليه أي كذب عليه. واقتال عليه تحكم قال:

---

(١) ضعيف.

(٢) كسابقه. ذكره الملا علي القاري في "الأسرار المرفوعة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة"، (٤١٢).

ومنزلـة فـي دار صدق وغبْطَة وما اقتال من حكم علي طبيب

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أي ليس كما يقولون. "بل لا يؤمنون" جحداً واستكباراً. "فليأتوا بحديث مثلـه" أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم "إن كانوا صادقين" في أن محمداً افتراه. وقرأ الجحدري "فليأتوا بحديث مثلـه" بالإضافة. والـهاء في "مثلـه" للنبي ﷺ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به. والـهاء على قراءة الجماعة للقرآن.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ "أم" صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير رب خلقهم وقدرهم. وقيل: من غير أم ولا أب؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خلقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قالـه ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خلقوا عبثا وتركوا سدى "من غير شيء" أي لغير شيء فـ "من" بمعنى اللام. "أم هم الخالقون" أي أيقولون إنهم خلقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك، وإذا أقروا أن ثم خالقا غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار لـه بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث. "أم خلقوا السماوات والأرض" أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا "بل لا يوقنون" بالحق "أم عندهم خزائن ربك" أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويعرضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربك المطر والرزق. وقيل: مفاتيح الرحمة. وقال عكرمة: النبوة. أي أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا. وضرب المثل بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر؛ ومقدورات الرب كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لـها. "أم هم المسيطرون" قال ابن عباس: المسلطون الجبارون. وعنه أيضا: المبطلون. وقالـه الضحاك. وعن ابن عباس أيضا: أم هم المتولون. عطاء: أم هم أرباب قاهرون. قال عطاء: يقال تسيطرت علي أي اتخذتني خولا لك. وقالـه أبو عبيدة. وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحوالـه ويكتب عملـه، وأصلـه من السطر؛ لأن الكتاب يسطر والذي يفعلـه مسطر ومسيطر. يقال سيطرت علينا. ابن بحر: "أم هم المسيطرون" أي هم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر ها هنا حافظا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. وفيه ثلاث لغات: الصاد وبها قرأت العامة، والسين وهي قراءة ابن محيصن وحميد ومجاهد وقنبل وهشام وأبي حيوة، وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدم في ﴿ الصراط ﴾ (الفاتحة: ٦).

قولـه تعالى: ﴿أم لـهم سلم﴾ أي أيدعون أن لـهم مرتقى إلى السماء ومصعدا وسببا "يستمعون فيه" أي عليه الأخبار ويصلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمد ﷺ بطريق الوحي. "فليأت مستمعهم بسلطان مبين" أي بحجة بيّنة أن هذا الذي هم عليه حق. والسلم واحد السلالم التي يرتقى عليها. وربما سمي الغرز بذلك؛ قال أبو الربيس الثعلبي يصف ناقته:

مطارة قلب إن ثنى الرجل ربها بسلـم غـرز فـي مناخ يعاجلـه

وقال زهير:

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

وقال آخر:

تجنيت لي ذنبا وما إن جـنيته لتتخذي عذرا إلى الـهجر سلما

وقال ابن مقبل في الجمع:

لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا يبنى لـه في السموات السلاليم

الأحجاء النواحي مثل الأرجاء واحدها حجا ورجا مقصور. ويروى: أعناء البلاد، والأعناء أيضا الجوانب والنواحي واحدها عنو بالكسر. وقال ابن الأعرابي: واحدها عنا مقصور. وجاءنا أعناء من الناس واحدهم عنو بالكسر، وهـم قـوم من قبائل شتى. "يستمعون فيه" أي عليه؛ كقولـه تعالى: ﴿في جذوع النخل﴾ (طه: ٧١) أي عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة: يستمعون به. وقال الزجاج: أي ألـهم كجبريل الذي يأتي النبي ﷺ بالوحي.

قولـه تعالى: ﴿أم لـه البنات ولكم البنون﴾ سفه أحلامهم توبيخا لـهم وتقريعا. أي أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن، ومن كان عقلـه هكذا فلا يستبعد منه إنكار البعث. "أم تسألـهم أجرا" أي على تبليغ الرسالة. "فهم من مغرم مثقلون" أي فهم من المغرم الذي تطلبهم به "مثقلون" مجهدون لما كلفتهم به.

قولـه تعالى: ﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾ أي يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لما قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى: "أم عندهم الغيب" حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليه أمره. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القتبي: يكتبون يحكمون والكتاب الحكم؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ (الأنعام: ٥٤) أي حكم، وقولـه عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله)[(١)] أي بحكم الله.

قولـه تعالى: ﴿أم يريدون كيدا﴾ أي مكرا بك في دار الندوة. "فالذين كفروا هم المكيدون" أي الممكور بهم ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهلـه﴾ (فاطر: ٤٣) وذلك أنهم قتلوا ببدر. "أم لـهم إلـه غير الله" يخلق ويرزق ويمنع. "سبحان الله عما يشركون" نزه نفسه أن يكون لـه شريك. قال الخليل: كل ما في سورة "والطور" من ذكر "أم" فكلمة استفهام وليس بعطف.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٢٦٩٥، ٢٦٩٦)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (١٦٩٧).

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن يروا كسفا من السماء ساقطا ﴾ قال ذلك جوابا لقولهم: ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء ﴾ (الشعراء: ١٨٧)، وقولهم: ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ (الإسراء: ٩٢) فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا "سحاب مركوم"

أي بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فعل المعاند أو فعل من استولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان. والكسف جمع كسفة وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كسفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضا: كسف. ويقال: الكسف والكسفة واحد. وقال الأخفش: من قرأ كسْفا جعله واحدا، ومن قرأ "كِسَفا" جعله جمعا. وقد تقدم القول في هذا في "الإسراء" وغيرها والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ فذرهم ﴾ منسوخ بآية السيف. "حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون" بفتح الياء قراءة العامة، وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها. قال الفراء: هما لغتان صعق وصعق مثل سَعِد وسُعِد. قال قتادة: يوم يموتون. وقيل: يوم بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم. وقيل: "يصعقون" بضم الياء من أصعقه الله. قوله تعالى: "يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئا" أي ما كادوا به النبي ﷺ في الدنيا. "ولا هم ينصرون" من الله. و"يوم" منصوب على البدل من "يومهم الذي فيه يصعقون".

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإن للذين ظلموا ﴾ أي كفروا "عذابا دون ذلك" قيل: قبل موتهم. ابن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجهد سبع سنين. ابن عباس: هو القتل. عنه: عذاب القبر. وقاله البراء بن عازب وعلي رضي الله عنه. فـ "دون" بمعنى غير. وقيل: عذابا أخف من عذاب الآخرة. "ولكن أكثرهم لا يعلمون" أن العذاب نازل بهم وقيل: "ولكن أكثرهم لا يعلمون" ما يصيرون إليه قوله تعالى: ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ واصبر لحكم ربك ﴾ قيل: لقضاء ربك فيما حملك من رسالته. وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به من قومك؛ ثم نسخ بآية السيف.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فإنك بأعيننا ﴾ أي بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام: "ولتصنع على عيني" أي بحفظي وحراستي وقد تقدم.

قولـه تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾فيه مسألتان:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾اختلف في تأويل قولـه: "حين تقوم" فقال عون بن مالك وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبو الأحوص: يسبح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيرا ازددت ثناء حسنا، وإن كان غير ذلك كان كفارة لـه؛ ودليل هذا التأويل ما خرجه الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلـه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر لـه ما كان في مجلسه ذلك)(١) قال: حديث حسن صحيح غريب. وفيه عن ابن عمر قال: كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: (رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور)(٢) قال: حديث حسن صحيح غريب. وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع: المعنى حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحاك يقول: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا. قال الكيا الطبري: وهذا فيه بعد؛ فإن قولـه: "حين تقوم" لا يدل على التسبيح بعد التكبير، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراء ذلك، فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود ﷺ. وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية: المعنى حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله. وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر. وفي هذا روايات مختلفات صحاح؛ منها حديث عبادة عن النبي ﷺ: (من تعار في الليل فقال لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه لـه الملك ولـه الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفر لي أو دعا استجيب لـه فإن توضأ وصلى قبلت صلاته)(٣) خرجه البخاري. تعار الرجل من الليل: إذا هب من نومه مع صوت؛ ومنه عار الظليم يعار عرارا وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عر الظليم يعر عرارا، كما قالوا زمر النعام يزمر زمارا. عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك الحق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إلـه إلا أنت ولا إلـه غيرك)(٤) متفق عليه. وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة "آل عمران". وقال زيد بن أسلم: المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر. قال ابن

---

(١) "صحيح"، انظر صحيح الجامع (٦١٩٢).

(٢) "صحيح" أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، كما في صحيح الجامع (٣٤٨٦).

(٣)سبق تخريجه.

(٤)أخرجه البخاري (١١٢٠)، وفي مواضع أخر، ومسلم (٧٦٩).

العربي: أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل. وقال الضحاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها. الماوردي: وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود. الثاني أنه التوجه في الصلاة يقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. قال ابن العربي: من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن علي بن أبي طالب ﷺ، عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال (وجهت وجهي)[(١)] الحديث. وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة "الأنعام". وفي البخاري عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي؛ فقال: (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)[(٢)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ تقدم في "ق" مستوفى عند قوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ (ق: ٤٠). وأما "إدبار النجوم" فقال علي وابن عباس وجابر وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس. وعن الضحاك وابن زيد: أن قوله: "وإدبار النجوم" يريد به صلاة الصبح وهو اختيار الطبري. وعن ابن عباس: أنه التسبيح في آخر الصلوات. وبكسر الهمزة في "إدبار النجوم" قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في "ق". وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السميقع "وأدبار" بالفتح، ومثله روي عن يعقوب وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر ودبر الأمر ودبره آخره. وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل، عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب)[(٣)] قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه من حديث محمد بن فضيل عن رشدين بن كريب. وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد بن فضيل ورشدين بن كريب أيهما أوثق؟ فقال: ما أقربهما، ومحمد عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال: ما أقربهما، ورشدين بن كريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول ما قال أبو محمد ورشدين بن كريب عندي أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رشدين ابن عباس ورآه. وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح[(٤)]. وعنها عن النبي ﷺ قال: (ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها)[(٥)]. تم تفسير سورة "والطور" والحمد لله.

---

(١) سبق تخريجه في سورة الأنعام.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٢٦).
(٣) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٢٤٨).
(٤) أخرجه مسلم (٧٢٥).
(٥) أخرجه مسلم (٧٢٤).

سورة النجم

مقدمة السورة:

مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها وهي قوله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ (النجم: ٣٢) الآية. وقيل: اثنتان وستون آية. وقيل: إن السورة كلها مدنية. والصحيح أنها مكية لما روى ابن مسعود أنه قال: هي أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة. وفي "البخاري" عن ابن عباس: أن النبي ﷺ (سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس)[(١)] وعن عبد الله أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم فسجد لها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد؛ فأخذ رجل من القوم كفا من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا. قال عبد الله: فلقد رأيته بعد قتل كافرا، متفق عليه[(٢)]. الرجل يقال له أمية بن خلف. وفي الصحيحين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قرأ على النبي ﷺ سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ (النجم: ١) فلم يسجد[(٣)]. وقد مضى في آخر "الأعراف" القول في هذا والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ ﴾

قوله تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معنى "والنجم إذا هوى" والثريا إذا سقطت مع الفجر؛ والعرب تسمي الثريا نجما وإن كانت في العدد نجوما؛ يقال: إنها سبعة أنجم، ستة منها ظاهرة وواحد خفي يمتحن الناس به أبصارهم. وفي "الشفا" للقاضي عياض: أن النبي ﷺ كان يرى في الثريا أحد عشر نجما. وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآن إذا نزل؛ لأنه كان ينزل نجوما. وقاله الفراء. وعنه أيضا: يعني نجوم السماء كلها حين تغرب. وهو قول الحسن قال: أقسم الله بالنجوم إذا غابت. وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع؛ كقول الراعي:

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

وقال عمر بن أبي ربيعة:

أحسن النجم في السماء الثريا والثريا في الأرض زين النساء

وقال الحسن أيضا: المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة. وقال السدي: إن النجم ههنا الزهرة لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها. وقيل: المراد به النجوم التي ترجم بها الشياطين؛ وسببه أن الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٧٢)، ومسلم (٥٧٧).

تعالى لما أراد بعث محمد ﷺ رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، فذعر أكثر العرب منها ـ وفزعوا إلى كاهن كان لـهم ضريرا، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال: انظروا البروج الاثني عشر فإن انقضن منها شيء فهو ذهاب الدنيا، فإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فاستشعروا ذلك؛ فلما بعث رسول الله ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ أي ذلك النجم الذي هوى هو لـهذه النبوة التي حدثت. وقيل: النجم هنا هو النبت الذي ليس لـه ساق، وهوى أي سقط على الأرض. وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ﷺ: "والنجم" يعني محمدا ﷺ "إذا هوى" إذا نزل من السماء ليلة المعراج. وعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن عتبة بن أبي لـهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام فقال: لآتين محمداً فلأوذينه، فأتاه فقال: يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى. ثم تفل في وجه رسول الله ﷺ، ورد عليه ابنته وطلقها؛ فقال رسول الله ﷺ: (اللهم سـلط عليه كلبا من كـــلابك)[1] وكان أبو طالب حاضرا فوجم لـها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره، ثم خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلا، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لـهم: إن هذه أرض مسبعة. فقال أبو لـهب لأصحابه: أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة! فإني أخاف على ابني من دعوة محمد؛ فجمعوا جمالـهم وأناخوها حولـهم، وأحدقوا بعتبة، فجاء الأسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتلـه. وقال حسان:

من يرجع العام إلى أهلـه   فما أكيل السبع بالراجع

وأصل النجم الطلوع؛ يقال: نجم السن ونجم فلان ببلاد كذا أي خرج على السلطان. والـهوي النزول والسقوط؛ يقال: هوى يهوي هويا مثل مضى يمضي مضيا؛ قال زهير:

فشج بها الأماعز وهي تهوي   هـــوي الدلو أسلمها الرشاء

وقال آخر:

بيـــنما نحـــن بالبلاكـــث فالقـــا   ع سراعا والعيس تهوي هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكـــ   ـراك وهنا فما استطعت مضيا

الأصمعي: هوى بالفتح يهوي هويا أي سقط إلى أسفل. قال: وكذلك انهوى في السير إذا مضى فيه، وهوى وانهوى فيه لغتان بمعنى، وقد جمعهما الشاعر في قولـه:

وكم منزل لولاي طحت كما هوى   بأجرامـــه مـــن قلة النيق منهـــوي

ويقال في الحب: هوي بالكسر يهوى هوى؛ أي أحب.

قولـه تعالى: ﴿ما ضل صاحبكم ﴾ هذا جواب القسم؛ أي ما ضل محمد ﷺ عن الحق وما حاد عنه. "وما غوى" الغي ضد الرشد أي ما صار غاويا. وقيل: أي ما تكلم بالباطل. وقيل: أي ما خاب مما طلب والغي الخيبة؛ قال الشاعر [المرقش]:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمـــره   ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

أي من خاب في طلبه لامه الناس. ثم يجوز أن يكون هذا إخبارا عما بعد الوحي. ويجوز أن يكون إخبارا عن أحوالـه على التعميم؛ أي كان أبدا موحدا لله. وهو الصحيح على ما بيناه في "الشورى" عند قولـه: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾(الشورى: ٥٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٥٣٩) وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجـ ه" وأقره الذهبي.

قوله تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ قال قتادة: وما ينطق بالقرآن عن هواه "إن هو إلا وحي يوحى" إليه. وقيل: "عن الهوى" أي بالهوى؛ قاله أبو عبيدة؛ كقوله تعالى: ﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ (الفرقان: ٥٩) أي فاسأل عنه. النحاس: قول قتادة أولى، وتكون "عن" على بابها، أي ما يخرج نطقه عن رأيه، إنما هو بوحي من الله عز وجل؛ لأن بعده: "إن هو إلا وحي يوحى".

الثانية: وقد يحتج بهذه الآية من لا يجوز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث. وفيها أيضا دلالة على أن السنة كالوحي المنزل في العمل. وقد تقدم في مقدمة الكتاب حديث المقدام بن معد يكرب في ذلك والحمد لله. قال السجستاني: إن شئت أبدلت "إن هو إلا وحي يوحى" من "ما ضل صاحبكم" قال ابن الأنباري: وهذا غلط؛ لأن "إن" الخفيفة لا تكون مبدلة من "ما" الدليل على هذا أنك لا تقول: والله ما قمت إن أنا لقاعد.

قوله تعالى: ﴿ علمه شديد القوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام في قول سائر المفسرين؛ سوى الحسن فإنه قال: هو الله عز وجل، ويكون قوله تعالى: "ذو مرة" على قول الحسن تمام الكلام، ومعناه ذو قوة والقوة من صفات الله تعالى؛ وأصله من شدة فتل الحبل، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل. ثم قال: "فاستوى" يعني الله عز وجل؛ أي استوى على العرش. روي معناه عن الحسن. وقال الربيع بن أنس والفراء: "فاستوى. وهو بالأفق الأعلى" أي استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ "هو". وأكثر العرب إذا أرادوا العطف في مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه؛ فيقولون: استوى هو وفلان؛ وقلما يقولون استوى وفلان؛ وأنشد الفراء:

ألم تر أن النبع يصلب عوده ... ولا يستوي والخروع المتقصف

أي لا يستوي هو والخروع؛ ونظير هذا: ﴿ أئذا كنا ترابا وآباؤنا ﴾ (النمل: ٦٧) والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا. ومعنى الآية: استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى. وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر. وأنكر ذلك الزجاج إلا في ضرورة الشعر. وقيل: المعنى فاستوى جبريل بالأفق الأعلى، وهو أجود. وإذا كان المستوي جبريل فمعنى "ذو مرة" في وصفه ذو منطق حسن؛ قاله ابن عباس. وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن. وقيل: معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات؛ ومنه قول النبي ﷺ. (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي)[1]. وقال امرؤ القيس:

كنت فيهم أبدا ذا حيلة ... محكم المرة مأمون العقد

وقد قيل: "ذو مرة" ذو قوة. قال الكلبي: وكان من شدة جبريل عليه السلام: أنه اقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السفلى، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها. وكان من شدته أيضا: أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل في الهند. وكان من شدته: صيحته بثمود في عددهم وكثرتهم، فأصبحوا جاثمين خامدين. وكان من شدته: هبوطه من السماء على الأنبياء

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٢٥١).

وصعوده إليها في أسرع من الطرف. وقال قطرب: تقول العرب لكل جزل الرأي حصيف العقل: ذو مرة. قال الشاعر:

قد كنت قبل لقاكم ذا مرة   عندي لكل مخاصم ميزانه

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقلـه: أن الله ائتمنه على وحيه إلى جميع رسلـه. قال الجوهري: والمرة إحدى الطبائع الأربع، والمرة القوة وشدة العقل أيضا. ورجل مرير أي قوي ذو مرة. قال العباس بن مرداس:

ترى الرجل النحيف فتزدريه   وحشـو ثيابـه أسـد مرير

وقال لقيط:

حتى استمرت على شزر مريرته   مر العـزيمة لا رتا ولا ضـرعا

وقال مجاهد وقتادة: "ذو مرة" ذو قوة؛ ومنه قول خفاف بن ندبة:

إني امرؤ ذو مرة فاسـتبقني   فيما ينوب من الخطوب صليب

فالقوة تكون من صفة الله عز وجل، ومن صفة المخلوق. "فاستوى" يعني جبريل على ما بينا؛ أي ارتفع وعلا إلى مكان في السماء بعد أن علم محمدا ﷺ، قالـه سعيد بن المسيب وابن جبير. وقيل: "فاستوى" أي قام في صورته التي خلقه الله تعالى عليها؛ لأنه كان يأتي إلى النبي ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسألـه النبي ﷺ أن يريه نفسه التي جبلـه الله عليها فأراه نفسه مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء؛ فأما في الأرض ففي الأفق الأعلى، وكان النبي ﷺ بحراء، فطلع لـه جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب، فخر النبي ﷺ مغشيا عليه. فنزل إليه في صورة الآدميين وضمه إلى صدره، وجعل يمسح الغبار عن وجهه؛ فلما أفاق النبي ﷺ قال: (يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحدا على مثل هذه الصورة). فقال: يا محمد إنما نشرت جناحين من أجنحتي وإن لي ستمائة جناح سعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب. فقال: (إن هذا لعظيم) فقال: وما أنا في جنب ما خلقه الله إلا يسيرا، ولقد خلق الله إسرافيل لـه ستمائة جناح، كل جناح منها قدر جميع أجنحتي وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوصع[(١)]. يعني: العصفور الصغير؛ دليلـه قولـه تعالى: ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ (التكوير: ٢٣) وأما في السـماء فعند سدرة المنتهى، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا ﷺ. وقول ثالث أن معنى "فاستوى" أي استوى القرآن في صدره. وفيه على هذا وجهان: أحدهما في صدر جبريل حين نزل به عليه. الثاني في صدر محمد ﷺ حين نزل عليه. وقول رابع أن معنى "فاستوى" فاعتدل يعني محمدا ﷺ. وفيه على هذا وجهان: أحدهما فاعتدل في قوته. الثاني في رسالته. ذكرهما الماوردي.

قلت: وعلى الأول يكون تمام الكلام "ذو مرة"، وعلى الثاني "شديد القوى". وقول خامس أن معناه فارتفع. وفيه على هذا وجهان: أحدهما أنه جبريل عليه السلام ارتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا. الثاني أنه النبي ﷺ ارتفع بالمعراج. وقول سادس "فاستوى" يعني الله عز وجل، أي استوى على العرش على قول الحسن. وقد مضى القول فيه في "الأعراف".

---

(١) ضعيف.

قولـه تعالى: ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ جملة في موضع الحال، والمعنى فاستوى عاليا، أي استوى جبريل عاليا على صورته ولم يكن النبي ﷺ قبل ذلك يراه عليها حتى سألـه إياها على ما ذكرنا. والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذي تأتي منه الشمس. وكذا قال سفيان: هو الموضع الذي تطلع منه الشمس. ونحوه عن مجاهد. ويقال: أَفْقٌ أُفُقٌ مثل عُسْر وعُسُر. وقد مضى في "حم السجدة". وفرس أفق بالضم أي رائع وكذلك الأنثى؛ قال الشاعر عمرو بن قنعاس المرادي:

أرجل لمتي وأجـر ذيلـي وتحمل شكتي أفق كميت

وقيل: "وهو" أي النبي ﷺ "بالأفق الأعلى" يعني ليلة الإسراء وهذا ضعيف؛ لأنه يقال: استوى هو وفلان، ولا يقال استوى وفلان إلا في ضرورة الشعر. والصحيح استوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية؛ لأنه كان يتمثل للنبي ﷺ إذا نزل بالوحي في صورة رجل، فأحب النبي ﷺ أن يراه على صورته الحقيقية، فاستوى في أفق المشرق فملأ الأفق. قولـه تعالى: "ثم دنا فتدلى" أي دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض "فتدلى" فنزل على النبي ﷺ بالوحي. المعنى أنه لما رأى النبي ﷺ من عظمته ما رأى، وهالـه ذلك رده الله إلى صورة آدمي حين قرب من النبي ﷺ بالوحي، وذلك قولـه تعالى: ﴿ فأوحى إلى عبده ﴾ يعني أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل "قاب قوسين أو أدنى" قالـه ابن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم. وعن ابن عباس أيضا في قولـه تعالى: ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ أن معناه أن الله تبارك وتعالى "دنا" من محمد ﷺ "فتدلى". وروى نحوه أنس بن مالك عن النبي ﷺ. والمعنى دنا منه أمره وحكمه. وأصل التدلي النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب؛ قال لبيد:

فتدلـيت عليـه قافـــلا وعلى الأرض غيابات الطفل

وذهب الفراء إلى أن الفاء في "فتدلى" بمعنى الواو، والتقدير ثم تدلى جبريل عليه السلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا، وشتمني فأساء وأساء فشتمني؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد. وكذلك قولـه تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (القمر: ١) المعنى والله أعلم: انشق القمر واقتربت الساعة. وقال الجرجاني: في الكلام تقديم وتأخير أي تدلى فدنا؛ لأن التدلي سبب الدنو. وقال ابن الأنباري: ثم تدلى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد ﷺ وقال ابن عباس: تدلى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه. وسيأتي. ومن قال: المعنى فاستوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول: ثم دنا محمد من ربه دنو كرامة فتدلى أي هوى للسجود. وهذا قول الضحاك. قال القشيري: وقيل على هذا تدلى أي تدلل؛ كقولك تظنى بمعنى تظنن، وهذا بعيد؛ لأن الدلال غير مرضي في صفة العبودية.

قولـه تعالى: ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي "كان" محمد من ربه أو من جبريل "قاب قوسين" أي قدر قوسين عربيتين. قال ابن عباس وعطاء والفراء. الزمخشري: فإن قلت كيف تقدير قولـه: "فكان قاب قوسين" قلت: تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قولـه:

وقد جعلتني من حزيمة إصبعا

أي ذا مقدار مسافة إصبع "أو أدنى" أي على تقديركم؛ كقوله تعالى: ﴿أو يزيدون﴾ (الصافات: ١٤٧). وفي الصحاح: وتقول بينهما قاب قوس، وقيب قوس وقاد قوس، وقيد قوس؛ أي قدر قوس. وقرأ زيد بن علي "قاد" وقرئ "قيد" و"قدر". ذكره الزمخشري. والقاب ما بين المقبض والسية. ولكل قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿قاب قوسين﴾ أراد قابي قوس فقلبه. وفي الحديث: (ولقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قده خير من الدنيا وما فيها)[١] والقد السوط. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (ولقاب قوس أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها)[٢]. وإنما ضرب المثل بالقوس، لأنها لا تختلف في القاب. والله أعلم. قال القاضي عياض: أعلم أن ما وقع من إضافة الدنو والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنو مكان ولا قرب مدى، وإنما دنو النبي ﷺ من ربه وقربه منه: إبانة عظيم منزلته، وتشريف رتبته، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبه وقدرته. ومن الله تعالى له: مبرة وتأنيس وبسط وإكرام. ويتأول في قوله ﷺ: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا)[٣] على أحد الوجوه: نزول إجمال وقبول وإحسان. قال القاضي: وقوله: "فكان قاب قوسين أو أدنى" فمن جعل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب، ولطف المحل، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد ﷺ، وعبارة عن إجابة الرغبة، وقضاء المطالب، وإظهار التحفي، وإنافة المنزلة والقرب من الله؛ ويتأول في قوله ﷺ: (من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[٤] قرب بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول. وقد قيل: "ثم دنا" جبريل من ربه "فكان قاب قوسين أو أدنى" قاله مجاهد. ويدل عليه ما روي في الحديث: (إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام)[٥]. وقيل: (أو) بمعنى الواو أي قاب قوسين وأدنى. وقيل: بمعنى بل أي بل أدنى. وقال سعيد بن المسيب: القاب صدر القوس العربية حيث يشد عليه السير الذي يتنكبه صاحبه، ولكل قوس قاب واحد. فأخبر أن جبريل قرب من محمد ﷺ كقرب قاب قوسين. وقال سعيد بن جبير وعطاء وأبو إسحاق الهمداني وأبو وائل شقيق بن سلمة: (فكان قاب قوسين) أي قدر ذراعين، والقوس الذراع يقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين. وقيل: هي لغة أزد شنوءة أيضا. وقال الكسائي: قوله: "فكان قاب قوسين أو أدنى" أراد قوسا واحدا؛ كقول الشاعر:

ومهمهين قذفين مرتين قطعته بالسمت لا بالسمتين

أراد مهمها واحداً. والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال في تصغيرها قويسة ومن ذكر قال قويس؛ وفي المثل هو من خير قويس سهما. والجمع قسي وقسي وأقواس وقياس؛ وأنشد أبو عبيدة:

---

(١) "صحيح".
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٣).
(٣) جزء من حديث النزول، أخرجاه في الصحيحين.
(٤) جزء من حديث قدسي أخرجاه في الصحيحين.
(٥) ذكره السيوطي في "اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة"، (١/ ١٧).

ووتر الأساور القياسا

والقوس أيضا بقية النمر في الجلة أي الوعاء. والقوس برج في السماء. فأما القوس بالضم فصومعة الراهب؛ قال الشاعر وذكر امرأة:

لاستفتنتني وذا المسحين في القوس

قولـه تعالى: ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ تفخيم للوحي الذي أوحى إليه. وتقدم معنى الوحي وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوحاء الوحاء. والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمدﷺ ما أوحى. وقيل: المعنى "فأوحى إلى عبده" جبريل عليه السلام "ما أوحى". وقيل: المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمدﷺ ما أوحى إليه ربه. قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة. قال قتادة: أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد. ثم قيل: هذا الوحي هل هو مبهم؟ لا نطلع عليه نحن وتعبدنا بالإيمان به على الجملة، أو هو معلوم مفسر؟ قولان. وبالثاني قال سعيد بن جبير، قال: أوحى الله إلى محمد: ألم أجدك يتيما فأويتك! ألم أجدك ضالا فهديتك! ألم أجدك عائلا فأغنيتك! ﴿ ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك﴾ (الانشراح: ٤). وقيل: أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي لم يكذب قلب محمدﷺ ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره في فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية. وقيل: كانت رؤية حقيقة بالبصر. والأول مروي عن ابن عباس. وفي صحيح مسلم أنه رآه بقلبه[1]. وهو قول أبي ذر وجماعة من الصحابة. والثاني قول أنس وجماعة. وروي عن ابن عباس أيضا أنه قال: أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم، والكلام لموسى، والرؤية لمحمدﷺ. وروي عن ابن عباس أيضا أنه قال: أما نحن بني هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين. وقد مضى القول في هذا في "الأنعام" عند قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ (الأنعام: ١٠٣). وروى محمد بن كعب قال: قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال: (رأيته بفؤادي مرتين)[2] ثم قرأ: "ما كذب الفؤاد ما رأى". وقول: ثالث أنه رأى جلاله وعظمته؛ قاله الحسن. وروى أبو العالية قال: سئل رسول اللهﷺ هل رأيت

(١) أخرجه مسلم (١٧٥).

(٢) أخرجه الخطيب في تاريخه (٧/ ١٤٠)، وذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٦٠) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي عن بعض أصحاب النبيﷺ مرفوعاً.

ربك؟ قال: (رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غير ذلك)[١] وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: (نور أنَّى أراه)[٢] المعنى غلبني من النور وبهرني منه ما منعني من رؤيته. ودل على هذا الرواية الأخرى (رأيت نورا). وقال ابن مسعود: رأى جبريل على صورته مرتين. وقرأ هشام عن ابن عامر وأهل الشام "ما كذّب" بالتشديد أي ما كذب قلب محمد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدقه. فـ "ما" مفعوله بغير حرف مقدر؛ لأنه يتعدى مشددا بغير حرف. ويجوز أن تكون "ما" بمعنى الذي والعائد محذوف، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا. الباقون مخففا؛ أي ما كذب فؤاد محمد فيما رأى؛ فأسقط حرف الصفة. قال حسان ﷺ:

لو كـــنت صادقة الذي حدثتني لنجوت منجى الحارث بن هشام

أي في الذي حدثتني. ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا. ويجوز أن يكون بمعنى الذي؛ أي ما كذب فؤاد محمد ﷺ الذي رأى.

قوله تعالى: ﴿ أفتمارونه على ما يرى﴾ قرأ حمزة والكسائي "أفتمرونه" بفتح التاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه. واختاره أبو عبيد؛ لأنه قال: لم يماروه وإنما جحدوه. يقال: مراه حقه أي جحده ومريته أنا؛ قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة لقــد مريــت أخا ما كان يمريكا

أي جحدته. وقال المبرد: يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه. قال: ومثل على بمعنى عن قول بني كعب بن ربيعة: رضي الله عليك؛ أي رضي عنك. وقرأ الأعرج ومجاهد "أفتُمرونه" بضم التاء من غير ألف من أمريت؛ أي تريبونه وتشككونه. الباقون "أفتمارونه" بألف، أي أتجادلونه وتدافعونه في أنه رأى الله؛ والمعنيان متداخلان؛ لأن مجادلتهم جحود. وقيل: إن الجحود كان دائما منهم وهذا جدال جديد؛ قالوا: صف لنا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا التي في طريق الشام. على ما تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى﴾ "نزلة" مصدر في موضع الحال كأنه قال: ولقد رآه نازلا نزلة أخرى. قال ابن عباس: رأى محمد ﷺ ربه مرة أخرى بقلبه. روى مسلم عن أبي العالية عنه (قال: "ما كذب الفؤاد ما رأى" "ولقد رآه نزلة أخرى" قال: رآه بفؤاده مرتين؛ فقوله: "نزلة أخرى" يعود إلى محمد ﷺ؛ فإنه كان له صعود ونزول مرارا بحسب أعداد الصلوات المفروضة، فلكل عرجة نزلة) وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ عند سدرة المنتهى﴾ أي ومحمد ﷺ عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات. وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أنه جبريل. ثبت هذا أيضا في صحيح مسلم. وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: (رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت)[٣] ذكره المهدوي.

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٢٥٠) وقال: "غريب جداً".
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٠)، وصحح إسناده الشيخ شاكر في تعليقه على "المسند"، (٤٣٩٦).

قولـه تعالى: ﴿عند سدرة المنتهى﴾ "عند" من صلة "رآه" على ما بينا. والسدر شجر النبق وهي في السماء السادسة، وجاء في السماء السابعة. والحديث بهذا في صحيح مسلم؛ الأول ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال: لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، قال: "إذ يغشى السدرة ما يغشى" قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحمات(١). الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: (لما رفعت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات)(٢) لفظ الدارقطني. والنبق بكسر الباء: ثمر السدر الواحد نبقة. ويقال: نبق بفتح النون وسكون الباء؛ ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبي ﷺ. وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وقد ذكر لـه سدرة المنتهى ـ قال: (يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلـها مائة راكب ـ شك يحيى ـ فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال)(٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

قلت: وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس (ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها)(٤). واختلف لم سميت سدرة المنتهى على أقوال تسعة: الأول: ما تقدم عن ابن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها. الثاني: أنه ينتهي علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها؛ قالـه ابن عباس. الثالث: أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها؛ قالـه الضحاك. الرابع: لانتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها؛ قالـه كعب. الخامس: سميت سدرة المنتهى لأنها ينتهي إليها أرواح الشهداء؛ قالـه الربيع بن أنس. السادس: لأنه تنتهي إليها أرواح المؤمنين؛ قالـه قتادة. السابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة محمد ﷺ ومنهاجه؛ قالـه علي ﷺ والربيع بن أنس أيضا. الثامن: هي شجرة على رؤوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق؛ قالـه كعب أيضا.

قلت: يريد ـ والله أعلم ـ أن ارتفاعها وأعالي أغصانها قد جاوزت رؤوس حملة العرش؛ ودليلـه على ما تقدم من أن أصلـها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رؤوس حملة العرش. والله أعلم.

التاسع: سميت بذلك لأن من رفع إليها فقد انتهى في الكرامة. وعن أبي هريرة لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى فقيل لـه هذه سدرة المنتهى ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣).
(٢) وهو في الصحيحين أيضاً.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٤١)، وقال: "حديث حسن غريب".
(٤) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين.

سنتك؛ فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن ! وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرع في ظلها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمة كلها؛ ذكره الثعلبي.

قوله تعالى: ﴿ عندها جنة المأوى ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سدرة المنتهى. وقرأ علي وأبو هريرة وأنس وأبو سبرة الجهني وعبد الله بن الزبير ومجاهد "عندها جنة المأوى" يعني جنه المبيت. قال مجاهد: يريد أجنه. والهاء للنبي ﷺ. وقال الأخفش: أدركه كما تقول جنه الليل أي ستره وأدركه. وقراءة العامة "جنة المأوى" قال الحسن: هي التي يصير إليها المتقون. وقيل: إنها الجنة التي يصير إليها أرواح الشهداء؛ قاله ابن عباس. وهى عن يمين العرش. وقيل: هي الجنة التي آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهي في السماء السابعة. وقيل: إن أرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى. وإنما قيل لها: جنة المأوى لأنها تأوي إليها أرواح المؤمنين وهي تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها. وقيل: لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه: فراش من ذهب. ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبي ﷺ. وقد تقدم في صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله. وقال الحسن: غشيها نور رب العالمين فاستنارت. قال القشيري: وسئل رسول الله ﷺ ما غشيها؟ قال: (فراش من ذهب)[1]. وفي خبر آخر (غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها). وقال الربيع بن أنس: غشيها نور الرب والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة. وعن النبي ﷺ قال: (رأيت السدرة يغشاها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة ملكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله: ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾) ذكره المهدوي والثعلبي. وقال أنس بن مالك: "إذ يغشى السدرة ما يغشى" قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعا. وقال مجاهد: إنه رفرف أخضر. وعنه ﷺ: (يغشاها رفرف من طير خضر). وعن ابن عباس: يغشاها رب العزة؛ أي أمره كما في صحيح مسلم مرفوعا: (فلما غشيها من أمر الله ما غشي)[2]. وقيل: هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال: إذ يغشى السدرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته. وهكذا قوله تعالى: "فأوحى إلى عبده ما أوحى" ﴿ والمؤتفكة أهوى. فغشاها ما غشى ﴾ (النجم: ٥٣ـ٥٤) ومثله: ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ (الحاقة: ١). وقال الماوردي في معاني القرآن له: فإن قيل لم اختيرت السدرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل: لأن السدرة تختص بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة ذكية؛ فشابهت الإيمان الذي يجمع قولا وعملا ونية؛ فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النية لكمونه، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره. وروى أبو داود في سننه قال: حدثنا نصر ابن علي قال حدثنا أبو أسامة عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم عن

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١١٤) وقال: "رواه أبو يعلى، وفيه جويبر، وهو ضعيف".
(٢) جزء من حديث الإسراء، أخرجه مسلم (١٩٢).

عبد الله بن حبشي، قال: قال رسول الله ﷺ: (من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار)[١] وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر يعني من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون لـه فيها صوب الله رأسه في النار.

قولـه تعالى: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ قال ابن عباس: أي ما عدل يمينا ولا شمالا، ولا تجاوز الحد الذي رأى. وقيل: ما جاوز ما أمر به. وقيل: لم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات. وهذا وصف أدب للنبي ﷺ في ذلك المقام؛ إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا. قولـه تعالى: "لقد رأى من آيات ربه الكبرى" قال ابن عباس: رأى رفرفا سد الأفق. وذكر البيهقي عن عبد الله قال: ("رأى من آيات ربه الكبرى" قال ابن عباس: رأى رفرفا أخضر سد أفق السماء. وعنه قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في حلة رفرف أخضر، قد ملأ ما بين السماء والأرض) قال البيهقي: قولـه في الحديث (رأى رفرفا) يريد جبريل عليه السلام في صورته في رفرف، والرفرف البساط. ويقال: فراش. ويقال: بل هو ثوب كان لباسا لـه؛ فقد روي أنه رآه في حلة رفرف.

قلت: خرجه الترمذي عن عبد الله قال: ("ما كذب الفؤاد ما رأى" قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في حلة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض)[٢] قال: هذا حديث حسن صحيح.

قلت: وقد روي عن ابن عباس في قولـه تعالى: "دنا فتدلى" أنه على التقديم والتأخير؛ أي تدلى الرفرف لمحمد ﷺ ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه. قال: (فارقني جبريل وانقطعت عني الأصوات وسمعت كلام ربي) فعلى هذا الرفرف ما يقعد ويجلس عليه كالبساط وغيره. وهو بالمعنى الأول جبريل. قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان: رأى جبريل عليه السلام في صورته التي يكون فيها في السموات؛ وكذا في صحيح مسلم عن عبد الله قال: "لقد رأى من آيات ربه الكبرى" قال رأى جبريل في صورته لـه ستمائة جناح[٣] ولا يبعد مع هذا أن يكون في حلة رفرف وعلى رفرف. والله أعلم. وقال الضحاك: رأى سدرة المنتهى. وعن ابن مسعود: رأى ما غشي السدرة من فراش الذهب؛ حكاه الماوردي. وقيل: رأى المعراج. وقيل: هو ما رأى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه؛ وهو أحسن؛ دليلـه: ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ (الإسراء: ١) و"من" يجوز أن تكون للتبعيض، وتكون "الكبرى" مفعولة لـ "رأى" وهي في الأصل صفة الآيات ووحدت لرؤوس الآيات. وأيضا يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقولـه تعالى: ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ (طه: ١٨)وقيل: "الكبرى" نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الكبرى. ويجوز أن تكون "من" زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى. وقيل: فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى من آيات ربه.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٤٧٦).
(٢) صحيح.
(٣) أخرجه مسلم (١٧٤)، وعلقه البخاري (٤٨٥٧).

قولـه تعالى: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبي ﷺ، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاج المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل وقال: أفرأيتم هذه الآلـهة التي تعبدونها أوْحَيْنَ إليكم شيئا كما أوحي إلى محمد. وكانت اللات لثقيف، والعزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال هشام: فكانت مناة لـهذيل وخزاعة؛ فبعث رسول الله ﷺ عليا ؓ فهدمها عام الفتح. ثم اتخذوا اللات بالطائف، وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة، وكان سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمي زيد اللات وتيم اللات. وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. ثم اتخذوا العزى وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عرق، فبنوا عليها بيتا وكانوا يسمعون منها الصوت. قال ابن هشام: وحدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كانت العزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، بعث خالد بن الوليد ؓ فقال: (ايت بطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى) فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال: (هل رأيت شيئاً) قال: لا. قال: (فاعضد الثانية) فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ فقال: (هل رأيت شيئاً) قال: لا. قال: (فاعضد الثالثة) فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها، وخلفها دبية السلمي وكان سادنها فقال:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة، ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: (تلك العزى ولن تعبد أبدا)[1] وقال ابن جبير: العزى حجر أبيض كانوا يعبدونه. قتادة: نبت كان ببطن نخلة. ومناة: صنم لخزاعة. وقيل: إن اللات فيما ذكر بعض المفسرين أخذه المشركون من لفظ الله، والعزى من العزيز، ومناة من منى الله الشيء إذا قدره. وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح "اللاتّ" بتشديد التاء وقالوا: كان رجلا يلت السويق للحاج ذكر البخاري عن ابن عباس ـ فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. ابن عباس: كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاما لصاحب السويق. أبو صالح: إنما كان رجلا بالطائف فكان يقوم على آلـهتهم ويلت لـهم السويق فلما مات عبدوه. مجاهد: كان رجل في رأس جبل لـه غُنَيْمة يسلي منها السمن ويأخذ منها الأقط ويجمع رسلـها، ثم يتخذ منها حيسا فيطعم الحاج، وكان ببطن نخلة فلما مات عبدوه وهو اللات. وقال الكلبي: كان رجلا من ثقيف يقال لـه صرمة بن غنم. وقيل: إنه عامر بن ظرب العدواني. قال الشاعر شداد بن عارض الجتتمي:

لا تنصروا اللات إن الله مهلكها وكيف ينصركم من ليس ينتصر

والقراءة الصحيحة "اللات" بالتخفيف اسم صنم والوقوف عليها بالتاء وهو اختيار الفراء. قال الفراء: وقد رأيت الكسائي سأل أبا فقعس الأسدي فقال ذاه لذات ولاه للات وقرأ "أفرأيتم اللاه" وكذا قرأ الدوري عن الكسائي والبزي عن ابن كثير "اللاه" بالـهاء في الوقف، ومن قال: إن

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ١٧٦) عن أبي الطفيل مرفوعاً، وقال: "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أنه مرسل".

"اللات" من الله وقف بالـهاء أيضا. وقيل: أصلـها لاهة مثل شاة أصلـها شاهة وهي من لاهت أي اختفت؛ قال الشاعر:

لاهت فما عرفت يوما بخارجة   يا ليتها خرجــت حتى رأيناها

وفي الصحاح: اللات اسم صنم كان لثقيف وكان بالطائف، وبعض العرب يقف عليها بالتاء، وبعضهم بالـهاء؛ قال الأخفش: سمعنا من العرب من يقول اللات والعزى، ويقول هي اللات فيجعلـها تاء في السكوت وهي اللات فأعلم أنه جر في موضع الرفع؛ فهذا مثل أمس مكسور على كل حال وهو أجود منه؛ لأن الألف واللام اللتين في اللات لا تسقطان وإن كانتا زائدتين؛ وأما ما سمعنا من الأكثر في اللات والعزى في السكوت عليها فاللاه لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثل كان من الأمر كيت وكيت، وكذلك هيهات في لغة من كسرها؛ إلا أنه يجوز في هيهات أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللات؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الاسم على حرف واحد.

قولـه تعالى: ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد والسلمي والأعشى عن أبي بكر "ومناءة" بالمد والـهمز. والباقون بترك الـهمز لغتان. وقيل: سمي بذلك؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه. وبذلك سميت منى لكثرة ما يراق فيها من الدماء. وكان الكسائي وابن كثير وابن محيصن يقفون بالـهاء على الأصل. الباقون بالتاء اتباعا لخط المصحف. وفي الصحاح: ومناة اسم صنم كان لـهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، والـهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهي لغة، والنسبة إليها منوي. وعبد مناة بن أد بن طابخة، وزيد مناة بن تميم بن مرٍّ يمد ويقصر؛ قال هوبر الحارثي:

ألا هل أتى التيم بن عبد مناءة   على الشنء فيما بيننا ابن تميم

قوله تعالى: "الأخرى" العرب لا تقول للثالثة أخرى وإنما الأخرى نعت للثانية، واختلفوا في وجهها فقال الخليل: إنما قال ذلك لوفاق رؤوس الآي؛ كقولـه: ﴿ مآرب أخرى ﴾ (طه: ١٨) ولم يقل آخر. وقال الحسين بن الفضل: في الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة. وقيل: إنما قال "ومناة الثالثة الأخرى" لأنها كانت مرتبة عند المشركين في التعظيم بعد اللات والعزى فالكلام على نسقه. وقد ذكرنا عن ابن هشام: أن مناة كانت أولا في التقديم، فلذلك كانت مقدمة عندهم في التعظيم؛ والله أعلم. وفي الآية حذف دل عليه الكلام؛ أي أفرأيتم هذه الآلـهة هل نفعت أو ضرت حتى تكون شركاء لله. ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ: "ألكم الذكر ولـه الأنثى" ردآ عليهم قولـهم: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله. قولـه تعالى: "تلك إذا" يعني هذه القسمة "قسمة ضيزى" أي جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق. يقال: ضاز في الحكم أي جار، وضاز حقه يضيزه ضيزا ـ عن الأخفش ـ أي نقصه وبخسه. قال: وقد يهمز فيقال ضأزه يضأزه ضأزا وأنشد:

فإن تنأ عنا ننتقصــك وإن تقم فقسمك مضؤوز وأنفك راغم

وقال الكسائي: يقال ضاز يضيز ضيزا، وضاز ضوزاً، وضأز يضأز ضأزا إذا ظلم وتعدى وبخس وانتقص؛ قال الشاعر امرؤ القيس:

ضازت بنو أسد بحكمهــم إذ يجعلون الرأس كالذنب

قولـه تعالى: ﴿ قسمة ضيزى ﴾ أي جائرة، وهي فعلى مثل طوبى وحبلى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس في الكلام فعل صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشعرى والدفلى. قال الفراء: وبعض العرب تقول ضوزى وضئزى بالـهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد: أنه سمع العرب تهمز "ضيزى". قال غيره: وبها قرأ ابن كثير؛ جعلـه مصدرا مثل ذكرى وليس بصفة؛ إذ ليس في الصفات فعْلى ولا يكون أصلـها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهي من قولـهم ضأزته أي ظلمته. فالمعنى قسمة ذات ظلم. وقد قيل هما لغتان بمعنى. وحكى فيها أيضا سواهما ضيزى وضأزى وضوزى وضؤزى. وقال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في ضيزى، وخافوا انقلاب الياء واوا وهي من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لـهذه العلة، كما قالوا في جمع أبيض بيض، والأصل بوض؛ مثل حمر وصفر وخضر. فأما من قال: ضاز يضوز فالاسم منه ضوزى مثل شورى.

قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها ﴾ أي ما هي يعني هذه الأوثان "إلا أسماء سميتموها" يعني نحتموها وسميتموها آلـهة. "أنتم وآباؤكم" أي قلدتموهم في ذلك. "ما أنزل الله بها من سلطان" أي ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان. "إن يتبعون إلا الظن" عاد من الخطاب إلى الخبر أي ما يتبع هؤلاء إلا الظن. "وما تهوى الأنفس" أي تميل إليه. وقراءة العامة "يتبعون" بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وابن السميقع "تتبعون" بالتاء على الخطاب. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس. "ولقد جاءهم من ربهم الـهدى" أي البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلـهة. "أم للإنسان ما تمنى" أي اشتهى أي ليس ذلك لـه. وقيل: "للإنسان ما تمنى" من البنين؛ أي يكون لـه دون البنات. وقيل: "أم للإنسان ما تمنى" من غير جزاء ليس الأمر كذلك وقيل: "أم للإنسان ما تمنى" من النبوة أن تكون فيه دون غيره. وقيل: "أم للإنسان ما تمنى" من شفاعة الأصنام؛ نزلت في النضر بن الحرث. وقيل: في الوليد بن المغيرة. وقيل: في سائر الكفار. "فلله الآخرة والأولى" يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد.

قولـه تعالى: ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى،

فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع لـه. قال الأخفش: الملك واحد ومعناه جمع؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (الحاقة: ٤٧). وقيل: إنما ذكر ملكا واحدا، لأن كم تدل على الجمع.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله. "ليسمون الملائكة تسمية الأنثى" أي كتسمية الأنثى، أي يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله. "وما لـهم به من علم" أي إنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يروه في كتاب. "إن يتبعون" أي ما يتبعون "إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا" في أن الملائكة إناث. قولـه تعالى: "فأعرض عمن تولى عن ذكرنا" يعني القرآن والإيمان. وهذا منسوخ بآية السيف. "ولم يرد إلا الحياة الدنيا" نزلت في النضر. وقيل: في الوليد. "ذلك مبلغهم من العلم" أي إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم. قال الفراء: صغرهم وازدرى بهم؛ أي ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة. وقيل: أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله. "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله" أي حاد عن دينه "وهو أعلم بمن اهتدى" فيجازي كلا بأعمالهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذي دل عليه "ولله ما في السموات وما في الأرض" كأنه قال: هو مالك ذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. وقيل: "لله ما في السموات وما في الأرض" معترض في الكلام؛ والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيلـه وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي. وقيل: هي لام العاقبة، أي ولله ما في السموات وما في الأرض؛

أي وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن؛ فللمسيء السوءى وهي جهنم، وللمحسن الحسنى وهي الجنة.

قوله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾ هذا نعت للمحسنين؛ أي هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام. وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي "كبير" على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك. "والفواحش" الزنى: وقال مقاتل: "كبائر الإثم" كل ذنب ختم بالنار. "والفواحش" كل ذنب فيه الحد. وقد مضى في "النساء" القول في هذا. ثم استثنى استثناء منقطعاً.

وهى المسألة الثانية: فقال: "إلا اللمم" وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه. وقد اختلف في معناها؛ فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبي: "اللمم" كل ما دون الزنى. وذكر مقاتل بن سليمان: أن هذه الآية نزلت في رجل كان يسمى نبهان التمار؛ كان له حانوت يبيع فيه تمرا، فجاءته امرأة تشتري منه تمرا فقال لها: إن داخل الدكان ما هو خير من هذا، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان؛ فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع؛ فقال: (لعل زوجها غاز) فنزلت هذه الآية، وقد مضى في آخر "هود" وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحذيفة ومسروق: إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال: زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي، وإنما يصدق ذلك أو يكذبه الفرج؛ فإن تقدم كان زنى وإن تأخر كان لمما. وفي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[1]. والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة هو في الفرج وغيره له حظ من الإثم. والله أعلم. وفي رواية أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى مدرك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطا والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج ويكذبه). خرّجه مسلم. وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ابن عباس فذكر فيه الأذن واليد والرجل، وزاد فيه بعد العينين واللسان: (وزنى الشفتين القبلة)[2]. فهذا قول. وقال ابن عباس أيضا: هو الرجل يلم بذنب ثم يتوب. قال: ألم تسمع النبي ﷺ كان يقول:

إن يغفر الله يغفر جما   وأي عبد لك لا ألما[3]

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس. قال النحاس: هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادا. وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس في قول الله عز وجل "إلا اللمم" قال: هو أن يلم العبد بالذنب ثم لا يعاوده؛ قال الشاعر أمية بن أبي الصلت:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٠) عن ابن مسعود موقوفاً عليه وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه". وأقره الذهبي.

(٣) "صحيح" انظر صحيح الجامع (١٤١٧).

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبـد لك لا ألما

وكذا قال مجاهد والحسن: هو الذي يأتي الذنب ثم لا يعاوده، ونحوه عن الزهري، قال: اللمم أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود. ودليل هذا التأويل قولـه تعالى: ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ (آل عمران: ١٣٥) الآية. ثم قال: ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾ (آل عمران: ١٣٦) فضمن لـهم المغفرة؛ كما قال عقيب اللمم: "إن ربك واسع المغفرة" فعلى هذا التأويل يكون "إلا اللمم" استثناء متصلاً. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك. وقيل: اللمم الذنب بين الحدين وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا، ولا توعد عليه بعذاب في الآخرة تكفره الصلوات الخمس. قالـه ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة. ورواه العوفي والحكم بن عتيبة عن ابن عباس. وقال الكلبي: اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة؛ فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه. وعن ابن عباس أيضا وأبي هريرة وزيد بن ثابت: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم به. وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت وقالـه زيد بن أسلم وابنه؛ وهو كقولـه تعالى: ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ (النساء: ٢٣). وقيل: اللمم هو أن يأتي بذنب لم يكن لـه بعادة؛ قالـه نفطويه. قال: والعرب تقول ما يأتينا إلا لماما؛ أي في الحين بعد الحين. قال: ولا يكون أن يلم ولا يفعل، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا هم ولم يفعلـه. وفي الصحاح: وألمّ الرجل من اللمم وهو صغائر الذنوب، ويقال: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. وأنشد غير الجوهري:

بزينب ألمم قبل أن يرحل الركب وقـل إن تملينا فمـا مـلك القلب

أي اقرب. وقال عطاء بن أبي رباح: اللمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ على القلب؛ أي خطر. وقال محمد بن الحنفية: كل ما هممت به من خير أو شر فهو لمم. ودليل هذا التأويل قولـه عليه الصلاة والسلام: (إن للشيطان لمة وللملك لمة)[1] الحديث. وقد مضى في "البقرة" عند قولـه تعالى: "الشيطان يعدكم الفقر". وقال أبو إسحاق الزجاج: أصل اللمم والإلمام ما يعملـه الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه ولا يقيم عليه؛ يقال: ألممت به إذا زرته وانصرفت عنه، ويقال: ما فعلته إلا لمما وإلماما؛ أي الحين بعد الحين. وإنما زيارتك إلمام، ومنه إلمام الخيال؛ قال الأعشى:

ألـمّ خيـال مـن قتيلـة بعدما وهى حبلـها من حبلنا فتصرما

وقيل: إلا بمعنى الواو. وأنكر هذا الفراء وقال: المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب. وقيل: اللمم النظرة التي تكون فجأة.

قلت: هذا فيه بعد إذ هو معفو عنه ابتداء غير مؤاخذ به؛ لأنه يقع من غير قصد واختيار، وقد مضى في "النور" بيانه. واللمم أيضا طرف من الجنون، ورجل ملموم أي به لمم. ويقال أيضا: أصابت فلانا لمة من الجن وهي المس والشيء القليل؛ قال الشاعر:

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (١٩٦١).

فإذا وذلك يا كبيشة لم يكن إلا كلمّـة حالـــم بخيال

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ لمن تاب من ذنبه واستغفر؛ قالـه ابن عباس. وقال أبو ميسرة عمرو بن شرحبيل وكان من أفاضل أصحاب ابن مسعود: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة فإذا قباب مضروبة، فقلت: لمن هذه؟ فقالوا: لذي الكلاع وحوشب، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا، فقلت: وكيف ذلك؟ فقالوا: إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة. فقال أبو خالد: بلغني أن ذا الكلاع أعتق اثني عشر ألف بنت. قولـه تعالى: "هو أعلم بكم" من أنفسكم "إذ أنشأكم من الأرض" يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع. قال الترمذي أبو عبد الله: وليس هو كذلك عندنا، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض، وكنا جميعا في تلك التربة وفي تلك الطينة، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذرو النفوس على اختلاف هيئتها، ثم استخرجها من صلبها على اختلاف الـهيئات؛ منهم كالدر يتلألأ، وبعضهم أنور من بعض، وبعضهم أسود كالحممة، وبعضهم أشد سوادا من بعض؛ فكان الإنشاء واقعا علينا وعليه. حدثنا عيسى بن حماد العسقلاني قال: حدثنا بشر بن بكر، قال: حدثنا الأوزاعي، قال: قال رسول الله ﷺ: (عرض علي الأولون والآخرون بين يدي حجرتي هذه الليلة) فقال قائل: يا رسول الله! ومن مضى من الخلق؟ قال: (نعم عرض علي آدم فمن دونه فهل كان خُلقَ أحد) قالوا: ومن في أصلاب الرجال وبطون الأمهات؟ قال: (نعم مثلوا في الطين فعرفتهم كما علَم آدم الأسماء كلـها)[(١)].

قلت: وقد تقدم في أول "الأنعام" أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التي يدفن فيها. "وإذ أنتم أجنة" جمع جنين وهو الولد ما دام في البطن، سمي جنينا لاجتنانه واستتاره. قال عمرو بن كلثوم:

هجان اللون لم تقرأ جنينا

وقال مكحول: كنا أجنة في بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقي، ثم صرنا رضعا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك، وكنا فيمن بقي ثم صرنا شبابا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقي، ثم صرنا شيوخا لا أبا لك ـ فما بعد هذا ننتظر؟!. وروى ابن لـهيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لـهم صبي صغير: هو صديق؛ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: (كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد)[(٢)] فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية: "هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض" إلى آخرها. ونحوه عن عائشة: (كان اليهود). بمثلـه. "فلا تزكوا أنفسكم" أي لا تمدحوها ولا تثنوا عليها، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع. "هو أعلم بمن اتقى" أي أخلص العمل واتقى عقوبة الله؛ عن الحسن وغيره. قال الحسن: قد علم الله سبحانه كل نفس ما هي عاملة، وما هي صانعة، وإلى ما هي صائرة. وقد مضى فـي "النساء" الكلام في معنى هذه الآية عند قولـه تعالى: ﴿ ألم تر إلى

---

(١) ضعيف لانقطاعه.

(٢) وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٦٦) لابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي نعيم في "المعرفة"، وابن مردويه والواحدي، وابن لهيعة سيء الحفظ.

الذين يزكون أنفسهم ﴾ (النساء: ٤٩﴾ فتأمله هناك. وقال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمة أزكيه غير رسول الله ﷺ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ (٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥)﴾

قوله تعالى: ﴿ أفرأيت الذي تولى. وأعطى قليلا وأكدى ﴾ الآيات لما بيّن جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله. قال مجاهد وابن زيد ومقاتل: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فعيره بعض المشركين، وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال مقاتل: كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنه فنزل: "وأعطى قليلا" أي من الخير بلسانه "وأكدى" أي قطع ذلك وأمسك عنه. وعنه أنه أعطى رسول الله ﷺ عقد الإيمان ثم تولى فنزلت: "أفرأيت الذي تولى" الآية. وقال ابن عباس والسدي والكلبي والمسيب بن شريك: نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصدق وينفق في الخير، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح: ما هذا الذي تصنع؟ يوشك ألا يبقى لك شيء. فقال عثمان: إن لي ذنوبا وخطايا، وإني أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه! فقال له عبد الله: أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه وأشهد عليه، وأمسك عن بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله تعالى: "أفرأيت الذي تولى. وأعطى قليلا وأكدى" فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله. ذكر ذلك الواحدي والثعلبي. وقال السدي أيضا: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وذلك أنه كان ربما يوافق النبي ﷺ وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت في أبي جهل بن هشام، قال: والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق؛ فذلك قوله تعالى: "وأعطى قليلا وأكدى". وقال الضحاك: هو النضر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه. وأصل "أكدى" من الكدية يقال لمن حفر بئرا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حفر: قد أكدى، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يتمم، ولمن طلب شيئا ولم يبلغ آخره. وقال الحطيئة:

فأعطى قليلا ثم أكدى عطاءه ... ومن يبذل المعروف في الناس يحمد

قال الكسائي وغيره: أكدى الحافر وأجبل إذا بلغ في حفره كدية أو جبلا فلا يمكنه أن يحفر. وحفر فأكدى إذا بلغ إلى الصلب. ويقال: كديت أصابعه إذا كلت من الحفر. وكديت يده إذا كلت فلم تعمل شيئا. وأكدى النبت إذا قل ريعه، وكدت الأرض تكدو كدوا فهي كادية إذا أبطأ نباتها؛ عن أبي زيد. وأكديت الرجل عن الشيء رددته عنه. وأكدى الرجل إذا قل خيره. وقوله: "وأعطى قليلا وأكدى" أي قطع القليل.

قوله تعالى: ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أي أعند هذا المكدي علم ما غاب عنه من أمر العذاب؟. "فهو يرى" أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل

العذاب عن غيره، وكفى بهذا جهلا وحمقا. وهذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال: فهو يرى الغيب مثل الشهادة.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢)﴾

قوله تعالى: ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم ﴾ أي صحف "وإبراهيم الذي وفى" كما في سورة "الأعلى" ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ (الأعلى: ١٩) أي لا تؤخذ نفس بدلا عن أخرى؛ كما قال "أن لا تزر وازرة وزر أخرى" وخص صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل "وأن" هي المخففة من الثقيلة وموضعها جر بدلاً من "ما" أو يكون في موضع رفع على إضمار هو. وقرأ سعيد بن جبير وقتادة "وفى" خفيفة ومعناها صدق في قوله وعمله، وهي راجعة إلى معنى قراءة الجماعة "وفى" بالتشديد أي قام بجميع ما فرض عليه فلم يخرم منه شيئا. وقد مضى في "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ (البقرة: ١٢٤) والتوفية الإتمام. وقال أبو بكر الوراق: قام بشرط ما ادعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ (البقرة: ١٣١) فطالبه الله بصحة دعواه، فابتلاه في ماله وولده ونفسه فوجده وافيا بذلك؛ فذلك قوله: "وإبراهيم الذي وفى" أي ادعى الإسلام ثم صحح دعواه. وقيل: وفى عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر النهار؛ رواه الهيثم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ. وروى سهل بن سعد الساعدي عن أبيه (ألا أخبركم لم سمى الله تعالى خليله إبراهيم "الذي وفى" لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى: ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ (الروم: ١٧) الآية)[١]. ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبي ﷺ.[٢] وقيل: "وفى" أي وفى ما أرسل به، وهو قوله: "أن لا تزر وازرة وزر أخرى" قال ابن عباس: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره، ويأخذون الولي بالولي في القتل والجراحة؛ فيقتل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى: "أن لا تزر وازرة وزر أخرى" وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير في قوله تعالى "وفى": عمل بما أمر به وبلغ رسالات ربه. وهذا أحسن؛ لأنه عام. وكذا قال مجاهد: "وفى" بما فرض عليه. وقال أبو مالك الغفاري قوله تعالى: "أن لا تزر وازرة وزر أخرى" إلى قوله: ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ (النجم: ٥٥) في صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى في آخر "الأنعام" القول في ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (الأنعام: ١٦٤) مستوفى.

قوله تعالى: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ روي عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ (الطور: ٢١) فيحصل الولد الطفل يوم

---

(١) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٢٥٨) من رواية ابن أبي حاتم، وفي سنده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ١١٧): "رواه الطبراني، وفيه ضعفاء وثقوا".

القيامة في ميزان أبيه، ويشفّع الله تعالى الآباء في الأبناء والأبناء في الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ (النساء: ١١). وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة ولا ينفع أحدا عمل أحد، وأجمعوا أنه لا يصلي أحد عن أحد. ولم يجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال: إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنه. وأجاز الشافعي وغيره الحج التطوع عن الميت. وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن وأعتقت عنه. وروي أن سعد بن عبادة قال للنبي ﷺ: إن أمي توفيت أفأتصدق عنها؟ قال: (نعم) قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: (سقي الماء)[١]. وقد مضى جميع هذا مستوفى في "البقرة"[٢] و"آل عمران"[٣] و"الأعراف". وقد قيل: إن الله عز وجل إنما قال: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" ولام الخفض معناها في العربية الملك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شيء إلا أن الله عز وجل يتفضل عليه بما لا يجب له، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل. وقال الربيع بن أنس: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" يعني الكافر وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره.

قلت: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدم كثير منها لمن تأملها، وليس في الصدقة اختلاف، كما في صدر كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك. وفي الصحيح: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث) وفيه (أو ولد صالح يدعو له)[٤] وهذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه، كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة؛ كما قيل لأبي هريرة: أسمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة) فقال سمعته يقول: (إن الله ليجزي على الحسنة الواحدة ألفي ألف حسنة) فهذا تفضل. وطريق العدل "أن ليس للإنسان إلا ما سعى".

قلت: ويحتمل أن يكون قوله: "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى" خاص في السيئة؛ بدليل ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (قال الله عز وجل إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة)[٥]. وقال أبو بكر الوراق: "إلا ما سعى" إلا ما نوى؛ بيانه قوله ﷺ: (يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم)[٦].

قوله تعالى: ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أي يريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة "ثم يجزاه" أي يجزى به "الجزاء الأوفى" قال الأخفش: يقال جزيته الجزاء، وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما قال الشاعر:

---

(١) حسن، أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم وغيرهم، وانظر صحيح ابن ماجه (٢٩٧١).
(٢) عند تفسير الآية رقم (٢٨٦).
(٣) عند تفسير الآية رقم (٩٧).
(٤) أخرجه مسلم (١٦٣١).
(٥) أخرجه مسلم (١٢٨). وهو أيضا في البخاري.
(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٨٨٢).

إن أجز علقمة بن سعد سعيه لم أجزه ببلاء يوم واحد

فجمع بين اللغتين.

قوله تعالى: ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي المرجع والمرد والمصير فيعاقب ويثيب. وقيل: منه ابتداء المنة وإليه انتهاء الأمان. وعن أبي بن كعب قال: قال النبي ﷺ في قوله: "وأن إلى ربك المنتهى" قال: (لا فكرة في الرب)[(١)]. وعن أنس: قال النبي ﷺ: (إذ ذكر الله تعالى فانته)[(٢)]. قلت: ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته)[(٣)] وقد تقدم في آخر (الأعراف). ولقد أحسن من قال:

ولا تفكرن في ذي العلا عز وجهه فإنك تردى إن فعلت وتخذل

ودونك مصنوعاته فاعتبر بها وقل مثل ما قال الخليل المبجل

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو؛ وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: لا والله ما قال رسول الله قط إن الميت يعذب ببكاء أحد، ولكنه قال: (إن الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذابا وإن الله لهو أضحك وأبكى وما تزر وازرة وزر أخرى)[(٤)]. وعنها قالت: مر النبي ﷺ على قوم من أصحابه وهم يضحكون، فقال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد! إن الله يقول لك: "وأنه هو أضحك وأبكى". فرجع إليهم فقال: (ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل فقال ايت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول: "هو أضحك وأبكى)[(٥)] أي قضى أسباب الضحك والبكاء. وقال عطاء بن أبي مسلم: يعني أفرح وأحزن؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء. وقيل لعمر: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم! والإيمان والله أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي. وقد تقدم هذا المعنى في "النمل" و"التوبة". قال الحسن: أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار. وقيل: أضحك من شاء في الدنيا بأن سره وأبكى من شاء بأن غمه. الضحاك: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر. وقيل: أضحك الأشجار بالنوار، وأبكى السحاب بالأمطار. وقال ذو النون: أضحك قلوب المؤمنين والعارفين

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ١٧٠) وعزاه إلى الدارقطني في الأفراد والبغوي في تفسيره. وهو ضعيف.

(٢) ضعيف.

(٣) صحيح، وقد سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٩٢٩)، وكذا البخاري في غير موضع من صحيحه.

(٥) أخرجه ابن مردويه بهذا اللفظ كما في الدر المنثور (٦/ ١٧٠)، وسنده ضعيف، وأخرجاه في الصحيحين مقتصرين على قوله: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً".

بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته. وقال سهل بن عبد الله: أضحك الله المطيعين بالرحمة وأبكى العاصين بالسخط. وقال محمد بن علي الترمذي: أضحك المؤمن في الآخرة وأبكاه في الدنيا. وقال بسام بن عبد الله: أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم. وأنشد:

السن تضحك والأحشاء تحترق   وإنما ضحكها زور ومختلق
يا رُبَّ باك بعين لا دموع لها   ورُبَّ ضاحك سن ما به رمق

وقيل: إن الله تعالى خص الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان. وقد قيل: إن القرد وحده يضحك ولا يبكي، وإن الإبل وحدها تبكي ولا تضحك. وقال يوسف بن الحسين: سئل طاهر المقدسي أتضحك الملائكة؟ فقال: ما ضحكوا ولا كل من دون العرش منذ خلقت جهنم. "وأنه هو أمات وأحيا" أي قضى أسباب الموت والحياة. وقيل: خلق الموت والحياة كما قال: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ (الملك: ٢) قاله ابن بحر. وقيل: أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان؛ قال الله تعالى: ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ﴾ (الأنعام: ١٢٢) الآية. وقال: "إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله" على ما تقدم، وإليه يرجع قول عطاء: أمات بعدله وأحيا بفضله. وقول من قال: أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل. وقيل: أمات النطفة وأحيا النسمة. وقيل: أمات الآباء وأحيا الأبناء. وقيل: يريد بالحياة الخصب وبالموت الجدب. وقيل: أنام وأيقظ. وقيل: أمات في الدنيا وأحيا للبعث. "وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى" أي من أولاد آدم ولم يرد آدم وحواء بأنهما خلقا من نطفة. والنطفة الماء القليل، مشتق من نطف الماء إذا قطر. "تمنى" تصب في الرحم وتراق؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح. يقال: منى الرجل وأمنى من المني، وسميت منى بهذا الاسم لما يمنى فيها من الدماء أي يراق. وقيل: "تمنى" تقدر؛ قاله أبو عبيدة. يقال: منيت الشيء إذا قدرته، ومني له أي قدر له؛ قال الشاعر أبو قلابة الهذلي:

حتى تلاقي ما يَمني لك الماني

أي ما يقدر لك القادر.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "النَّشَاءَةَ" بفتح الشين والمد؛ أي وعد ذلك ووعده صدق. "وأنه هو أغنى وأقنى" قال ابن زيد: أغنى من شاء وأفقر من شاء ثم قرأ ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾

(سبأ : ٣٩) وقرأ ﴿ يقبض ويبسط ﴾ (البقرة: ٢٤٥) واختاره الطبري. وعن ابن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن: "أغنى" موَّل "وأقنى" أخدم. وقيل: "أقنى" جعل لكم قنية تقتنونها، وهو معنى أخدم أيضا. وقيل: معناه أرضى بما أعطى أي أغناه ثم رضاه بما أعطاه؛ قالـه ابن عباس. وقال الجوهري : قني الرجل يقنى قنى؛ مثل غني يغنى غنى، وأقناه الله أي أعطاه الله ما يقتنى من القنية والنشب. وأقناه الله أيضا أي رضاه. والقنى الرضا، عن أبي زيد؛ قال وتقول العرب: من أعطي مائة من المعز فقد أعطي القنى، ومن أعطي مائة من الضأن فقد أعطي الغنى، ومن أعطي مائة من الإبل فقد أعطي المنى. ويقال: أغناه الله وأقناه أي أعطاه ما يسكن إليه. وقيل: "أغنى وأقنى" أي أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه؛ قاله سليمان التيمي. وقال سفيان: أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا. وقال الأخفش: أقنى أفقر. قال ابن كيسان: أولد، وهذا راجع لما تقدم. "وأنه هو رب الشعرى" "الشعرى" الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر، وهما الشعريان العبور التي في الجوزاء والشعرى الغميصاء التي في الذراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سهيل. وإنما ذكر أنه رب الشعرى وإن كان ربا لغيره؛ لأن العرب كانت تعبده؛ فأعلمهم الله جل وعز أن الشعرى مربوب ليس برب. واختلف فيمن كان يعبده؛ فقال السدي: كانت تعبده حمير وخزاعة. وقال غيره: أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبي ﷺ من قبل أمهاته، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبي ﷺ ابن أبي كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهم؛ وقالوا: ما لقينا من ابن أبي كبشة! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقد وقف في بعض المضايق وعساكر رسول الله ﷺ تمر عليه: لقد أمرَ أمْرُ ابن أبي كبشة. وقد كان من لا يعبد الشعرى من العرب يعظمها ويعتقد تأثيرها في العالم، قال الشاعر:

مضـى أيلول وارتفع الحرور وأخبت نارها الشعرى العبور

وقيل: إن العرب تقول في خرافاتها: إن سهيلا والشعرى كانا زوجين، فانحدر سهيل فصار يمانيا، فاتبعته الشعرى العبور فعبرت المجرة فسميت العبور، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت عيناها فسميت غميصاء لأنها أخفى من الأخرى.

قولـه تعالى: ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود. وقيل: إن ثمود من قبل عاد. وقال ابن زيد: قيل لـها عاد الأولى لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام. وقال ابن إسحاق: هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصرصر، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة. وقيل: عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى؛ والمعنى متقارب. وقيل: إن عاد الآخرة الجبارون وهم قوم هود. وقراءة العامة "عادا الأولى" ببيان التنوين والـهمز. وقرأ نافع وابن محيصن وأبو عمرو "عادا الأولى" بنقل حركة الـهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها، إلا أن قالون والسوسي يظهران الـهمزة الساكنة. وقلبها الباقون واوا على أصلـها؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول: قم الان عنا وضمً لثنين أي قم الآن وضم الاثنين. "وثمود فما أبقى" ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة. قرئ ﴿ ثمودا ﴾ (التوبة: ٧٠) وقد تقدم. وانتصب على العطف على عاد. "وقوم نوح من قبل" أي وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود "إنهم كانوا هم أظلم

وأطغى" وذلك لطول مدة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك؛ فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه. وقيل: إن الكناية ترجع إلى كل من ذكر من عاد وثمود وقوم نوح؛ أي كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى. فيكون فيه تسلية وتعزية للنبي ﷺ؛ فكأنه يقول لـه: فاصبر أنت أيضا فالعاقبة الحميدة لك. "والمؤتفكة أهوى" يعني مدائن قوم لوط عليه السلام ائتفكت بهم، أي انقلبت وصار عاليها سافلـها. يقال: أفكته أي قلبته وصرفته. "أهوى" أي خسف بهم بعد رفعها إلى السماء؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض. وقال المبرد: جعلـها تهوي. ويقال: هوى بالفتح يهوي هويا أي سقط و"أهوى" أي أسقط. "فغشاها ما غشى" أي ألبسها ما ألبسها من الحجارة؛ قال الله تعالى: ﴿ فجعلنا عاليها سافلـها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴾ (الحجر: ٧٤) وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم؛ أي غشاها من العذاب ما غشاهم، وأبهم لأن كلا منهم أهلك بضرب غير ما أهلك به الآخر. وقيل: هذا تعظيم الأمر. "فبأي آلاء ربك تتمارى" أي فبأي نعم ربك تشك. والمخاطبة للإنسان المكذب. والآلاء النعم واحدها أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ. وقرأ يعقوب "تمارى" بإدغام إحدى التاءين في الأخرى والتشديد.

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ قال ابن جريج ومحمد بن كعب: يريد أن محمدا ﷺ نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبلـه، فإن أطعتموه أفلحتم، وإلا حل بكم ما حل بمكذبي الرسل السالفة. وقال قتادة: يريد القرآن، وأنه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى. وقيل: أي هذا الذي أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لـهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أي مثل النذر؛ والنذر في قول العرب بمعنى الإنذار كالنـكر بمعنى الإنـكار؛ أي هذا إنذار لكم. وقال أبو مالك: هذا الذي أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو في صحف إبراهيم وموسى. وقال السدي أخبرني أبو صالح قال: هذه الحروف التي ذكر الله تعالى من قولـه تعالى: ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم ﴾ (النجم: ٣٧) إلى قولـه: "هذا نذير من النذر الأولى" كل هذه في صحف إبراهيم وموسى.

قولـه تعالى: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي قربت الساعة ودنت القيامة. وسماها آزفة لقرب قيامها عنده؛ كما قال: ﴿ يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ (المعارج: ٦ ـ ٧). وقيل: سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدوا لـها؛ لأن كل ما هو آت قريب. قال:

ازف الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحـالنا وكأن قد

وفي الصحاح: أزف الترحل يأزف أزفا أي دنا وأفد؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿ أزفت الآزفة ﴾ يعني القيامة، وأزف الرجل أي عجل فهو آزف على فاعل، والمتآزف القصير وهو المتداني. قال أبو زيد:

قلت لأعرابي ما المحبنطئ؟ قال: المتكأكئ. قلت: ما المتكأكئ؟ قال: المتآزف. قلت: ما المتآزف؟ قال: أنت أحمق وتركني ومر. "ليس لـها من دون الله كاشفة" أي ليس لـها من دون الله من يؤخرها أو يقدمها. وقيل: كاشفة أي انكشاف أي لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والـهاء فيه كالـهاء في العاقبة والعافية والداهية والباقية؛ كقولـهم: ما لفلان من باقية أي من بقاء. وقيل: أي لا أحد يرد ذلك؛ أي إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلـهتهم ولا ينجيهم غير الله تعالى. وقد سميت القيامة غاشية، فإذا كانت غاشية كان ردها كشفا، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف؛ أي نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة. وقيل: إن "كاشفة" بمعنى كاشف والـهاء للمبالغة مثل راوية وداهية.

قولـه تعالى: ﴿ أفمن هذا الحديث ﴾ يعني القرآن. وهذا استفهام توبيخ "تعجبون" تكذيبا به "وتضحكون" استهزاء "ولا تبكون" انزجارا وخوفا من الوعيد. وروي أن النبي ﷺ ما رئي بعد نزول هذه الآية ضاحكا إلا تبسما. وقال أبو هريرة: لما نزلت "أفمن هذا الحديث تعجبون" قال أهل الصفة: "إنا لله وإنا إليه راجعون" ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبي ﷺ بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه؛ فقال النبي ﷺ: (لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنة مصر على معصية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لـهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم)[1]. وقال أبو حازم: نزل جبريل على النبي ﷺ وعنده رجل يبكي، فقال لـه: من هذا؟ قال: هذا فلان؛ فقال جبريل: إنا نزن أعمال بني آدم كلـها إلا البكاء، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم. "وأنتم سامدون" أي لاهون معرضون. عن ابن عباس[2]؛ رواه الوالبي والعوفي عنه. وقال عكرمة عنه: هو الغناء بلغة حمير؛ يقال: سمد لنا أي غن لنا، فكانوا إذا سمعوا القرآن يتلى تغنوا ولعبوا حتى لا يسمعوا. وقال الضحاك: سامدون شامخون متكبرون. وفي الصحاح: سمد سمودا رفع رأسه تكبرا وكل رافع رأسه فهو سامد؛ قال رؤبة بن العجاج:

سوامد الليل خفاف الأزواد

يقول: ليس في بطونها علف. وقال ابن الأعرابي: سمدت سمودا علوت. وسمدت الإبل في سيرها جدت. والسمود اللهو، والسامد اللاهي؛ يقال للقَيْنة: أسمدينا؛ أي ألـهينا بالغناء. وتسميد الأرض أن يجعل فيها السماد وهو سرجين ورماد. وتسميد الرأس استئصال شعره، لغة في التسبيد. واسمأد الرجل بالـهمز اسمئدادا أي ورم غضبا. وروي عن علي ﷺ أن معنى "سامدون" أن يجلسوا غير مصلين ولا منتظرين الصلاة. وقال الحسن: واقفون للصلاة قبل وقوف الإمام؛ ومنه ما روي عن النبي ﷺ أنه خرج والناس ينتظرونه قياما فقال: (ما لي أراكم سامدين) حكاه الماوردي. وذكره المهدوي عن علي، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياما ينتظرونه فقال: (ما لكم سامدون) قاله

---

(١) ذكره المنذري في "الترغيب"، (٤/ ١٢٥)، وعزاه إلى البيهقي. والشطر الأول منه أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح كما في صحيح الجامع (٧٧٧٨)، وقوله: "ولو لم تذنبوا... إلخ" أخرجه مسلم وغيره.
(٢) رواه الطبراني ورجاله ثقات. كما في "المجمع"، (٧/ ١١٦).

المهدوي. والمعروف في اللغة: سمد يسمد سمودا إذ لـهَا وأعرض. وقال المبرد: سامدون خامدون؛ قال الشاعر:

أتى الحدثان نسوة آل حرب   بمقـدور سمدن لـه سمودا

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبي ﷺ "أفمن هذا الحديث تعجبون. وتضحكون ولا تبكون. وأنتم سامدون" لم ير ضاحكا إلا مبتسما حتى مات ﷺ. ذكره النحاس.

قولـه تعالى: ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ قيل: المراد به سجود تلاوة القرآن. وهو قول ابن مسعود. وبه قال أبو حنيفة والشافعي. وقد تقدم أول السورة من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ سجد فيها وسجد معه المشركون. وقيل: إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسـول الله ﷺ عند قولـه: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى ﴾ (النجم: ١٩) وأنه قال: تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن ترتجى. كذا في رواية سعيد بن جبير ترتجى. وفي رواية أبي العالية وشفاعتهن ترتضى، ومثلـهن لا ينسى. ففرح المشركون وظنوا أنه من قول محمد ﷺ على ما تقدم بيانه في "الحج". فلما بلغ الخبر بالحبشة من كان بها من أصحاب النبي ﷺ رجعوا ظنا منهم أن أهل مكة آمنوا؛ فكان أهل مكة أشد عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم. وقيل: المراد سجود الفرض في الصلاة وهو قول ابن عمر؛ كان لا يراها من عزائم السجود. وبه قال مالك. وروى أبي بن كعب ﷺ: كان آخر فعل النبي ﷺ ترك السجود في المفصل. والأول أصح وقد مضى القول فيه آخر "الأعراف" مبينا والحمد لله رب العالمين.

سورة القمر

مقدمة السورة :

مكية كلها في قول الجمهور. وقال مقاتل: إلا ثلاث آيات: "أم يقولون نحن جميع منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر" ولا يصح على ما يأتي. وهي خمس وخمسون آية.

قوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ "اقتربت" أي قربت مثل﴿ أزفت الآزفة ﴾ (النجم: ٥٧) على ما بيناه. فهي بالإضافة إلى ما مضى قريبة؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب فقال: (ما بقي من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى)[1] وما نرى من الشمس إلا يسيرا. وقال كعب ووهب: الدنيا ستة آلاف سنة. قال وهب: قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة. ذكره النحاس.

قوله تعالى: ﴿ وانشق القمر ﴾ أي وقد انشق القمر. وكذا قرأ حذيفة "اقتربت الساعة وقد انشق القمر" بزيادة "قد" وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس ﷺ. وعن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت: "اقتربت الساعة وانشق القمر" إلى قوله: "سحر مستمر" يقول ذاهب قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[2]. ولفظ البخاري عن أنس قال: انشق القمر فرقتين[3]. وقال قوم: لم يقع انشقاق القمر بعد وهو منتظر؛ أي اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر؛ وأن الساعة إذا قامت انشقت السماء بما فيها من القمر وغيره. وكذا قال القشيري. وذكر الماوردي: أن هذا قول الجمهور، وقال: لأنه إذا انشق ما بقي أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس في الآيات سواء. وقال الحسن: اقتربت الساعة فإذا جاءت انشق القمر بعد النفخة الثانية. وقيل: "وانشق القمر" أي وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وضح؛ قال:

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٢٦٠) من رواية البزار وقال: "هذا حديث مداره على خلف بن موسى العمي عن أبيه، وقد ذكره ابن حبان في "الثقات"، وقال: ربما أخطأ.

(٢) وهو كما قال، أخرجه في "التفسير"، (٣٢٨٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٦٤)، وفي مواضع كثيرة من صحيحه، ومسلم (٢٨٠٠).

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى حي سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطيات مطايا وأرحل

وقيل: انشقاق القمر هو انشقاق الظلمة عنه بطلوعه في أثنائها، كما يسمى الصبح فلقا؛ لانفلاق الظلمة عنه. وقد يعبر عن انفلاقه بانشقاقه كما قال النابغة:

فلما أدبروا ولهم دوي دعانا عند شق الصبح داع

قلت: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبي ﷺ من الله تعالى عند التحدي. فروي أن حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبا من سب أبي جهل الرسول ﷺ طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا في إيمانه. وقد تقدم في الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين كما في حديث ابن مسعود وغيره. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: ألا إن الساعة قد اقتربت، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ. وقد قيل: هو على التقديم والتأخير، وتقديره انشق القمر واقتربت الساعة؛ قاله ابن كيسان. وقد مر عن الفراء أن الفعلين إذا كانا متقاربي المعنى فلك أن تقدم وتؤخر عند قوله تعالى: ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ (النجم: ٨).

قوله تعالى: ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر. قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قبيس ونصف على قعيقعان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: (إن فعلت تؤمنون) قالوا: نعم؟ وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا؛ فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي المشركين: (يا فلان يا فلان اشهدوا)[١]. وفي حديث ابن مسعود: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا من سحر ابن أبي كبشة؛ سحركم فاسألوا السُّفَّار؛ فسألوهم فقالوا: قد رأينا القمر انشق فنزلت: "اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا" أي إن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان "ويقولوا سحر مستمر" أي ذاهب؛ من قولهم: مر الشيء واستمر إذا ذهب؛ قاله أنس وقتادة ومجاهد والفراء والكسائي وأبو عبيدة، واختاره النحاس. وقال أبو العالية والضحاك: محكم قوي شديد، وهو من المرة وهي القوة؛ كما قال لقيط:

حتى استمرت على شزر مريرته مــر العزيمة لا قحما ولا ضرعا

وقال الأخفش: هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شدة فتله. وقيل: معناه مر من المرارة. يقال: أمر الشيء صار مرا، وكذلك مر الشيء يمر بالفتح مرارة فهو مر، وأمره غيره ومره. وقال الربيع: مستمر نافذ. يمان: ماض. أبو عبيدة: باطل. وقيل: دائم. قال:

وليس على شيء قويم بمستمر

أي بدائم. وقيل: يشبه بعضه بعضا؛ أي قد استمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتي بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات. وقيل: معناه قد مر من الأرض إلى السماء. "وكذبوا" نبينا "واتبعوا

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٨٠٠) من رواية ابن مسعود.

أهواءهم" أي ضلالاتهم واختياراتهم. "وكل أمر مستقر" أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار. وقرأ شيبة "مستقر" بفتح القاف؛ أي لكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر. وقد روي عن أبي جعفر بن القعقاع "وكل أمر مستقر" بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و"كل" على هذا يجوز أن يرتفع بالابتداء والخبر محذوف، كأنه قال: وكل أمر مستقر في أم الكتاب كائن. ويجوز أن يرتفع بالعطف على الساعة؛ المعنى: اقتربت الساعة وكل أمر مستقر؛ أي اقترب استقرار الأمور يوم القيامة. ومن رفعه جعله خبرا عن "كل".

قوله تعالى: ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي من بعض الأنباء؛ فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه، وأن لهم فيه شفاء. وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك، وإنما اقتص علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي جاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية "ما فيه مزدجر" أي ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه. وأصله مزتجر فقلبت التاء دالا؛ لأن التاء حرف مهموس والزاي حرف مجهور، فأبدل من التاء دالا توافقها في المخرج وتوافق الزاي في الجهر. و"مزدجر" من الزجر وهو الانتهاء، يقال: زجره وازدجره فانزجر وازدجر، وزجرته أنا فانزجر أي كففته فكف، كما قال:

فأصبح ما يطلب الغانيا ت مزدجرا عن هواه ازدجارا

وقرئ "مزجر" بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاي فيها؛ حكاه الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿ حكمة بالغة ﴾ يعني القرآن وهو بدل من "ما" من قوله: "ما فيه مزدجر" ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف؛ أي هو حكمة. "فما تغن النذر" إذا كذبوا وخالفوا كما قال الله تعالى: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (يونس: ١٠١) فـ "ما" نفي أي ليست تغني عنهم النذر. ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ؛ أي فأي شيء تغني النذر عنهم وهم معرضون عنها و"النذر" يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير.

قوله تعالى: ﴿ فتول عنهم ﴾ أي أعرض عنهم. قيل: هذا منسوخ بآية السيف. وقيل: هو تمام الكلام. ثم قال: "يوم يدع الداع إلى شيء نكر" العامل في "يوم" "يخرجون من الأجداث" أو "خشعا" أو فعل مضمر تقديره واذكر يوم. وقيل: على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره: فتول عنهم فإن لهم يوم يدعو الداعي. وقيل: تول عنهم يا محمد فقد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعي. وقيل: أي أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون "إلى شيء نكر" وينالهم عذاب شديد. وهو كما تقول: لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم. وقيل: أي وكل أمر مستقر يوم يدعو الداعي. وقرأ ابن كثير "نكر" بإسكان الكاف، وضمها الباقون وهما لغتان كعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة. والداعي هو إسرافيل عليه السلام. وقد روي عن مجاهد وقتادة أنهما قرآ "إلى شيء نكر" بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول. "خشعا أبصارهم" الخشوع في البصر الخضوع والذلة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى: ﴿ أبصارها

خاشعة ﴾ (النازعات: ٩) وقال تعالى: ﴿ خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ (الشورى: ٤٥). ويقال: خشع واختشع إذا ذل. وخشع ببصره أي غضه. وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو "خاشعا" بالألف ويجوز في أسماء الفاعلين إذا تقدمت على الجماعة التوحيد، نحو: "خاشعا أبصارهم" والتأنيث نحو: ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ (القلم: ٤٣) ويجوز الجمع نحو: "خشعا أبصارهم" قال [الحرث بن دوس الإيادي]:

وشباب حسن أوجههم من إياد بن نزار بن معد

و"خشعا" جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم في "عنهم" فيقبح الوقف على هذا التقدير على "عنهم". ويجوز أن يكون حالا من المضمر في "يخرجون" فيوقف على "عنهم". وقرئ "خشع أبصارهم" على الابتداء والخبر، ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله:

وجدته حاضراه الجود والكرم

قوله تعالى: ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ أي القبور واحدها جدث. "كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع" وقال في موضع آخر: ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ (القارعة: ٤) فهما صفتان في وقتين مختلفين؛ أحدهما: عند الخروج من القبور، يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه في بعض لا جهة له يقصدها الثاني: فإذا سمعوا المنادي قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها. و"مهطعين" معناه مسرعين؛ قاله أبو عبيدة. ومنه قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع

الضحاك: مقبلين. قتادة: عامدين. ابن عباس: ناظرين. عكرمة: فاتحين آذانهم إلى الصوت. والمعنى متقارب. يقال: هطع الرجل يهطع هطوعا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه؛ وأهطع إذا مد عنقه وصوب رأسه. قال الشاعر:

تعبدني نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع

وبعير مهطع: في عنقه تصويب خلقة. وأهطع في عدوه أي أسرع. "يقول الكافرون هذا يوم عسر" يعني يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدة.

قوله تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبي ﷺ وتعزية له. "قبلهم" أي قبل قومك. "فكذبوا عبدنا" يعني نوحا. الزمخشري: فإن قلت ما معنى قوله: "فكذبوا" بعد قوله: "كذبت"؟ قلت: معناه كذبوا فكذبوا عبدنا؛ أي كذبوه تكذيبا على

عقب تكذيب كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب، أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا؛ أي لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل. "وقالوا مجنون" أي هو مجنون "وازدجر" أي زجر عن دعوى النبوة بالسب والوعيد بالقتل. وقيل إنما قال: "وازدجر" بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية. "فدعا ربه" أي دعا عليهم حينئذ نوح فقال رب "أني مغلوب" أي غلبوني بتمردهم "فانتصر" أي فانتصر لي. وقيل: إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه. "ففتحنا أبواب السماء" أي فأجبنا دعاءه وأمرناه باتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء "بماء منهمر" أي كثير؛ قاله السدي. قال الشاعر:

أعينيّ جودا بالدموع الهوامر ... على خير باد من معد وحاضر

وقيل: إنه المنصب المتدفق؛ ومنه قول امرئ القيس يصف غيثا:

راح تمريه الصبا ثم انتحى ... فيه شؤبوب جنوب منهمر

الهمر الصب؛ وقد همر الماء والدمع يهمر همرا. وهمر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع. وهمر له من ماله أي أعطاه. قال ابن عباس: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما. وقرأ ابن عامر ويعقوب: "ففتّحنا" مشددة على التكثير. الباقون "ففتحنا" مخففا. ثم قيل: إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها. وقيل: إنه المجرة وهي شرج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله علي ﷺ. "وفجرنا الأرض عيونا" قال عبيد بن عمير: أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون، وإن عينا تأخرت فغضب عليها فجعل ماءها مرا أجاجا إلى يوم القيامة. "فالتقى الماء" أي ماء السماء وماء الأرض "على أمر قد قدر" أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر؛ حكاه ابن قتيبة. أي كان ماء السماء والأرض سواء. وقيل: "قدر" بمعنى قضي عليهم. قال قتادة: قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا. وقال محمد بن كعب: كانت الأقوات قبل الأجساد، وكان القدر قبل البلاء؛ وتلا هذه الآية. وقال: "التقى الماء" والالتقاء إنما يكون في اثنين فصاعدا؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا. وقيل: لأنهما لما اجتمعا صارا ماء واحدا. وقرأ الجحدري: "فالتقى الماءان". وقرأ الحسن: "فالتقى الماوان" وهما خلاف المرسوم. القشيري: وفي بعض المصاحف "فالتقى الماوان" وهي لغة طيّئ. وقيل: كان ماء السماء باردا مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم. "وحملناه على ذات ألواح" أي على سفينة ذات ألواح. "ودسر" قال قتادة: يعني المسامير التي دسرت بها السفينة أي شدت؛ وقال القرظي وابن زيد وابن جبير ورواه الوالبي عن ابن عباس. وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة: هي صدر السفينة التي تضرب بها الموج سميت بذلك لأنها تدسر الماء أي تدفعه، والدسر الدفع والمخر؛ ورواه العوفي عن ابن عباس قال: الدسر كلكل السفينة. وقال الليث: الدسار خيط من ليف تشد به ألواح السفينة. وفي الصحاح: الدسار واحد الدسر وهي خيوط تشد بها ألواح السفينة، ويقال: هي المسامير، وقال تعالى: ﴿ على ذات ألواح ودسر ﴾. ودسر أيضا مثل عسر وعسر. والدسر الدفع؛ قال ابن عباس في العنبر: إنما هو شيء يدسره البحر دسرا أي يدفعه. ودسره بالرمح. ورجل مدسر.

قوله تعالى: ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منا وكلاءة: وقد مضى في "هود". ومنه قول الناس للمودع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكلاءته. وقيل: بوحينا.

وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. "جزاء لمن كان كفر" أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في "لمن" لام المفعول له؛ وقيل: "كفر" أي جحد؛ فـ"من" كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقابا لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد "جزاء لمن كان كفر" بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عوج بن عنق؛ كان الماء إلى حجزته. وسبب نجاته أن نوحا احتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عوج تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونجاه من الغرق.

قوله تعالى: ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ يريد هذه الفعلة عبرة. وقيل: أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بباقردى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا. "فهل من مدكر" متعظ خائف، وأصله مذتكر مفتعل من الذكر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالا لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الذال فيها. "فكيف كان عذابي ونذر" أي إنذاري؛ قال الفراء: الإنذار والنذر؛ قال مصدران. وقيل: "نذر" جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار. "ولقد يسرنا القرآن للذكر" أي سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه؛ فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى: ولقد هيأناه للذكر مأخوذ من يسر ناقته للسفر: إذا رحلها ويسر فرسه للغزو إذا أسرجه وألجمه؛ قال:

وقمت إليه باللجام ميسرا هنالك يجزيني الذي كنت أصنع

وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن؛ وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرؤون التوراة إلا نظرا، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت؛ على ما تقدم بيانه في سورة "التوبة" فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكروا ما فيه؛ أي يفتعلوا الذكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم. "فهل من مدكر" قارئ يقرؤه. وقال أبو بكر الوراق وابن شوذب: فهل من طالب خير وعلم فيعان عليه، وكرر في هذه السورة للتنبيه والإفهام. وقيل: إن الله تعالى اقتص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين، وما عاملتهم به الأمم، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين؛ فكان في كل قصة ونبأ ذكر للمستمع أن لو ادكر، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله: "فهل من مدكر" لأن "هل" كلمة استفهام تستدعي أفهامهم التي ركبت في أجوافهم وجعلها حجة عليهم؛ فاللام من "هل" للاستعراض والهاء للاستخراج.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ كذبت عاد ﴾ هم قوم هود. "فكيف كان عذابي ونذر" وقعت "نذر" في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين، وورش في الوصل لا غير، وحذف الباقون. ولا خلاف في حذف الياء من قولـه: ﴿ فما تغن النذر ﴾ (القمر: ٥) والواو من قولـه: "يدع" فأما الياء من "الداع" الأولى فأثبتها في الحالين ابن محيصن ويعقوب وحميد والبزي، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل، وحذف الباقون. وأما "الداع" الثانية فأثبتها يعقوب وابن محيصن وابن كثير في الحالين، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل، وحذفها الباقون "إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا" أي شديدة البرد؛ قالـه قتادة والضحاك. وقيل: شديدة الصوت. وقد مضى في "حم السجدة". "في يوم نحس مستمر" أي في يوم كان مشؤوما عليهم. وقال ابن عباس: أي في يوم كانوا يتشاءمون به. الزجاج: قيل في يوم أربعاء. ابن عباس: كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم. وقرأ هارون الأعـور "نحِس" بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في فصلت ﴿ في أيام نحسات ﴾ (فصلت: ١٦). و"في يوم نحس مستمر" أي دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الـهلاك. وقيل: استمر بهم إلى نار جهنم. وقال الضحاك: كان مرا عليهم. وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المرارة؛ يقال: مر الشيء وأمر أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس. وقد قال: فذوقوا" والذي يذاق قد يكون مرا. وقد قيل: هو من المرة بمعنى القوة. أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه. فإن قيل: فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أن النبي ﷺ استجيب لـه فيه فيما بين الظهر والعصر. وقد مضى في "البقرة" حديث جابر بذلك. فالجواب ـ والله أعلم ـ ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبي ﷺ أنه قال: (أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر)[(١)] ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة استجيب دعاء المظلوم عليه، فكان اليوم نحسا على الظالم؛ ودعاء النبي ﷺ إنما كان على الكفار، وقول جابر في حديثه "لم ينزل بي أمر غليظ" إشارة إلى هذا. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ تنزع الناس ﴾ في موضع الصفة للريح أي تقلعهم من مواضعهم. قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلـها. وقال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على

---

(١) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٢/ ٧٤)، وذكر الشطر الثاني منه العجلوني في كشف الخفاء، (١/ ٤٩١) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط عن جابر، وأخرجه ابن ماجه والحاكم بسند ضعيف".

رؤوسهم فتندق أعناقهم وتبين رؤوسهم عن أجسادهم. وقيل: تنزع الناس من البيوت. وقال محمد ابن كعب عن أبيه قال النبي ﷺ: (انتزعت الريح الناس من قبورهم). وقيل: حفروا حفرا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل قد هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة. يروى أن سبعة منهم حفروا حفرا وقاموا فيها ليردوا الريح. قال ابن إسحاق: لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمي لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلي والحرث بن شداد والهلقام وابنا تقن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال في شعب بين جبلين، ثم اصطفوا على باب الشعب ليردوا الريح عمن في الشعب من العيال، فجعلت الريح تجعفهم رجلا رجلا، فقالت امرأة من عاد:

ذهب الدهر بعمرو بـ ـن حلي والهنيات
ثم بالحرث والهلـ ـقام طلاع الثنيات
والذي سد مهب الر يح أيام البليات

الطبري: في الكلام حذف، والمعنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب بالمحذوف. الزجاج: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى تنزع الناس والمعنى تنزع الناس مشبهين بأعجاز نخل. والتشبيه قيل إنه للحفر التي كانوا فيها. والأعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشيء، وكانت عاد موصوفين بطول القامة، فشبهوا بالنخل انكبت لوجوهها. وقال: "أعجاز نخل منقعر" للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكر ويؤنث. والمنقعر: المنقلع من أصله؛ قعرت الشجرة قعرا قلعتها من أصلها فانقعرت. الكسائي: قعرت البئر أي نزلت حتى انتهيت إلى قعرها، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره. وأقعرت البئر جعلت لها قعرا. وقال أبو بكر بن الأنباري: سئل المبرد بحضرة إسماعيل القاضي عن ألف مسألة هذه من جملتها، فقيل له: ما الفرق بين قوله تعالى: ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ (الأنبياء: ٨١) و﴿جاءتها ريح عاصف﴾ (يونس: ٢٢)، وقوله: ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ (الحاقة: ٧) و"أعجاز نخل منقعر"؟ فقال: كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا، أو إلى المعنى تأنيثا. وقيل: إن النخل والنخيل بمعنى يذكر ويؤنث، كما ذكرنا. "فكيف كان عذابي ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" تقدم.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ هم قوم صالح كذبوا الرسل ونبيهم، أو كذبوا بالآيات التي هي النذر "فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه" وندع جماعة. وقرأ أبو الأشهب وابن السميقع وأبو السمال

العدوي "أبشر" بالرفع "واحد" كذلك رفع بالابتداء والخبر "نتبعه". الباقون بالنصب على معنى أنتبع بشرا منا واحدا نتبعه. وقرأ أبو السمال: "أبشر" بالرفع "منا واحدا" بالنصب، رفع "أبشر" بإضمار فعل يدل عليه "أؤلقي" كأنه قال: أينبأ بشر منا، وقوله: "واحدا" يجوز أن يكون حالا من المضمر في "منا" والناصب له الظرف، والتقدير أينبأ بشر كائن منا منفردا؛ ويجوز أن يكون حالا من الضمير في "نتبعه" منفردا لا ناصر له. "إنا إذا لفي ضلال" أي ذهاب عن الصواب "وسعر" أي جنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة، ذكره ابن عباس. قال الشاعر يصف ناقته:

تخال بها سعرا إذا السفر هزها ذميل وإيقاع من السير متعب

[الذميل ضرب من سير الإبل. قال أبو عبيد: إذا ارتفع السير عن العنق قليلا فهو التزيد، فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل، ثم الرسيم؛ يقال: ذمل ويذمل ويذمل ذميلا. قال الأصمعي: ولا يذمل بعير يوما وليلة إلا مهري قاله ج.][1]وقال ابن عباس أيضا: السعر العذاب، وقاله الفراء. مجاهد: بعد الحق. السدي: في احتراق. قال طرفه:

أصحوت اليوم أم شاقتك هر ومن الحب جنون مستعر

أي متقد ومحترق. أبو عبيدة: هو جمع سعير وهو لهيب النار. والبعير المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدة. ومعنى الآية: إنا إذا لفي شقاء وعناء مما يلزمنا.

قوله تعالى: ﴿ أؤلقي الذكر عليه من بيننا ﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا؟! وهو استفهام معناه الإنكار. "بل هو كذاب أشر" أي ليس كما يدعيه وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق. والأشر المرح والتجبر والنشاط. يقال: فرس أشر إذا كان مرحا نشيطا قال امرؤ القيس يصف كلبا:

فيدركنا فغم داجن سميع بصير طلوب نكر
ألص الضروس حني الضلوع تبوع أريب نشيط أشر

وقيل: "أشر" بطر. والأشر البطر؛ قال الشاعر:

أشرتم بلبس الخز لما لبستم ومن قبل ما تدرون من فتح القرى

وقد أشر بالكسر يأشر أشرا فهو أشر وأشران، وقوم أشارى مثل سكران وسكارى؛ قال الشاعر هي مية بنت ضرار الضبي:

وخلت وعولا أشارى بها وقد أزهف الطعن أبطالها

وقيل: إنه المتعدي إلى منزلة لا يستحقها؛ والمعنى واحد. وقال ابن زيد وعبد الرحمن بن حماد: الأشر الذي لا يبالي ما قال. وقرأ أبو جعفر وأبو قلابة "أشر" بفتح الشين وتشديد الراء يعني به أشرنا وأخبثنا. "سيعلمون غدا" أي سيرون العذاب يوم القيامة، أو في حال نزول العذاب بهم في الدنيا. وقرأ ابن عامر وحمزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب. الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم. وقوله: "غدا" على التقريب على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غدا؛ قال:

(١) ليس في نسخة الريان.

للمـــــوت فيها سهام غير مخطئة من لم يكن ميتاً في اليوم مات غداً

وقال الطرماح:

ألا عللانـــي قبل نـــوح النوائـــــح وقبـل اضطراب النفس بين الجوانح
وقبـل غد يا لـهف نفسي على غد إذا راح أصحابـــي ولســــت برائح

وإنما أراد وقت الموت ولم يرد غدا بعينه. "من الكذاب الأشر" وقرأ أبو قلابة "الأشر" بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصل. قال أبو حاتم: لا تكاد العرب تتكلم بالأشر والأخير إلا في ضرورة الشعر؛ كقول رؤبة:

بلال خير الناس وابن الأخير

وإنما يقولون هو خير قومه، وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (آل عمران: ١١٠) وقال: ﴿ فسيعلمون من هو شر مكانا ﴾ (مريم: ٧٥). وعن أبي حيوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جبير ضم الشين والراء والتخفيف، قال النحاس: وهو معنى "الأشر" ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنا مرسلو الناقة ﴾ أي مخرجوها من الـهضبة التي سألوها، فروي أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عشراء وبراء. "فتنة لـهم" أي اختبارا وهو مفعول لـه. "فارتقبهم" أي انتظر ما يصنعون. "واصطبر" أي اصبر على أذاهم، وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. "ونبئهم" أي أخبرهم "أن الماء قسمة بينهم" أي بين آل ثمود وبين الناقة، لـها يوم ولـهم يوم، كما قال تعالى: ﴿ لـها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ (الشعراء: ١٥٥). قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلـه فلم تبق لـهم شيئا. وإنما قال: "بينهم" لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحجر في مغزى رسول الله ﷺ تبوك، قال: (أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لـهم ناقة فبعث الله عز وجل إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب مـاءهم يـوم وردها ويحلبـون منها مثـل الذي كانـوا يشـربون يوم غبها)[1] وهــو

(١) أخرجه بنحوه (٣/ ٣٩٦)، والحاكم (٢/ ٣٢٠)، وصححه، وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ٥٠): "رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح".

معنى قولـه تعالى: "ونبئهم أن الماء قسمة بينهم. كل شرب محتضر" الشرب ـ بالكسر ـ الحظ من الماء؛ وفي المثل: (آخرها أقلـها شربا) وأصلـه في سقي الإبل، لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض. ومعنى "محتضر" أي يحضره من هو لـه؛ فالناقة تحضر الماء يوم وردها، وتغيب عنهم يوم وردهم؛ قالـه مقاتل. وقال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم غبها فيشربون، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون.

قولـه تعالى: ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ يعني بالحض على عقرها "فتعاطى فعقر" ومعنى تعاطى تناول الفعل؛ من قولـهم: عطوت أي تناولت؛ ومنه قول حسان:

كلتاهما حلب العصير فعاطني بزجاجـــة أرخاهما للمفصل

قال محمد بن إسحاق: فكمن لـها في أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم شد عليها بالسيف فكشف عرقوبها، فخرت ورغت رغاءة واحدة: تحدر سقبها من بطنها ثم نحرها، وانطلق سقبها حتى أتى صخرة في رأس جبل فرغا ثم لاذ بها، فأتاهم صالح ؛ فلما رأى الناقة قد عقرت بكى وقال: قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله. وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا المعنى. قال ابن عباس: وكان الذي عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أفقى. ويقال في اسمه قدار ابن سالف. وقال الأفوه الأودي:

أو قبلـــه كقدار حين تابعه على الغواية أقوام فقد بادوا

والعرب تسمي الجزار قدارا تشبيها بقدار بن سالف مشؤوم آل ثمود؛ قال مهلـهل:

إنا لنضرب بالسيوف رؤوسهم ضـرب القــدار نقيــعة القدام

وذكره زهير فقال:

فَتُنْتِجْ لكم غلمان أشأم كلـهم كأحمـــر عاد ثم ترضع فتفطم

يريد الحرب؛ فكنى عن ثمود بعاد.

قولـه تعالى: ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ﴾ يريد صيحة جبريل ، وقد مضى في "هود". "فكانوا كهشيم المحتظر" وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية "المحتظر" بفتح الظاء أرادوا الحظيرة. الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة. وفي الصحاح: والمحتظر الذي يعمل الحظيرة. وقرئ "كهشيم المحتظر" فمن كسره جعلـه الفاعل ومن فتحه جعلـه المفعول به. ويقال للرجل القليل الخير: إنه لنكد الحظيرة. قال أبو عبيد: أراه سمى أموالـه حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. المهدوي: من فتح الظاء من "المحتظر" فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار. ويجوز أن يكون "المحتظر" هو الشجر المتخذ منه الحظيرة. قال ابن عباس: "المحتظر" هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الـهشيم. قال:

أثرن عجاجة كدخان نار تشـب بغرقد بال هشيم

وعنه: كحشيش تأكلـه الغنم. وعنه أيضا: كالعظام النخرة المحترقة، وهو قول قتادة. وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح. وقال سفيان الثوري: هو ما تناثر من الحظيرة إذا

ضربتها بالعصا، وهو فعيل بمعنى مفعول. وقال ابن زيد: العرب تسمي كل شيء كان رطبا فيبس هشيماً. والحظر المنع، والمحتظر المفتعل يقال منه: احتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله؛ قال الشاعر:

ترى جيف المطي بجانبيه كأن عظامها خشب الهشيم

وعن ابن عباس: أنهم كانوا مثل القمح الذي ديس وهشم؛ فالمحتظر على هذا الذي يتخذ حظيرة على زرعه، والهشيم فتات السنبلة والتبن. "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر"

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لما كذبوا لوطا. "إنا أرسلنا عليهم حاصبا" أي ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحصى؛ قال النضر: الحاصب الحصباء في الريح. وقال أبو عبيدة: الحاصب الحجارة. وفي الصحاح: والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء وكذلك الحصبة؛ قال لبيد:

جرت عليها أن خوت من أهلها أذيالها كل عصوف حَصِبَهْ

عصفت الريح أي اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف. وقال الفرزدق:

مستقبلين شمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور

"إلا آل لوط" يعني من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه "نجيناهم بسحر" قال الأخفش: إنما أجراه لأنه نكرة، ولو أراد سحر يوم بعينه لما أجراه، ونظيره: ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ (البقرة: ٦١) لما نكره، فلما عرفه في قوله: ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله ﴾ (يوسف: ٩٩) لم يجره، وكذا قال الزجاج: "سحر" إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف، تقول أتيته سحرا، فإذا أردت سحر يومك لم تصرفه، تقول: أتيته سحر يا هذا، وأتيته بسحر. والسحر: هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو في كلام العرب اختلاط سواد الليل ببياض أول النهار؛ لأن في هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار. "نعمة من عندنا" إنعاما منا على لوط وابنتيه؛ فهو نصب لأنه مفعول به. "كذلك نجزي من شكر" أي من آمن بالله وأطاعه. "ولقد أنذرهم" يعني لوطا خوفهم "بطشتنا" عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب "فتماروا بالنذر" أي شكوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدقوه، وهو تفاعل من المرية. "ولقد راودوه عن ضيفه" أي أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف

طلبا للفاحشة على ما تقدم. يقال: راودته على، كذا مراودة ورِوادا أي أردته. وراد الكلأ يروده رودا ورِيادا، وارتاده ارتيادا بمعنى أي طلبه؛ وفي الحديث: (إذا بال أحدكم فليرتدْ لبولـه)[1] أي يطلب مكانا لينا أو منحدرا. "فطمسنا أعينهم" يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعموا. وقيل: صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لـها شق، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفي عليها من التراب. وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل؛ فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. "فذوقوا عذابي ونذر" أي فقلنا لـهم ذوقوا، والمراد من هذا الأمر الخبر؛ أي فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط. "ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر" أي دائم عام استقر فيهم حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وذلك العذاب قلب قريتهم عليهم وجعل أعلاها أسفلـها. و"بكرة" هنا نكرة فلذلك صرفت. "فذوقوا عذابي ونذر" العذاب الذي نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذي أهلكوا به فلذلك حسن التكرير. "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر" تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ يعني القبط و"النذر" موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على الاثنين. "كذبوا بآياتنا كلـها" معجزاتنا الدالة على توحيدنا ونبوة أنبيائنا؛ وهي العصا، واليد، والسنون، والطمسة، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. وقيل: "النذر" الرسل؛ فقد جاءهم يوسف وبنوه إلى أن جاءهم موسى. وقيل: "النذر" الإنذار. "فأخذناهم أخذ عزيز" أي غالب في انتقامه "مقتدر" أي قادر على ما أراد.

قوله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ أكفاركم خير من أولئكم ﴾ خاطب العرب. وقيل: أراد كفار أمة محمد ﷺ. وقيل: استفهام، وهو استفهام إنكار ومعناه النفي؛ أي ليس كفاركم خيرا من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم. "أم لكم براءة في الزبر" أي في الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة. وقال ابن عباس: أم لكم في اللوح المحفوظ براءة من العذاب. "أم يقولون نحن جميع منتصر" أي جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم، ولم يقل منتصرين اتباعا لرؤوس الآي؛ فرد الله عليهم فقال: "سيهزم الجمع" أي جمع كفار مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره. وقراءة العامة "سيهزم" بالياء على ما لم يسم فاعلـه "الجمع" بالرفع. وقرأ رويس عن يعقوب "سنهزم" بالنون

(١) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٥١١).

وكسر الزاي "الجمع" نصبا. "ويولون الدبر" قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم. وقرأ عيسى وابن إسحاق ورويس عن يعقوب "وتولون" بالتاء على الخطاب. و"الدبر" اسم جنس كالدرهم والدينار فوحد والمراد الجمع لأجل رؤوس الآي. وقال مقاتل: ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقدم من الصف وقال: نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه؛ فأنزل الله تعالى: "نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر". وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقاص: لما نزل قوله تعالى: "سيهزم الجمع ويولون الدبر" كنت لا أدري أي الجمع ينهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: اللهم إن قريشا جاءتك تحادك وتحاد رسولك بفخرها وخيلائها فأخنهم الغداة - ثم قال - "سيهزم الجمع ويولون الدبر" فعرفت تأويلها. وهذا من معجزات النبي ﷺ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر. أخنى عليه الدهر: أي أتى عليه وأهلكه، ومنه قول النابغة:

أخنى عليه الذي أخنى على لبد

وأخنيت عليه: أفسدت. قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين؛ فالآية على هذا مكية. وفي البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألعب: "بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر"[1]. وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: (أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا) فأخذ أبو بكر ﷺ بيده وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك؛ وهو في الدرع فخرج وهو يقول: "سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم"[2] يريد القيامة. "والساعة أدهى وأمر" أي أدهى وأمر مما لحقهم يوم بدر. و"أدهى" من الداهية وهي الأمر العظيم؛ يقال: دهاه أمر كذا أي أصابه دهوا ودهيا. وقال ابن السكيت: دهته داهية دهواء ودهياء وهي توكيد لها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴾ أي في حيدة عن الحق و"سعر" أي احتراق. وقيل: جنون على ما تقدم في هذه السورة. "يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر" في صحيح مسلم[3] عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت: "يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر" خرجه الترمذي أيضا وقال: حديث حسن صحيح. وروى مسلم عن طاوس قال: أدركت ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال النبي ﷺ: (كل شيء بقدر حتى العجز والكَيس - أو الكيس والعجز)[4] وهذا إبطال لمذهب القدرية.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٦).
(٢) صحيح.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٦).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٥).

"ذوقوا" أي يقال لـهم ذوقوا، ومسها ما يجدون من الألم عند الوقوع فيها. و"سقر" اسم من أسماء جهنم لا ينصرف؛ لأنه اسم مؤنث معرفة، وكذا لظى وجهنم. وقال عطاء: "سقر" الطبق السادس من جهنم. وقال قطرب: "سقر" من سقرته الشمس وصقرته لوحته. ويوم مسمقر ومصمقر: شديد الحر.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ قراءة العامة "كل" بالنصب. وقرأ أبو السمال "كل" بالرفع على الابتداء. ومن نصب فبإضمار فعل وهو اختيار الكوفيين؛ لأن إن تطلب الفعل فهي به أولى، والنصب أدل على العموم في المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت "خلقناه" المفسر وأظهرت الأول لصار إنا خلقنا كل شيء بقدر. ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيرا لما يعمل فيما قبلـه.

الثالثة: الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالـها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لـهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كلـه إنما حصل لـهم بتيسير الله تعالى وبقدرته وتوفيقه وإلـهامه، سبحانه لا إلـه إلا هو، ولا خالق غيره؛ كما نص عليه القرآن والسُّنّة، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا. قال أبو ذر ﷺ: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا؛ فنزلت هذه الآيات إلى قولـه: "إنا كل شيء خلقناه بقدر" فقالوا: يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: (أنتم خصماء الله يوم القيامة)[١].

الرابعة: روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مجوس هذه الأمة المكـذبون بأقـدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم)[٢]. خرجه ابن ماجه في سننه. وخرج أيضا عن ابن عباس وجابر قالا: قال رسول الله ﷺ: (صنفان من أمتي ليس لـهم في الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقدر)[٣]. وأسند النحاس: وحدثنا إبراهيم بن شريك الكوفي قال حدثنا عقبة بن مكرم الضبي قال حدثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (القدرية الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لـهم في شفاعتي نصيب ولا أنا منهم ولا هم مني)[٤] وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر، ثم أكد هذا بقولـه: والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر[٥]. وهذا مثل قولـه تعالـى فـي المنافقين: ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهـم إلا أنهـم كفروا بالله وبرسولـه ﴾ (التوبة: ٥٤) وهذا واضح. وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: (الإيمان بالقدر يذهب الـهم والحزن)[٦].

(١) أخرجه الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٢٦٩)، بسند ضعيف جداً.
(٢) حسن، دون جملة التسليم، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (٧٥).
(٣) ضعيف، بنحوه في ضعيف سنن ابن ماجه (١٠).
(٤) ضعيف.
(٥) أخرجه مسلم (٨)، وهو جزء من حديث جبريل الطويل، في سؤاله النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان.
(٦) ضعيف، وراجع الضعيفة (٨٠٤).

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أي إلا مرة واحدة. "كلمح بالبصر" أي قضائي في خلقي أسرع من لمح البصر. واللمح النظر بالعجلة؛ يقال: لمح البرق ببصره. وفي الصحاح: لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمحة، ولمح البرق والنجم لمحا أي لمع. قوله تعالى: "ولقد أهلكنا أشياعكم" أي أشباهكم في الكفر من الأمم الخالية. وقيل: أتباعكم وأعوانكم. "فهل من مدكر" أي من يتذكر.

قوله تعالى: ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم؛ وهذا بيان قوله: "إنا كل شيء خلقناه بقدر". "في الزبر" أي في اللوح المحفوظ. وقيل: في كتب الحفظة. وقيل: في أم الكتاب. "وكل صغير وكبير مستطر" أي كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعله؛ سطر يسطر سطرا كتب؛ واستطر مثله.

قوله تعالى: ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضا. "ونهر" يعني أنهار الماء والخمر والعسل واللبن؛ قاله ابن جريج. ووحد لأنه رأس الآية، ثم الواحد قد ينبئ عن الجميع. وقيل: في "نهر" في ضياء وسعة؛ ومنه النهار لضيائه، ومنه أنهرت الجرح؛ قال الشاعر قيس ابن الخطيم:

ملكت بها كفي فأنهرت فتقها   يرى قائم من دونها ما وراءها

وقرأ أبو مجلز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرف وقتادة "ونهر" بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم؛ كسحاب وسحب. قال الفراء: أنشدني بعض العرب:

إن تــــلك ليليا فإني نهر   متى أرى الصبح فلا أنتظر

أي صاحب النهار. وقال آخر:

لولا الثريدان هلكنا بالضمر   ثريــد ليــل وثريــد بالنهر

"في مقعد صدق" أي مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة "عند مليك مقتدر" أي يقدر على ما يشاء. و"عند" ها هنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة. قال الصادق: مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق. وقرأ عثمان البتي "في مقاعد صدق" بالجمع؛ والمقاعد مواضع قعود الناس في الأسواق وغيرها. قال عبد الله بن بريدة: إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على

الجبار تبارك وتعالى، فيقرؤون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذي هو مجلسه، على منابر من الدر والياقوت والزبرجد والذهب والفضة بقدر أعمالـهم، فلا تقر أعينهم بشيء قط كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئا أعظم ولا أحسن منه، ثم ينصرفون إلى منازلـهم، قريرة أعينهم إلى مثلـها من الغد. وقال ثور بن يزيد عن خالد بن معدان: بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامة فيقولون: يا أولياء الله انطلقوا؛ فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة؛ فيقول المؤمنون: إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا. فيقولون: فما بغيتكم؟ فيقولون: مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقد روي هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففي الخبر: أن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفها الملائكة إلى الجنة والناس في الحساب، فيقولون للملائكة: إلى أين تحملوننا؟ فيقولون إلى الجنة. فيقولون: إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا؛ فيقولون: وما بغيتكم؟ فيقولون: المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر "في مقعد صدق عند مليك مقتدر" والله أعلم. تم تفسير "سورة القمر" والحمد لله.

سورة الرحمن

مقدمة السورة :

مكية كلها في قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية منها هي قوله تعالى : ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ (الرحمن : ٢٩) الآية . وهي ست وسبعون آية . وقال ابن مسعود ومقاتل : هي مدنية كلها . والقول الأول أصح لما روى عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ ابن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود : أنا ، فقالوا : إنا نخشى عليك ، وإنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن . علم القرآن ﴾ (الرحمن : ٢) ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش في أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد؟ قالوا : هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه . وصح أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة ، فقرأ سورة "الرحمن" ومر النفر من الجن فآمنوا به . وفي الترمذي عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة "الرحمن" من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : (لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ (الرحمن : ١٣) قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[١] قال : هذا حديث غريب . وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم . وروي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ : اتل علي مما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة "الرحمن" فقال : أعدها ، فأعادها ثلاثا ، فقال : والله إن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة ، وأسفله لمغدق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وروي عن علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرحمن)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الرحمن . علم القرآن ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي : "الرحمن" فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن اسما من أسماء الله تعالى "الر" و"حم" و"ن" فيكون مجموع هذه "الرحمن" . "علم القرآن" أي علمه نبيه ﷺ حتى أداه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وما

---

(١) "حسن" ، انظر صحيح الترمذي (٢٦٢٤) .
(٢) "ضعيف" ، انظر ضعيف الجامع (٤٧٣٢) .

الرحمن؟ وقيل: نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا: إنما يعلمه بشر وهو رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله تعالى: "الرحمن. علم القرآن". وقال الزجاج: معنى "علم القرآن" أي سهله لأن يذكر ويقرأ كما قال: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾(القمر: ١٧). وقيل: جعله علامة لما تعبد الناس به. "خلق الإنسان" قال ابن عباس وقتادة والحسن يعني آدم عليه السلام. "علمه البيان" أسماء كل شيء. وقيل: علمه اللغات كلها. وعن ابن عباس أيضا وابن كيسان: الإنسان ها هنا يراد به محمد ﷺ، والبيان بيان الحلال من الحرام، والهدى من الضلال. وقيل: ما كان وما يكون، لأنه بيّن عن الأولين والآخرين ويوم الدين. وقال الضحاك: "البيان" الخير والشر. وقال الربيع بن أنس: هو ما ينفعه وما يضره، وقاله قتادة. وقيل: "الإنسان" يراد به جميع الناس فهو اسم للجنس و"البيان" على هذا الكلام والفهم، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان. وقال السدي: علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به. وقال يمان: الكتابة والخط بالقلم. نظيره: ﴿علم بالقلم *علم الإنسان ما لم يعلم ﴾(العلق: ٤). "الشمس والقمر بحسبان" أي يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أي يجريان بحساب في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعني أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً لو كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً. وقال السدي: "بحسبان" تقدير آجالهما أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا جاء أجلهما هلكا، نظيره: ﴿كل يجري لأجل مسمى ﴾(الزمر: ٥). وقال الضحاك: بقدر. مجاهد: "بحسبان" كحسبان الرحى يعني قطبها يدوران في مثل القطب. والحسبان قد يكون مصدر حسبته أحسبه بالضم حسباً وحسباناً، مثل الغفران والكفران والرجحان، وحسابة أيضا أي عددته. وقال الأخفش: ويكون جماعة الحساب مثل شهاب وشهبان. والحسبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار، وقد مضى في "الكهف" الواحدة حسبانة، والحسبانة أيضا الوسادة الصغيرة، تقول منه: حسبته إذا وسدته، قال:

... لثويت غير مُحَسَّب

أي غير موسَّد يعني غير مكرم ولا مكفن "والنجم والشجر يسجدان" قال ابن عباس وغيره: النجم ما لا ساق له والشجر ما له ساق، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمي:

لقد أنجم القاع الكبير عضاهه وتم به حيا تميم ووائل

وقال زهير بن أبي سلمى:

مكلل بأصول النجم تنسجه ريح الجنوب لضاحي مائه حبك

واشتقاق النجم من نجم الشيء ينجم بالضم نجوما ظهر وطلع، وسجودهما بسجود ظلالهما، قاله الضحاك. وقال الفراء: سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء. وقال الزجاج: سجودهما دوران الظل معهما، كما قال تعالى: ﴿يتفيأ ظلاله ﴾(النحل: ٤٨). وقال الحسن ومجاهد: النجم نجم السماء، وسجوده في قول مجاهد دوران ظله، وهو اختيار الطبري، حكاه المهدوي. وقيل: سجود النجم أفوله، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها،

حكاه الماوردي. وقيل: إن جميع ذلك مسخر لله، فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم، وعبد كثير من العجم الشجر. والسجود الخضوع، والمعني به آثار الحدوث، حكاه القشيري. النحاس: أصل السجود في اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها لـه، ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال:

فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدي الآكلين جمودها

قولـه تعالى: ﴿ والسماء رفعها ﴾ وقرأ أبو السمال "والسماء" بالرفع على الابتداء واختيار ذلك لما عطف على الجملة التي هي: "والنجم والشجر يسجدان" فجعل المعطوف مركبا من مبتدأ وخبر كالمعطوف عليه. الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده. "ووضع الميزان" أي العدل، عن مجاهد وقتادة والسدي، أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به، يقال: وضع الله الشريعة. ووضع فلان كذا أي ألقاه، وقيل: على هذا الميزان القرآن، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين ابن الفضل. وقال الحسن وقتادة ـ أيضا ـ والضحاك: هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل، يدل عليه قولـه تعالى: ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ والقسط العدل. وقيل: هو الحكم. وقيل: أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال. وأصل ميزان موزان وقد مضى في "الأعراف" القول فيه. "ألا تطغوا في الميزان" موضع "أن" يجوز أن يكون نصبا على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال: لئلا تطغوا، كقولـه تعالى: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ (النساء: ١٧٦). ويجوز ألا يكون لـ "أن" موضع من الإعراب فتكون بمعنى أي و"تطغوا" على هذا التقدير مجزوما، كقولـه تعالى: ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا ﴾ (ص: ٦) أي امشوا. والطغيان مجاوزة الحد. فمن قال: الميزان العدل قال طغيانه الجور. ومن قال: إنه الميزان الذي يوزن به قال طغيانه البخس. قال ابن عباس: أي لا تخونوا من وزنتم لـه. وعنه أنه قال: يا معشر الموالي! وليتم أمرين بهما هلك الناس: المكيال والميزان. ومن قال إنه الحكم قال: طغيانه التحريف. وقيل: فيه إضمار، أي وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه. "وأقيموا الوزن بالقسط" أي افعلوه مستقيما بالعدل. وقال أبو الدرداء ﷺ: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل. وقال ابن عيينة: الإقامة باليد والقسط بالقلب. وقال مجاهد: القسط العدل بالرومية. وقيل: هو كقولك أقام الصلاة أي أتى بها في وقتها، وأقام الناس أسواقهم أي أتوها لوقتها. أي لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل. "ولا تخسروا الميزان" ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن، وهذا كقولـه: ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ (هود: ٨٤). وقال قتادة في هذه الآية: اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل لك، وأوف كما تحب أن يوفى لك، فإن العدل صلاح الناس. وقيل: المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم. وكرر الميزان لحال رؤوس الآي. وقيل: التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه. وقراءة العامة "تخسروا" بضم التاء وكسر السين. وقرأ بلال بن أبي بردة وأبان عن عثمان "تخسروا" بفتح التاء والسين وهما لغتان، يقال: أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته.

وقيل: "تخسروا" بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر، والمعنى ولا تخسروا في الميزان. "والأرض وضعها للأنام" الأنام الناس، عن ابن عباس. الحسن: الجن والإنس. الضحاك: كل ما دب على وجه الأرض، وهذا عام.

قوله تعالى: ﴿ فيها فاكهة ﴾ أي كل ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار. "والنخل ذات الأكمام" الأكمام جمع كم بالكسر. قال الجوهري: والكمة بالكسر والكمامة وعاء الطلع وغطاء النور والجمع كمام وأكمة وأكمام والأكاميم أيضا. وكم الفصيل إذا أشفق عليه فستر حتى يقوى، قال العجاج:

بل لو شهدت الناس إذ تكموا بغمة لو لم تفرج غموا

وتكموا أي أغمي عليهم وغطوا. وأكمت النخلة وكممت أي أخرجت أكمامها. والكمام بالكسر والكمامة أيضا ما يكم به فم البعير لئلا يعض، تقول منه: بعير مكموم أي محجوم. وكممت الشيء غطيته. والكم ما ستر شيئا وغطاه، ومنه كم القميص بالضم والجمع أكمام وكممة، مثل حب وحببة. والكمة القلنسوة المدورة، لأنها تغطي الرأس. قال:

فقلت لهم كيلوا بكمة بعضكم دراهمكم إني كذلك أكيل

قال الحسن: "ذات الأكمام" أي ذات الليف فإن النخلة قد تكمم بالليف، وكمامها ليفها الذي في أعناقها. ابن زيد: ذات الطلع قبل أن يتفتق. وقال عكرمة: ذات الأحمال. "والحب ذو العصف والريحان" الحب الحنطة والشعير ونحوهما، والعصف التبن، عن الحسن وغيره. مجاهد: ورق الشجر والزرع. ابن عباس: تبن الزرع وورقه الذي تعصفه الرياح. سعيد بن جبير: بقل الزرع أي أول ما ينبت منه، وقاله الفراء. والعرب تقول: خرجنا نعصف الزرع إذا قطعوا منه قبل أن يدرك. وكذا في الصحاح: وعصفت الزرع أي جززته قبل أن يدرك. وعن ابن عباس أيضا: العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع رؤوسه ويبس، نظيره: ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ (الفيل: ٥). الجوهري: وقد أعصف الزرع، ومكان معصف أي كثير الزرع. قال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري:

إذا جمادى منعت قطرها زان جنابي عطن معصف

والعصف أيضا الكسب، ومنه قول الراجز:

بغير ما عصف ولا اصطراف

وكذلك الاعتصاف. والعصيفة الورق المجتمع الذي يكون فيه السنبل. وقال الهروي: والعصف والعصيفة ورق السنبل. وحكى الثعلبي: وقال ابن السكيت تقول العرب لورق الزرع العصف العصيفة والجل بكسر الجيم. قال علقمة بن عبدة:

تسقي مذانب قد مالت عصيفتها حدورها من أتيّ الماء مطموم

وفي الصحاح: والجل بالكسر قصب الزرع إذا حصد. والريحان الرِّزق، عن ابن عباس ومجاهد. الضحاك: هي لغة حمير. وعن ابن عباس أيضا والضحاك وقتادة: أنه الريحان الذي يشم، وقاله ابن زيد. وعن ابن عباس أيضا: أنه خضرة الزرع. وقال سعيد بن جبير: هو ما قام على ساق. وقال

الفراء: العصف المأكول من الزرع، والريحان ما لا يؤكل. وقال الكلبي: إن العصف الورق الذي لا يؤكل، والريحان هو الحب المأكول. وقيل: الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت ريحانا، لأن الإنسان يراح لـها رائحة طيبة. أي يشم فهو فعلان روحان من الرائحة، وأصل الياء في الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه وبين الروحاني وهو كل شيء لـه روح. قال ابن الأعرابي: يقال شيء روحاني وريحاني أي لـه روح. ويجوز أن يكون على وزن فيعلان فأصلـه ريوحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهين ولين، ثم ألزم التخفيف لطول ولحاق الزائدتين الألف والنون، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة. وفي الصحاح: والريحان نبت معروف، والريحان الرزق، تقول: خرجت أبتغي ريحان الله، قال النمر بن تولب:

سلام الإلـه وريحانه ورحمته وسماء درر

وفي الحديث: "الولد من ريحان الله"[1]. وقولـهم: سبحان الله وريحانه، نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها لـه واسترزاقا. وأما قولـه: "والحب ذو العصف والريحان" فالعصف ساق الزرع، والريحان ورقه، عن الفراء. وقراءة العامة "والحب ذو العصف والريحان" بالرفع فيها كلـها على العطف على الفاكهة. ونصبها كلـها ابن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفا على الأرض. وقيل: بإضمار فعل، أي وخلق الحب ذا العصف والريحان، فمن هذا الوجه يحسن الوقف على "ذات الأكمام". وجر حمزة والكسائي "الريحان" عطفا على العصف، أي فيها الحب ذو العصف والريحان، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق، فيكون كأنه قال: والحب ذو الرزق. والرزق من حيث كان العصف رزقا، لأن العصف رزق للبهائم، والريحان رزق للناس، ولا شبهة فيه في قول من قال إنه الريحان المشموم.

قولـه تعالى: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ خطاب للإنس والجن، لأن الأنام واقع عليهما. وهذا قول الجمهور، يدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة، وخرجه الترمذي وفيه" للجن أحسن منكم ردا". وقيل: لما قال: ﴿خلق الإنسان﴾ (الرحمن: ٣) ﴿وخلق الجان﴾ (الرحمن: ١٥) دل ذلك على أن ما تقدم وما تأخر لـهما. وأيضا قال: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ (الرحمن: ٣١) خطاب للإنس والجن وقد قال في هذه السورة: ﴿يا معشر الجن والإنس﴾ (الرحمن: ٣٣). الجرجاني: خاطب الجن مع الإنس وإن لم يتقدم للجن ذكر، كقولـه تعالـى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾ (ص: ٣٢). وقد سبق ذكر الجن فيما سبق نزولـه من القرآن، والقرآن كالسورة الواحدة، فإذا ثبت أنهم مكلفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات. وقيل: الخطاب للإنس على عادة العرب في الخطاب للواحد بلفظ التثنية، حسب ما تقدم من القول في ﴿ألقيا في جهنم﴾ (ق: ٢٤). وكذلك قولـه:

قفا نبك. . .

وخليلي مرا بي. . .

فأما ما بعد ﴿ خلق الإنسان ﴾ (الرحمن: ٣) ﴿ وخلق الجان ﴾ (الرحمن: ١٥) فإنه خطاب للإنس والجن، والصحيح قول الجمهور لقولـه تعالى: ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ والآلاء النعم، وهو قول جميع المفسرين، واحدها إلى وألى مثل معى وعصا، وإلي وألي أربع لغات حكاها النحاس قال: وفي واحد "آناء الليل" ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام، وقد مضى في "الأعراف" و"النجم". وقال ابن زيد: إنها القدرة، وتقدير الكلام فبأي قدرة ربكما تكذبان، وقالـه الكلبي واختاره الترمذي محمد بن علي، وقال: هذه السورة من بين السور علم القرآن، والعلم إمام الجند والجند تتبعه، وإنما صارت علما لأنها سورة صفة الملك والقدرة، فقال: "الرحمن. علم القرآن" فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعالـه ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال: "الرحمن. علم القرآن" ثم ذكر الإنسان فقال: "خلق الإنسان" ثم ذكر ما صنع به وما من عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء مما نجم وشجر، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلا لـهم: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" أي بأي قدرة ربكما تكذبان، فإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا لـه في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه، فذلك تكذيبهم. ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال، وذكر خلق الجان من مارج من نار، ثم سألـهم فقال: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" أي بأي قدرة ربكما تكذبان، فإن لـه في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق. وقال القتبي: إن الله تعالى عدد في هذه السورة نعماءه، وذكر خلقه آلاءه، ثم أتبع كل خلة وصفها ونعمة وضعها بهذه وجعلـها فاصلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره: ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا؟! ألم تكن صرورة فحججت بك أفتنكر هذا!؟ ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا؟! والتكرير حسن في مثل هذا. قال:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم

وقال آخر:

لا تقتلي مسلما إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك

وقال آخر:

لا تقطعن الصديق ما طرفت عيناك من قول كاشح أشر
ولا تملن من زيارته زره وزره وزر وزر وزر

وقال الحسين بن الفضل: التكرير طردا للغفلة، وتأكيداً للحجة.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان﴾ لما ذكر سبحانه خلق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال: "خلق الإنسان" باتفاق من أهل التأويل يعني آدم. "من صلصال كالفخار" الصلصال الطين اليابس الذي يسمع له صلصلة، شبهه بالفخار الذي طبخ. وقيل: هو طين خلط برمل. وقيل: هو الطين المنتن من صل اللحم وأصل إذا أنتن، وقد مضى في "الحجر". وقال هنا: "من صلصال كالفخار" وقال هناك: ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ (الحجر: ٢٦). وقال: ﴿إنا خلقناهم من طين لازب﴾ (الصافات: ١١). وقال: ﴿كمثل آدم خلقه من تراب﴾ (آل عمران: ٥٩) وذلك متفق المعنى، وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا، ثم انتقل فصار كالحمأ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار. "وخلق الجان من مارج من نار" قال الحسن: الجان إبليس وهو أبو الجن. وقيل: الجان واحد الجن، والمارج اللهب، عن ابن عباس، وقال: خلق الله الجان من خالص النار. وعنه أيضا من لسانها الذي يكون في طرفها إذا التهبت. وقال الليث: المارج الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد. وعن ابن عباس أنه اللهب الذي يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر، ونحوه عن مجاهد، وكله متقارب المعنى. وقيل: المارج كل أمر مرسل غير ممنوع، ونحوه قول المبرد، قال المبرد: المارج النار المرسلة التي لا تمنع. وقال أبو عبيدة والحسن: المارج خلط النار، وأصله من مرج إذا اضطرب واختلط، ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى، فأكلت إحداهما الأخرى وهي نار السموم فخلق منها إبليس. قال القشيري: والمارج في اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول، كقوله: ﴿ماء دافق﴾ (الطارق: ٦) و﴿عيشة راضية﴾ (الحاقة: ٢١) والمعنى ذو مرج، قال الجوهري في الصحاح: و"مارج من نار" نار لا دخان لها خلق منها الجان. "فبأي آلاء ربكما تكذبان". "رب المشرقين ورب المغربين" أي هو رب المشرقين. وفي الصافات ﴿ورب المشارق﴾ (الصافات: ٥) وقد مضى الكلام في ذلك هنالك.

قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان﴾ "مرج" أي خلى وأرسل وأهمل، يقال: مرج السلطان الناس إذا أهملهم. وأصل المرج الإهمال كما تمرج الدابة في المرعى. ويقال: مرج خلط. وقال الأخفش: ويقول قوم أمرج البحرين مثل مرج، فعل وأفعل بمعنى. "البحرين"

قال ابن عباس: بحر السماء وبحر الأرض، وقاله مجاهد وسعيد بن جبير. "يلتقيان" في كل عام. وقيل: يلتقي طرفاهما. وقال الحسن وقتادة: بحر فارس والروم. وقال ابن جريج: إنه البحر المالح والأنهار العذبة. وقيل: بحر المشرق والمغرب يلتقي طرفاهما. وقيل: بحر اللؤلؤ والمرجان. "بينهما برزخ" أي حاجز فعلى القول الأول ما بين السماء والأرض، قاله الضحاك. وعلى القول الثاني الأرض التي بينهما وهي الحجاز، قاله الحسن وقتادة. وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدم في "الفرقان". وفي الخبر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ "أن الله تعالى كلم الناحية الغربية فقال: إني جاعل فيك عبادا لي يسبحوني ويكبروني ويهللوني ويمجدوني فكيف أنت لهم؟ فقالت: أغرقهم يا رب. قال: إني أحملهم على يدي، وأجعل بأسك في نواحيك. ثم كلم الناحية الشرقية فقال: إني جاعل فيك عبادا يسبحوني ويكبروني ويهللوني ويمجدوني فكيف أنت لهم؟ قالت: أسبحك معهم إذا سبحوك، وأكبرك معهم إذا كبروك، وأهللك معهم إذا هللوك، وأمجدك معهم إذا مجدوك، فأثابها الله الحلية وجعل بينهما برزخا، وتحول أحدهما ملحا أجاجا، وبقي الآخر على حالته عذبا فراتا" ذكر هذا الخبر الترمذي الحكيم أبو عبد الله قال: حدثنا صالح بن محمد، حدثنا القاسم العمري عن سهل عن أبيه عن أبي هريرة[1]: "لا يبغيان" قال قتادة: لا يبغيان على الناس فيغرقانهم، جعل بينهما وبين الناس يبسا. وعنه أيضا ومجاهد: لا يبغي أحدهما على صاحبه فيغلبه. ابن زيد: المعنى "لا يبغيان" أن يلتقيا، وتقدير الكلام: مرج البحرين يلتقيان، لولا البرزخ الذي بينهما لا يبغيان أن يلتقيا. وقيل: البرزخ ما بين الدنيا والآخرة، أي بينهما مدة قدرها الله وهي مدة الدنيا فهما لا يبغيان، فإذا أذن الله في انقضاء الدنيا صار البحران شيا واحدا، وهو كقوله تعالى: ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ (الانفطار: ٣). وقال سهل بن عبد الله: البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذي بينهما التوفيق والعصمة.

قوله تعالى: ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحب والعصف والريحان. وقرأ نافع وأبو عمر "يخرج" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. الباقون "يخرج" بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل. وقال: "منهما" وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ (الأنعام: ١٣٠) وإنما الرسل من الإنس دون الجن، قاله الكلبي وغيره. قال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا ﴾ (نوح: ١٥) والقمر في سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما في إحداهن فيهن. وقال أبو علي الفارسي: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله: ﴿ على رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف ٣١) أي من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض. فإذا وقع ماء السماء في صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما، وقاله الطبري. قال الثعلبي: ولقد ذكر

---

(١) ضعيف، لضعف صالح بن محمد.

لي أن نواة كانت في جوف صدفة، فأصابت القطرة بعض النواة ولم تصب البعض، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة. وقيل: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى، لذلك قيل: إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من وضع يلتقي فيه العذب والملح. وقيل: المرجان عظام اللؤلؤ وكباره، قاله علي وابن عباس رضي الله عنهما. واللؤلؤ صغاره. وعنهما أيضا بالعكس: إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره، وقاله الضحاك وقتادة. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وله الجوار ﴾ يعني السفن. "المنشآت في البحر" قراءة العامة "المنشآت" بفتح الشين، قال قتادة: أي المخلوقات للجري مأخوذ من الإنشاء. وقال مجاهد: هي السفن التي رفع قلعها، قال: وإذا لم يرفع قلعها فليست بمنشآت. وقال الأخفش: إنها المجريات. وفي الحديث: أن عليا ﷺ رأى سفنا مقلعة، فقال: ورب هذه الجواري المنشآت ما قتلت عثمان ولا مالأت في قتله. وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم باختلاف عنه "المنشئات" بكسر الشين أي المنشئات السير، أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع. وقيل: الرافعات الشرع أي القلع. ومن فتح الشين قال: المرفوعات الشرع. "كالأعلام" أي كالجبال، والعلم الجبل الطويل، قال:

إذا قَطَعْنَ علما بدا علم

فالسفن في البحر كالجبال في البر، وقد مضى في "الشورى" بيانه. وقرأ يعقوب "الجواري" بياء في الوقف، وحذف الباقون.

قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ كل من عليها فان ﴾ الضمير في "عليها" للأرض، وقد جرى ذكرها في أول السورة في قوله تعالى: ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ (الرحمن: ١٠) وقد يقال: هو أكرم من عليها يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر. وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (القصص: ٨٨) فأيقنت الملائكة بالهلاك، وقاله مقاتل. ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت، ومع الموت تستوي الأقدام. وقيل: وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب. "ويبقى وجه ربك" أي ويبقى الله، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه، قال الشاعر:

قضى على خلقه المنايا فكل شيء سواه فاني

وهذا الذي ارتضاه المحققون من علمائنا: ابن فورك وأبو المعالي وغيرهم. وقال ابن عباس: الوجه عبارة عنه كما قال: "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" وقال أبو المعالي: وأما الوجه فالمراد به

عند معظم أئمتنا وجود الباري تعالى، وهو الذي ارتضاه شيخنا. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود الباري تعالى. وقد مضى في "البقرة" القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ (البقرة: ١١٥) وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى مستوفى. قال القشيري: قال قوم هو صفة زائدة على الذات لا تكيف، يحصل بها الإقبال على من أراد الرب تخصيصه بالإكرام. والصحيح أن يقال: وجهه وجوده وذاته، يقال: هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب. وقيل: أي يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه. وقيل: وتبقى الجهة التي يتقرب بها إلى الله. "ذو الجلال" الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح، يقال: جل الشيء أي عظم وأجللته أي عظمته، والجلال اسم من جل. "والإكرام" أي هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك، كما تقول: أنا أكرمك عن هذا، ومنه إكرام الأنبياء والأولياء. وقد أتينا على هذين الاسمين لغة ومعنى في الكتاب الأسنى مستوفى. وروى أنس أن النبي ﷺ قال: ألظوا بـ(يا ذا الجلال والإكرام)[1]. وروي أنه من قول ابن مسعود، ومعناه: الزموا ذلك في الدعاء. قال أبو عبيد: الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه. ويقال: الإلظاظ الإلحاح. وعن سعيد المقبري: أن رجلا ألح فجعل يقول: اللهم يا ذا الجلال والإكرام! اللهم يا ذا الجلال والإكرام! فنودي: إني قد سمعت فما حاجتك؟

قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يسأله من في السماوات والأرض ﴾ قيل: المعنى يسأله من في السماوات الرحمة، ومن في الأرض الرزق. وقال ابن عباس وأبو صالح: أهل السماوات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونهما جميعا. وقال ابن جريج: وتسأل الملائكة الرزق لأهل الأرض، فكانت المسألتان جميعا من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض. وفي الحديث: "إن الملائكة ملكا له أربعة أوجه وجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله الرزق للطير"[2]. وقال ابن عطاء: إنهم سألوه القوة على العبادة. "كل يوم هو في شأن" هذا "كل يوم هو في شأن" كلام مبتدأ. وأنتصب "كل يوم" ظرفا، لقوله: "في شأن" أو ظرفا للسؤال، ثم يبتدئ "هو في شأن". وروى أبو الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال: "كل يوم هو في شأن" قال: من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين"[3]. وعن ابن عمر عن النبي ﷺ في قول الله عز

(١) "صحيح" أخرجه أحمد والترمذي والنسائي وغيرهما، كما في صحيح الجامع (١٢٥٠).
(٢) موضوع.
(٣) ذكره البخاري في صحيحه (٨/ ٤٨٧ـ فتح) معلقا عن أبي الدرداء موقوفاً عليه، وقال الحافظ: "وصله المصنف ـ يعني البخاري ـ في "التاريخ" وابن حبان في "الصحيح"، وابن ماجه وابن أبي عاصم والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعاً، وأخرجه البيهقي في "الشعب" من طريق أم الدرداء عن أبي الدرداء موقوفاً وللمرفوع شاهد آخر عن =

وجل: "كل يوم هو في شأن" قال: "يغفر ذنباً ويكشف كربا ويجيب داعياً"[1]. وقيل: من شأنه أن يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويرزق ويمنع. وقيل: أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة. قال ابن بحر: الدهر كلـه يومان، أحدهما مدة أيام الدنيا، والآخر يوم القيامة، فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب، والثواب والعقاب. وقيل: المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهـر. والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشؤون والمراد بالشأن ها هنا الجمع كقولـه تعالى: ﴿ ثم يخرجكم طفلا ﴾ (غافر: ٦٧). وقال الكلبي: شأنه سوق المقادير إلى المواقيت. وقال عمرو بن ميمون في قولـه تعالى: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ من شأنه أن يميت حيا، ويقر في الأرحام ما شاء، ومعز ذليلا، ويذل عزيزاً. وسأل بعض الأمراء وزيره عن قولـه تعالى: ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ فلم يعرف معناها، واستمهلـه إلى الغد فانصرف كئيبا إلى منزل فقال لـه غلام لـه أسود: ما شأنك؟ فأخبره. فقال لـه: عد إلى الأمير فإني أفسرها لـه، فدعاه فقال: أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيما، ويسقم سليما، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلى، ويعز ذليلا ويذل عزيزا، ويفقر غنيا ويغني فقيرا، فقال لـه: فرجت عني فرج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام، فقال: يا مولاي! هذا من شأن الله تعالى. وعن عبد الله بن طاهر: أنه دعا الحسين بن الفضل وقل لـه: أشكلت علي ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي: قولـه تعالى: ﴿ فأصبح من النادمين ﴾ (المائدة: ٣١) وقد صح أن الندم توبة. وقوله: "كل يوم هو في شأن" وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم: ٣٩) فما بال الأضعاف؟ فقال الحسين: يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة، لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم. وقيل: إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حملـه. وأما قولـه: "كل يوم هو في شأن" فإنها شؤون يبديها لا شؤون يبتديها. وأما قولـه: ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ (النجم: ٣٩) فمعناه: ليس لـه إلا ما سعى عدلا ولي أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا. فقام عبدا. وقبل رأسه وسوغ خراجه.

قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

= ابن عمر أخرجه البزار، وآخر عن عبد الله بن منيب أخرجه الحسن بن سفيان والبزار وابن جرير والطبراني". وقال الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١١٧)، في المرفوع: "رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار وفيه من لم أعرفهم.

(١) عزاه الهيثمي في الموضع السابق إلى البزار وقال: "فيه الوزير بن صبيح ولم أعرفه".

قولـه تعالى: ﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾ يقال: فرغت من الشغل أفرغ فروغا وفراغا وتفرغت لكذا واستفرغت مجهودي في كذا أي بذلته. والله تعالى ليس لـه شغل يفرغ منه، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لـهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده: إذاً أتفرغ لك أي أقصدك. وفرغ بمعنى قصد، وأنشد ابن الأنباري في مثل هذا لجرير:

ألآن وقد فرغت إلى نمـير فهذا حين كنت لـها عذابا

يريد وقد قصدت. وقال أيضا وأنشده النحاس:

فرغت إلى العبد المقيد في الحجل

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، صاح الشيطان: يا أهل الجباجب! هذا مذمَّم يبايع بني قيلة على حربكم، فقال النبي ﷺ: "هذا إزب العقبة أما والله يا عدو لأتفرغن لك"[1] أي أقصد إلى إبطال أمرك. وهذا اختيار القتبي والكسائي وغيرهما. وقيل: إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال: "سنفرغ لكم" مما وعدناكم ونوصل كلا إلى ما وعدناه، أي أقسم ذلك وأتفرغ منه. قاله الحسن ومقاتل وابن زيد. وقرأ عبد الله وأبي "سنفرغ إليكم" وقرأ الأعمش وإبراهيم "سيفرغ لكم" بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعلـه. وقرأ ابن شهاب والأعرج "سنفرغ لكم" بفتح النون والراء، قال الكسائي: هي لغة تميم يقولون فرغ يفرغ، وحكى أيضا فرغ يفرغ ورواهما هبيرة عن حفص عن عاصم. وروى الجعفي عن أبي عمرو "سيفرغ" بفتح الياء والراء، ورويت عن ابن هرمز. وروي عن عيسى الثقفي "سنفرغ لكم" بكسر النون وفتح الراء، وقرأ حمزة والكسائي "سيفرغ لكم" بالياء. الباقون بالنون وهي لغة تهامة. والثقلان الجن والإنس، سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف ـ وقيل: سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا، قال الله تعالى: ﴿ وأخرجت الأرض أثقالـها ﴾ (الزلزلة: ٢) ومنه قولـهم: أعطه ثقلـه أي وزنه. وقال بعض أهل المعاني: كل شيء لـه قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل. ومنه قيل لبيض النعام ثقل، لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به. وقال جعفر الصادق: سميا ثقلين، لأنهما مثقلان بالذنوب. وقال: "سنفرغ لكم" فجمع، ثم قال: "أيه الثقلان" لأنهما فريقان وكل فريق جمع، وكذا قولـه تعالى: "يا معشر الجن والإنس إن استطعتم" ولم يقل إن استطعتما، لأنهما فريقان في حال الجمع، كقولـه تعالـى: ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ (النمل: ٤٥) و﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ (الحج: ١٩) ولو قال: سنفرغ لكما، وقال: إن استطعتما لجاز. وقرأ أهل الشام "أيهُ الثقلان" بضم الـهاء. الباقون بفتحها وقد تقدم.

مسألة: هذه السورة و"الأحقاف" و"قل أوحي" دليل على أن الجن مخاطبون مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ٤٥) وقال: "رواه أحمد والطبراني بنحوه، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع".

قولـه تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس﴾ ذكر ابن المبارك: وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلـها، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر الله السماء التي تليها كذلك فينزلون فيكونون صفا من خلف ذلك الصف، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة، فينزل الملك الأعلى في بهائه وملكه ومجنبته اليسرى جهنم، فيسمعون زفيرها وشهيقها، فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا من الملائكة، فذلك قولـه تعالى: ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ والسلطان العذر. وقال الضحاك أيضا: بينما الناس في أسواقهم انفتحت السماء، ونزلت الملائكة، فتهرب الجن والإنس، فتحدق بهم الملائكة، فذلك قولـه تعالى: "لا تنفذون إلا بسلطان" ذكره النحاس. قلت. فعلى هذا يكون في الدنيا، وعلى ما ذكر ابن المبارك يكون في الآخرة. وعن الضحاك أيضا: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فاهربوا. وقال ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان أي ببينة من الله تعالى. وعنه أيضا أن معنى: "لا تنفذون إلا بسلطان" لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم. قتادة: لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان، الباء بمعنى إلى، كقولـه تعالـى: ﴿ وقد أحسن بي﴾ (يوسف: ١٠٠) أي إلي. قال الشاعر:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملولة ... لدينا ولا مقليّة إن تقلّت

وقولـه: "فانفذوا" أمر تعجيز.

قولـه تعالى: ﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس﴾ أي لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ. وقيل: ليس هذا متعلقا بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذابا بالنار. وقيل: أي بآلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب. وقيل: يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون "يا معشر الجن والإنس"، فتلك النار قولـه: "يرسل عليكما شواظ من نار" والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان لـه. والنحاس: الدخان الذي لا لـهب فيه، ومنه قول أمية بن أبي الصلت يهجو حسان بن ثابت ﷺ، كذا وقع في تفسير الثعلبي والماوردي ابن أبي الصلت، وفي "الصحاح" و"الوقف والابتداء" لابن الباري: أمية بن خلف قال:

ألا مـن مـبلغ حسـان عـني ... مغلغـة تـدب إلى عكـاظ

ألـيس أبـوك فيـنا كـان قيناً ... لـدى القينات فسلا في الحفاظ

يمانـيا يظـل يشـد كيرا ... ويَنْفُخُ دائـبا لهـب الشواظ

فأجابه حسان ﷺ فقال:

هجوتك فاختضعت لـها بذُلٍّ ... بقافيـة تأجـج كالشـواظ

وقال رؤبة:

إن لهم من وقعنا أقياظا ونار حرب تسعر الشواظا

وقال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار. الضحاك: هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب. وقاله سعيد بن جبير. وقد قيل: إن الشواظ النار والدخان جميعا، قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب. وقرأ ابن كثير "شواظ" بكسر الشين. الباقون بالضم وهما لغتان، مثل صوار وصوار لقطيع البقر. "ونحاس" قراءة العامة "ونحاس" بالرفع عطف على "شواظ". وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو "ونحاس" بالخفض عطفا على النار. قال المهدوي: من قال إن الشواظ النار والدخان جميعا فالجر في "النحاس" على هذا بيّن. فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال: "يرسل عليكما شواظ من نار" وشيء من نحاس، فشيء معطوف على شواظ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء، وحذف شيء، وحذفت من لتقدم ذكرها في "من نار" كما حذفت على من قولهم: على من تنزل أنزل أي عليه. فيكون "نحاس" على هذا مجرورا بمن المحذوفة. وعن مجاهد وحميد وعكرمة وأبي العالية "ونحاس" بكسر النون لغتان كالشواظ والشواظ. والنحاس بالكسر أيضا الطبيعة والأصل، يقال: فلان كريم النحاس والنحاس أيضا بالضم أي كريم النِّجار. وعن مسلم بن جندب "ونحس" بالرفع. وعن حنظلة بن مرة بن النعمان الأنصاري "ونحس" بالجر عطف على نار. ويجوز أن يكون "ونحاس" بالكسر جمع نحس كصعب وصعاب "ونحس" بالرفع عطف على "شواظ" وعن الحسن "ونحس" بالضم فيهما جمع نحس. ويجوز أن يكون أصله ونحوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدم عند قوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾(النحل: ١٦). وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة "ونحس" بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حس يحس حسا إذا استأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾(آل عمران: ١٥٢) والمعنى ونقتل بالعذاب. وعلى القراءة الأولى "ونحاس" فهو الصفر المذاب يصب على رؤوسهم، قاله مجاهد وقتادة، وروي عن ابن عباس. وعن ابن عباس أيضا وسعيد بن جبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيه، وهو معنى قول الخليل، وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى، قال نابغة بني جعدة:

يضيء كضوء سراج السليـ ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: السليط دهن السمسم بالشام ولا دخان فيه. وقال مقاتل: هي خمسة أنهار من صفر مذاب، تجري من تحت العرش على رؤوس أهل النار، ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار. وقال ابن مسعود: النحاس المهل. وقال الضحاك: هو دردي الزيت المغلي. وقال الكسائي: هو النار التي لها ريح شديدة. "فلا تنتصران" أي لا ينصر بعضكم بعضا يعني الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)﴾

قوله تعالى: ﴿فإذا انشقت السماء﴾أي انصدعت يوم القيامة "فكانت وردة كالدهان" الدهان الدهن، عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت في صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع

دهن. وقال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى فكانت حمراء. وقيل: المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن، أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم، وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانها. وقيل: الدهان الجلد الأحمر الصرف، ذكره أبو عبيد والفراء. أي تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار. ابن عباس: المعنى فكانت كالفرس الورد، يقال للكميت: ورد إذا كان يتلون بألوان مختلفة. قال ابن عباس: الفرس الورد، في الربيع كميت أصفر، وفي أول الشتاء كميت أحمر، فإذا اشتد الشتاء كان كميتا أغبر. وقال الفراء: أراد الفرس الوردية، تكون في الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل. وقال الحسن: "كالدهان" أي كصب الدهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. وقال زيد بن أسلم: المعنى أنها تصير كعكر الزيت، وقيل: المعنى أنها تمر وتجيء. قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوردة تتغير ألوانها. وقال قتادة: إنها اليوم خضراء وسيكون لـها لون أحمر، حكاه الثعلبي. وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحمرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن، وهي حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وارتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ هذا مثل قولـه تعالى: ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ (القصص: ٧٨) وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل في بعض ولا يسأل في بعض، وهذا قول عكرمة. وقيل: المعنى لا يسألون إذا استقروا في النار. وقال الحسن وقتادة: لا يسألون عن ذنوبهم، لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة. رواه العوفي عن ابن عباس. وعن الحسن ومجاهد أيضا: المعنى لا تسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بسيماهم، دليلـه ما بعده. وقاله مجاهد عن ابن عباس. وعنه أيضا في قولـه تعالى: ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين ﴾ (الحجر: ٩٢) وقولـه: "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان" وقال: لا يسألـهم ليعرف ذلك منهم، لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألـهم لم عملتموها سؤال توبيخ. وقال أبو العالية: لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم. وقال قتادة: كانت المسألة قبل، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم. وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وفيه قال: "فيلقى العبد فيقول أي فل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع فيقول بلى فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول لـه مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول لـه مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول ها هنا إذاً ثم يقال لـه الآن نبعث شاهدنا عليك فيتفكر في نفسه من هذا الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعملـه وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه"[(١)] وقد مضى هذا الحديث في "حم السجدة" وغيرها.

---

(١) أخرجه مسلم، وقد سبق تخريجه.

قوله تعالى: ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ قال الحسن: سواد الوجه وزرقة الأعين، قال الله تعالى: ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ (طه: ١٠٢) وقال تعالى: ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ (آل عمران: ١٠٦). "فيؤخذ بالنواصي والأقدام" أي تأخذ الملائكة بنواصيهم، أي بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم في النار. والنواصي جمع ناصية. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره. وعنه: يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى في النار. وقيل: يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويهه. وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار، تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه.

قوله تعالى: ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ أي يقال لهم هذه النار التي أخبرتم بها فكذبتم. "يطوفون بينها وبين حميم آن" قال قتادة: يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم، والجحيم النار، والحميم الشراب. وفي قوله تعالى: "آن" ثلاثة أوجه، أحدها أنه الذي انتهى حره وحميه. قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي، ومنه قول النابغة الذبياني:

وتخضب لحية غدرت وخانت   بأحمر من نجيع الجوف آن

قال قتادة: "آن" طبخ منذ خلق الله السماوات والأرض، يقول: إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك. وقال كعب: "آن" واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تنخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى: ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾. وعن كعب أيضا: أنه الحاضر. وقال مجاهد: إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته. والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات. وروي عن النبي ﷺ أنه أتى على شاب في الليل يقرأ ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ (الرحمن: ٣٧) فوقف الشاب وخنقته العبرة وجعل يقول: ويحي من يوم تنشق فيه السماء ويحي! فقال النبي ﷺ: "ويحك يا فتى مثلها فوالذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك"(١).

قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعد للأبرار. والمعنى خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية. فـ "مقام" مصدر بمعنى القيام. وقيل: خاف قيام ربه

---

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٠٠) وعزاه إلى محمد بن نصر عن لقمان بن عامر الحنفي مرفوعاً. وهو ضعيف لانقطاعه.

عليه أي إشرافه واطلاعه عليه، بيانه قولـه تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (الرعد: ٣٣). وقال مجاهد وإبراهيم النخعي: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه.

هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه: إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هم بالمعصية وتركها خوفا من الله وحياء منه. وقال به سفيان الثوري وأفتى به. وقال محمد بن علي الترمذي: جنة لخوفه من ربه، وجنة لتركه شهوته. وقال ابن عباس: من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض. وقيل: المقام الموضع، أي خاف مقامه بين يدي ربه للحساب كما تقدم ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله، وهو كالأجل في قولـه: ﴿فإذا جاء أجلـهم ﴾(الأعراف: ٣٤) وقولـه في موضع آخر: ﴿إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾(نوح: ٤).

قولـه تعالى: ﴿ جنتان ﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة، فلكل خائف جنتان. وقيل: جنتان لجميع الخائفين، والأول أظهر. وروي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: "الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت وشجرها ثابت"[1] ذكره المهدوي والثعلبي أيضا من حديث أبي هريرة. وقيل: إن الجنتين جنته التي خلقت لـه وجنة ورثها. وقيل: إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعلـه رؤساء الدنيا. وقيل: إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه. وقيل: إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها. وقال مقاتل: هما جنة عدن وجنة النعيم. وقال الفراء: إنما هي جنة واحدة، فثنى لرؤوس الآي. وأنكر القتبي هذا وقال: لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون إنما قال تسعة عشر لمراعاة رؤوس الآي. وأيضا قال: "ذواتا أفنان". وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فتثنى في الشعر، وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل، يقول الله عز وجل: "جنتان" ويصفهما بقولـه: "فيهما" فيدع الظاهر ويقول: يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر! وقيل: إنما كانتا اثنتين ليضاعف لـه السرور بالتنقل من جهة إلى جهة. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين برزت، قالـه عطاء وابن شوذب. وقال الضحاك: بل شرب ذات يوم لبنا على ظمأ فأعجبه، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله ﷺ ينظر إليه، فقال: "رحمك الله لقد أنزلت فيك آية" وتلا عليه هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ذواتا أفنان ﴾ قال ابن عباس وغيره: أي ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فن. وقال مجاهد: الأفنان الأغصان واحدها فنن، قال النابغة:

---

(١) موضوع.

بكاء حمامة تدعو هديلا مُفَجَّعَة على فنن تغني

وقال آخر يصف طائرين:

باتا على غصن بان في ذرى فنن يرددان لحونا ذات ألوان

أراد باللحون اللغات. وقال آخر:

ما هاج شوقك من هديل حمامة تدعو على فنن الغضون حماما
تدعو أبا فرخين صادف ضاريا ذا مخلبين من الصقور قطاما

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين، وقال يصف رحى:

لها زمام من أفانين الشجر

وشجرة فناء أي ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس. وفي الحديث: "أن أهل الجنة مرد مكحلون أولو أفانين"(١) يريد أولو فنن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فنن وهو الخصلة من الشعر شبه بالغصن. ذكره الهروي. وقل: "ذواتا أفنان" أي ذواتا سعة وفضل على ما سواهما، قاله قتاده. وعن مجاهد أيضا وعكرمة: إن الأفنان ظل الأغصان على الحيطان.

قوله تعالى: ﴿ فيهما عينان تجريان﴾ أي في كل واحدة منهما عين جارية. قال ابن عباس: تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة. وعن ابن عباس أيضا والحسن: تجريان بالماء الزلال، إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل. وعنه أيضا: عينان مثل الدنيا أضعافا مضاعفة، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران. وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين. وقيل: تجريان من جبل من مسك. وقال أبو بكر الوراق: فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ أي صنفان وكلاهما حلو يستلذ به. قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل: ضربان رطب ويابس لا يقصر هذا عن ذلك في الفضل والطيب. وقيل: أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما، فإنه ذكرها هنا عينين جاريتين، وذكر ثم عينين تنضحان بالماء والنضح دون الجري، فكأنه قال: في تينك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان. "متكئين على فرش" هو نصب على الحال. والفرش جمع فراش. وقرأ أبو حيوة "فرش" بإسكان الراء "بطائنها من إستبرق" جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة. والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن، أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة؟ قاله ابن مسعود وأبو هريرة. وقيل

---

(١) "حسن" بلفظ: "أهل الجنة جرد مرد كحل، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم" أخرجه الترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً، كما في صحيح الجامع (٢٥٢٥).

لسعيد بن جبير: البطائن من إستبرق فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ (السجدة: ١٧). وقال ابن عباس: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله. وفي الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: "ظواهرها نور يتلألأ".
وعن الحسن: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور جامد. وعن الحسن أيضا: البطائن هي الظواهر، وهو قول الفراء، وروي عن قتادة. والعرب تقول للظهر بطنا، فيقولون: هذا ظهر السماء، وهذا بطن السماء، لظاهرها الذي نراه. وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا، وقالوا: لا يكون هذا إلا في الوجهين المتساويين إذا ولي كل واحد منهما قوما، كالحائط بينك وبين قوم، وعلى ذلك أمر السماء. "وجنى الجنتين دان" الجنى ما يجتنى من الشجر، يقال: أتانا بجناة طيبة لكل ما يجتنى. وثمر جني على فعيل حين جني، وقال:

هذا جناي وخياره فيه   إذ كل جان يده إلى فيه

وقرئ "جنى" بكسر الجيم. "دان" قريب. قال ابن عباس: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا، لا يرد يده بُعدٌ ولا شوك.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ قيل: في الجنتين المذكورتين. قال الزجاج: وإنما قال: "فيهن" ولم يقل فيهما، لأنه عنى الجنتين وما أعد لصاحبهما من النعيم. وقيل: "فيهن" يعود على الفرش التي بطائنها من إستبرق، أي في هذه الفرش "قاصرات الطرف" أي نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. وقد مضى في "والصافات" ووحد الطرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه في معنى المصدر، من طرفت عينه تطرف طرفا، ثم سميت العين بذلك فأدى عن الواحد والجمع، كقولهم: قوم عدل وصوم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ لم يطمثهن ﴾ أي لم يصبهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد. الفراء: والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية، طمثها يطمثها ويطمثها طمثا إذا افتضها. ومنه قيل: امرأة طامث أي حائض. وغير الفراء يخالفه في هذا ويقول: طمثها بمعنى وطئها على أي الوجوه كان. إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر. وقرأ الكسائي "لم يطمثهن" بضم الميم، يقال: طمثت المرأة تطمث بالضم حاضت. وطمثت بالكسر لغة فهي طامث، وقال الفرزدق:

وقعن إلي لم يطمثن قبلي   وهن أصَحُّ من بيض النعام

وقيل: "لم يطمثهنَّ" لم يمسسهنّ، قال أبو عمرو: والطمث المس وذلك في كل شيء يمس ويقال للمرتع: ما طمث ذلك المرتع قبلنا أحد، وما طمث هذه الناقة حبل، أي ما مسها عقال. وقال المبرد: أي لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان، والطمث التذليل. وقرأ الحسن "جأن" بالهمز.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات. قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن. وقيل: أي لم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الجن في الجنة من الحور العين من الجنيات جن، ولم يطمث ما وهب الله للمؤمنين من الإنس في الجنة من الحور العين من الإنسيات إنس، وذلك لأن الجن لا تطأ بنات آدم في الدنيا. ذكره القشيري.

قلت: قد مضى في "النمل" القول في هذا وفي "الإسراء" أيضا، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم. وقد قال مجاهد: إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى: "لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان" وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان. يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزهن، والطمث الجماع. ذكره بكماله الترمذي الحكيم، وذكره المهدوي أيضا والثعلبي وغيرهما والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: "إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها" وذلك بأن الله تعالى يقول: "كأنهن الياقوت والمرجان" فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لأريته من ورائه ويروى موقوفا[1]. وقال عمرو بن ميمون: إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حلة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك[2]، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء. وقال الحسن: هن في صفاء الياقوت، وبياض المرجان.

قوله تعالى: ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ "هل" في الكلام على أربعة أوجه: تكون بمعنى قد كقوله تعالى: ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ﴾ (الإنسان: ١)، وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى: ﴿ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ﴾ (الأعراف: ٤٤)، وبمعنى الأمر كقوله تعالى: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ (المائدة: ٩١)، وبمعنى ما في الجحد كقوله تعالى: ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ ﴾ (النحل: ٣٥)، و"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان". قال عكرمة: أي هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة. ابن عباس: ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقيل: هل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة، قاله ابن زيد. وروى أنس أن النبي ﷺ قرأ "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم" قالوا الله ورسوله أعلم، قال: "يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة"[3]. وروى ابن عباس أن النبي ﷺ

---

(١) "ضعيف"، انظر ضعيف الجامع (١٧٧٦).

(٢) صحيح بنحوه مرفوعاً في الصحيحين وغيرهما.

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/٢٠٧)، وعزاه إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في "الشعب" وضعفه.

قرأ هذه الآية فقال: "يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي"[١] وقال الصادق: هل جزاء من أحسنت عليه في الأزل إلا حفظ الإحسان عليه في الأبد. وقال محمد بن الحنفية والحسن: هي مسجلة للبر والفاجر، أي مرسلة على الفاجر في الدنيا والبر في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ أي وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان. قال ابن عباس: ومن دونهما في الدرج. ابن زيد: ومن دونهما في الفضل. ابن عباس: والجنات لمن خاف مقام ربه، فيكون في الأوليين النخل والشجر، وفي الأخريين الزرع والنبات وما انبسط. الماوردي: ويحتمل أن يكون "ومن دونهما جنتان" لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلدين، ليتميز بهما الذكور عن الإناث. وقال ابن جريج: هي أربع: جنتان منها للسابقين المقربين ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ (الرحمن: ٥٢) و﴿ عينان تجريان ﴾ (الرحمن: ٥٠) وجنتان لأصحاب اليمين ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (الرحمن: ٦٨) و﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ (الرحمن: ٦٦). وقال ابن زيد: إن الأوليين من ذهب للمقربين، والأخريين من ورق لأصحاب اليمين.

قلت: إلى هذا ذهب الحليمي أبو عبد الله الحسن بن الحسين في كتاب "منهاج الدين له"، واحتج بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (الرحمن: ٤٦) إلى قوله: ﴿ مدهامتان ﴾ قال: تلك للمقربين، وهاتان لأصحاب اليمين. وعن أبي موسى الأشعري نحوه. ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال في الأوليين: ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ (الرحمن: ٥٠) وفي الأخريين: ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ (الرحمن: ٦٦) أي فوارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجري. وقال في الأوليين: ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ (الرحمن: ٥٢) فعم ولم يخص. وفي الأخريين: ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ (الرحمن: ٦٨) ولم يقل من كل فاكهة، وقال في الأوليين: ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ (الرحمن: ٥٤) وهو الديباج، وفي الأخريين ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ (الرحمن: ٧٦) والعبقري الوشي، ولا شك أن الديباج أعلى من الوشي، والرفرف كسر الخباء، ولا شك أن الفرش المعدة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء. وقال في الأوليين في صفة الحور: ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ (الرحمن: ٥٨)، وفي الأخريين ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ (الرحمن: ٧٠) وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان. وقال في الأوليين: ﴿ ذواتا أفنان ﴾ (الرحمن: ٤٨) وفي الأخريين "مدهامتان" أي خضراوان كأنهما من شدة خضرتهما سوداوان، ووصف الأوليين بكثرة الأغصان، والأخريين بالخضرة وحدها، وفي هذا كله تحقيق للمعنى الذي قصدنا بقوله "ومن دونهما جنتان" ولعل ما لم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر مما

---

(١) ضعيف.

ذكر. فإن قيل: كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأوليين؟ قيل: الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لـهم مراتب، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة في الخوف من الله تعالى، والجنتان الأخريان لمن قصرت حاله في الخوف من الله تعالى. ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليين من ذهب وفضة، والأخريين من ياقوت وزمرد وهما أفضل من الأوليين، وقولـه: "ومن دونهما جنتان" أي من أمامهما ومن قبلـهما. وإلى هذا القول ذهب أبو عبد الله الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" فقال: ومعنى "ومن دونهما جنتان" أي دون هذا إلى العرش، أي أقرب وأدنى إلى العرش، وأخذ يفضلـهما على الأوليين بما سنذكره عنه. وقال مقاتل: الجنتان الأوليان جنة عدن وجنة النعيم، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى.

قولـه تعالى: ﴿ مدهامتان ﴾ أي خضراوان من الري، قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد: مسودتان. والدهمة في اللغة السـواد، يقال: فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أي اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذي فيه، فإن زاد على ذلك حتى اشتد السـواد فهو جون. وادهم الفرس ادهماما أي صار أدهم. وادهام الشيء ادهيماما أي اسوادّ، قال الله تعالى: "مدهامتان" أي سوداوان من شدة الخضرة من الري، والعرب تقول لكل أخضر أسود. وقال لبيد يرثي قتلى هوازن:

وجـــاءوا به في هودج ووراءه كتائب خضر في نسيج السنور

السنور لبوس من قد كالدرع. وسميت قرى العراق سوادا لكثرة خضرتها. ويقال لليل المظلم: أخضر ويقال: أباد الله خضراءهم أي سوادهم.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ أي فوارتان بالماء، عن ابن عباس. والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء. وعنه أن المعنى نضاختان بالخير والبركة، وقالـه الحسن ومجاهد. ابن مسعود وابن عباس أيضا وأنس: تنضخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور في دور أهل الجنة كما ينضخ رش المطر. وقال سعيد بن جبير: بأنواع الفواكه والماء. الترمذي: قالوا بأنواع الفواكه والنعم والجواري المزينات والدواب المسرجات والثياب الملونات. قال الترمذي: وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجري. وقيل: تنبعان ثم تجريان.

قوله تعالى: ﴿فيهما فاكهة ونخلٌ ورمان﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة، لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنما يعطف على غيره وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفاكهة وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلـهما وحسن موقعهما على الفاكهة، كقولـه تعالـى: ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾(البقرة: ٢٣٨) وقوله: ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسلـه وجبريل وميكال ﴾(البقرة: ٩٨) وقد تقدم. وقيل: إنما كررها لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البر عندنا، لأن النخل عامة قوتهم، والرمان كالثمرات، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها، فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما

وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن، فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها. وقيل: أفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه، ومنه قال أبو حنيفة رحمه الله.

الثانية: إذا حلف أن لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث. وخالفه صاحباه والناس. قال ابن عباس: الرمانة في الجنة مثل البعير المقتب. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال: نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيه عجم. قال: وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وإن ماءها ليجري في غير أخدود، والعنقود اثنا عشر ذراعا.

قوله تعالى: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ يعني النساء الواحدة خيرة على معنى ذوات خير. وقيل: "خيرات" بمعنى خيرات فخفف، كهين ولين. ابن المبارك: حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال: لو أن خيرة من "خيرات حسان" اطلعت من السماء لأضاءت لها، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر، ولنصيف تكساه خيرة خير من الدنيا وما فيها. "حسان" أي حسان الخلق، وإذا قال الله تعالى: "حسان" فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن! وقال الزهري وقتادة: "خيرات" الأخلاق "حسان" الوجوه. وروي ذلك عن النبي ﷺ من حديث أم سلمة. وقال أبو صالح: لأنهن عذارى أبكار.

وقرأ قتادة وابن السميقع وأبو رجاء العطاردي وبكر بن حبيب السهمي "خيرات" بالتشديد على الأصل. وقد قيل: إن خيرات جمع خيْر والمعنى ذوات خير. وقيل: مختارات. قال الترمذي: فالخيرات ما اختارهن الله فأبدع خلقهن باختياره، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين. ثم قال: "حسان" فوصفهن بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئا بالحسن فانظر ما هناك. وفي الأولين ذكر بأنهن ﴿ قاصرات الطرف ﴾ (الرحمن: ٥٦) و﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ (الرحمن: ٥٨) فانظر كم بين الخيرة وهي مختارة الله، وبين قاصرات الطرف. وفي الحديث: "إن الحور العين يأخذ بعضهن بأيدي بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن خيرات حسان حبيبات لأزواج كرام". خرجه الترمذي بمعناه من حديث علي رضي الله عنه.[1] وقالت عائشة

(١) وهو ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (١٨٩٦)، وأخرجه سمويه بسند حسن عن أنس مرفوعاً بلفظ: "إن الحور العين لتغنين في الجنة، يقلن:

نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام

رضي الله عنها: إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهن المؤمنات من نساء أهل الدنيا: نحن المصليات وما صليتن، ونحن الصائمات وما صمتن، ونحن المتوضئات وما توضأتن، ونحن المتصدقات وما تصدقتن. فقالت عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن والله.

الثانية: واختلف أيهما أكثر حسنا وأبهر جمالا الحور أو الآدميات؟ فقيل: الحور لما ذكر من وصفهن في القرآن والسُّنة، ولقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه على الميت في الجنازة: "وأبدله زوجا خيراً من زوجه"(١). وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف، وروي مرفوعا. وذكر ابن المبارك: وأخبرنا رشدين عن ابن أنعم عن حيان بن أبي جبلة، قال: إن نساء الدنيا من دخل منهن الجنة فضلن على الحور العين بما عملن في الدنيا. وقد قيل: إن الحور العين المذكورات في القرآن هن المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يخلقن في الآخرة على أحسن صورة، قاله الحسن البصري. والمشهور أن الحور العين لسن من نساء أهل الدنيا وإنما هن مخلوقات في الجنة، لأن الله تعالى قال: "لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان" وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات، ولأن النبي ﷺ قال: (إن أقل ساكني الجنة النساء)(٢) فلا يصيب كل واحد منهم امرأة، ووعد الحور العين لجماعتهم، فثبت أنهن من غير نساء الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ "حور" جمع حوراء، وهي الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدم. "مقصورات" محبوسات مستورات "في الخيام" في الحجال لسن بالطوافات في الطرق، قاله ابن عباس. وقال عمر رضي الله عنه: الخيمة درة مجوفة. وقاله ابن عباس. وقال: هي فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب. وقال الترمذي الحكيم أبو عبد الله في قوله تعالى "حور مقصورات في الخيام": بلغنا في الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قطرات الرحمة، ثم ضرب على كل واحدة منهن خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب، حتى إذا دخل ولي الله الجنة انصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولي الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهي مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين. والله أعلم. وقال في الأولين: ﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ (الرحمن: ٥٦) قصرن طرفهن على الأزواج ولم يذكر أنهن مقصورات، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل. وقال مجاهد: "مقصورات" قد قصرن على أزواجهن فلا يردن بدلا منهم. وفي الصحاح: وقصرت الشيء أقصره قصرا حبسته، ومنه مقصورة الجامع، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز إلى غيره، وامرأة قصيرة وقصورة أي مقصورة في البيت لا تترك أن تخرج، قال كُثَيِّر:

كما في صحيح الجامع (١٦٠٢).

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم.

(٢) أخرجه مسلم في "الذكر والدعاء"، (٢٧٣٨).

وأنـت الـتي حببـت كـل قصـيرة إلـي ومـا تـدري بـذاك القصائر
عنـيت قصـيرات الحجال ولم أرد قصـار الخطا شر النساء البحاتـر

وأنشده الفراء قصورة، ذكره ابن السكيت. وروى أنس قال: قال النبي ﷺ: "مررت ليلة أسري بي في الجنة بنهر حافتاه قباب المرجان فنوديت منه السلام عليك يا رسول الله فقلت: يا جبريل من هؤلاء قال: هؤلاء جوار من الحور العين استأذن ربهن في أن يسلمن عليك فأذن لـهن فقلن: نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نبؤس أبدا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبي ﷺ "حور مقصورات في الخيام"(١) أي محبوسات حبس صيانة وتكرمة. وروي عن أسماء ابنة يزيد الأشهلية أنها أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم وحوامل أولادكم، فهل نشارككم في الأجر؟ فقال النبي ﷺ: (نعم إذا أحسنتن تبعل أزواجكن وطلبتن مرضاتهم).

قولـه تعالى: ﴿ لم يطمثهن ﴾ أي لم يمسسهن على ما تقدم قبل. وقراءة العامة "يطمثهن" بكسر الميم. وقرأ أبو حيوة الشامي وطلحة بن مصرف والأعرج والشيرازي عن الكسائي بضم الميم في الحرفين. وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويخير في ذلك، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانية. وهي قراءة أبي إسحاق السبيعي. قال أبو إسحاق: كنت أصلي خلف أصحاب علي فيرفعون الميم، وكنت أصلي خلف أصحاب عبد الله فيكسرونها، فاستعمل الكسائي الأثرين. وهما لغتان طمث وطمث مثل يعرشون ويعكفون، فمن ضم فللجمع بين اللغتين، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة. وإنما أعاد قولـه: "لم يطمثهن"، ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف. يقول: إذا قصرن كانت لـهن الخيام في تلك الحال.

قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ الرفرف المحابس. وقال ابن عباس: الرفرف فضول الفرش والبسط. وعنه أيضا: الرفرف المحابس يتكئون على فضولـها، وقالـه قتادة. وقال الحسن والقرظي: هي البسط. وقال ابن عيينة: هي الزرابي. وقال ابن كيسان: هي المرافق، وقاله الحسن أيضا. وقال أبو عبيدة: هي حاشية الثوب. وقال الليث: ضرب من الثياب الخضر تبسط. وقيل: الفرش المرتفعة. وقيل: كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف. قال ابن مقبل:

وإنا لنزالـون تغشـى نعـالنا سواقط من أصناف ريط ورفرف

وهذه أقوال متقاربة. وفي الصحاح: والرفرف ثياب خضر تتخذ منها المحابس، الواحدة رفرفة. وقال سعيد بن جبير وابن عباس أيضا: الرفرف رياض الجنة، واشتقاق الرفرف من رف يرف إذا ارتفع، ومنه رفرفة الطائر لتحريكه جناحيه في الـهواء. وربما سموا الظليم رفرافا بذلك، لأنه يرفرف بجناحيه

(١) ضعيف.

ثم يعدو. ورفرف الطائر أيضا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. والرفرف أيضا كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة رفرفة. وفي الخبر في وفاة النبي ﷺ: فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة تخشخش أي رفع طرف الفسطاط. وقيل: أصل الرفرف من رف النبت يرف إذا صار غضًّا نضيرا، حكاه الثعلبي. وقال القتبي: يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النعمة والغضاضة حتى كاد يهتز: رف يرف رفيفا، حكاه الهروي. وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته، قاله الترمذي الحكيم في "نوادر الأصول" وقد ذكرناه في "التذكرة". قال الترمذي: فالرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكره في الأولين ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾(الرحمن: ٥٤) وقال هنا: "متكئين على رفرف خضر" فالرفرف هو شيء إذا استوى عليه الولي رفرف به، أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمرجاح، وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل، روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله ﷺ لما بلغ سدرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله منم جبريل وطار به إلى مسند العرش، فذكر أنه قال: "طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربي" ثم لما حان الانصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد، فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب، كما أن البراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكأهما وفرشهما، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان. ثم قال: "وعبقري حسان" فالعبقري ثياب منقوشة تبسط، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر!. وقرأ عثمان ﷺ والجحدري والحسن وغيرهم "متكئين على رفارف" بالجمع غير مصروف كذلك "وعباقري حسان" جمع رفرف وعبقري. و"رفرف" اسم للجمع و"عبقري" واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عبقر. وقد قيل: إن واحد رفرف وعبقري رفرفة وعبقرية، والرفارف والعباقر جمع الجمع. والعبقري الطنافس الثخان منها، قاله الفراء. وقيل: الزَّرَابي، عن ابن عباس وغيره. الحسن: هي البسط. مجاهد: الديباج. القتبي: كل ثوب وشي عند العرب عبقري. قال أبو عبيد: هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشي فينسب إليها كل وشي حبك. قال ذو الرمة:

حتى كأن رياض القف ألبسها   من وشي عبقر تجليل وتنجيد

ويقال: عبقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بسط منقوشة. وقال ابن الأنباري: إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل. وقال الخليل: كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقري. ومنه قول النبي ﷺ في عمر ﷺ: فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه"[1] وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله ﷺ "فلم أر عبقريا يفري فريه" فقال: رئيس قوم وجليلهم. وقال زهير:

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٦٣٣)، وفي مواضع أخر من صحيحه. ومسلم (٥/ ٢٥٥).

بخـيل علــيها جــنة عبــقرية جديرون يوما أن ينالوا فيستعلوا

وقال الجوهري: العبقري موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا إليه كل شيء يعجبون من حذقه وجودة صنعته وقوته فقالوا: عبقري وهو واحد وجمع. وفي الحديث: "إنه كان يسجد على عبقري" وهو هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا: ظلم عبقري وهذا عبقري قوم للرجل القوي. وفي الحديث: "فلم أر عبقريا يفري فريه" ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال: "وعبقري حسان" وقرأه بعضهم "عباقري" وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته، وقال قطرب: ليس بمنسوب وهو مثل كرسي وكراسي وبختي وبخاتي. وروى أبو بكر أن رسول الله ﷺ قرأ "متكئين على رفارف خضر وعباقر حسان" ذكره الثعلبي. وضم الضاد من "خضر" قليل.

قولـه تعالى: ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ "تبارك" تفاعل من البركة وقد تقدم. "ذي الجلال" أي العظمة. وقد تقدم "والإكرام" وقرأ عامر "ذو الجلال" بالواو وجعلـه وصفا للاسم، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى. الباقون "ذي الجلال" جعلوا "ذي" صفة لـ "ربك". وكأنه يريد الاسم الذي افتتح به السورة، فقال: ﴿ الرحمن ﴾ (الرحمن: ١) فافتتح بهذا الاسم، فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السماوات والأرض وصنعه، وأنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ (الرحمن: ٢٩) ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالـها، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان. ثم قال في آخر السورة: ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يعلمهم أن هذا كلـه خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار، فهذا كلـه لكم من اسم الرحمن فمدح اسمه ثم قال: "ذي الجلال والإكرام" جليل في ذاته، كريم في أفعاله. ولم يختلف القراء في إجراء النعت على الوجه بالرفع في أول السورة، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذي يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه، فيستبشرون بحسن الجزاء، وجميل اللقاء، وحسن العطاء. والله أعلم.

سورة الواقعة

مقدمة السورة :

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية منها نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى: ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (الواقعة: ٨٢). وقال الكلبي: مكية إلا أربع آيات، منها آيتان ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (الواقعة: ٨٢) نزلتا في سفره إلى مكة، وقوله تعالى: ﴿ ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين ﴾ (الواقعة: ٤٠) نزلتا في سفره إلى المدينة. وقال مسروق: من أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة. وذكر أبو عمر بن عبد البر في "التمهيد" و"التعليق" والثعلبي أيضا: أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضه الذي مات فيه فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي. قال: أفلا ندعو لك طبيبا؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا نأمر لك بعطاء لك؟ قال: لا حاجة لي فيه، حبسته عني في حياتي، وتدفعه لي عند مماتي؟ قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة "الواقعة" كل ليلة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا)[١].

قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة، والمراد النفخة الأخيرة. وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب. وقيل: لكثرة ما يقع فيها من الشدائد. وفيه إضمار، أي اذكروا إذا وقعت الواقعة. وقال الجرجاني: "إذا" صلة، أي وقعت الواقعة، كقوله: ﴿ اقتربت الساعة ﴾ (القمر: ١) و﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل: ١) وهو كما يقال: قد جاء الصوم أي دنا واقترب. وعلى الأول "إذا" للوقت، والجواب قوله: ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ (الواقعة: ٨). "ليس لوقعتها كاذبة" الكاذبة مصدر بمعنى الكذب، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر، كقوله تعالى: ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ (الغاشية: ١١) أي لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب، قاله الكسائي. ومنه قول العامة: عائذا بالله أي معاذ الله، وقم قائما أي قم قياما. ولبعض نساء العرب ترقص ابنها:

قم قائما قم قائما أصبت عبدا نائما

وقيل: الكاذبة صفة والموصوف محذوف، أي ليس لوقعتها حال كاذبة، أو نفس كاذبة، أي كل من يخبر عن وقعتها صادق. وقال الزجاج: "ليس لوقعتها كاذبة" أي لا يردها شيء. ونحوه قول الحسن

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٧٨٥)، وراجع الضعيفة (٢٨٩).

وقتادة. وقال الثوري: ليس لوقعتها أحد يكذب بها. وقال الكسائي أيضا: ليس لـها تكذيب، أي ينبغي ألا يكذب بها أحد. وقيل: إن قيامها جد لا هزل فيه.

قولـه تعالى: ﴿خافضة رافعة ﴾قال عكرمة ومقاتل والسدي: خفضت الصوت فأسمعت من دنا ورفعت من نأى، يعني أسمعت القريب والبعيد. وقال السدي: خفضت المتكبرين ورفعت المستضعفين. وقال قتادة: خفضت أقواما في عذاب الله، ورفعت أقواما إلى طاعة الله. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: خفضت أعداء الله في النار، ورفعت أولياء الله في الجنة. وقال محمد بن كعب: خفضت أقواما كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت، أقوات كانوا في الدنيا مخفوضين. وقال ابن عطاء: خفضت أقواما بالعدل، ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعز والمهانة. ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة توسعا ومجازا على عادة العرب في إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما مما لم يكن منه الفعل، يقولون: ليل نائم ونهار صائم. وفي التنزيل: ﴿بل مكر الليل والنهار ﴾(سبأ: ٣٣) والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده، فرفع أولياءه في أعلى الدرجات، وخفض أعداءه في أسفل الدركات. وقرأ الحسن وعيسى الثقفي "خافضة رافعة" بالنصب. الباقون بالرفع على إضمار مبتدأ، ومن نصب فعلى الحال. وهو عند الفراء على إضمار فعل، والمعنى: إذا وقعت الواقعة. ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾ وقعت: ﴿خافضة رافعة﴾ والقيامة لا شك في وقوعها، وأنها ترفع أقواما وتضع آخرين على ما بيناه.

قولـه تعالى: ﴿إذا رجت الأرض رجا ﴾أي زلزلت وحركت عن مجاهد وغيره، يقال: رجه يرجه رجاً أي حركه وزلزلـه. وناقة رجاء في عظيمة السنام. وفي الحديث: (من ركب البحر حين يرتج فلا ذمة لـه)[1] يعني إذا اضطربت أمواجه. قال الكلبي: وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها أضطربت فرقا من الله تعالى. قال المفسرون: ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها. وعن ابن عباس الرجة الحركة الشديدة يسمع لـها صوت. وموضع "إذا" نصب على البدل من "إذا وقعت". ويجوز أن ينتصب بـ "خافضة رافعة" أي تخفض وترفع وقت رج الأرض وبس الجبال، لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض. وقيل: أي وقعت الواقعة إذا رجت الأرض، قالـه الزجاج والجرجاني. وقيل: أي اذكر "إذا رجت الأرض رجا" مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة.

قولـه تعالى: ﴿وبست الجبال بسا ﴾أي فتتت، عن ابن عباس. مجاهد: كما يبس الدقيق أي يلت. والبسيسة السويق أو الدقيق يلت بالسمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا. قال الراجز:

لا تخبزا خبزا وبسا بسا ولا تطيلا بمناخ حبسا

وذكر أبو عبيدة: أنه لص من غطفان أراد أن يخبز فخاف أن يعجل عن ذلك فأكلـه عجينا. والمعنى أنها خلطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء. أي نصير الجبال ترابا فيختلط البعض بالبعض.

---

(١)أخرجه أحمد (٥/ ٧٩)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٨/ ٩٩): "رواه أحمد مرفوعاً وموقوفاً، وكلاهما رجاله رجال الصحيح".

وقال الحسن: وبست قلعت من أصلها فذهبت، نظيره: ﴿ ينسفها ربي نسفا ﴾ (طه: ١٠٥). وقال عطيه: بسطت كالرمل والتراب. وقيل: البس السوق أي سيقت الجبال. قال أبو زيد: البس السوق، وقد بسست الإبل أبسها بالضم بسا. وقال أبو عبيد: بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بس بس. وفي الحديث. (يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)[1] ومنه الحديث الآخر: (جاءكم أهل اليمن يبسون عيالهم) والعرب تقول: جيء به من حسك وبسك. ورواهما أبو زيد بالكسر، فمعنى من حسك من حيث أحسسته، وبسك من حيث بلغه مسيرك. وقال مجاهد: سألت سيلا. عكرمة: هدت هدا. محمد بن كعب: سيرت سيرا، ومنه قول الأغلب العجلي: وقال الحسن: قطعت قطعا. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿ فكانت هباء منبثا ﴾ قال علي ﷺ: الهباء المنبث الرهج الذي يسطع من حوافز الدواب ثم يذهب، فجعل الله أعمالهم كذلك. وقال مجاهد: الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوة كهيئة الغبار. وروي نحوه عن ابن عباس. وعنه أيضا: هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئا. وقاله عطية. وقد مضى في "الفرقان" عند قوله تعالى: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ (الفرقان: ٢٣) وقراءة العامة "منبثا" بالثاء المثلثة أي متفرقا من قوله تعالى: ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ (لقمان: ١٠) أي فرق ونشر. وقرأ مسروق والنخعي وأبو حيوة "منبتا" بالتاء المثناة أي منقطعا من قولهم: بته الله أي قطعه، ومنه البتات.

قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ﴾ أي أصنافا ثلاثة كل، صنف يشاكل ما هو منه، كما يشاكل الزوج الزوجة، ثم بيّن من هم فقال: "فأصحاب الميمنة" "وأصحاب المشأمة" و"السابقون"، فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، قاله السدي. والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة. يقال: قعد فلان شأمة. ويقال: يا فلان شائم بأصحابك، أي خذ بهم شأمة أي ذات الشمال. والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الشمال الأشأم. وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن، ولما جاء عن الشمال الشؤم. وقال ابن عباس والسدي: أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذرية من صلبه فقال الله لهم: هؤلاء في الجنة ولا أبالي. وقال زيد بن أسلم: أصحاب الميمنة هم الذين أخذوا من شق آدم الأيمن يومئذ، وأصحاب المشأمة الذين أخذوا من شق آدم الأيسر. وقال عطاء ومحمد بن كعب: أصحاب الميمنة من أوتي كتابه بيمينه، وأصحاب المشأمة من أوتي كتابه بشماله. وقال ابن جريج: أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات. وقال

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨).

الحسن والربيع: أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة. وفي صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة - قال - فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شمال بكى - قال - فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح - قال - قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة التي عن يمينه وعن شماله نسم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التي عن شماله أهل النار)(١) وذكر الحديث. وقال المبرد: وأصحاب الميمنة أصحاب التقدم، وأصحاب المشأمة أصحاب التأخر. والعرب تقول: اجعلني في يمينك ولا تجعلني في شمالك، أي أجعلني من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين. والتكرير في "ما أصحاب الميمنة". و"ما أصحاب المشأمة" للتفخيم والتعجيب، كقوله: ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ (الحاقة: ١) و﴿ القارعة ما القارعة ﴾ (القارعة: ١) كما يقال: زيد ما زيد! وفي حديث أم زرع رضي الله عنها: مالك وما مالك!(٢) والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب. وقيل: "أصحاب" رفع بالابتداء والخبر "ما أصحاب الميمنة" كأنه قال: "فأصحاب الميمنة" ما هم، المعنى: أي شيء هم. وقيل: يجوز أن تكون "ما" تأكيدا، والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقدم وعلو المنزلة.

قوله تعالى: ﴿ والسابقون السابقون ﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: (السابقون الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم)(٣) ذكره المهدوي. وقال محمد بن كعب القرظي: إنهم الأنبياء. الحسن وقتادة: السابقون إلى الإيمان من كل أمة. ونحوه عن عكرمة. محمد بن سيرين: هم الذين صلوا إلى القبلتين، دليله قوله تعالى: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ (التوبة: ١٠٠). وقال مجاهد وغيره: هم السابقون إلى الجهاد، وأول الناس رواحا إلى الصلاة. وقال علي رضي الله عنه: هم السابقون إلى الصلوات الخمس. الضحاك: إلى الجهاد. سعيد بن جبير: إلى التوبة وأعمال البر، قال الله تعالى: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ (آل عمران: ١٣٣) ثم أثنى عليهم فقال: ﴿ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (المؤمنون: ٦١). وقيل: إنهم أربعة، منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقان في أمة محمد ﷺ وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، قال ابن عباس، حكاه الماوردي. وقال شميط بن العجلان: الناس ثلاثة، فرجل ابتكر للخير في حداثة سنه داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرب، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم طول الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين، ورجل ابتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بها فهذا من أصحاب الشمال. وقيل: هم كل من سبق إلى شيء من أشياء الصلاح. ثم قيل: "السابقون" رفع بالابتداء والثاني توكيد له والخبرة "أولئك المقربون" وقال الزجاج: "السابقون" رفع بالابتداء والثاني خبره، والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣) وهو جزء من حديث الإسراء والمعراج.

(٢) حديث أم زرع أخرجاه في الصحيحين.

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٦٧)، وفيه ابن لهيعة وهو سيء الحفظ، ولذا أورده الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (١٠١).

رحمة الله "أولئك المقربون" من صفتهم. وقيل: إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزلـه في الجنة كان لـه ضوء يعرفه به من دونه.

قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي جماعة من الأمم الماضية. "وقليل من الآخرين" أي ممن آمن بمحمد ﷺ. قال الحسن: ثلة ممن قد مضى قبل هذه الأمة، وقليل من أصحاب محمد ﷺ، اللهم اجعلنا منهم بكرمك. وسموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلـهم لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا. وقيل: لما نزل هذا شق على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين ﴾ (الواقعة: ٤٠) فقال النبي ﷺ: (إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة بل ثلث أهل الجنة بل نصف أهل الجنة وتقاسمونهم في النصف الثاني) رواه أبو هريرة، ذكره الماوردي وغيره[(١)]. ومعناه ثابت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود[(٢)]. وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنها خبر، ولأن ذلك في جماعتين مختلفتين. قال الحسن: سابقو من مضى أكثر من سابقينا، ولذلك قال: "وقليل من الآخرين" وقال في أصحاب اليمين وهم سوى السابقين: ﴿ ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين ﴾ (الواقعة: ٤٠) ولذلك قال النبي ﷺ: (إني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة) ثم تلا قولـه تعالى: ﴿ ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين ﴾[(٣)]. قال مجاهد: كل من هذه الأمة. وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ: (الثلتان جميعاً من أمتي) يعني ﴿ ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين﴾ (الواقعة: ٤٠). وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق ﷺ. قال أبو بكر ﷺ: كلا الثلتين من أمة محمد ﷺ، فمنهم من هو في أول أمته، ومنهم من هو في آخرها، وهو مثل قولـه تعالى: ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ (فاطر: ٣٢). وقيل: "ثلة من الأولين" أي من أول هذه الأمة. "وقليل من الآخرين" يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأولين، ولـهذا قال عليه الصلاة والسلام: (خيركم قرني)[(٤)] ثم سوى في أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين. والثلة من ثللت الشيء أي قطعته، فمعنى ثلة كمعنى فرقة، قالـه الزجاج.

قولـه تعالى: ﴿ على سرر ﴾ أي السابقون في الجنة "على سرر"، أي مجالسهم على سرر جمع سرير. "موضونة" قال ابن عباس: منسوجة بالذهب. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وعن ابن عباس أيضا: "موضونة" مصفوفة، كما قال في موضع آخر: ﴿ على سرر مصفوفة ﴾ (الطور:

---

(١) كالهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١١٨) وقال: "رواه أحمد من حديث محمد بياع الملا عن أبيه ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات".

(٢) وكذا في صحيح البخاري.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢١) دون التلاوة.

(٤) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين.

٢٠). وعنه أيضا وعن مجاهد: مرمولة بالذهب. وفي التفاسير: "موضونة" أي منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد ـ والوضن النسج المضاعف والنضد، يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون، ودرع موضونة أي محكمة في النسج مثل مصفوفة، قال الأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الحي عيرا فعيرا

وقال أيضاً:

وبيضاء كالنهي موضونة لها قونس فوق جيب البدن

والسرير الموضون: الذي سطحه بمنزلة المنسوج، ومنه الوضين: بطان من سيور ينسج فيدخل بعضه في بعض، ومنه قوله:

إليك تعدو قلقا وضينها

"متكئين عليها" أي على السرر "متقابلين" أي لا يرى بعضهم قفا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله، أي يتكئون متقابلين. قال مجاهد وغيره. وقال الكلبي: طول كل سرير ثلاثمائة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ارتفعت.

قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾

قوله تعالى: ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون﴾ أي غلمان لا يموتون، قال مجاهد. الحسن والكلبي: لا يهرمون ولا يتغيرون، ومنه قول امرئ القيس:

وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وقال سعيد بن جبير: مخلدون مقرطون، يقال للقرط الخلدة ولجماعة الحلي الخلدة. وقيل: مسورون ونحوه عن الفراء، قال الشاعر:

ومخلدات باللجين كأنما أعجازهن أقاوز الكثبان

وقيل: مقرطون يعني ممنطقون من المناطق. وقال عكرمة: "مخلدون" منعمون. وقيل: على سن واحدة أنشأهم الله لأهل الجنة يطوفون عليهم كما شاء من غير ولادة. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه والحسن البصري: الولدان ها هنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة. وقال سلمان الفارسي: أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة. قال الحسن: لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا في هذا الموضع. والمقصود: أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان. "بأكواب وأباريق" أكواب جمع كوب

وقد مضى في "الزخرف" وهي الآنية التي لا عرى لـها ولا خراطيم، والأباريق التي لـها عرى وخراطيم واحدها إبريق، سمي بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه. "وكأس من معين" مضى في "والصافات" القول فيه. والمعين الجاري من ماء أو خمر، غير أن المراد في هذا الموضع الخمر الجارية من العيون. وقيل: الظاهرة للعيون فيكون "معين" مفعولا من المعاينة. وقيل: هو فعيل من المعن وهو الكثرة. وبين أنها ليست كخمر الدنيا التي تستخرج بعصر وتكلف ومعالجة.

قولـه تعالى: ﴿ لا يصدعون عنها ﴾ أي لا تنصدع رؤوسهم من شربها، أي إنها لذة بلا أذى بخلاف شراب الدنيا. "ولا ينزفون" تقدم في "والصافات" أي لا يسكرون فتذهب عقولـهم. وقرأ مجاهد: "لا يصدعون" بمعنى لا يتصدعون أي لا يتفرقون، كقولـه تعالى: ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ (الروم: ٤٣). وقرأ أهل الكوفة "ينزفون" بكسر الزاي، أي لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم، ومنه قول الشاعر:

لعمري لئن أنزفتم أو صحوتم لبئس الندامى كنتم آل أبجرا

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: في الخمر أربع خصال: السكر والصداع والقيء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال.

قولـه تعالى: ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ أي يتخيرون ما شاؤوا لكثرتها. وقيل: وفاكهة متخيرة مرضية، والتخير الاختيار. "ولحم طير مما يشتهون" روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: (ذاك نهر أعطانيه الله تعالى - يعني في الجنة - أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزُر) قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ: (أَكَلَتُـها أحسن منها)[١] قال: حديث حسن. وخرجه الثعلبي من حديث أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة طيرا مثل أعناق البخت تصطف على يد ولي الله فيقول أحدها يا ولي الله رعيت في مروج تحت العرش وشربت من عيون التسنيم فكل مني فلا يزلن يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخر بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى في الجنة حيث شاء) فقال عمر: يا نبي الله إنها لناعمة. فقال: (أكلـها أنعم منها)[٢]. وروي عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة لطيرا في الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزبد وأعذب من الشـهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير)[٣].

قولـه تعالى: ﴿ وحور عين ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر، فمن جر وهو حمزة والكسائي وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على "بأكواب" وهو محمول على المعنى، لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور، قاله الزجاج. وجاز أن يكون معطوفا على "جنات" أي هم في "جنات النعيم" وفي

(١) "حسن صحيح"، انظر صحيح سنن الترمذي (٢٠٦٣).

(٢) موضوع.

(٣) ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٢٨٧) من طريق ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن الوليد الوصافي عن عطية العوفي عن أبي سعيد مرفوعًا. وقال: "هذا حديث غريب جداً، والوصافي وشيخه ضعيفان".

حور على تقدير حذف المضاف، كأنه قال: وفي معاشرة حور. الفراء: الجر على الإتباع في اللفظ وإن اختلفا في المعنى، لأن الحور لا يطاف بهن، قال الشاعر:

إذا ما الغانيات برزن يوما   وزججن الحواجب والعيونا

والعين لا تزجج وإنما تكحل. وقال آخر:

ورأيت زوجك في الوغى   متقلدا سيفا ورمحا

وقال قطرب: هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى. قال: ولا ينكر أن يطافَ عليهم بالحور ويكون لهم في ذلك لذة. ومن نصب وهو الأشهب العقيلي والنخعي وعيسى بن عمر الثقفي وكذلك هو في مصحف أبي، فهو على تقدير إضمار فعل، كأنه قال: ويزوجون حورا عينا. والحمل في النصب على المعنى أيضا حسن، لأن معنى يطاف عليهم به يعطونه. ومن رفع وهم الجمهور - وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم - فعلى معنى وعندهم حور عين، لأنه لا يطاف عليهم بالحور. وقال الكسائي: ومن قال: "وحور عين" بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهن يلزمه ذلك في فاكهة ولحم، لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها. وقال الأخفش: يجوز أن يكون محمولا على المعنى؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهم حور عين. وجاز أن يكون معطوفا على "ثلة" و"ثلة" ابتداء وخبره "على سرر موضونة" وكذلك "وحور عين" وابتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة. "كأمثال" أي مثل أمثال "اللؤلؤ المكنون" أي الذي لم تمسه الأيدي ولم يقع عليه الغبار فهو أشد ما يكون صفاء وتلألؤا، أي هن في تشاكل أجسادهن في الحسن من جميع جوانبهن كما قال الشاعر:

كأنما خلقت في قشر لؤلؤة   فكل أكنافها وجه لمرصاد

"جزاء بما كانوا يعملون" أي ثوابا ونصبه على المفعول له. ويجوز أن يكون على المصدر، لأن معنى "يطوف عليهم ولدان مخلدون" يجازون. وقد مضى الكلام في الحور العين في "والطور" وغيرها. وقال أنس: قال النبي ﷺ: (خلق الله الحور العين من الزعفران)[١] وقال خالد بن الوليد: سمعت النبي ﷺ يقول: (إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة) فقال له رجل: يا أبا سليمان إن هذا لعجب ولا ينقص من التفاحة؟ قال: نعم كالسراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرج ولا ينقص، والله على ما يشاء قدير[٢]. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض، عليها سبعون ألف حلة مثل شقائق النعمان، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي: هذا ثواب الأولياء ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (السجدة: ١٧).

---

(١) ضعيف.

(٢) موضوع.

قولـه تعالى: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴾ قال ابن عباس: باطلا ولا كذبا. واللغو ما يلغى من الكلام، والتأثيم مصدر أثمته أي قلت لـه أثمت. محمد بن كعب: "ولا تأثيما" أي لا يؤثم بعضهم بعضا. مجاهد: "لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما" شتما ولا مأثما. "إلا قيلا سلاما سلاما" "قيلا" منصوب بـ "يسمعون" أو استثناء منقطع أي لكن يقولون قيلا أو يسمعون. و"سلاما سلاما" منصوبان بالقول، أي إلا أنهم يقولون الخير. أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاما. أو يكون وصف لـ "قيلا"، والسلام الثاني بدل من الأول، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو. ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم. قال ابن عباس: أي يحيي بعضهم بعضا. وقيل: تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدم، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذي هم فيه. "في سدر مخضود" أي في نبق قد خضد شوكه أي قطع، قاله ابن عباس وغيره. وذكر ابن المبارك: حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: إنه لينفعنا الأعراب ومسائلـهم، قال: أقبل أعرابي يوما، فقال: يا رسول الله ! لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ قال رسول الله ﷺ: (وما هي) قال: السدر فإن لـه شوكا مؤذيا، فقال ﷺ: (أو ليس يقول "في سدر مخضود" خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر)(١). وقال أبو العالية والضحاك: نظر المسلمون إلى وج (وهو واد بالطائف مخصب) فأعجبهم سدره، فقالوا: يا ليت لنا مثل هذا، فنزلت. قال أمية بن أبي الصلت يصف الجنة:

إن الحدائق في الجنان ظليلة   فيها الكواعب سدرها مخضود

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان: "في سدر مخضود" وهو الموقر حملا. وهو قريب مما ذكرنا في الخبر. سعيد بن جبير: ثمرها أعظم من القلال. وقد مضى هذا في سورة "النجم" عند قولـه تعالى: ﴿ عند سدرة المنتهى ﴾ (النجم: ١٤) وأن ثمرها مثل قلال هجر من حديث أنس عن النبي ﷺ.

---

(١) كذا ذكره المصنف عن سليم بن عامر مرفوعاً منقطعاً، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٦) موصولاً عن سليم بن عامر عن أبي أمامة مرفوعاً، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وأقره الذهبي.

قولـه تعالى: ﴿ وطلح منضود ﴾ الطلح شجر الموز واحده طلحة. قال أكثر المفسرين علي وابن عـباس وغيرهم. وقال الحـسـن: ليس هو موز ولكنه شـجر لـه ظل بارد رطب. وقال الفـراء وأبو عبيدة: شجر عظام لـه شوك، قال بعض الحداة وهو الجعدي:

بشـرها دليلـها وقـالا غداً ترين الطلح والأحبالا

فالطلح كل شجر عظيم كثير الشوك. الزجاج: يجوز أن يكون في الجنة وقد أزيل شوكه. وقال الزجاج أيضا: كشجر أم غيلان لـه نور طيب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثلـه، إلا أن فضلـه على ما في الدنيا كفضل سائر ما في الجنة على ما في الدنيا. وقال السدي: طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن لـه ثمر أحلى من العسل. وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ: "طلع منضود" بالعين وتلا هذه الآية ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ (الشعراء: ١٤٨) وهو خلاف المصحف. في رواية أنه قرئ بين يديه "وطلح منضود" فقال: ما شأن الطلح؟ إنما هو "وطلع منضود" ثم قال: ﴿ لـها طلع نضيد ﴾ (ق: ١٠) فقيل لـه: أفلا نحولـها؟ فقال: لا ينبغي أن يهاج القرآن ولا يحول. فقد اختار هذه القراءة ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة ما رسمه مجمع عليه. قاله القشيري. وأسنده أبو بكر الأنباري قال: حدثني أبي قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سعد عن قيس بن عباد قال: قرأت عند علي أو قرئت عند علي ـ شك مجالد ـ "وطلح منضود" فقال علي ﷺ: ما بال الطلح؟ أما تقرأ "وطلع" ثم قال: ﴿ لـها طلع نضيد ﴾ (ق: ١٠) فقال لـه: يا أمير المؤمنين أنحكها من المصحف؟ فقال: لا لا يهاج القرآن اليوم. قال أبو بكر: ومعنى هذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب، وأبطل الذي كان فرط من قوله. والمنضود المتراكب الذي قد نضد أولـه وآخره بالحمل، ليست لـه سوق بارزة بل هو مرصوص، والنضد هو الرص والمنضد المرصوص، قال النابغة:

خلّت سبيل أتيٍّ كان يحسبه ورفعته إلى السجفين فالنضد

وقال مسروق: أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلـه، كلما أكل ثمرة عاد مكانها أحسن منها.

قولـه تعالى: ﴿ وظل ممدود ﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس، كقولـه تعالى: ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعلـه ساكنا ﴾ (الفرقان: ٤٥) وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدم بيانه هناك. والجنة كلـها ظل لا شمس معه. قال الربيع بن أنس: يعني ظل العرش. وقال عمرو بن ميمون: مسيرة سبعين ألف سنة. وقال أبو عبيدة: تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود، وقال لبيد:

غلب العزاء وكنت غير مغلب دهـر طـويل دائـم ممـدود

وفي صحيح الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: (وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرؤوا إن شئتم "وظل ممدود")[1]. "وماء مسكوب" أي جار لا ينقطع

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

وأصل السكب الصب، يقال: سكبه سكبا، والسكوب انصبابه. يقال: سكب سكوبا، وانسكب انسكابا، أي وماء مصبوب يجري الليل والنهار في غير أخدود لا ينقطع عنهم. وكانت العرب أصحاب بادية وبلاد حارة، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا، وهي الأشجار وظلالها والمياه والأنهار واطرادها.

قوله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة ﴾أي ليست بالقليلة العزيزة كما كانت في بلادهم "لا مقطوعة" أي في وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف في الشاء "ولا ممنوعة" أي لا يحظر عليها كثمار الدنيا. وقيل: "ولا ممنوعة" أي لا يمنع من أرادها بشوك ولا بعد ولا حائط، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها، قال الله تعالى: ﴿وذللت قطوفها تذليلا ﴾(الإنسان: ١٤). وقيل: ليست مقطوعة بالأزمان، ولا ممنوعة بالأثمان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة ﴾روى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وفرش مرفوعة ﴾قال: (ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة) قال: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد [(١)]. وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث: الفرش في الدرجات، وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض. وقيل: إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتي في الجنة ولم يتقدم لهن ذكر، ولكن قوله عز وجل: "وفرش مرفوعة" دال، لأنها محل النساء، فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن، دليله قوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء ﴾أي خلقناهن خلقا وأبدعناهن إبداعا. والعرب تسمي المرأة فراشا ولباسا وإزارا، وقد قال تعالى: ﴿هن لباس لكم ﴾. ثم قيل: على هذا هن الحور العين، أي خلقناهن من غير ولادة. وقيل: المراد نساء بني آدم، أي خلقناهن خلقا جديدا وهو الإعادة، أي أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال. والمعنى أنشأنا العجوز والصبية إنشاء واحدا، وأضمرن ولم يتقدم ذكرهن، لأنهن قد دخلن في أصحاب اليمين، ولأن الفرش كناية عن النساء كما تقدم. وروي عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء ﴾قال: (منهن البكر والثيب) [(٢)]. وقالت أم سلمة رضي الله تعالى عنها: سألت النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ﴾فقال: (يا أم سلمة هن اللواتي قبضن في الدنيا عجائز شمطا عمشا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد في الاستواء)" [(٣)] أسنده النحاس عن أنس قال: حدثنا أحمد بن عمرو قال: حدثنا عمرو بن علي قال: حدثنا أبو عاصم عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رفعه "إنا أنشأناهن إنشاء"

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٦٣ـ أحوذي) من طريق رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً. ورشدين بن سعد ضعيف وكذا دراج لا سيما في حديثه عن أبي الهيثم وهذا منه.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١١٩) عن سلمة بن يزيد الجعفي مرفوعاً بلفظ: "من الثيب وغير الثيب" وقال: "رواه الطبراني وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف".

(٣) جزء من حديث طويل ذكره الهيثمي في "المجمع" الموضع السابق، وقال: "رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبي كريمة، ضعفه أبو حاتم وابن عدي".

قال: (هن العجائز العمش الرمص كن في الدنيا عمشا رمصا)[١] . وقال المسيب بن شريك: قال النبي ﷺ في قولـه "إنا أنشأناهن إنشاء" الآية قال: (هن عجائز الدنيا أنشأهن الله خلقا جديدا كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا) فلما سمعت عائشة ذلك قالت: وا وجعاه! فقال لـها النبي ﷺ: (ليس هناك وجع)[٢] . "عربا" جمع عروب. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: العرب العواشق لأزواجهنّ. وعن ابن عباس أيضا: إنها العروب الملقة. عكرمة: الغنجة. ابن زيد: بلغة أهل المدينة. ومنه قول لبيد:

وفـي الخباء عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر

وهي الشكلة بلغة أهل مكة. وعن زيد بن أسلم أيضا: الحسنة الكلام. وعن عكرمة أيضا وقتادة: العرب المتحببات إلى أزواجهن، واشتقاقه من أعرب إذا بيّن، فالعروب تبيّن محبتها لزوجها بشكل وغنج وحسن كلام. وقيل: إنها الحسنة التبعل لتكون ألذ استمتاعا. وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "عربا" قال: (كلامهن عربي)[٣] . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم "عربا" بإسكان الراء. وضم الباقون وهما جائزان في جمع فعول. "أترابا" على ميلاد واحد في الاستواء وسن واحدة ثلاث وثلاثين سنة. يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران. وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصبا من النساء وانحطت عن الكبر. وقيل: "أترابا" أمثالا وأشكالا، قالـه مجاهد. السدي: أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهن ولا تحاسد. "لأصحاب اليمين" قيل: الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين.

قولـه تعالى: ﴿ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين﴾ رجع الكلام إلى قولـه تعالى: ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ أي هم "ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين" وقد مضى الكلام في معناه. وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك: "ثلة من الأولين" يعني من سابقي هذه الأمة "وثلة من الآخرين" من هذه الأمة من آخرها، يدل عليه ما روي عن ابن عباس في هذه الآية "ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين" فقال النبي ﷺ: (هم جميعا من أمتي)[٤] . وقال الواحدي: أصحاب الجنة نصفان من الأمم الماضية ونصف من هذه الأمة. وهذا يرده ما رواه ابن ماجه في سننه والترمذي في جامعه عن بريدة بن خصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم)[٥] . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن. و"ثلة" رفع على الابتداء، أو على حذف خبر حرف الصفة، ومجازه: لأصحاب اليمين ثلتان: ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء. والأولون الأمم الماضية، والآخرون هذه الأمة على القول الثاني.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٠- أحوذي) من طريق وكيع عن موسى بن عبيدة به. وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي يضعفان في الحديث". وأورده الشيخ الألباني في ضعيف الجامع (١٩٩٥).

(٢) ضعيف لانقطاعه.

(٣) لا يصح، لمخالفته ما عليه المفسرون في قوله ﴿عربا﴾ أي: العواشق لأزواجهن.

(٤) عزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٢٧) إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وابن عدي، وضعف سنده.

(٥) "صحيح" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم، كما في صحيح الجامع (٢٥٢٦).

قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال، لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلـهم، ثم عظم ذكرهم في البلاء والعذاب فقال: "ما أصحاب الشمال. "في سموم" والسموم الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن. والمراد هنا حر النار ولفحها. "وحميم" أي ماء حار قد انتهى حره، إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، كالذي يفزع من النار إلى الماء ليطفئ به الحر فيجده حميما حارا في نهاية الحرارة والغليان. وقد مضى في "محمد" ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (محمد: ١٥). "وظل من يحموم" أي يفزعون من السموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلا من يحموم، أي من دخان جهنم أسود شديد السواد. عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وكذلك اليحموم في اللغة: الشديد السواد وهو يفعول من الحم وهو الشحم المسود باحتراق النار. وقيل: هو المأخوذ من الحمم وهو الفحم. وقال الضحاك: النار سوداء وأهلـها سود وكل ما فيها أسود. وعن ابن عباس أيضا: النار سوداء. وقال ابن زيد: اليحموم جبل في جهنم يستغيث إلى ظلـه أهل النار. "لا بارد" بل حار لأنه من دخان شفير جهنم. "ولا كريم" عذب، عن الضحاك. وقال سعيد بن المسيب: ولا حسن منظره، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم. وقيل: "وظل من يحموم" أي من النار يعذبون بها، كقولـه تعالى: ﴿ لـهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ (الزمر: ١٦). "إنهم كانوا قبل ذلك مترفين" أي إنما استحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا في الدنيا متنعمين بالحرام. والمترف المنعم، عن ابن عباس وغيره. وقال السدي: "مترفين" أي مشركين. "وكانوا يصرون على الحنث العظيم" أي يقيمون على الشرك، عن الحسن والضحاك وابن زيد. وقال قتادة ومجاهد: الذنب العظيم الذي لا يتوبون منه. الشعبي: هو اليمين الغموس وهي من الكبائر، يقال: حنث في يمينه أي لم يرها ورجع فيها. وكانوا يقسمون أن لا بعث، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حنثهم، قال الله تعالى مخبرا عنهم: ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (النحل: ٣٨) وفي الخبر: كان يتحنث في حراء، أي يفعل ما يسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب. "وكانوا يقولون أئذا متنا" هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب لـه. فقال الله تعالى: "قل" لـهم يا محمد "إن الأولين" من آبائكم "والآخرين" منكم "لمجموعون إلى ميقات يوم

معلوم" يريد يوم القيامة. ومعنى الكلام القسم ودخول اللام في قوله تعالى: "لمجموعون" هو دليل القسم في المعنى، أي إنكم لمجموعون قسما حقا خلاف قسمكم الباطل "ثم إنكم أيها الضالون" عن الهدى "المكذبون" بالبعث "لآكلون من شجر من زقوم" وهو شجر كريه المنظر، كريه الطعم، وهي التي ذكرت في سورة "والصافات". "فمالئون منها البطون" أي من الشجرة، لأن المقصود من الشجر شجرة. ويجوز أن تكون "من" الأولى زائدة، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا كأنه قال: "لآكلون من شجر من زقوم" طعاما. وقوله: "من زقوم" صفة لشجر، والصفة إذا قدرت الجار زائدا نصبت على المعنى، أو جررت على اللفظ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا في موضع جر.

قوله تعالى: ﴿ فشاربون عليه ﴾ أي على الزقوم أو على الأكل أو على الشجر، لأنه يذكر ويؤنث. "من الحميم" وهو الماء المغلي الذي قد اشتد غليانه وهو صديد أهل النار. أي يورثهم حر ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميما مغلى. "فشاربون شرب الهيم" قراءة نافع وعاصم وحمزة "شرب" بضم الشين. الباقون بفتحها لغتان جيدتان، تقول العرب: شَربت شُرْبا وشَرْبا وشرْبا وشُرُبا بضمتين. قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين ولتحها وكسرها، والفتح هو المصدر الصحيح، لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فعل، ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة، فتقول: فعلة نحو شربة وبالضم الاسم. وقيل: إن المفتوح والاسم مصدران، فالشرب كالأكل، والشرب كالذكر، والشرب بالكسر المشروب كالطحن المطحون. والهيم الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها، عن ابن عباس وعكرمة وقتادة والسدي وغيرهم، وقال عكرمة أيضا: هي الإبل المراض. الضحاك: الهيم الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشا شديدا، واحدها أهيم والأنثى هيماء. ويقال لذلك الداء الهيام، قال قيس بن الملوح:

يقال به داء الهيام أصابه وقد علمت نفسي مكان شفائها

وقوم هيم أيضا أي عطاش، وقد هاموا هياما. ومن العرب من يقول في الإبل: هائم وهائمة والجمع هيم، قال لبيد:

أجزت إلى معارفها بشعث وأطلاح من العيدي هيم

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينة وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل. وروي أيضا عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لا تروى بالماء. المهدوي: ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء. وفي الصحاح: والهيام بالضم أشد العطش. والهيام كالجنون من العشق. والهيام داء يأخذ الإبل فتهيم في الأرض لا ترعى. يقال: ناقة هيماء. والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها. والهيام بالفتح: الرمل الذي لا يتماسك أن يسيل من اليد للينه والجمع هيم مثل قذال وقذل. والهيام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان، وناقة هيماء مثل عطشان وعطشى.

قوله تعالى: ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أي رزقهم الذي يعد لهم، كالنزل الذي يعد للأضياف تكرمة لهم، وفيه تهكم، كما في قوله تعالى: ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (آل عمران: ٢١) وكقول أبي السعد الضبي:

وكنا إذا الجبار بالجيش ضـافنا جعلنا القنا والمرهفات لـه نزلا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبي عمرو "هذا نزلـهم" بإسكان الزاي، وقد مضى في آخر "آل عمران" القول فيه. "يوم الدين" يوم الجزاء، يعني في جهنم.

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث؟ لأن الإعادة كالابتداء. وقيل: المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا؟ "أفرأيتم ما تمنون" أي ما تصبونه من المني في أرحام النساء. "أأنتم تخلقونه" أي تصورون منه الإنسـان "أم نحن الخالقون" المقدرون المصورون. وهذا احتجاج عليهم وبيان للآية الأولى، أي إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث. وقرأ أبو السمال ومحمد بن السميقع وأشهب العقيلي: "تَمنون" بفتح التاء وهما لغتان أمْنَى ومَنَى، وأمْذَى ومَذَى يُمني ويَمني ويُمذي ويَمذي. الماوردي: ويحتمل أن يختلف معناها عندي، فيكون أمنى إذا أنزل عن جماع، ومنى إذا أنزل عن الاحتلام. وفي تسمية المني منيا وجهان: أحدهما لإمنائه وهو إراقته. الثاني لتقديره، ومنه المنا الذي يوزن به لأنه مقدار لذلك، وكذلك المني مقدار صحيح لتصوير الخلقة.

قولـه تعالى: ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ احتجاج أيضا، أي الذي يقدر على الإماتة يقدر على الخلق، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث. وقرأ مجاهد وحميد وابن محيصن وابن كثير "قدرنا" بتخفيف الدال. الباقون بالتشديد، قال الضحاك: أي سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض. وقيل: قضينا. وقيل: كتبنا، والمعنى متقارب، فلا أحد يبقى غيره عز وجل. "وما نحن بمسبوقين" أي إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد، أي لم يغلبنا. "بمسبوقين" معناه بمغلوبين. "على أن نبدل أمثالكم" وقال الطبري: المعنى نحن قدرنا بينكم الموت "على أن نبدل أمثالكم" بعد موتكم بآخرين من جنسكم، وما نحن بمسبوقين في آجالكم، أي لا يتقدم متأخر ولا يتأخر متقدم. "وننشئكم في ما لا تعلمون" من الصور والـهيئات. قال الحسن: أي نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم. وقيل: المعنى ننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فيجمل المؤمن ببياض وجهه، ومقبح الكافر بسواد وجهه. سعيد بن جبير: قولـه تعالى: "فيما لا تعلمون" يعني في حواصل طير سود تكون ببرهوت كأنها الخطاطيف، وبرهوت واد في اليمن. وقال مجاهد: "فيما لا تعلمون" في أي خلق شئنا. وقيل: المعنى ننشئكم في عالم لا تعلمون، وفي مكان لا تعلمون.

قولـه تعالى: ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾ أي إذ خلقتم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ولم تكونوا شيئا، عن مجاهد وغيره. قتادة والضحاك: يعني خلق آدم عليه السلام. "فلولا تذكرون" أي فهلا

تذكرون. وفي الخبر: عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار. وقراءة العامة "النشأة" بالقصر. وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو: "النشاءة" بالمد، وقد مضى في "العنكبوت" بيانه.

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ هذه حجة أخرى، أي أخبروني عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشق الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى، لأن الحرث فعلهم ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى وينبت على اختياره لا على اختيارهم. وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فإن الزارع هو الله) قال أبو هريرة: ألم تسمعوا قول الله تعالى: "أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون"[(١)] والمستحب لكل من يلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة "أفرأيتم ما تحرثون" الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صلِّ على محمد، وارزقنا ثمره، وجنبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا رب العالمين. ويقال: إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات: الدود والجراد وغير ذلك، سمعناه من ثقة وجرب فوجد كذلك. ومعنى "أأنتم تزرعونه" أي تجعلونه زرعا. وقد يقال: فلان زراع كما يقال حراث، أي يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعا يعجب الزراع. وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوزا.

قلت: فهو نهي إرشاد وأدب لا نهي حظر وإيجاب، ومنه قوله ﷺ: (لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي)[(٢)] وقد مضى في "يوسف" القول فيه. وقد بالغ بعض العلماء فقال: لا يقل حرثت فأصبت، بل يقل: أعانني الله فحرثت، وأعطاني بفضله ما أصبت. قال الماوردي: وتتضمن هذه الآية أمرين، أحدهما: الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم. الثاني: البرهان الموجب للاعتبار، لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشي بذره، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه، فهو بإعادة من أمات أخف عليه وأقدر، وفي هذا البرهان مقنع لذوي الفطر السليمة. ثم قال "لو نشاء لجعلناه حطاما" أي متكسرا يعني الزرع. والحطام الهشيم الهالك الذي لا ينتفع به في مطعم ولا غذاء، فنبه بذلك أيضا على أمرين: أحدهما: ما أولاهم به من النعم في

---

(١) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٤/ ١٢٠) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط والبزار، وفيه مسلم بن أبي مسلم الجرمي، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات". وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٣٠) إلى البزار وابن جرير وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي في "شعب الإيمان"، وضعفه. أي: البيهقي.

(٢) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

زرعهم إذ لم يجعله حطاما ليشكروه. الثاني: ليعتبروا بذلك في أنفسهم، كما أنه يجعلا الزرع حطاما إذا شاء وكذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا. "فظلتم تفكهون" أي تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم، قاله الحسن وقتادة وغيرهما. وفي الصحاح: وتفكه أي تعجب، ويقال: تندم، قال الله تعالى: "فظلتم تفكهون" أي تندمون. وتفكهت بالشيء تمتعت به. وقال يمان: تندمون على نفقاتكم، دليله: ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ (الكهف: ٤٢) وقال عكرمة: تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم في زرعكم. ابن كيسان: تحزنون، والمعنى متقارب. وفيه لغتان: تفكهون وتفكنون: قال الفراء: والنون لغة عكل. وفي الصحاح: التفكن التندم على ما فات. وقيل: التفكه التكلم فيما لا يعنيك، ومنه قيل للمزاح فكاهة بالضم، فأما الفكاهة بالفتح فمصدر فكه الرجل بالكسر فهو فكه إذا كان طيب النفس مزاحا.
وقراءة العامة "فظلتم" بفتح الظاء. وقرأ عبد الله "فظلتم" بكسر الظاء ورواها هارون عن حسين عن أبي بكر. فمن فتح فعلى الأصل. والأصل ظللتم فحذف اللام الأولى تخفيفا، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها. "إنا لمغرمون" وقرأ أبو بكر والمفضل "أئنا" بهمزتين على الاستفهام، ورواه عاصم عن زر بن حبيش. الباقون بهمزة واحدة على الخبر، أي يقولون "إنا لمغرمون" أي معذبون، عن ابن عباس وقتادة قالا: والغرام العذاب، ومنه قول ابن المحلم:

وثقت بأن الحفظ مني سجية وأن فؤادي متبل بك مغرم

وقال مجاهد وعكرمة: لمولع بنا، ومنه قول النمر بن تولب:

سلا عن تذكره تكتما وكان رهينا بها مغرما

يقال: أغرم فلان بفلانة، أي أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم. وقال مجاهد أيضا: لملقون شرا. وقال مقاتل بن حيان: مهلكون. النحاس: "إنا لمغرمون" مأخوذ من الغرام وهو الهلاك، كما قال:

يوم النسار ويوم الجفار كانا عذابا وكانا غراما

والضحاك وابن كيسان: هو من الغرم، والمغرم الذي ذهب ماله بغير عوض، أي غرمنا الحب الذي بذرناه. وقال مرة الهمداني: محاسبون. "بل نحن محرومون" أي حرث ما طلبنا من الريع. والمحروم الممنوع من الرزق. والمحروم ضد المرزوق وهو المحارف في قول قتادة. وعن أنس أن النبي ﷺ مر بأرض الأنصار فقال: (ما يمنعكم من الحرث) قالوا: الجدوبة، فقال: (لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر) ثم تلا "أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون".

قلت: وفي هذا الخبر والحديث الذي قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع في أسماء الله سبحانه، وأباه الجمهور من العلماء، وقد ذكرنا ذلك في (الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى).

قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى

تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ لتحيوا به أنفسكم، وتسكنوا به عطشكم، لأن الشراب إنما يكون تبعا للمطعوم، ولهذا جاء الطعام مقدما في الآية قبل، ألا ترى أنك تسقي ضيفك بعد أن تطعمه. الزمخشري: ولو عكست قعدت تحت قول أبي العلاء:

إذا سقيت ضيوف الناس محضا سقوا أضيافهم شبما زلالا

وسقي بعض العرب فقال: أنا لا أشرب إلا على ثميلة. "أأنتم أنزلتموه من المزن" أي السحاب، الواحدة مزنة، فقال الشاعر:

فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهام ولا فينا يعد بخيل

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المزن السحاب. وعن ابن عباس أيضا والثوري: المزن السماء والسحاب. وفي الصحاح: أبو زيد: المزنة السحابة البيضاء والجمع مزن، والمزنة المطرة، قال:

ألم تر أن الله أنزل مزنة وعفر الظباء في الكناس تقمع

"أم نحن المنزلون" أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فلم لا تشكروني بإخلاص العبادة لي؟ ولم تنكرون قدرتي على الإعادة؟. "لو نشاء جعلناه أجاجا" أي ملحا شديد الملوحة، قاله ابن عباس. الحسن: مرا قعاعا لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما. "فلولا تشكرون" أي فهلا تشكرون الذي صنع ذلك بكم.

قوله تعالى: ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الشجر الرطب "أأنتم أنشأتم شجرتها" يعني التي تكون منها الزناد وهي المرخ والعفار، ومنه قولهم: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، أي استكثر منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حسبهما. ويقال: لأنهما يسرعان الوري. يقال: أوريت النار إذا قدحتها. ووري الزند يري إذا انقدح منه النار. وفيه لغة أخرى: ووري الزند يري بالكسر فيهما. "أم نحن المنشؤون" أي المخترعون الخالقون، أي فإذا عرفتم قدرتي فاشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث. "نحن جعلناها تذكرة" يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى، قاله قتادة. ومجاهد: تبصرة للناس من الظلام. وصح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم) فقالوا يا رسول الله: أن كانت لكافية، قال: (فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها)[(١)]. "ومتاعا للمقوين" قال الضحاك: أي منفعة للمسافرين، سموا بذلك لنزولهم القوى وهو القفر. الفراء: إنما يقال للمسافرين: مقوين إذا نزلوا القي وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها. وكذلك القوى والقواء بالمد والقصر، ومنزل قواء لا أنيس به، يقال: أقوت الدار وقويت أيضاً أي خلت من سكانها، قال النابغة:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

يا دار ميـــة بالعـــلياء فالســـند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقال عنترة:

حييت من طلل تقادم عهده   أقوى وأقفر بعد أم الـهيثم

ويقال: أقوى أي قوي وقوي أصحابه، وأقوى إذا سافر أي نزل القواء والقي. وقال مجاهد: "للمقوين" المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها. وقال ابن زيد: للجائعين في إصلاح طعامهم. يقال: أقويت منذ كذا وكذا، أي ما أكلت شيئا، وبات فلان القواء وبات القفر إذا بات جائعا على غير طعم، قال الشاعر:

وإني لأختار القوى طاوي الحشى   محافظــة مــن أن يقـــال لئـــيم

وقال الربيع والسدي: "المقوين" المنزلين الذين لا زناد معهم، يعني نارا يوقدون فيختبزون بها؟ ورواه العوفي عن ابن عباس. وقال قطرب: المقوي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغني، يقال: أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر مالـه. المهدوي: والآية تصلح للجميع، لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير. وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأول. القشيري: وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم، لأن أهل البادية لا بد لـهم من النار يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع، وفي كثير من حوائجهم. "فسبح باسم ربك العظيم" أي فنزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعجز عن البعث.

قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فلا أقسم ﴾ "لا" صلة في قول أكثر المفسرين، والمعنى فأقسم، بدليل قولـه: "وإنه لقسم". وقال الفراء: هي نفي، والمعنى ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف "أقسم". وقد يقول الرجل: لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفي اليمين، بل يريد به نفي كلام تقدم. أي ليس الأمر كما ذكرت، بل هو كذا. وقيل: "لا" بمعنى ألا للتنبيه كما قال:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا. وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر "فلأقسم" بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف، التقدير: فلأنا أقسم بذلك. ولو أريد به الاستقبال للزمت النون، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذي يراد به الاستقبال وهو شاذ.

قولـه تعالى: ﴿ بمواقع النجوم ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها في قول قتادة وغيره. عطاء بن أبي رباح: منازلـها. الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة. الضحاك: هي الأنواء التي كان أهل الجاهلية يقولون إذا مطروا قالوا مطرنا بنوء كذا. الماوردي: ويكون قولـه تعالى: "فلا أقسم"

مستعملا على حقيقته من نفي القسم. القشيري: هو قسم، ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة. قلت: يدل على هذا قراءة الحسن "فلأقسم" وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته في غير موضع من كتابه. وقال ابن عباس: المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السفرة الكاتبين، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث من أمته، حكاه الماوردي عن ابن عباس والسدي. وقال أبو بكر الأنباري: حدثنا إسماعيل ابن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن المنهال حدثنا همام عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم نزل إلى الأرض نجوما، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر، فذلك قول الله تعالى: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم[1] * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم. إنه لقرآن كريم ﴾ وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن. وقرأ حمزة والكسائي "بموقع" على التوحيد، وهي قراءة عبد الله بن مسعود والنخعي والأعمش وابن محيصن ورويس عن يعقوب. الباقون على الجمع فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع فلاختلاف أنواعه.

قوله تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ قيل: إن الهاء تعود على القرآن، أي إن القرآن لقسم عظيم، قاله ابن عباس وغيره. وقيل: ما أقسم الله به عظيم "إنه لقرآن كريم" ذكر المقسم عليه، أي أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزة لنبيه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين، لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء، لأنه تنزيل ربهم ووحيه. وقيل: "كريم" أي غير مخلوق. وقيل: "كريم" لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأمور. وقيل: لأنه يكرم حافظه، ويعظم قارئه. "في كتاب مكنون" مصون عند الله تعالى. وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل. والكتاب هنا كتاب في السماء، قاله ابن عباس. وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا: هو اللوح المحفوظ. عكرمة: التوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزل عليه. السدي: الزبور. مجاهد وقتادة: هو المصحف الذي في أيدينا.

قوله تعالى: ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ اختلف في معنى "لا يمسه" هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف في "المطهرون" من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير: لا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة. وكذا قال أبو العالية وابن زيد: إنهم الذين طهروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بني آدم، فجبريل النازل به مطهر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مطهرون. الكلبي: هم السفرة الكرام البررة. وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال: أحسن ما سمعت في قوله "لا يمسه إلا المطهرون" أنها بمنزلة الآية التي في ﴿ عبس

(١) الأثر فيه محمد بن السائب الكلبي، وهو متهم بالكذب، وذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١٢٠) وقال: "رواه الطبراني وفيه حكيم بن جبير وهو متروك".

وتولى ﴾ (عبس: ١): ﴿ فمن شاء ذكره. في صحف مكرمة. مرفوعة مطهرة. بأيدي سفرة. كرام بررة ﴾ (عبس: ١٣) يريد أن المطهرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة في سورة "عبس". وقيل: معنى "لا يمسه" لا ينزل به "إلا المطهرون" أي الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء. وقيل: لا يمس اللوح المحفوظ الذي هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهرون. وقيل: إن إسرافيل هو الموكل بذلك، حكاه القشيري. ابن العربي: وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله في وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال. وأما من قال: إنه الذي بأيدي الملائكة في الصحف فهو قول محتمل، وهو اختيار مالك. وقيل: المراد بالكتاب المصحف الذي بأيدينا، وهو الأظهر. وقد روى مالك وغيره أن كتاب عمرو بن حزم الذي كتبه لـه رسول الله ﷺ ونسخته: (من محمد النبي إلى شرحبيل بن عبد كلال والحارث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال قيل ذي رعين ومعافر وهمدان أما بعد) وكان في كتابه: ألا يمس القرآن إلا طاهر[١]. وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: (لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر)[٢]. وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة: "لا يمسه إلا المطهرون" فقام واغتسل وأسلم. وقد مضى في أول سورة "طه".

وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره: "لا يمسه إلا المطهرون" من الأحداث والأنجاس. الكلبي: من الشرك. الربيع بن أنس: من الذنوب والخطايا. وقيل: معنى "لا يمسه" لا يقرؤه "إلا المطهرون" إلا الموحدون، قالـه محمد بن فضيل وعبدة. قال عكرمة: كان ابن عباس ينهى أن يمكن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن وقال الفراء: لا يجد طعمه ونفعه وبركته إلا المطهرون، أي المؤمنون بالقرآن. ابن العربي: وهو اختيار البخاري، قال النبي ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً)[٣]. وقال الحسين بن الفضل: لا يعرف تفسيره وتأويلـه إلا من طهره الله من الشرك والنفاق. وقال أبو بكر الوراق: لا يوفق للعمل به إلا السعداء. وقيل: المعنى لا يمس ثوابه إلا المؤمنون. ورواه معاذ عن النبي ﷺ. ثم قيل: ظاهر الآية خبر عن الشرع، أي لا يمسه إلا المطهرون شرعا، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع، وهذا اختيار القاضي أبي بكر بن العربي. وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر. وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة". المهدوي: يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب. ويجوز أن يكون نهيا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم.

واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء، فالجمهور على المنع من مسه لحديث عمرو بن حزم. وهو مذهب علي وابن مسعود وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعطاء والزهري والنخعي والحكم وحماد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي. واختلفت الرواية عن أبي حنيفة، فروي

---

(١) أخرجه مالك في "الموطأ" (٤٦٨) مرسلاً، والدارقطني (١/ ٨٨) متصلاً، واحتج به الإمام أحمد رحمه الله، وصححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه وشواهده كما في الإرواء (١٢٢). ومن طرقه وشواهده حديث ابن عمر الذي بعده.

(٢) انظر "الإرواء" الموضع السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٣٤).

عنه أنه يمسه المحدث، وقد روي هذا عن جماعة من السلف منهم ابن عباس والشعبي وغيرهما. وروي عنه أنه يمس ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر. ابن العربي: وهذا إن سلمه مما يقوي الحجة عليه، لأن حريم الممنوع ممنوع. وفيما كتبه النبي ﷺ لعمرو بن حزم أقوى دليل عليه. وقال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة. وقال أبو حنيفة: لا بأس بذلك. ولم يمنع من حمله بعلاقة أو مسه بحائل. وقد روي عن الحكم وحماد وداود بن علي أنه لا بأس بحمله ومسه للمسلم والكافر طاهرا أو محدثا، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله. واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبي ﷺ إلى قيصر، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه. وفي مس الصبيان إياه على وجهين: أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ. والثاني الجواز، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن، لأن تعلمه حال الصغر، ولأن الصبي وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة، لأن النية لا تصح منه، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثا.

"تنزيل من رب العالمين" أي منزل، كقولهم: ضرب الأمير ونسج اليمن. وقيل: "تنزيل" صفة لقوله تعالى: ﴿ إنه لقرآن كريم﴾. وقيل: أي هو تنزيل.

قوله تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ أفبهذا الحديث ﴾ يعني القرآن "أنتم مدهنون" أي مكذبون، قاله ابن عباس وعطاء وغيرهما. والمدهن الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبه بالدهن في سهولة ظاهره. وقال مقاتل ابن سليمان وقتادة: مدهنون كافرون، نظيره: ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ (القلم: ٩). وقال المؤرج: المدهن المنافق أو الكافر الذي يلين جانبه ليخفي كفره، والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر النفاق، وأصله اللين، وأن يسر خلاف ما يظهر، وقال أبو قيس بن الأسلت:

الحزم والقوة خير من   الإدهان والفهة والهاع

وأدهن وداهن واحد. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غششت. وقال الضحاك: "مدهنون" معرضون. مجاهد: ممالئون الكفار على الكفر به. ابن كيسان: المدهن الذي لا يعقل ما حق الله عليه ويدفعه بالعلل. وقال بعض اللغويين: مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن.

قوله تعالى: ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ قال ابن عباس: تجعلون شكركم التكذيب. وذكر الهيثم بن عدي: أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان؟ أي ما شكره. وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره، لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقا على هذا المعنى. فقيل: "وتجعلون رزقكم" أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقا لكم "أنكم تكذبون" بالرزق أن تضعوا الرزق مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾ (الأنفال: ٣٥) أي لم يكونوا يصلون ولكنهم كانوا يصفرون ويصفقون مكان الصلاة. ففيه بيان أن ما

أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى، ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة، أو صبر إن كان مكروها تعبداً لـه وتذللا. وروي عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ قرأ "وتجعلون بشكركم أنكم تكذبون"[١] حقيقة. وعن ابن عباس أيضا: أن المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب: مطرنا بنوء كذا، رواه علي ابن أبي طالب عن النبي ﷺ. وفي صحيح مسلم[٢] عن ابن عباس قال: مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: (أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا)، قال: فنزلت هذه الآية: "فلا أقسم بمواقع النجوم حتى بلغ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون".

وعنه أيضا أن النبي ﷺ خرج في سفر فعطشوا فقال النبي ﷺ: (أرأيتم إن دعوت الله لكم فسقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بنوء كذا) فقالوا يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء. فصلى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمطروا، فمر النبي ﷺ ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح لـه وهو يقول سقينا بنوء كذا، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"[٣] أي شكركم لله على رزقه إياكم "أنكم تكذبون" بالنعمة وتقولون سقينا بنوء كذا، كقولك: جعلت إحساني إليك إساءة منك إلي، وجعلت إنعامي لديك أن اتخذتني عدوا. وفي الموطأ عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما أنصرف أقبل على الناس وقال: (أتدرون ماذا قال ربكم) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب فأما من مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي)[٤]. قال الشافعي رحمه الله: لا أحب أحدا أن يقول مطرنا بنوء كذا وكذا، وإن كان النوء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر، والذي أحب أن يقول: مطرنا وقت كذا كما تقول مطرنا شهر كذا، ومن قال: مطرنا بنوء كذا، وهو يريد أن النوء أنزل الماء، كما عنى بعض، أهل الشرك من الجاهلية بقولـه فهو كافر، حلال دمه إن لم يتب. وقال أبو عمر بن عبد البر: وأما قولـه عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الـه سبحانه: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) فمعناه عندي على وجهين: أما أحدهما فإن المعتقد بأن النوء هو الموجب لنزول الماء، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه وقتلـه إن أبى لنبذه الإسلام ورده القرآن. والوجه الآخر أن يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق في علمه، وهذا وإن كان وجها مباحا، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل، وجهلا بلطيف حكمته في أنه ينزل الماء متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة بنوء كذا، وكثيرا ما ينوء النوء فلا ينزل معه شيء من الماء، وذلك من الله

---

(١) ضعيف أخرجه بنحوه الترمذي (٣٣٤٩- أحوذي) من طريق إسرائيل عن عبد الأعلى عن أبي عبد الرحمن عن علي مرفوعاً. وقال: "هذا حديث غريب. روى سفيان عن عبد الأعلى هذا الحديث بهذا الإسناد ولم يرفعه".

(٢) أخرجه مسلم (٧٣)، وهو بنحوه عند البخاري (٨٤٦)، وفي غير موضع من صحيحه.

(٣) عزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٣٤) إلى ابن مردويه، وهو ضعيف.

(٤) أخرجاه في الصحيحين.

تعالى لا من النوء. وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر: مطرنا بنوء الفتح، ثم يتلو: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾ (فاطر: ٢) قال أبو عمر: وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ: (مطرنا بفضل الله ورحمته). ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين استسقى به: يا عم رسول الله ﷺ كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق سبعا بعد سقوطها. فما مضت سابعة حتى مطروا، فقال عمر: الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته. وكان عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر ويؤمل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية؟.

وروى سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أمية أن النبي ﷺ سمع رجلا في بعض أسفاره يقول: مطرنا ببعض عثانين الأسد، فقال رسول الله ﷺ: (كذبت بل هو سقيا الله عز وجل) قال سفيان: عثانين الأسد الذراع والجبهة[١]. وقراءة العامة "تكذبون" من التكذيب. وقرأ المفضل عن عاصم ويحيى بن وثاب "تكذبون" بفتح التاء مخففا. ومعناه ما قدمناه من قول من قال: مطرنا بنوء كذا. وثبت من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاث لن يزلن في أمتي التفاخر في الأحساب والنياحة والأنواء) ولفظ مسلم في هذا (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن الفخر في الأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة)[٢].

قوله تعالى: ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحلقوم. ولم يتقدم لها ذكر، لأن المعنى معروف، قال حاتم:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وفي حديث: (إن ملك الموت له أعوان يقطعون العروق يجمعون الروح شيئا فشيئا حتى ينتهى بها إلى الحلقوم فيتوفاها ملك الموت)[٣]. "وأنتم حينئذ تنظرون" أمري وسلطاني. وقيل: تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء. وقال ابن عباس: يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه. ثم قيل: هو رد عليهم في قولهم لإخوانهم ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ (آل عمران: ١٥٦) أي فهل ردوا روح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم. وقيل: المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه في جسده، مع حرصكم على امتداد عمره، وحبكم لبقائه. وهذا رد لقولهم: ﴿ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (الجاثية: ٢٤). وقيل: هو خطاب لمن هو في النزع، أي إن لم يك ما بك من الله فهلا حفظت على نفسك الروح. "ونحن أقرب إليه منكم" أي بالقدرة والعلم والرؤية. قال عامر بن عبد القيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلي منه. وقيل: أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه "أقرب إليه منكم" "ولكن لا تبصرون" أي لا ترونهم.

قوله تعالى: ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أي فهلا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أإنا لمدينون ﴾ (الصافات: ٥٣) أي مجزيون محاسبون. وقد تقدم. وقيل: غير مملوكين ولا مقهورين. قال الفراء وغيره: دنته ملكته، وأنشد للحطيئة:

---

(١) ضعيف.
(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤).
(٣) ضعيف.

لقد دنيت أمر بنيك حتى تركتهم أدق من الطحين

يعني مُلِّكت. ودانه أي أدلـه واستعبده، يقال: دنته فدان. وقد مضى في "الفاتحة" القول في هذا عند قولـه تعالى: "يوم الدين". "ترجعونها" ترجعون الروح إلى الجسد. "إن كنتم صادقين" أي ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين. و"ترجعونها" جواب لقولـه تعالى: "فلولا إذا بلغت الحلقوم" ولقولـه: "فلولا إن كنتم غير مدينين" أجيبا بجواب واحد، قالـه الفراء. وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قولـه تعالى: ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (البقرة: ٣٨) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان. وقيل: حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه. وقيل: فيها تقديم وتأخير، مجازها: فلولا وهلا إن كنتم غير مدينين ترجعونها، تردون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن
كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ
هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فأما إن كان من المقربين ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم فقال: "فأما إن كان" هذا المتوفى "من المقربين" وهم السابقون. "فروح وريحان وجنة نعيم" وقراءة العامة "فروح" بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا. وقال الحسن: الروح الرحمة. الضحاك: الروح الاستراحة. القتبي: المعنى لـه في القبر طيب نسيم. وقال أبو العباس بن عطاء: الروح النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، "وجنة نعيم" هو ألا يحجب فيها عن الله عز وجل. وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجحدري ورويس وزيد عن يعقوب "فروح" بضم الراء، ورويت عن ابن عباس. قال الحسن: الروح الرحمة، لأنها كالحياة للمرحوم. وقالت عائشة رضي الله عنها: قرأ النبي ﷺ "فروح" بضم الراء[1] ومعناه فبقاء لـه وحياة في الجنة وهذا هو الرحمة. "وريحان" قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي رزق. قال مقاتل: هو الرزق بلغة حمير، يقال: خرجت أطلب ريحان الله أي رزقه، قال النمر بن تولب:

سلام الإلـه وريحانه ورحمته وسَمَاءٌ درر

وقال قتادة: إنه الجنة. الضحاك: الرحمة. وقيل هو الريحان المعروف الذي يشم. قالـه الحسن وقتادة أيضا. الربيع بن خيثم: هذا عند الموت والجنة مخبوءة لـه إلى أن يبعث. أبو الجوزاء: هذا عند قبض روحه يتلقى بضبائر الريحان. أبو العالية: لا يفارق أحد روحه من المقربين في الدنيا حتى يؤتى بغصنين من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما، وأصل ريحان واشتقاقه تقدم في أول سورة "الرحمن" فتأملـه. وقد سرد الثعلبي في الروح والريحان أقوالا كثيرة سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٠٨- أحوذي) عن عائشة: "أن النبي ﷺ كان يقرأ: فروح وريحان وجنة نعيم". وقال: "حسن غريب". وفسر السيوطي القراءة في الحديث بقوله في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٣٩): "برفع الراء".

قولـه تعالى: ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ أي "إن كان" هذا المتوفى "من أصحاب اليمين" "فسلام لك من أصحاب اليمين" أي لست ترى منهم إلا ما تحب من السلامة فلا تهتم لـهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله. وقيل: المعنى سلام لك منهم، أي أنت سالم من الاغتمام لـهم. والمعنى واحد. وقيل: أي إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلي الله عليك وسلم. وقيل: المعنى إنهم يسلمون عليك يا محمد. وقيل: معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين، فحذف إنك. وقيل: إنه يحيا بالسلام إكراما، فعلى هذا في محل السلام ثلاثة أقاويل: أحدها عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت، قالـه الضحاك. وقال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقد مضى هذا في سورة "النحل" عند قولـه تعالى: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾(النحل: ٣٢). الثاني عند مساءلته في القبر يسلم عليه منكر ونكير. الثالث عند بعثه في القيامة تسلم عليه الملائكة قبل وصولـه إليها.

قلت: وقد يحتمل أن تسلم عليه في المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراما بعد إكرام. والله أعلم. وجواب "إن" عند المبرد محذوف التقدير مهما يكن من شيء "فسلام لك من أصحاب اليمين" إن كان من أصحاب اليمين" فسلام لك من أصحاب اليمين" فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدم عليه، كما حذف الجواب في نحو قولك أنت ظالم إن فعلت، لدلالة ما تقدم عليه. ومذهب الأخفش أن الفاء جواب "أما" و"إن"، ومعنى ذلك أن الفاء جواب "أما" وقد سدت مسد جواب "إن" على التقدير المتقدم، والفاء جواب لـهما على هذا الحد. ومعنى "أما" عند الزجاج: الخروج من شيء إلى شيء، أي دع ما كنا فيه وخذ في غيره.

قولـه تعالى: ﴿ وأما إن كان من المكذبين ﴾ بالبعث "الضالين" عن الـهدى وطريق الحق "فنزل من حميم" أي فلـهم رزق من حميم، كما قال: "ثم إنكم أيها الضالون المكذبون. لآكلون" وكما قال: ﴿ ثم إن لـهم عليها لشوبا من حميم ﴾(الصافات: ٦٧) "وتصلية جحيم" إدخال في النار. وقيل: إقامة في الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها، يقال: أصلاه النار وصلاه، أي جعلـه يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول، كما يقال: لفلان إعطاء مال أي يعطى المال. وقرئ "وتصلية" بكسر التاء أي ونزل من تصلية جحيم. ثم أدغم أبو عمرو التاء في الجيم وهو بعيد. "إن هذا لـهو حق اليقين"

أي هذا الذي قصصناه محض اليقين وخالصه. وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختلاف لفظهما. قال المبرد: هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين، فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين. وعند البصريين حق الأمر اليقين أو الخبر اليقين. وقيل: هو توكيد. وقيل: أصل اليقين أن يكون نعتا للحق فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز، كقولـه: ﴿ ولدار الآخرة ﴾

(يوسف: ١٠٩) وقال قتادة في هذه الآية: إن الله ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين. "فسبح باسم ربك العظيم" أي نزه الله تعالى عن السوء. والباء زائدة أي سبح اسم ربك، والاسم المسمى. وقيل: "فسبح" أي فصلّ بذكر ربك وبأمره. وقيل: فاذكر اسم ربك العظيم وسبحه. وعن عقبة بن عامر قال: لما نزلت "فسبح باسم ربك العظيم" قال النبي ﷺ: (اجعلوها في ركوعكم) ولما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ (الأعلى: ١) قال النبي ﷺ: (اجعلوها في سجودكم) خرجه أبو داود[١]. والله أعلم.

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩) بسند ضعيف.

سورة الحديد

مقدمة السورة:

عن العرباض بن سارية أن النبي ﷺ كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: (إن فيهن آية أفضل من ألف آية)[١] يعني بالمسبحات "الحديد" و"الحشر" و"الصف" و"الجمعة" و"التغابن".

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ سبح لله ما في السماوات والأرض ﴾ أي مجد الله ونزهه عن السوء. وقال ابن عباس: صلى لله "ما في السموات" ممن خلق من الملائكة "والأرض" من شيء فيه روح أو لا روح فيه. وقيل: هو تسبيح الدلالة. وأنكر الزجاج هذا وقال: لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة، فلم قال: ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (الإسراء: ٤٤) وإنما هو تسبيح مقال. واستدل بقوله تعالى: ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ﴾ (الأنبياء: ٧٩) فلو كان هذا تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود؟!

قلت: وما ذكره هو الصحيح، وقد مضى بيانه والقول فيه في "الإسراء" عند قوله تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (الإسراء: ٤٤) "وهو العزيز الحكيم".

قوله تعالى: ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ أي انفرد بذلك. والملك عبارة عن الملك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر. وقيل: أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق. "يحيي ويميت" يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث. وقيل: يحيي النطف وهي موات ويميت الأحياء. وموضع "يحيي ويميت" رفع على معنى وهو يحيي ويميت. ويجوز أن يكون نصبا بمعنى "له ملك السموات والأرض" محييا ومميتا على الحال من المجرور في "له" والجار عاملا فيها. "وهو على كل شيء قدير" أي هو الله لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ اختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها في الكتاب الأسنى. وقد شرحها رسول الله ﷺ شرحا يغني عن قول كل قائل، فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر)[٢] عنى بالظاهر الغالب، وبالباطن العالم، والله أعلم. "وهو بكل شيء عليم" بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وحسنه الترمذي وهو كما قال.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ تقدم. "يعلم ما يلج في الأرض" أي يدخل فيها من مطر وغيره "وما يخرج منها" من نبات وغيره "وما ينزل من السماء" من رزق ومطر وملك "وما يعرج فيها" يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد "وهو معكم أين ما كنتم" يعني بقدرته وسلطانه وعلمه "والله بما تعملون بصير" يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها. وقد جمع في هذه الآية بين "استوى على العرش" وبين "وهو معكم" والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بد من التأويل، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض. وقد قال الإمام أبو المعالي: إن محمدا ﷺ ليلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ له ملك السماوات والأرض ﴾ هذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة "وإلى الله ترجع الأمور" أي أمور الخلائق في الآخرة. وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف "ترجع" بفتح التاء وكسر الجيم. الباقون "ترجع". "يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل" تقدم. "وهو عليم بذات الصدور" أي لا تخفى عليه الضمائر، ومن كان بهذه الصفة فلا يجوز أن يعبد من سواه.

قوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ آمنوا بالله ورسوله ﴾ أي صدقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله "وأنفقوا" تصدقوا. وقيل: أنفقوا في سبيل الله. وقيل: المراد الزكاة المفروضة. وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه "مما جعلكم مستخلفين فيه" دليل على أن أصل الملك لله سبحانه، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذي يرضي الله فيثبته على ذلك بالجنة. فمن أنفق منها في حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم. وقال الحسن: "مستخلفين فيه" بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم. وهذا يدل على أنها

ليست بأموالكم في الحقيقة، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النواب والوكلاء، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم. "فالذين آمنوا" وعملوا الصالحات "منكم وأنفقوا" في سبيل الله "لـهم أجر كبير" وهو الجنة.

قولـه تعالى: ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله﴾استفهام يراد به التوبيخ. أي أي عذر لكم في ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل؟ "والرسول يدعوكم" بيّن بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع. قرأ أبو عمرو: "وقد أخذ ميثاقكم" على غير مسمى الفاعل. والباقون على مسمى الفاعل، أي أخذ الله ميثاقكم. قال مجاهد: هو الميثاق الأول الذي كان وهم في ظهر آدم بأن الله ربكم لا إلـه لكم سواه. وقيل: أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول، وأقام عليكم الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسول "إن كنتم مؤمنين" أي إذ كنتم. وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل. وقيل: أي إن كنتم مؤمنين بحق يوما من الأيام، فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد ﷺفقد صحت براهينه. وقيل: إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم. وكانوا يعترفون بهذا. وقيل: هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبي ﷺميثاقهم فارتدوا. وقولـه: "إن كنتم مؤمنين" أي إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان.

قولـه تعالى: ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ يريد القرآن. وقيل: المعجزات، أي لزمكم الإيمان بمحمد ﷺ، لما معه من المعجزات، والقرآن أكبرها وأعظمها. "ليخرجكم" أي بالقرآن. وقيل: بالرسول. وقيل: بالدعوة. "من الظلمات" وهو الشرك والكفر "إلى النور" وهو الإيمان. "وإن الله بكم لرؤوف رحيم".

قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله﴾أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى: فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. "ولله ميراث السماوات والأرض" أي إنهما راجعتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق لـه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبي والزهري: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف، أي "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل" ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف لدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النصب. والله أعلم.

الثالثة: روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم، وقد قال الله تعالى: "لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل" وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر ﷺ، ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر ﷺ وتقديمه، لأنه أول من أسلم. وعن ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر، ولأنه أول من أنفق على نبي الله ﷺ. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده أبو بكر وعليه عبادة قد خللها في صدره بخلال فنزل جبريل فقال: يا نبي الله! ما لي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها في صدره بخلال؟ فقال: (قد أنفق علي ماله قبل الفتح) قال: فإن الله يقول لك اقرأ على أبي بكر السلام وقل له أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول ﷺ: (يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراض أنت في فقرك هذا أم ساخط)؟ فقال أبو بكر: أأسخط على ربي؟ إني عن ربي لراض! إني عن ربي لراض! إني عن ربي لراض! قال: (فإن الله يقول لك قد رضيت عنك كما أنت عني راض) فبكى أبو بكر فقال جبريل ﷺ: والذي بعثك يا محمد بالحق، لقد تخللت حملة العرش بالعبي منذ تخلل صاحبك هذا بالعباءة، ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، وأقروا له بالتقدم والسبق[١]. وقال علي بن أبي طالب ﷺ: سبق النبي ﷺ وصلى أبو بكر وثلث عمر، فلا أوتى برجل فضلني على أبي بكر إلا جلدته حد المفتري ثمانين جلدة وطرح الشهادة. فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ.

الرابعة: التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة. وقد قال ﷺ في مرضه: (مروا أبا بكر فليصل بالناس)[٢] الحديث. وقال: (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله)[٣] وقال: (وليؤمكما أكبركما) من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدم[٤]. وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة، كما قال ﷺ: (الولاء للكبر)[٥] ولم يعن كبر السن. وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقا. وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحق بالمراعاة، لأنه إذا اجتمع العلماء والسن في خيرين قدم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قدم في الدين قدم في الدنيا. وفي الآثار: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه)[٦]. ومن الحديث الثابت في الأفراد: (ما أكرم شاب شيخاً لسنِّه إلا قيض الله له عند سنِّه مَن يكرمه)[٧]. وأنشدوا:

---

(١) موضوع.
(٢) جزء من حديث أخرجاه في الصحيحين، وقد سبق.
(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٦٧٣).
(٤) سبق تخرجه.
(٥) "ضعيف" أخرجه البيهقي (١٠/ ٣٠٦) عن طريق الحارث بن حصين عن زيد بن وهب عن علي وعبد الله وزيد بن ثابت ﷺ موقوفاً عليهم بنحوه، وانظر الإرواء (١٧٤٠).
(٦) "حسن" أخرجه أحمد والحاكم عن عبادة مرفوعاً، كما في صحيح الجامع (٥٤٤٣).
(٧) "ضعيف" أخرجه الترمذي عن أنس، وانظر ضعيف الجامع (٥٠١٤).

يـا عائـبا للشـيوخ مـن أشـر داخلـه في الصبا ومن بذخ
اذكـر إذا شـئت أن تعيرهـم جـدك واذكر أباك يا ابن أخ
واعـلم بـأن الشباب منسلخ عـنك ومـا وزره بمنسـلخ
مـن لا يعز الشـيوخ لا بلغت يومـا به سـنه إلى الشـيخ

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أي المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعدهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ ابن عامر "وكل" بالرفع، وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام. الباقون "وكلا" بالنصب على ما في مصاحفهم، فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أي وعد الله كلا الحسنى. ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل، والـهاء محذوفة من وعده.

قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ﴾ ندب إلى الإنفاق في سبيل الله. وقد مضى في "البقرة" القول فيه. والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا: قد أقرض، كما قال:

وإذا جوزيت قرضا فاجزه إنما يجزي الفتى ليس الجمل

وسمي قرضا، لأن القرض أخرج لاسترداد البدل. أي من ذا الذي ينفق في سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة. قال الكلبي: "قرضا" أي صدقة "حسنا" أي محتسبا من قلبه بلا من ولا أذى. "فيضاعفه لـه" ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف. وقيل: القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمـد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر، رواه سفيان عن أبي حيان. وقال زيد بن أسلم: هو النفقة على الأهل. الحسن: التطوع بالعبادات. وقيل: إنه عمل الخير، والعرب تقول: لي عند فلان قرض صدق وقرض سوء. القشيري: والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس، يبتغي به وجه الله دون الرياء والسمعة، وأن يكون من الحلال. ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الرديء فيخرجه، لقولـه تعالى: ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ (البقرة: ٢٦٧) وأن يتصدق في حال يأمل الحياة، فإن النبي ﷺ سئل عن أفضل الصدقة فقال: (أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا)[1] وأن يخفي صدقته، لقولـه تعالى: ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ (البقرة: ٢٧١) وألا يمن، لقولـه تعالى: ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ (البقرة: ٢٦٤) وأن يستحقر كثير ما يعطي، لأن الدنيا كلـها قليلة، وأن يكون من أحب أمواله، لقولـه تعالى: ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(آل عمران: ٩٢) وأن يكون كثيرا، لقوله ﷺ: (أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها)(١). "فيضاعفه له" وقرأ ابن كثير وابن عامر "فيضعفه" بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء. وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة "فيضاعفه" بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء. ورفع الباقون عطفا على "يقرض". وبالنصب جوابا على الاستفهام. وقد مضى في "البقرة" القول في هذا مستوفى. "وله أجر كريم" يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ العامل في "يوم" "وله أجر كريم"، وفي الكلام حذف أي "وله أجر كريم" في "يوم ترى" فيه "المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم" أي يمضي على الصراط في قول الحسن، وهو الضياء الذي يمرون فيه "بين أيديهم" أي قدامهم. "وبأيمانهم" قال الفراء: الباء بمعنى في، أي في أيمانهم. أو بمعنى عن أي عن أيمانهم. وقال الضحاك: "نورهم" هداهم "وبأيمانهم" كتبهم، واختاره الطبري. أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كتب أعمالهم. فالباء على هذا بمعنى في. ويجوز على هذا أن يوقف على "بين أيديهم" ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن. وقرأ سهل بن سعد الساعدي وأبو حيوة "وبإيمانهم" بكسر الألف، أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر وعطف ما ليس بظرف على الظرف، لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف. والمعنى يسعى كامنا "بين أيديهم" وكائنا "بإيمانهم"، وليس قوله: "بين أيديهم" متعلقا بنفس "يسعى". وقيل: أراد بالنور القرآن. وعن ابن مسعود: يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم، وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: (إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه)(٢) قال الحسن: ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم. وقال مقاتل: ليكون دليلا لهم إلى الجنة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ التقدير يقال لهم: "بشراكم اليوم" دخول جنات. ولا بد من تقدير حذف المضاف، لأن البشرى حدث، والجنة عين فلا تكون هي هي. "تجري من تحتها الأنهار" أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها. "خالدين فيها" حال من الدخول المحذوف، التقدير "بشراكم اليوم" دخول جنات "تجري من تحتها الأنهار" مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم، لأن فيه فصلا بين الصلة والموصول. ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى، كأنه قال: تبشرون خالدين. ويجوز أن يكون الظرف الذي هو "اليوم" خبرا عن "بشراكم" و"جنات" به لا من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم. و"خالدين" حال حسب ما تقدم. وأجاز الفراء نصب "جنات" على الحال على أن يكون "اليوم" خبراً عن

---

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي ذر، وقد سبق.

(٢) عزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٥٠) إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة مرفوعاً. وهو ضعيف لإرساله.

"بشراكم" وهو بعيد، إذ ليس في "جنات" معنى الفعل. وأجاز أن يكون "بشراكم" نصبا على معنى يبشرونهم بشرى وينصب "جنات" بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يوم يقول المنافقون ﴾ العامل في "يوم" "ذلك هو الفوز العظيم". وقيل: هو به له من اليوم الأول. "نقتبس من نوركم" قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر، والنظر الانتظار أي انتظرونا. وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب "أنظرونا" بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار. أي أمهلونا وأخرونا، أنظرته أخرته، واستنظرته أي استمهلته. وقال الفراء: تقول العرب: أنظرني أنتظرني، وأنشد لعمرو بن كلثوم:

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظـرنا نخبرك اليقينا

أي انتظرنا. "نقتبس من نوركم" أي نستضيء من نوركم. قال ابن عباس وأبو أمامة: يغشى الناس يوم القيامة ظلمة ـ قال الماوردي: أظنها بعد فصل القضاء ـ ثم يعطون نورا يمشون فيه. قال المفسرون: يعطي الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالـهم يمشون به على الصراط، ويعطي المنافقين أيضا نورا خديعة لـهم، دليله قوله تعالى: ﴿ وهو خادعهم ﴾ (النساء: ١٤٢). وقيل: إنما يعطون النور، لأن جميعهم أهل دعوة دون الكافر، ثم يسلب المنافق نوره لنفاقه، قال ابن عباس. وقال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور. وقال الكلبي: بل يستضيء المنافقون بنور المؤمنين ولا يعطون النور، فبينما هم يمشون إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين، فذلك قوله تعالى: ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ (التحريم: ٨) يقوله المؤمنون، خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للمؤمنين: "انظرونا نقتبس من نوركم". "قيل ارجعوا وراءكم" أي قالت لـهم الملائكة "ارجعوا". وقيل: بل هو قول المؤمنين لـهم "ارجعوا وراءكم" إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فاطلبوا هنالك لأنفسكم نورا فإنكم لا تقتبسون من نورنا. فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور "فضرب بينهم بسور" وقيل: أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا. "بسور" أي سور، والباء صلة. قاله الكسائي. والسور حاجز بين الجنة والنار. وروي أن ذلك السور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادي جهنم. "باطنه فيه الرحمة"

يعني ما يلي منه المؤمنين "وظاهره من قبله العذاب" يعني ما يلي المنافقين. قال كعب الأحبار: هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة. وقال عبد الله بن عمرو: إنه سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد "وظاهره من قبله العذاب" يعني جهنم. ونحوه عن ابن عباس. وقال زياد بن أبي سوادة: قام عبادة بن الصامت على سور بيت المقدس الشرقي فبكى، وقال: من ها هنا أخبرنا رسول الله ﷺ أنه رأى جهنم. وقال قتادة: هو حائط بين الجنة والنار "باطنه فيه الرحمة" يعني الجنة "وظاهره من قبله العذاب" يعني جهنم. وقال مجاهد: إنه حجاب كما في "الأعراف" وقد مضى القول فيه. وقد قل: إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين.

قوله تعالى: ﴿ينادونهم﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين "ألم نكن معكم" في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون، ونغزو مثل ما تغزون، ونفعل مثل، ما تفعلون "قالوا بلى" أي يقول المؤمنون "بلى" قد كنتم معنا في الظاهر "ولكنكم فتنتم أنفسكم" أي استعملتموها في الفتنة. وقال مجاهد: أهلكتموها بالنفاق. وقيل: بالمعاصي، قاله أبو سنان. وقيل: بالشهوات واللذات، رواه أبو نمير الهمداني. "وتربصتم" أي "تربصتم" بالنبي ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر. وقيل: "تربصتم" بالتوبة "وارتبتم" أي شككتم في التوحيد والنبوة "وغرتكم الأماني" أي الأباطيل. وقيل: طول الأمل. وقيل: هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم. وقال قتادة: الأماني هنا خدع الشيطان. وقيل: الدنيا، قال عبد الله بن عباس. وقال أبو سنان: هو قولهم سيغفر لنا. وقال بلال ابن سعد: ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غرة. "حتى جاء أمر الله" يعني الموت. وقيل: نصرة نبيه ﷺ. وقال قتادة: إلقاؤهم في النار. "وغركم" أي خدعكم "بالله الغرور" أي الشيطان، قاله عكرمة. وقيل: الدنيا، قاله الضحاك. وقال بعض العلماء: إن للباقي بالماضي معتبرا، وللآخر بالأول مزدجرا، والسعيد من لا يغتر بالطمع، ولا يركن إلى الخدع، ومن ذكر المنية نسي الأمنية، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل. وجاء "الغرور" على لفظ المبالغة للكثرة. وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السميقع وسماك بن حرب "الغرور" بضم الغين يعني الأباطيل وهو مصدر. وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ خط لنا خطوطا، وخط منها خطا ناحية فقال: (أتدرون ما هذا هذا مثل ابن آدم ومثل التمني وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت) [1]. وعن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا، وخط وسطه خطا وجعله خارجا منه، وخط عن يمينه ويساره خطوطا صغارا فقال: (هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا) [2].

قوله تعالى: ﴿فاليوم لا يؤخذ منكم فدية﴾ أيها المنافقون "ولا من الذين كفروا" أيأسهم من النجاة. وقراءة العامة "يؤخذ" بالياء، لأن التأنيث غير. حقيقي، ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل. وقرأ ابن عامر ويعقوب "تؤخذ" بالتاء واختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية. والأول اختيار أبي عبيد، أي

(١) أخرجه بنحوه أحمد (٣/ ١٨) وغيره من حديث أبي سعيد، وسنده حسن.
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٧) وغيره.

لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى. "مأواكم النار" أي مقامكم ومنزلكم "هي مولاكم" أي أولى بكم، والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم استعمل فيمن كان ملازما للشيء. وقيل: أي النار تملك أمرهم، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يركب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظا على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى: ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ (ق: ٣٠). "وبئس المصير" أي ساءت مرجعا ومصيرا.

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا ﴾ أي يقرب ويحين، قال الشاعر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الجهلا   وأن يحدث الشيب المبين لنا عقلا

وماضيه أنى بالقصر يأني. ويقال: آن لك - بالمد - أن تفعل كذا يئين أينا أي حان، مثل أنى لك وهو مقلوب منه. وأنشد ابن السكيت:

ألما يئن لي تجلى عمايتي   وأقصر عن ليلى بلى قد أنى ليا

فجمع بين اللغتين. وقرأ الحسن "ألما يأن" وأصلها "ألم" زيدت "ما" فهي نفي لقول القائل: قد كان كذا، و"لم" نفي لقوله: كان كذا. وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" إلا أربع سنين[(١)]. قال الخليل: العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة، تقول عاتبته معاتبة "أن تخشع" أي تذل وتلين "قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق" روي أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبي ﷺ لما ترفهوا بالمدينة، فنزلت الآية، ولما نزلت هذه الآية قال ﷺ: (إن الله يستبطئكم بالخشوع) فقالوا عند ذلك: خشعنا[(٢)]. وقال ابن عباس: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن. وقيل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة. وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت: ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ (يوسف: ١) إلى قوله: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (يوسف: ٣) الآية، فأخبرهم أن هذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق" فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السدي وغيره: "ألم يأن للذين آمنوا" بالظاهر وأسروا الكفر "أن تخشع قلوبهم لذكر الله". وقيل: نزلت في المؤمنين. قال سعد: قيل يا رسول الله لو قصصت علينا فنزل: "نحن نقص عليك" فقالوا بعد زمان: لو حدثتنا

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧).
(٢) ضعيف.

فنزل: ﴿ الله نزل أحسن الحديث﴾ (الزمر: ٢٣) فقالوا بعد مدة: لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق"[1] ونحوه عن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول: ما أحدثنا؟ قال الحسن: استبطأهم وهم أحب خلقه إليه. وقيل: هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا: ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله﴾ (الحديد: ١٩) أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى، إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ ولا يكونوا﴾ أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على "أن تخشع". وقيل: مجزوم على النهي، مجازه ولا يكونن، ودليل هذا التأويل رواية رويس عن يعقوب "لا تكونوا" بالتاء، وهي قراءة عيسى وابن إسحاق. يقول: لا تسلكوا سبيل اليهود والنصارى، أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الأزمان بهم. قال ابن مسعود: إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فاخترعوا كتابا من عند أنفسهم استحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ثم قالوا: اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل، فإن تابعوكم فاتركوهم وإلا فاقتلوهم. ثم اصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن ابن قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد، فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله في ورقة وجعلها في قرن وعلقه في عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعني المعلق على صدره. فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة، وخير مللهم أصحاب ذي القرن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان: يعني مؤمني أهل الكتاب طال عليهم الأمد واستبطؤوا بعث النبي ﷺ "فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون" يعني الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن في علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بعث النبي ﷺ فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسقهم الله.

وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الريف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر ابن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال: بلغني أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فيها - أو قال في ذنوبكم - كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية. وهذه الآية "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله تعالى. ذكر أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القلاني قال: حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال حدثنا علي بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال

---

(١) أخرجه الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٣٠٤).

حدثنا زكريا بن أبي أبان، قال حدثنا الليث بن الحرث قال حدثنا الحسن بن داهر، قال سئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال: كنت يوما مع إخواني في بستان لنا، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا، وكنت مولعا بضرب العود والطنبور، فقمت في بعض الليل فضربت بصوت يقال له راشين السحر، وأراد سنان يغني، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة، والعود بيدي لا يجيبني إلى ما أريد، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العود الذي بيده - ويقول: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق" قلت: بلى والله! وكسرت العود، وصرفت من كان عندي، فكان هذا أول زهدي وتشميري. وبلغنا عن الشعر الذي أراد ابن المبارك أن يضرب به العود:

ألم يأن لي منك أن ترحما ... وتعص العواذل واللوما
وترثي لصب بكم مغرم ... أقام على هجركم مأتما
يبيت إذا جنه ليله ... يراعي الكواكب والأنجما
وماذا على الظبي لو أنه ... أحل من الوصل ما حرما

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليلا، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ: "ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله" فرجع القهقرى وهو يقول: بلى والله قد آن! فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلا يقطع الطريق. فقال الفضيل: أواه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام.

قوله تعالى: ﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ﴾ أي "يحيي الأرض" الجدبة "بعد موتها" بالمطر. وقال صالح المري: المعنى يلين القلوب بعد قساوتها. وقال جعفر بن محمد: يحييها بالعدل بعد الجور. وقيل: المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة. وقيل: كذلك يحيي الله الموتى من الأمم، ويميز بين الخاشع قلبه وبين القاسي قلبه. "قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون" أي إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله، وأنه لمحيي الموتى.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن المصدقين والمصدقات ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد فيهما من التصديق، أي المصدقين بما أنزل الله تعالى. الباقون بالتشديد أي المتصدقين والمتصدقات فأدغمت التاء في الصاد، وكذلك في مصحف في. وهو حث على الصدقات، ولهذا قال: "وأقرضوا الله قرضا حسنا" بالصدقة والنفقة في سبيل الله. قال الحسن: كل ما في القرآن من القرض الحسن فهو

التطوع. وقيل: هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبا صادقا. وإنما عطف بالفعل على الاسم، لأن ذلك الاسم في تقدير الفعل، أي إن الذين تصدقوا وأقرضوا "يضاعف لهم" أمثالها. وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله. وقرأ الأعمش "يضاعفه" بكسر العين وزيادة هاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب "يضعف" بفتح العين وتشديدها. "ولهم أجر كريم" يعني الجنة.

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ اختلف في "الشهداء" هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به. فقال مجاهد وزيد بن أسلم: إن الشهداء والصديقين هم المؤمنون وأنه متصل، وروي معناه عن النبي ﷺ فلا يوقف على هذا على قوله: "الصديقون" وهذا قول ابن مسعود في تأويل الآية. قال القشيري قال الله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ (النساء: ٦٩) فالصديقون هم الذين يتلون الأنبياء، والشهداء هم الذين يتلون الصديقين، والصالحون يتلون الشهداء، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدق بالرسل، أعني "والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء". ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية، فيكون صديق فوق صديق في الدرجات، كما قال النبي ﷺ: (إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما)[1] وروي عن ابن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصديقين. فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله: "الصديقون" حسن. والمعنى "والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم" أي لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم. وفيهم قولان أحدهما: أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب، قاله الكلبي، ودليله قوله تعالى: ﴿وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾ (النساء: ٤١). الثاني: أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة، وفيما يشهدون به قولان: أحدهما: أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية. وهذا معنى قول مجاهد. الثاني: يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم، قاله الكلبي. وقال مقاتل قولا ثالثا: إنهم القتلى في سبيل الله تعالى. ونحوه عن ابن عباس أيضا قال: أراد شهداء المؤمنين. والواو واو الابتداء. والصديقون على هذا القول مقطوع من الشهداء.

وقد اختلف في تعيينهم، فقال الضحاك: هم ثمانية نفر، أبو بكر وعلي وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة. وتابعهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ألحقه الله بهم لما صدق نبيه ﷺ. وقال مقاتل بن حيان: الصديقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين، مثل مؤمن آل فرعون، وصاحب آل ياسين، وأبي بكر الصديق، وأصحاب الأخدود.

قوله تعالى: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي بالرسل والمعجزات "أولئك أصحاب الجحيم" فلا أجر لهم ولا نور.

---

(١) "صحيح" أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه بنحوه، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (٣٩).

قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ وجه الاتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل، وخوفا من لزوم الموت، فبيّن أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغي أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى. و"ما" صلة تقديره: اعلموا أن الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضي. وقال قتادة: لعب ولهو: أكل وشرب. وقيل: إنه على المعهود من اسمه، قال مجاهد: كل لعب لهو. وقد مضى هذا المعنى في "الأنعام" وقيل: اللعب ما رغّب في الدنيا، واللهو ما ألهى عن الآخرة، أي شغل عنها. وقيل: اللعب الاقتناء، واللهو النساء. "وزينة" الزينة ما يتزين به، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة، وكذلك من تزين في غير طاعة الله. "وتفاخر بينكم" أي يفخر بعضكم على بعض بها. وقيل: بالخلقة والقوة. وقيل: بالأنساب على عادة العرب في المفاخرة بالآباء. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد)[1] وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية الفخر في الأحساب) الحديث[2]. وقد تقدم جميع هذا. "وتكاثر في الأموال والأولاد" لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة. قال بعض المتأخرين: "لعب" كلعب الصبيان "ولهو" كلهو الفتيان "وزينة" كزينة النسوان "وتفاخر" كتفاخر الأقران "وتكاثر" كتكاثر الدهقان. وقيل: المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء في الزوال والفناء. وعن علي رضي الله عنه قال لعمار: لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء: مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة، وأكثر شرابها الماء ويستوي فيه جميع الحيوان، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال في مبال، والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها. ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع في غيث فقال: "كمثل غيث" أي مطر "أعجب الكفار نباته" الكفار هنا: الزراع لأنهم يغطون البذر. والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن. وقد مضى معنى هذا المثل في "يونس" و"الكهف". وقيل: الكفار هنا الكافرون بالله عز

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).
(٢) أخرجه مسلم (٩٣٤).

وجل، لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين. وهذا قول حسن، فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها. وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة. وموضع الكاف رفع على الصفة. "ثم يهيج" أي يجف بعد خضرته "فتراه مصفرا" أي متغيرا عما كان عليه من النضرة. "ثم يكون حطاما" أي فتاتا وتبنا فيذهب بعد حسنه، كذلك دنيا الكافر. "وفي الآخرة عذاب شديد" أي للكافرين. والوقف عليه حسن، ويبتدئ "ومغفرة من الله ورضوان" أي للمؤمنين. وقال الفراء: "وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة" تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على "شديد". "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور" هذا تأكيد ما سبق، أي تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة. وقيل: العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيدا في العمل للدنيا، وترغيبا في العمل للآخرة.

قوله تعالى: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم. وقيل: سارعوا بالتوبة، لأنها تؤدي إلى المغفرة، قاله الكلبي. وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام، قاله مكحول. وقيل: الصف الأول. "وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" لو وصل بعضها ببعض. قال الحسن: يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها. وقيل: يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة. وقال ابن كيسان: عني به جنة واحدة من الجنات. والعرض أقل من الطول، ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله. قال:

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

وقد مضى هذا كله في "آل عمران". وقال طارق بن شهاب: قال قوم من أهل الحيرة لعمر ﷺ: أرأيت قول الله عز وجل: "وجنة عرضها كعرض السماء والأرض" فأين النار؟ فقال لهم عمر: أرأيتم الليل إذا ولى وجاء النهار أين يكون الليل؟ فقالوا: لقد نزعت بما في التوراة مثله. "أعدت للذين آمنوا بالله ورسله" شرط الإيمان لا غير، وفيه تقوية الرجاء. وقد قيل: شرط الإيمان هنا وزاد عليه في "آل عمران" فقال: ﴿أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ (آل عمران: ١٣٣) "ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء" أي أن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله. وقد مضى هذا في "الأعراف" وغيرها. "والله ذو الفضل العظيم".

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض﴾ قال مقاتل: القحط وقلة النبات والثمار. وقيل: الجوائح في الزرع. "ولا في أنفسكم" بالأوصاب والأسقام، قاله قتادة. وقيل: إقامة الحدود،

قاله ابن حيان. وقيل: ضيق المعاش، وهذا معنى رواه ابن جريج. "إلا في كتاب" يعني في اللوح المحفوظ. "من قبل أن نبرأها" الضمير في "نبرأها" عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع. وقال ابن عباس: من قبل أن يخلق المصيبة. وقال سعيد بن جبير: من قبل أن يخلق الأرض والنفس. "إن ذلك على الله يسير" أي خلق ذلك وحفظ جميعه "على الله يسير" هين. قال الربيع بن صالح: لما أخذ سعيد بن جبير ﷺ بكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه. قال: فلا تبك فإنه كان في علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم" الآية. وقال ابن عباس: لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. ولقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء في أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا، قال الله تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها". وقد قيل: إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم في الجهاد من قتل وجرح، وبيّن أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر.

قوله تعالى: ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أي حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق، وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فرغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه. وعن ابن مسعود أن نبي الله ﷺ قال: (لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه) ثم قرأ "لكيلا تأسوا على ما فاتكم"[1] أي كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم "ولا تفرحوا بما آتاكم" أي من الدنيا، قاله ابن عباس. وقال سعيد بن جبير: من العافية والخصب. وروى عكرمة عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا، وغنيمته شكرا. والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز، قال الله تعالى: ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس. وقراءة العامة "آتاكم" بمد الألف أي أعطاكم من الدنيا. واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو "أتاكم" بقصر الألف واختاره أبو عبيد. أي جاءكم، وهو معادل لـ "فاتكم" ولهذا لم يقل أفاتكم. قال جعفر بن محمد الصادق: يا ابن آدم ما لك تأسى على مفقود لا يرده عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت. وقيل لبزرجمهر: أيها الحكيم! ما لك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت؟ قال: لأن الفائت لا يتلافى بالعبرة، والآتي لا يستدام بالحبرة. وقال الفضيل بن عياض في هذا المعنى: الدنيا مبيد ومفيد، فما أباد فلا رجعة له، وما أفاد آذن بالرحيل. وقيل: المختال الذي ينظر إلى نفسه بعين الافتخار، والفخور الذي ينظر إلى الناس بعين الاحتقار، وكلاهما شرك خفي. والفخور بمنزلة المصراة تشد أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة"، (٢٤٧) دون قراءة الآية، وقال الشيخ الألباني: "إسناده حسن".

المشتري أن ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذي يرى من نفسه حالا وزينة وهو مع ذلك مدع فهو الفخور.

قوله تعالى: ﴿ الذين يبخلون ﴾ أي لا يحب المختالين "الذين يبخلون" فـ "الذين" في موضع خفض نعتا للمختال. وقيل: رفع بالابتداء أي الذين يبخلون فالله غني عنهم. قيل: أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد ﷺ التي في كتبهم، لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأكلتهم، قاله السدي والكلبي. وقال سعيد بن جبير: "الذين يبخلون" يعني بالعلم "ويأمرون الناس بالبخل" أي بألا يعلموا الناس شيئا. زيد بن اسلم: إنه البخل بأداء حق الله عز وجل. وقيل: إنه البخل بالصدقة والحقوق، قاله عامر بن عبد الله الأشعري. وقال طاوس: إنه البخل بما في يديه. وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى. وفرق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين: أحدهما أن البخيل الذي يلتذ بالإمساك. والسخي الذي يلتذ بالإعطاء. الثاني: أن البخيل الذي يعطي عند السؤال، والسخي الذي يعطي بغير سؤال. "ومن يتول" أي عن الإيمان "فإن الله هو الغني الحميد" غني عنه. ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غني عنهم. وقراءة العامة "بالبخل" بضم الباء وسكون الخاء. وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى بن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائي "بالبخل" بفتحتين وهي لغة الأنصار. وقرأ أبو العالية وابن السميقع "بالبخل" بفتح الباء وإسكان الخاء. وعن نصر بن عاصم "البخل" بضمتين وكلها لغات مشهورة. وقد تقدم الفرق بين البخل والشح في آخر "آل عمران".

وقرأ نافع وابن عامر "فإن الله الغني الحميد" بغير "هو". والباقون "هو الغني" على أن يكون فصلا. ويجوز أن يكون مبتدأ و"الغني" خبره والجملة خبر إن. ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا، لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ.

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة. وقيل: الإخلاص لله تعالى في العبادة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، بذلك دعت الرسل: نوح فمن دونه إلى محمد ﷺ. "وأنزلنا معهم الكتاب" أي الكتب، أي أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم "والميزان" قال ابن زيد: هو ما يوزن به ويتعامل "ليقوم الناس بالقسط" أي بالعدل في معاملاتهم. وقوله: "بالقسط" يدل على أنه أراد الميزان المعروف. وقال قوم: أراد به العدل. قال القشيري: وإذا حملناه على الميزان المعروف، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب:

علفتها تبنا وماء باردا

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ (الرحمن: ٧) ثم قال: ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ (الرحمن: ٩) وقد مضى القول فيه. "وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد" روى عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح)[١]. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ثلاثة أشياء نزلت مع آدم ﷺ: الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج، وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء: السندان والكلبتان والميقعة وهي المطرقة، ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدادين: السندان، والكلبتان، والميقعة، والمطرقة، والإبرة. وحكاه القشيري قال: والميقعة ما يحدد به، يقال وقعت الحديدة أقعها أي حددتها. وفي الصحاح: والميقعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القصار التي يدق عليها، والمطرقة والمسن الطويل. وروي أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء. "فيه بأس شديد" أي لإهراق الدماء. ولذلك نهي عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم)[٢]. وقيل: "أنزلنا الحديد" أي أنشأناه وخلقناه، كقوله تعالى: ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ (الزمر: ٦) وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني: أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. "فيه بأس شديد" يعني السلاح والكراع والجنة. وقيل: أي فيه من خشية القتل خوف شديد. "ومنافع للناس" قال مجاهد: يعني جنة. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. "وليعلم الله من ينصره" أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل: هو عطف على قوله تعالى: "ليقوم الناس بالقسط" أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء، ليتعامل الناس بالحق، "وليعلم الله من ينصره" وليرى الله من ينصر دينه وينصر رسله "ورسله بالغيب" قال ابن عباس: ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم "بالغيب" أي وهم لا يرونهم. "إن الله قوي عزيز" "قوي" في أخذه "عزيز" أي منيع غالب. وقد تقدم. وقيل: "بالغيب" بالإخلاص.

قوله تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ﴾ فصل ما أجمل من إرسال الرسل بالكتب، وأخبر أنه أرسل نوحا وإبراهيم وجعل النبوة في نسلهما "وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب" أي جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء، وبعضهم أمما يتلون الكتب المنزلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. وقال ابن عباس: الكتاب الخط بالقلم "فمنهم" أي من ائتم بإبراهيم ونوح "مهتد". وقيل: "فمنهم مهتد" أي من ذريتهما مهتدون. "وكثير منهم فاسقون" كافرون خارجون عن الطاعة.

---

(١) "موضوع" أخرجه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر مرفوعاً، وانظر ضعيف الجامع (١٥٦٨).
(٢) "ضعيف" أخرجه أبو داود عن أبي بكرة مرفوعاً، كما في ضعيف الجامع (٦٤٦٦).

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ وفيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثم قفينا﴾ أي أتبعنا "على آثارهم" أي على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم "برسلنا" موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم "وقفينا بعيسى ابن مريم" فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه "وآتيناه الإنجيل" وهو الكتاب المنزل عليه. وتقدم اشتقاقه في أول سورة "آل عمران".

الثانية: قوله تعالى: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم "رأفة ورحمة" أي مودة فكان يواد بعضهم بعضا. وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترل إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه. والرأفة اللين، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكل، والرحمة تحمل الثقل. وقيل: الرأفة أشد الرحمة. وتم الكلام. ثم قال: "ورهبانية ابتدعوها" أي من قبل أنفسهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل، قال أبو علي: وابتدعوها رهبانية ابتدعوها. وقال الزجاج: أي ابتدعوها رهبانية، كما تقول رأيت زيدا وعمرا كلمت. وقيل: إنه معطوف على الرأفة والرحمة، والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وابتدعوا فيها. قال الماوردي: وفيها قراءتان، إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرهب. الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرهبان كالرضوانية من الرضوان، وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع، وذلك أن ملوكهم غيروا وبدلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا. قال الضحاك: إن ملوكا بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلاثمائة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع. وقال قتادة: الرهبانية التي ابتدعوها رفض النساء واتخاذ الصوامع. وفي خبر مرفوع: (هي لحوقهم بالبراري والجبال).

قوله تعالى: ﴿ما كتبناها عليهم﴾ أي ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها، قاله ابن زيد. "إلا ابتغاء رضوان الله" أي ما أمرناهم إلا بما يرضي الله، قاله ابن مسلم. وقال الزجاج: "ما كتبناها عليهم" معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة. ويكون "ابتغاء رضوان الله" بدلا من الهاء والألف في "كتبناها" والمعنى: ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله. وقيل: "إلا ابتغاء" الاستثناء منقطع، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. "فما رعوها حق رعايتها" أي فما قاموا بها حق القيام. وهذا خصوص، لأن الذين لم يرعوها بعض القوم، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب

الرياسة على الناس وأكل أموالـهم، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ (التوبة: ٣٤) وهذا في قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر. وروى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قولـه تعالى: "ورهبانية ابتدعوها" قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرؤون التوراة والأنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا أسطوانة ارفعونا فيها، وأعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت: ابنوا لنا دورا في الفيافي ونحفر الآبار ونحرث البقول فلا تروننا. وليس أحد من هؤلاء إلا ولـه حميم منهم ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غير الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبد كما تعبد أولئك، وهم على شركهم لا علم لـهم بإيمان من تقدم من الذين اقتدوا بهم، فذلك قولـه تعالى: "ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله" الآية. يقول: ابتدعها هؤلاء الصالحون "فما رعوها" المتأخرون "حق رعايتها" "فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم" يعني الذين ابتدعوها أولا ورعوها "وكثير منهم فاسقون" يعني المتأخرين، فلما بعث الله محمدا ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، جاءوا من الكهوف والصوامع والغيران فآمنوا بمحمد ﷺ.(١)

الثالثة: وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن أبتدع خيرا أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه صدي بن عجلان ـ قال: أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم، إنما كتب عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناسا من بني إسرائيل ابتدعوا بدعا لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال: "ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها".

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة "الكهف" مستوفى والحمد لله. وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه فقال: مر رجل بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حولـه من البقل ويتخلى عن الدنيا. قال: لو أني أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك لـه فإن أذن لي فعلت إلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبي الله! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبي ﷺ: (إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة

---

(١) الأثر صحيح، انظر صحيح سنن النسائي (٤٩٩٠).

في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة)[١].

وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال: قال لي رسول الله ﷺ: (هل تدري أي الناس أعلم) قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: (أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصرا في العمل وإن كان يزحف على استه هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعو إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمي الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمدا ﷺ ـ فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ـ وتلا "ورهبانية" الآية ـ أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع يا ابن مسعود اختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها واختلف من كان من قبلكم من النصارى على اثنتين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قتلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيمــوا بين ظهراني قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم: "ورهبانية ابتدعوها" ـ الآية ـ فمن أمن بي واتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون)[٢] يعني الذين تهودوا وتنصروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ، أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضا فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي آمنوا بموسى وعيسى "اتقوا الله وآمنوا برسوله" بمحمد ﷺ "يؤتكم كفلين من رحمته" أي مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد ﷺ، وهذا مثل قوله

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٥/ ٢٧٩): "رواه أحمد والطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف" ولبعضه شواهد. فلقوله: "إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة" شواهد تراها في الصحيحة (١٧٨٢). وقوله: "لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها" أخرجاه في الصحيحين من حديث أنس.

(٢) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٤٨٠) بنحوه من طريق الصعق بن حزين عن عقيل بن يحيى عن أبي إسحاق الهمداني عن سويد بن غفلة عن ابن مسعود مرفوعًا. وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وردّه الذهبي بقوله: "قلت: ليس بصحيح، فإن الصعق وإن كان موثقا فإن شيخه منكر الحديث. قاله البخاري".

تعالى: ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ (القصص: ٥٤) وقد تقدم القول فيه. والكفل الحظ والنصيب وقد مضى في "النساء" وهو في الأصل كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط، قاله ابن جريج. ونحوه قال الأزهري، قال: اشتقاقه من الكساء الذي يحويه راكب البعير على سنامه إذا ارتدفه لئلا يسقط، فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصي كما يحفظ الكفل الراكب. وقال أبو موسى الأشعري: "كفلين" ضعفين بلسان الحبشة. وعن ابن زيد: "كفلين" أجر الدنيا والآخرة. وقيل: لما نزلت ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ (القصص: ٥٤) افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ فنزلت هذه الآية.

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحسنة إنما لها من الأجر مثل واحد، فقال: الحسنة اسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا انطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليها من الثواب إلا مثل واحد. وإن انطلقت على حسنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مثلين، بدليل هذه الآية فإنه قال: "كفلين من رحمته" والكفل النصيب كالمثل، فجعل لمن اتقى الله وآمن برسوله نصيبينا، نصيبا لتقوى الله ونصيبا لإيمانه برسوله. فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعالى في صفته عشرة أنواع، لقوله تعالى: ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ (الأحزاب: ٣٥) الآية بكمالها. فكانت هذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مثل. وهذا تأويل فاسد، لخروجه عن عموم الظاهر، في قوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ (الأنعام: ١٦٠) بما لا يحتمله تخصيص العموم، لأن ما جمع عشر حسنات فليس يجزى عن كل حسنة إلا بمثلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالها والأخبار دالة عليه. وقد تقدم ذكرها. ولو كان كما ذكر لما كان بين الحسنة والسيئة فرق.

قوله تعالى: ﴿ ويجعل لكم نورا ﴾ أي بيانا وهدى، عن مجاهد. وقال ابن عباس: هو القرآن. وقيل: ضياء "تمشون به" في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة. وقيل: تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإسلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياسة كنتم فيها. وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه السلام. وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقية في الدين. "ويغفر لكم" ذنوبكم "والله غفور رحيم".

قوله تعالى: ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أي ليعلم، و"أن لا" صلة زائدة مؤكدة، قاله الأخفش. وقال الفراء: معناه لأن يعلم و"لا" صلة زائدة في كل كلام دخل عليه جحد. قال قتادة: حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت: "لئلا يعلم أهل الكتاب" أي لأن يعلم أهل الكتاب أنهم "لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله" وقال مجاهد: قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبي يقطع الأيدي والأرجل. فلما خرج من العرب كفروا فنزلت: "لئلا يعلم" أي ليعلم أهل الكتاب "أن لا يقدرون" أي أنهم لا يقدرون، كقوله تعالى: ﴿ ألا يرجع إليهم قولا ﴾ (طه: ٨٩). وعن الحسن: "ليلا يعلم أهل الكتاب" وروي ذلك عن ابن مجاهد. وروى قطرب بكسر اللام وإسكان

الياء. وفتح لام الجر لغة معروفة. ووجه إسكان الياء أن همزة "أن" حذفت فصارت "لن" فأدغمت النون في اللام فصار "للا" فلما اجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء، كما قالوا في أما: أيما. وكذلك القول في قراءة من قرأ "ليلا" بكسر اللام إلا أنه أبقى اللام على اللغة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة. وعن ابن مسعود "لكيلا يعلم" وعن حطان بن عبد الله "لأن يعلم". وعن عكرمة "ليعلم" وهو خلاف المرسوم. "من فضل الله" قيل: الإسلام. وقيل: الثواب. وقال الكلبي: من رزق الله. وقيل: نعم الله التي لا تحصى. "وأن الفضل بيد الله" ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد ﷺ إلى من يحبون. وقيل: "وأن الفضل بيد الله" أي هو لـه "يؤتيه من يشاء" وفي البخاري: حدثنا الحكم بن نافع، قال حدثنا شعيب عن الزهري، قال أخبرني سالم بن عبد الله، أن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو قائم على المنبر: (إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطي أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطي أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غروب الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء)[١] في رواية: (فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنا...) الحديث. "والله ذو الفضل العظيم". تم تفسير سورة الحديد" والحمد لله.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧)، وفي مواضع أخر من صحيحه.

سورة المجادلة

مقدمة السورة:

سورة المجادلة مدنية في قول الجميع. إلا رواية عن عطاء: أن العشر الأول منها مدني وباقيها مكي، وقال الكلبي: نزل جميعها بالمدينة غير قولـه تعالى: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ (المجادلة: ٧) نزلت بمكة.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله﴾ التي اشتكت إلى الله هي خولة بنت ثعلبة. وقيل بنت حكيم. وقيل اسمها جميلة. وخولة أصح، وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وقد مر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عميرا، ثم قيل لك عمر، ثم قيل لك أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وهو واقف يسمع كلامها، فقيل لـه: يا أمير المؤمنين أتقف لـهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة ابنة ثعلبة سمع الله قولـها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولـها ولا يسمعه عمر؟[١] وقالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت لـه بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله" خرجه ابن ماجه في السنن[٢]. والذي في البخاري من هذا عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها"[٣]. وقال الماوردي: هي خولة بنت ثعلبة. وقيل: بنت خويلد. وليس هذا بمختلف، لأن أحدهما أبوها والآخر جدها فنسبت إلى كل واحد منهما. وزوجها أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت.

وقال الثعلبي قال ابن عباس: هي خولة بنت خويلد الخزرجية، كانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، وكانت حسنة الجسم، فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها، فلما

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٣١٨) من رواية جرير بن حازم، وقال: "هذا منقطع بين أبي يزيد، وعمر بن الخطاب، وقد روي من غير هذا الوجه".

(٢) "صحيح" انظر صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧٨)، وراجع الإرواء (٧/ ١٧٥).

(٣) ذكره البخاري (١٣/ ٣٨٤ـ فتح) معلقا، ووصله أحمد والنسائي وابن ماجه كما قال الحافظ.

انصرفت أرادها فأبت فغضب عليها. قال عروة: وكان أمرا به لمم فأصابه بعض لممه فقال لـها: أنت علي كظهر أمي. وكان الإيلاء والظهار من الطلاق في الجاهلية، فسألت النبي ﷺ فقال لـها: (حرمت عليه) فقالت: والله ما ذكر طلاقا، ثم قالت: أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي وابن عمي وقد نفضت لـه بطني، فقال: (حرمت عليه) فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية. وروى الحسن: أنها قالت: يا رسول الله! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: (ما أوحي إلي في هذا شيء) فقالت: يا رسول الله، أوحي إليك في كل شيء وطوي عنك هذا؟! فقال: (هو ما قلت لك) فقالت: إلى الله أشكو لا إلى رسولـه. فأنزل الله: "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله"[1] الآية.

وروى الدارقطني من حديث قتادة أن أنس بن مالك حدثه قال: إن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خويلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقالت: ظاهر حين كبرت سني ورق عظمي. فأنزل الله تعالى آية الظهار، فقال رسول الله ﷺ لأوس: (اعتق رقبة) قال: ما لي بذلك يدان. قال: (فصم شهرين متتابعين) قال: أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكل بصري. قال: (فأطعم ستين مسكينا) قال: ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصلة. قال: فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله لـه والله غفور رحيم. "إن الله سميع بصير" قال: فكانوا يرون أن عنده مثلـها وذلك لستين مسكينا[2]، وفي الترمذي وسنن ابن ماجه: أن سلمة بن صخر البياضي ظاهر من امرأته، وأن النبي ﷺ قال لـه (أعتق رقبة) قال: فضربت صفحة عنقي بيدي. فقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: (فصم شهرين) فقلت: يا رسول الله! وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام. قال: (فأطعم ستين مسكينا) الحديث[3]. وذكر ابن العربي في أحكامه: روي أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها، فأتت النبي ﷺ فسألته عن ذلك. فقال النبي ﷺ: (قد حرمت عليه) فقالت: أشكو إلى الله حاجتي. ثم عادت فقال رسول الله ﷺ: (حرمت عليه) فقالت: إلى الله أشكو حاجتي إليه وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي، فذهبت أن تعيد، فقالت عائشة: اسكتي فإنه قد نزل الوحي. فلما نزل القرآن قال رسول الله ﷺ لزوجها: (اعتق رقبة) قال: لا أجد. قال: (صم شهرين متتابعين) قال: إن لم آكل في اليوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري. قال: (فأطعم ستين مسكيـنا). قال: فأعني. فأعانه بشيء[4]. قال أبو جعفر النحاس: أهل التفسير على أنها خولة وزوجها أوس بن الصامت، واختلفوا في نسبها، قال بعضهم: هي أنصارية وهي بنت ثعلبة، وقال بعضهم: هي بنت دليج، وقيل: هي بنت خويلد، وقال بعضهم: هي بنت الصامت، وقال بعضهم: هي أمة كانت لعبد الله بن أبي، وهي التي أنزل الله فيها ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا﴾ (النور: ٣٣) لأنه كان يكرهها على الزنى.

---

(١) كل هذه الروايات لا تخلو من مقال.

(٢) أخرجه الدارقطني (٣٨٠٨) ونحوه عند أبي داود (٢٢١٤)، وسنده حسن، كما في صحيح أبي داود (١٩٣٤).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢٠٠)، وابن ماجه (٢٠٦٢) وغيرهما بسند صحيح، كما في الإرواء (٢٠٩١).

(٤) عزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٦٥) إلى عبد بن حميد عن عكرمة مرفوعاً. وهو ضعيف لإرساله.

وقيل: هي بنت حكيم. قال النحاس: وهذا ليس بمتناقض، يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها، ومرة إلى أمها، ومرة إلى جدها، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبي فقيل لـها أنصارية بالولاء، لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين.

قرئ "قد سمع الله" بالإدغام و"قد سمع الله" بالإظهار. والأصل في السماع إدراك المسموعات، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن. وقال ابن فـورك: الصحيح أنه إدراك المسموع. وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع: إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون لـه أذن، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه، وإن كان غير موصوف بالحس المركب في الأذن، كالأصم من الناس لما لم تكن لـه هذه الحاسة لم يكن أهلا لإدراك الصوت. والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفا بهما. وشكى واشتكى بمعنى واحد. وقرئ "تحاورك" أي تراجعك الكلام و"تجادلك" أي تسائلك.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ ﴾ فيه ثلاث وعشرون مسألة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ الذين يظاهرون ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف "يظاهرون" بفتح الياء وتشديد الظاء وألف. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب "يظهرون" بحذف الألف وتشديد الـهاء والظاء وفتح الياء. وقرأ أبو العالية وعاصم وزر بن حبيش "يظاهرون" بضم الياء وتخفيف الظاء وألف وكسر الـهاء. وقد تقدم هذا في "الأحزاب". وفي قراءة أبي "يتظاهرون" وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة. وذكر الظهر كناية عن معنى الركوب، والآدمية إنما يركب بطنها ولكن كني عنه بالظهر، لأن ما يركب من غير الآدميات فإنما يركب ظهره، فكني بالظهر عن الركوب. ويقال: نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب. ومعنى أنت علي كظهر أمي: أي أنت علي محرمة لا يحل لي ركوبك.

الثانية: حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر، والموجب للحكم منه تشبيه ظهر محلل بظهر محرم، ولـهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت علي كظهر أمي أنه مظاهر. وأكثرهم على أنه إن قال لـها: أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر. وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما. واختلف فيه عن الشافعي ﷺ، فروي عنه نحو قول مالك، لأنه شبه امرأته بظهر محرم عليه مؤبد كالأم. وروى عنه أبو ثور: أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها. وهو مذهب قتادة والشعبي. والأول قول الحسن والنخعي والزهري والأوزاعي والثوري.

الثالثة: أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستراً. فإن قال: أنت علي كأمي ولم يذكر الظهر، أو قال: أنت علي مثل أمي، فإن أراد الظهار فلـه نيته، وإن أراد الطلاق كان مطلقا البتة عند مالك، وإن لم تكن لـه نية في طلاق ولا ظهار

كان مظاهرا. ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق، كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة لـه إلى الظهار، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البت.

الرابعة: ألفاظ الظهار ضربان: صريح وكناية، فالصريح أنت علي كظهر أمي، وأنت عندي وأنت مني وأنت معي كظهر أمي. وكذلك أنت علي كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علي كظهر أمي فهو مظاهر، مثل قولـه: يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليه. وقال الشافعي في أحد قوليه: لا يكون ظهارا. وهذا ضعيف منه، لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصة حقيقة خلافا لأبي حنيفة فصح إضافة الظهار إليه. ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جداته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف. وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التي لا تحل لـه بحال كالبنت والأخت، والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء، وعند الإمام الشافعي ﷺ على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا. والكناية أن يقول: أنت علي كأمي أو مثل أمي فإنه يعتبر فيه النية. فإن أراد الظهار كان ظهارا، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا عند الشافعي وأبي حنيفة. وقد تقدم مذهب مالك ﷺ في ذلك، والدليل عليه أنه أطلق تشبيه امرأته بأمه فكان ظهارا. أصلـه إذا ذكر الظهر وهذا قوي فإن معنى اللفظ فيه موجود ـ واللفظ بمعناه ـ ولم يلزم حكم الظهر للفظه وإنما ألزمه بمعناه وهو التحريم، قالـه ابن العربي.

الخامسة: إذا شبه جملة أهلـه بعضو من أعضاء أمه كان مظاهرا، خلافا لأبي حنيفة في قولـه: إنه إن شبهها بعضو يحل لـه النظر إليه لم يكن مظاهرا. وهذا لا يصح، لأن النظر إليه على طريق الاستمتاع لا يحل لـه، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر، وقد قال الإمام الشافعي في قولـه: إنه لا يكون ظهارا إلا في الظهر وحده. وهذا فاسد، لأن كل عضو منها محرم، فكان التشبيه به ظهارا كالظهر، ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرم فلزم على المعنى.

السادسة: إن شبه امرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملا على الأول، وإن لم يذكر الظهر فاختلف فيه علماؤنا، فمنهم من قال: يكون ظهارا. ومنهم من قال: يكون طلاقا. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يكون شيئا. قال ابن العربي: وهذا فاسد، لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيدا بحكمه كالظهر، والأسماء بمعانيها عندنا، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم.

قلت: الخلاف في الظهار بالأجنبية قوي عند مالك. وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن. ومنهم من لا يجعلـه شيئا. ومنهم من يجعلـه في الأجنبية طلاقا. وهو عند مالك إذا قال: كظهر ابني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل لـه وطؤها في حين يمينه. وقد روي عنه أيضا: أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء، كما قال الكوفي والشافعي. وقال الأوزاعي: لو قال لـها أنت علي كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها. والله أعلم.

السابعة: إذا قال: أنت علي حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا، لأن قولـه: أنت حرام علي يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة، ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضي به فيه.

الثامنة: الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه. وكذلك عند مالك من يجوز لـه وطؤها من إمائه، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا يلزم. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وهي مسألة عسيرة جدا علينا، لأن مالكا يقول: إذا قال لأمته أنت علي حرام لا يلزم. فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته. ولكن تدخل الأمة في عموم قولـه: "من نسائهم" لأنه أراد من محللاتهم. والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة، أصلـه الحلف بالله تعالى.

التاسعة: ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك. ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة، لقولـه تعالى: ﴿ من نسائهم ﴾ وهذه ليست من نسائه. وقد مضى أصل هذه المسألة في سورة "التوبة" عند قولـه تعالى ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ (التوبة: ٧٥) الآية.

العاشرة: الذمي لا يلزم ظهاره. وبه قال أبو حنيفة. وقال الشافعي: يصح ظهار الذمي، ودليلنا قولـه تعالى: "منكم" يعني من المسلمين. وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب. فإن قيل: هذا استدلال بدليل الخطاب. قلنا: هو استدلال بالاشتقاق والمعنى، فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار، وذلك كقولـه تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ (الطلاق: ٢) وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة، ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال.

الحادية عشرة: قولـه تعالى: ﴿ منكم ﴾ يقتضي صحة ظهار العبد خلافا لمن منعه. وحكاه الثعلبي عن مالك، لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام.

الثانية عشرة: وقال مالك ﷺ: ليس على النساء تظاهر، وإنما قال الله تعالى: ﴿ والذين يظَّهَّرون منكم من نسائهم ﴾ ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن، إنما الظهار على الرجال. قال ابن العربي: هكذا روي عن ابن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد. وهو صحيح معنى، لأن الحل والعقد والتحليل والتحريم في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع. قال أبو عمر: ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء. وقال الحسن بن زياد: هي مظاهرة. وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد: ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده. وقال الشافعي: لا ظهار للمرأة من الرجل. وقال الأوزاعي: إذا قالت المرأة لزوجها؛ أنت علي كظهر أمي فلانة فهي يمين تكفرها. وكذلك قال إسحاق؛ قال: لا تكون امرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها. وقال الزهري: أرى أن تكفر الظهار، ولا يحول قولـها هذا بينها وبين زوجها أن يصيبها، رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال: حرمت ما أحل الله، عليها كفارة يمين. وهو قول أبي يوسف. وقال محمد بن الحسن: لا شيء عليها.

الثالثة عشرة: من به لمم وانتظمت لـه في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره، لما روي في الحديث: أن خولة بنت ثعلبة وكان زوجها أوس بن الصامت وكان به لمم فأصابه بعض لممه فظاهر من امرأته.

الرابعة عشرة: من غضب وظاهر من امرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه. وفي بعض طرق هذا الحديث، قال يوسف بن عبد الله بن سلام: حدثتني خولة امرأة أوس بن الصامت، قالت: كان بيني وبينه شيء، فقال: أنت علي كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه. فقولها: كان بيني وبينه شيء، دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها. والغضب لغو لا يرفع حكما ولا يغير شرعا وكذلك السكران.

الخامسة عشرة: يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقل قوله ونظم قوله ونظم كلامه، لقوله تعالى: ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (النساء: ٤٣) على ما تقدم في "النساء" بيانه. والله أعلم.

السادسة عشرة: ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر، خلافا للشافعي في أحد قوليه، لأن قوله: أنت علي كظهر أمي يقتضي تحريم كل استمتاع بلفظه ومعناه، فإن وطئها قبل أن يكفّر، وهي:

السابعة عشرة: استغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفّر كفارة واحدة. وقال مجاهد وغيره: عليه كفارتان. روى سعيد عن قتادة، ومطرف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة بن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر: إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان. ومعمر عن قتادة قال: قال قبيصة بن ذؤيب: عليه كفارتان. وروى جماعة من الأئمة منهم ابن ماجه والنسائي عن ابن عباس: أن رجلا ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: (ما حملك على ذلك) فقال: يا رسول الله! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها فضحك النبي ﷺ وأمره ألا يقربها حتى يكفر[1]. وروى ابن ماجه والدارقطني عن سليمان بن يسار عن سلمة بن صخر أنه ظاهر في زمان النبي ﷺ، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفر، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيرا واحدا[2].

الثامنة عشرة: إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله: أنتن علي كظهر أمي كان مظاهرا من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة. وقال الشافعي: تلزمه أربع كفارات. وليس في الآية دليل على شيء من ذلك، لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعول على المعنى. وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة. وهذا إجماع.

التاسعة عشرة: فإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن علي كظهر أمي فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن. وقد قيل: لا يطأ البواقي منهن حتى يكفر. والأول هو المذهب.

---

(١) "حسن" أخرجه أبو داود (٢٢٢٣)، والنسائي (٢/ ١٠٣)، والترمذي (١/ ٢٢٥) وابن ماجه (٢٠٦٥) وغيرهم، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (١٦٨٠).

(٢) "صحيح" أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٤)، والدارقطني (٢٦٥)، وغيرهما، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧٩).

الموفية عشرين: وإن قال لامرأته: أنت علي كظهر أمي وأنت طالق البتة، لزمه الطلاق والظهار معا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها: أنت طالق البتة وأنت علي كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار، لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق.

الحادية والعشرون: قال بعض العلماء: لا يصح ظهار غير المدخول بها. وقال المزني: لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية، وهذا ليس بشيء، لأن أحكام الزوجية في الموضعين ثابتة، وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسا ونظرا. والله أعلم.

الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أي ما نساؤهم بأمهاتهم. وقراءة العامة "أمهاتهم" بخفض التاء على لغة أهل الحجاز، كقوله تعالى: ﴿ ما هذا بشرا ﴾ (يوسف: ٣١). وقرأ أبو معمر والسلمي وغيرهما "أمهاتهم" بالرفع على لغة تميم. قال الفراء: أهل نجد وبنو تميم يقولون "ما هذا بشر"، و"ما هن أمهاتهم" بالرفع. "إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم" أي ما أمهاتهم إلا الوالدات. وفي المثل: ولدك من دمي عقبيك. وقد تقدم القول في اللائي في "الأحزاب".

الثالثة والعشرون: "وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا" أي فظيعا من القول لا يعرف في الشرع. والزور الكذب "وإن الله لعفو غفور" إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ ﴾ فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ هذا ابتداء والخبر "فتحرير رقبة" وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه، أي فعليهم تحرير رقبة. وقيل: أي فكفارتهم عتق رقبة. والمجمع عليه عند العلماء في الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي. وهو قول المنكر والزور الذي عنى الله بقوله: ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ (المجادلة: ٢) فمن قال هذا القول حرم عليه وطء امرأته. فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار، لقوله عز وجل: "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة" وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود، وهذا حرف مشكل اختلف الناس فيه على أقوال سبعة: الأول: أنه العزم على الوطء، وهو مشهور قول العراقيين أبي حنيفة وأصحابه. وروي عن مالك: فإن عزم على وطئها كان عودا، وإن لم يعزم لم يكن عودا. الثاني: العزم على الإمساك بعد التظاهر منها، قاله مالك. الثالث: العزم عليهما. وهو قول مالك في موطئه، قال مالك في قول الله عز وجل: "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا" قال: سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته ثم يجمع على إصابتها

وإمساكها، فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه. قال مالك: وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفر كفارة التظاهر. القول الرابع: أنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا، قاله الحسن ومالك أيضا. الخامس: وقال الإمام الشافعي﷜: هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق، لأنه لما ظاهر قصد التحريم، فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما ابتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه. وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة. السادس: أن الظهار يوجب تحريما لا يرفعه إلا الكفارة. ومعنى العود عند القائلين بهذا: أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد. السابع: هو تكرير الظهار بلفظه. وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا: إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود، وإن لم يكرر فليس بعود. ويسند ذلك إلى بكير بن الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضا، وهو قول الفراء.

وقال أبو العالية: وظاهر الآية يشهد له، لأنه قال: "ثم يعودون لما قالوا" أي إلى قول ما قالوا. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل: "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا" هو أن يقول لها أنت علي كظهر أمي فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار. قال ابن العربي: فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعا لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه. وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم، وأيضا فإن المعنى ينقضه، لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل، ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفارة لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره.

قلت: قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم، وأما قول الشافعي: بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات: الأول: أنه قال: "ثم" وهذا بظاهره يقتضي التراخي. الثاني: أن قوله تعالى: "ثم يعودون" يقتضي وجود فعل من جهة ومرور الزمان ليس بفعل منه. الثالث: أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء. فإن قيل: فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح. وهذه عمدة أهل ما وراء النهر. قلنا: إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله. وتحقيق هذا القول: أن العزم قول نفسي، وهذا رجل قال قولا اقتضى التحليل وهو النكاح، وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت علي كظهر أمي، وإذا كان ذلك كفّر وعاد إلى أهله، لقوله: "من قبل أن يتماسا". وهذا تفسير بالغ في فنه.

الثانية: قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير، والمعنى "والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون" إلى ما كانوا عليه من الجماع "فتحرير رقبة" لما قالوا، أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا، فالجار في قوله: "لما قالوا" متعلق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء وهو عليهم، قاله

الأخفش. وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يظهرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة. الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان، قال: ﴿ الحمد لله الذي هدانا لـهذا ﴾ (الأعراف: ٤٣) وقال: ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ (الصافات: ٢٣) وقال: ﴿ بأن ربك أوحى لـها ﴾ (الزلزلة: ٥) وقال: ﴿ وأوحي إلى نوح ﴾ (هود: ٣٦).

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فعليه إعتاق رقبة، يقال: حررته أي جعلته حرا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب، من كمالـها إسلامها عند مالك والشافعي، كالرقبة في كفارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزي الكفارة ومن فيها شائبة رق كالمكاتبة وغيرها.

الرابعة: فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعي: يجزئ، لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد، ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلـها التبعيض والتجزي كالإطعام، ودليلنا قولـه تعالى: ﴿ فتحرير رقبة ﴾ وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخلـه التلفيق، لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها، أصلـه إذا اشترك رجلان في أضحيتين، ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا، ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسألتنا وبهذا يبطل دليلـهم. والإطعام وغيره لا يَتَجَزَّى في الكفارة عندنا.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ أي يجامعها فلا يجوز للمظاهر الوطء قبل التكفير، فإن جامعها قبل التكفير أثم وعصى ولا يسقط عنه التكفير. وحكي عن مجاهد: أنه إذا وطئ قبل أن يشرع في التكفير لزمته كفارة أخرى. وعن غيره: أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا، لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها. والصحيح ثبوت الكفارة، لأنه بوطئه ارتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة، ويأتي بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها. وفي حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي ﷺ بأنه وطئ امرأته أمره بالكفارة. وهذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام. وقال أبو حنيفة: إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم، فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم في قول أكثر العلماء. وقاله الحسن وسفيان، وهو الصحيح من مذهب الشافعي. وقيل: وكل ذلك محرم وكل معاني المسيس، وهو قول مالك وأحد قولي الشافعي. وقد تقدم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي تؤمرون به "والله بما تعملون خبير" من التكفير وغيره.

السابعة: من لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكا لـها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان لـه مسكن ليس لـه غيره ولا يجد شيئا سواه، فلـه أن

يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجا إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان لـه دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة، وهي:

الثامنة: فعليه صوم شهرين متتابعين. فإن أفطر في أثنائهما بغير عذر استأنفهما، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض، فقيل: يبني، قاله ابن المسيب والحسن وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار والشعبي. وهو أحد قولي الشافعي وهو الصحيح من مذهبه. وقال مالك: إنه إذا مرض في صيام كفارة الظهار بنى إذا صح. ومذهب أبي حنيفة ﷺ أنه يبتدئ. وهو أحد قولي الشافعي.

التاسعة: إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعي، لأنه بذلك أمر حين دخل فيه. ويهدم الصوم ويعتق عند أبي حنيفة وأصحابه، قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها، فإنها تستأنف الحيض إجماعا من العلماء. وإذا ابتدأ سفرا في صيامه فأفطر، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعي وأبي حنيفة، لقولـه: "متتابعين". ويبني في قول الحسن البصري، لأنه عذر وقياسا على رمضان، فإن تخللها زمان لا يحل صومه في الكفارة كالعيدين وشهر رمضان انقطع.

العاشرة: إذا وطئ المتظاهر في خلال الشهرين نهارا، بطل التتابع في قول الشافعي، وليلا فلا يبطل، لأنه ليس محلا للصوم. وقال مالك وأبو حنيفة: يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة، لقولـه تعالى: "من قبل أن يتماسا" وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين، وإلى أبعاضهما، فإذا وطئ قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به، فلزمه استئنافه، كما لو قال: صلّ قبل أن تكلم زيدا. فكلم زيدا في الصلاة، أو قال: صلّ قبل أن تبصر زيدا فأبصره في الصلاة لزمه استئنافها، لأن هذه الصلاة ليست هي الصلاة المأمور بها كذلك هذا، والله أعلم.

الحادية عشرة: ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر، وجاز لـه العدول عن الصيام إلى الإطعام. ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان الاختيار لـه أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام. ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه.

الثانية عشرة: ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم. ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفر صام. وإنما ينظر إلى حاله يوم يكفر. ولو جامعها في عدمه وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق. ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى. وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه. ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم في الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك.

الثالثة عشرة: ولو أعتق رقبتين عن كفارتي ظهار أو قتل أو فطر في رمضان وأشرك بينهما في كل واحدة منهما لم يجزه. وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين. وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين. وقد قيل: إن ذلك يجزيه. ولو ظاهر من امرأتين لـه فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز لـه وطء واحدة منهما حتى يكفر كفارة أخرى. ولو عيّن

الكفارة عن إحداهما جاز لـه أن يطأها قبل أن يكفر الكفارة عن الأخرى. ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهن ثلاث رقاب، وصام شهرين، لم يجزه العتق ولا الصيام، لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما، فإن كفر عنهن بالإطعام جاز أن يطعم عنهن مائتي مسكين، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام، لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق.

فصل وفيه ست مسائل:

الأولى: ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مدان بـمُد النبي ﷺ. وإن أطعم مدا بمد هشام، وهو مدان إلا ثلثا، أو أطعم مدا ونصفا بمد النبي ﷺ أجزأه. قال أبو عمر بن عبد البر: وأفضل ذلك مدان بمد النبي ﷺ، لأن الله عز وجل لم يقل في كفارة الظهار ﴿من أوسط ما تطعمون﴾ (المائدة: ٨٩) فواجب قصد الشبع. قال ابن العربي: وقال مالك في رواية ابن القاسم وابن عبد الحكم: مد بمد هشام وهو الشبع ها هنا، لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط. وقال في رواية أشهب: مدان بمد النبي ﷺ: قيل لـه: ألم تكن قلت مد هشام؟ قال: بلى، مدان بمد النبي ﷺ أحب إلي. وكذلك قال عنه ابن القاسم أيضا.

قلت: وهي رواية ابن وهب ومطرف عن مالك: أنه يعطي مدين لكل مسكين بمد النبي ﷺ. وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه. ومذهب الشافعي وغيره مد واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك، لأنه يكفر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المد، أصلـه كفارة الإفطار واليمين. ودليلنا قولـه تعالى: "فإطعام ستين مسكينا" وإطلاق الإطعام يتناول الشبع، وذلك لا يحصل بالعادة بمد واحد إلا بزيادة عليه. وكذلك قال أشهب: قلت لمالك أيختلف الشبع عندنا وعندكم؟ قال: نعم! الشبع عندنا مد بمد النبي ﷺ والشبع عندكم أكثر، لأن النبي ﷺ دعا لنا بالبركة دونكم، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن. وقال أبو الحسن القابسي: إنما أخذ أهل المدينة بمد هشام في كفارة الظهار تغليظا على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورا. قال ابن العربي: وقع الكلام ها هنا في مد هشام كما ترون، ووددت أن يهشم الزمان ذكره، ويمحو من الكتب رسمه، فإن المدينة التي نزل الوحي بها واستقر الرسول بها ووقع عندهم الظهار، وقيل لـهم فيه: "فإطعام ستين مسكينا" فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشبع، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم، وقد ورد ذلك الشبع في الأخبار كثيرا، واستمرت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان في أذن هشام، فرأى أن مد النبي ﷺ لا يشبعه، ولا مثلـه من حواشيه ونظرائه، فسول لـه أن يتخذ مدا يكون فيه شبعه، فجعلـه رطلين وحمل الناس عليه، فإذا ابتل عاد نحو الثلاثة الأرطال، فغيّر السُّنّة وأذهب محل البركة. قال النبي ﷺ حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لـهم البركة في مدهم وصاعهم، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة، فكانت البركة تجري بدعوة النبي ﷺ في مده، فسعى الشيطان في تغيير هذه السُّنّة

وإذهاب هذه البركة، فلم يستجب لـه في ذلك إلا هشام، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لـم يغيروا أمره، وأما أن يحيلوا على ذكره في الأحكام، ويجعلوه تفسيرا لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسرا عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم، ولذلك كانت رواية أشهب في ذكر مدين بمد النبي ﷺ في كفارة الظهار أحب إلينا من الرواية بأنها بمد هشام. ألا ترى كيف نبه مالك على هذا العلم بقولـه لأشهب: الشبع عندنا بمد النبي ﷺ، والشبع عندكم أكثر لأن النبي ﷺ دعا لنا بالبركة. وبهذا أقول، فإن العبادة إذا أديت بالسنة، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول، وإن كانت بالمال كان قليلـها أثقل في الميزان، وأبرك في يد الآخذ، وأطيب في شدقه، وأقل آفة في بطنه، وأكثر إقامة لصلبه. والله أعلم.

الثانية: ولا يجزئ عند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه.

الثالثة: قال القاضي أبو بكر بن العربي: من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال: إن الحجر على الحر باطل. واحتج بقولـه تعالى: "فتحرير رقبة" ولم يفرق بين الرشيد والسفيه، وهذا فقه ضعيف لا يناسب قدره، فإن هذه الآية عامة، وقد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله ﷺ فاشيا والنظر يقتضيه، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهي عن دفع المال إليه، فكيف ينفذ فعلـه فيه والخاص يقضي على العام.

الرابعة: وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لما كانوا عليه من كون الظهار طلاقا، وقد روي معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسولـه ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة "لتؤمنوا" أي لتصدقوا أن الله أمر به. وقد استدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى، لما ذكرها وأوجبها قال: "ذلك لتؤمنوا بالله ورسولـه" أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عند حدوده لا تتعدوها، فسُمّي التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان. فإن قيل: معنى قولـه: "ذلك لتؤمنوا بالله ورسولـه" أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور. وقيل لـه: قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا، فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفروا، إذ كان الله منع من مسيسها، وتكفروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفارة وألزم إخراجها منكم، فتكونوا بهذا كلـه مؤمنين بالله ورسولـه، لأنها حدود تحفظونها، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسولـه ﷺ إيمان. وبالله التوفيق.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي بيّن معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار وطاعته الكفارة. "وللكافرين عذاب أليم" أي لمن لـم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾

قولـه تعالى: ﴿ إن الذين يحادون الله ورسولـه ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ذكر المحادين المخالفين لـها. والمحادة المعاداة والمخالفة في الحدود، وهو مثل قولـه تعالى: ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسولـه ﴾ (الأنفال: ١٣). وقيل: "يحادون الله" أي أولياء الله كما في الخبر: (من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة). وقال الزجاج: المحادة أن تكون في حد يخالف حد صاحبك. وأصلها الممانعة، ومنه الحديد، ومنه الحداد للبواب. "كبتوا" قال أبو عبيدة والأخفش: أهلكوا. وقال قتادة: اخزوا كما أخزي الذين من قبلـهم. وقال ابن زيد: عذبوا. وقال السدي: لعنوا. وقال الفراء: غيظوا يوم الخندق. وقيل: يوم بدر. والمراد المشركون. وقيل: المنافقون. "كما كبت الذين من قبلـهم" قيل: "كبتوا" أي سيكبتون، وهو بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضي تقريبا للمخبر عنه. وقيل: هي بلغة مَذْحج. "وقد أنزلنا آيات بينات" فيمن حاد الله ورسولـه من الذين من قبلـهم فيما فعلنا بهم. "والله على كل شيء شهيد".

قولـه تعالى: ﴿ يوم ﴾ نصب بـ "عذاب مهين" أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيما لليوم. "يبعثهم الله جميعا" أي الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم في حالة واحدة "فينبئهم" أي يخبرهم "بما عملوا" في الدنيا "أحصاه الله" عليهم في صحائف أعمالـهم "ونسوه" هم حتى ذكرهم به في صحائفهم ليكون أبلغ في الحجة عليهم. "والله على كل شيء شهيد" مطلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا علانية. "ما يكون من نجوى" قراءه العامة بالياء، لأجل الحائل بينهما. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى "ما تكون" بالتاء لتأنيث الفعل. والنجوى: السرار، وهو مصدر والمصدر قد يوصف به، يقال: قوم نجوى أي ذوو نجوى، ونجوى، ومنه قولـه تعالى: ﴿ وإذ هم نجوى ﴾ (الإسراء: ٤٧). وقولـه تعالى: ﴿ ثلاثة ﴾ خفض بإضافة "نجوى" إليها. قال الفراء: "ثلاثة" نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت "نجوى" إليها. ولو نصب على إضمار فعل جاز، وهي قراءة ابن أبي عبلة "ثلاثة" و"خمسة" بالنصب على الحال بإضمار يتناجون، لأن نجوى يدل عليه، قاله الزمخشري. ويجوز رفع "ثلاثة" على البدل من موضع "نجوى". ثم قيل: كل سرار نجوى. وقيل: النجوى ما يكون من خلوة ثلاثة يسرون شيئاً ويتناجون به. والسرار ما كان بين اثنين.

"إلا هو رابعهم" يعلم ويسمع نجواهم، يدل عليه افتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم. وقيل: النجوى من النجوة وهي ما ارتفع من الأرض، فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به، والمعنى: أن سمع الله محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها. "ولا أدنى من ذلك ولا أكثر" قرأ سلام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع "من نجوى" قبل دخول "من" لأن تقديره ما يكون نجوى، و"ثلاثة" يجوز أن يكون مرفوعا على محل "لا" مع "أدنى" كقولك: لا حول ولا قوة إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة. ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء، كقولك لا حول ولا قوة إلا بالله. وقد مضى في "البقرة" بيان هذا مستوفى.

وقرأ الزهري وعكرمة "أكبر" بالباء. والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر. وقال الفراء في قوله: "ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم" قال: المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو كثر، يعلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض. وقيل: معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا انتقال. ونزل ذلك في قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك، قاله ابن عباس. وقال قتادة ومجاهد: نزلت في اليهود. "ثم ينبئهم" يخبرهم "بما عملوا" من حسن وسيئ "يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم".

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ قيل: إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه. وقيل: في المسلمين. قال ابن عباس: نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم، فيقول المؤمنون: لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبي ﷺ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت. وقال مقاتل: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا، فيعرج عن طريقه، فنهاهم رسول الله ﷺ فلم ينتهوا فنزلت. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يأتي النبي ﷺ فيسأل الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك فنزلت[1].

الثانية: روى أبو سعيد الخدري قال: كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: (ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى) فقلنا: تبنا إلى الله يا رسول الله، إنا كنا في ذكر المسيح ـ يعني

---

(١) ضعيف لإرساله.

الدجال ـ فرقا منه. فقال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه) قلنا: بلى يا رسول الله، قال: (الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل)[1] ذكره الماوردي. وقرأ حمزة وخلف ورويس عن يعقوب "وينتجون" في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه. وقرأ الباقون "ومتناجون" في وزن يتفاعلون، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لقوله تعالى: ﴿ إذا تناجيتم ﴾ (المجادلة: ٩) و"تناجوا". النحاس: وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد، نحو تخاصموا واختصموا، وتقاتلوا واقتتلوا فعلى هذا "يتناجون" و"ينتجون" واحد. ومعنى "بالإثم والعدوان" أي الكذب والظلم. "ومعصية الرسول" أي مخالفته. وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد "ومعصيات الرسول" بالجمع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود، كانوا يأتون النبي ﷺ فيقولون: السلام عليك. يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا، فيقول النبي ﷺ: (عليكم) في رواية، وفي رواية أخرى (وعليكم)[2]. قال ابن العربي: وهي مشكلة. وكانوا يقولون: لو كان محمد نبيا لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم لا يعاجل من سبه، فكيف من سب نبيه. وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: (لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم ويرزقهم)[3] فأنزل الله تعالى هذا كشفا لسرائرهم، وفضحا لبواطنهم، معجزة لرسوله ﷺ. وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال: السام عليكم. فرد عليه النبي ﷺ وقال: (أتدرون ما قال هذا) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (قال كذا ردوه علي) فردوه، قال: (قلت السام عليكم) قال: نعم. فقال النبي ﷺ عند ذلك: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت)[4] فأنزل الله تعالى: "وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله".

قلت: خرّجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح. وثبت عن عائشة أنها قالت: جاء أناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم وفعل. فقال عليه السلام: (مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش) فقلت: يا رسول الله ألست ترى ما يقولون؟ فقال: (ألست ترين أرد عليهم ما يقولون أقول وعليكم) فنزلت هذه الآية "بما لم يحيك به الله" أي إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليك، والسام الموت. خرّجه البخاري ومسلم بمعناه[5]. وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم)[6] كذا الرواية (وعليكم) بالواو تكلم عليها العلماء، لأن الواو

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٣٢٣) من رواية ابن أبي حاتم بأتم منه، وقال: "هذا إسناد غريب، وفيه بعض الضعفاء". وقال الهيثمي في "المجمع"، (٣١٥٨): "رواه أحمد ورجاله موثقون".

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٧)، ومسلم (٢١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري وغيره، وقد سبق.

(٤) أخرجه البخاري وغيره.

(٥) أخرجه البخاري (٦٢٥٦)، ومسلم (٢١٦٥).

(٦) أخرجه البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٤).

العاطفة يقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت، أو من سآمة ديننا وهو الملال. يقال: سئم يسأم سآمة وسآماً. فقال بعضهم: الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى

أي لما أجزنا انتحى فزاد الواو. وقال بعضهم: هي للاستئناف، كأنه قال: والسام عليكم. وقال بعضهم: هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك، لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا، كما قال النبي ﷺ. روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: سلم ناس من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: (وعليكم) فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: (بلى قد سمعت فرددت عليهم وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا) خرجه مسلم[1]. ورواية الواو أحسن معنى، وإثباتها أصح رواية وأشهر.

وقد اختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين، وإليه ذهب ابن عباس والشعبي وقتادة، للأمر بذلك. وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وابن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك. وقد اختار ابن طاوس أن يقول في الرد عليهم: علاك السلام أي ارتفع عنك. واختار بعض أصحابنا: السِّلام بكسر السين يعني الحجارة. وما قال مالك أولى اتباعا للسنة، والله أعلم. وروى مسروق عن عائشة قالت: أتى النبي ﷺناس من اليهود، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، قال: (وعليكم) قالت عائشة: قلت بل عليكم السام والذام. فقال رسول الله ﷺ: (يا عائشة لا تكوني فاحشة) فقالت: ما سمعت ما قالوا! فقال: (أو ليس قد رددت عليهم الذي قالوا قلت وعليكم). وفي رواية قال: ففطنت بهم عائشة فسبتهم، فقال رسول الله ﷺ: (مه يا عائشة فإن الله لا يحب الفحش والتفحش)[2] وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى: "وإذا جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله" إلى آخر الآية. الذام بتخفيف الميم هو العيب، وفي المثل (لا تعدم الحسنات ذاما) أي عيبا، ويهمز ولا يهمز، يقال: ذأمه يذأمه، مثل ذأب يذأب، والمفعول مذؤوم مهموزا، ومنه ﴿مذؤوما مدحورا﴾ (الأعراف: ١٨) ويقال: ذامه يذومه مخففا كرامه يرومه.

قوله تعالى: ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ قالوا: لو كان محمد نبيا لعذبنا الله بما نقول فهلا يعذبنا الله. وقيل: قالوا إنه يرد علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت، فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا. وهذا موضع تعجب منهم، فإنهم كانوا أهل كتاب، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يغضبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب. "حسبهم جهنم" أي كافيهم جهنم عقابا غدا "فبئس المصير" أي المرجع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤)، ومسلم (٢١٦٥) واللفظ له.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال: "يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم" أي تساررتم. "فلا تتناجوا" هذه قراءة العامة. وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب "فلا تنتجوا" من الانتجاء "وتناجوا بالبر" أي بالطاعة "والتقوى" بالعفاف عما نهى الله عنه. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي يا أيها الذين آمنوا بزعمهم. وقيل: أي يا أيها الذين آمنوا بموسى. "واتقوا الله الذي إليه تحشرون" أي تجمعون في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إنما النجوى من الشيطان ﴾ أي من تزيين الشياطين "ليحزن الذين آمنوا" إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو إذا أجروا اجتماعهم على مكايدة المسلمين، وربما كانوا يناجون النبي ﷺ فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي ﷺ "وليس بضارهم شيئا" أي التناجي "إلا بإذن الله" أي بمشيئته وقيل: بعلمه. وعن ابن عباس: بأمره. "وعلى الله فليتوكل المؤمنون" أي يكلون أمرهم إليه، ويفوضون جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانا ولو شاء لصرفه عنه.

الثانية: في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الواحد)[١]. وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه)[٢] فبيّن في هذا الحديث غاية المنع وهي أن يجد الثالث من يتحدث معه كما فعل ابن عمر، ذلك أنه كان يتحدث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فلم يناجه حتى دعا رابعا، فقال له وللأول: تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة. خرجه الموطأ. وفيه أيضا التنبيه على التعليل بقوله: (من أجل أن يحزنه) أي يقع في نفسه ما يحزن لأجله. وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس. وحصل ذلك كله من بقائه وحده، فإذا كان معه غيره أمن ذلك، وعلى هذا يستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلا، لوجود ذلك المعنى في حقه، بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأوقع، فيكون بالمنع أولى. وإنما خص الثلاثة بالذكر، لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور. وسواء أكان التناجي في مندوب أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به. وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان في أول الإسلام، لأن ذلك كان في حال المنافقين فيتناجى المنافقون

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤).

دون المؤمنين، فلما فشا الإسلام سقط ذلك. وقال بعضهم: ذلك خاص بالسفر في المواضع التي لا يأمن الرجل فيها صاحبه، فأما في الحضر وبين العمارة فلا، فإنه يجد من يعينه، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ لما بيّن أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب في مجالسة رسول الله ﷺ، حتى لا يضيقوا عليه المجلس، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله ﷺ والنظر إليه. قال قتادة ومجاهد: كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض. وقاله الضحاك. وقال ابن عباس: المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب. قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب: كان النبي ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض، رغبة في القتال والشهادة فنزلت. فيكون كقوله: ﴿ مقاعد للقتال ﴾ (آل عمران: ١٢١). وقال مقاتل: كان النبي ﷺ في الصفة، وكان في المكان ضيق يوم الجمعة، وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس وقد سُبقوا في المجلس، فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم، فشَق ذلك على النبي ﷺ، فقال لمن حوله من غير أهل بدر: (قم يا فلان وأنت يا فلان) بعدد القائمين من أهل بدر، فشق ذلك على من أقيم، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم، فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا: ما أنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان، فأنزل الله عز وجل هذه الآية[1]. "تفسحوا" أي توسعوا. وفسح فلان لأخيه في مجلسه يفسح فسحا أي وسع له، ومنه قولهم: بلد فسيح ولك في كذا فسحة، وفسح يفسح مثل منع يمنع، أي وسع في المجلس، وفسح يفسح فساحة مثل كرم يكرم كرامة أي صار واسعا، ومنه مكان فسيح.

الثانية: قرأ السلمي وزر بن حبيش وعاصم "في المجالس". وقرأ قتادة وداود بن أبي هند والحسن باختلاف عنه "إذا قيل لكم تفاسحوا" الباقون "تفسحوا في المجلس" فمن جمع فلأن قوله: "تفسحوا في المجالس" ينبئ أن لكل واحد مجلسا. وكذلك إن أريد به الحرب. وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبي ﷺ وجمع لأن لكل جالس مجلسا. وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبي ﷺ، ويجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس، كقولهم: كثر الدينار والدرهم.

قلت: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه قال ﷺ: (من

(١) ضعيف، ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص ٣٠٨).

سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به)[1] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ فيخرجه الضيق عن موضعه. روى البخاري ومسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: (لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه)[2]. وعنه عن النبي ﷺ أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا. وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه. لفظ البخاري[3].

الثالثة: إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه، لما روى مسلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: (لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيه ولكن يقول افسحوا)[4]. فرع: القاعد في المكان إذا قام حتى يقعد غيره موضعه نظر، فإن كان الموضع الذي قام إليه مثل الأول في سماع كلام الإمام لم يكره لـه ذلك، وإن كان أبعد من الإمام كره لـه ذلك، لأن فيه تفويت حظه.

الرابعة: إذا أمر إنسان إنسانا أن يبكر إلى الجامع فيأخذ لـه مكانا يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع، لما روي: أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس لـه في يوم الجمعة فيجلس لـه فيه، فإذا جاء قام لـه منه.

فرع: وعلى هذا من أرسل بساطا أو سجادة فتبسط لـه في موضع من المسجد.

الخامسة: روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إذا قام أحدكم ـ وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه ـ ثم رجع إليه فهو أحق به)[5] قال علماؤنا: هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه، لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبلـه أولى به وأحرى. وقد قيل: إن ذلك على الندب، لأنه موضع غير متملك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعد. وهذا فيه نظر، وهو أن يقال: سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منه، فصار كأنه يملك منفعته، إذ قد منع غيره من يزاحمه عليه. والله أعلم.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ يفسح الله لكم ﴾ أي في قبوركم. وقيل: في قلوبكم. وقيل: يوسع عليكم في الدنيا والآخرة. "وإذا قيل انشزوا فانشزوا" قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما. وكسر الباقون، وهما لغتان مثل ﴿ يعكفون ﴾ (الأعراف: ١٣٨) و﴿ يعرشون ﴾ (الأعراف: ١٣٧) والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير، قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك: إذا نودي للصلاة فقوموا إليها. وذلك أن رجالا تثاقلوا عن الصلاة فنزلت. وقال الحسن ومجاهد أيضا: أي انهضوا إلى الحرب. وقال ابن زيد: هذا في بيت النبي ﷺ، كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبي ﷺ فقال الله تعالى: ﴿ وإذا قيل انشزوا ﴾ عن النبي ﷺ "فانشزوا" فإن لـه حوائج فلا تمكثوا. وقال قتادة: المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف. وهذا هو الصحيح، لأنه يعم. والنشز

(١) ضعيف، وانظر ضعيف الجامع (٥٦٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٩)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (٢١٧٧).
(٣) أخرجه البخاري (٦٢٧٠).
(٤) أخرجه مسلم (٢١٧٨).
(٥) أخرجه مسلم (٢١٧٩).

الارتفاع، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها، يقال نَشَزَ يَنْشُزُ ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه، أي ارتفع منه. وامرأة ناشز منتحية عن زوجها. وأصل هذا من النشز، والنشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى، ذكره النحاس.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم. وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية. والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم "درجات" أي درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به. وقيل: كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجلس النبي ﷺفالخطاب لـهم. ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: (يا فلان خشيت أن يتعدى غناك إليه أو فقره إليك) وبين في هذه الآية أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس. وقيل: أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرؤوا القرآن. وقال يحيى بن يحيى عن مالك: "يرفع الله الذين آمنوا منكم" الصحابة "والذين أوتوا العلم درجات" يرفع الله بها العالم والطالب للحق.

قلت: والعموم أوقع في المسألة وأولى بمعنى الآية، فيرفع المؤمن بإيمانه أولا ثم بعلمه ثانيا. وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب ﷺكان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه، وسألـهم عن تفسير ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ﴾(النصر: ١) فسكتوا، فقال ابن عباس: هو أجل رسول الله ﷺأعلمه الله إياه. فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم [١]. وفي البخاري عن عبد الله ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس بن حصن، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا. الحديث وقد مضى في آخر "الأعراف" [٢]. وفي صحيح مسلم أن نافع بن الحرث لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعملـه على مكة فقال: من استعملته على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. فقال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى! قال: إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم ﷺقد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين) [٣]وقد مضى أول الكتاب. ومضى القول في فضل العلم والعلماء في غير موضع من هذا الكتاب والحمد لله. وروي عن النبي ﷺأنه قال: (بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمر سبعين سنة) [٤]. وعنه ﷺ: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر

---

(١)أخرجه البخاري (٤٩٧٠).

(٢)عند تفسير الآية (١٠٦).

(٣)أخرجه مسلم (٨١٧).

(٤)"ضعيف" ذكره العجلوني في "كشف الخفاء"، (٢/ ٨٦) وعزاه إلى أبي يعلى وابن عدي عن أبي هريرة.

على سائر الكواكب)[1] . وعنه عليه الصلاة والسلام: (يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)[2] فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خُيِّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ﴾ "ناجيتم" ساررتم. قال ابن عباس: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفف عن نبيه ﷺ، فلما قال ذلك كف كثير من الناس. ثم وسع الله عليهم بالآية التي بعدها. وقال الحسن: نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي ﷺ ويناجونه، فظن بهم قوم من المسلمين أنهم ينتقصونهم في النجوى، فشق عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن استخلافه. وقال زيد بن أسلم: نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي ﷺ ويقولون: إنه أذن يسمع كل ما قيل له، وكان لا يمنع أحدا مناجاته. فكان ذلك يشق على المسلمين، لأن الشيطان كان يلقي في أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا اجتمعت لقتاله. قال: فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ (المجادلة: ٩) الآية، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية، فانتهى أهل الباطل عن النجوى، لأنهم لم يقدموا بين يدي نجواهم صدقة، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا من النجوى، لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية.

الثانية: قال ابن العربي: وفي هذا الخبر عن زيد ما يدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال: "ذلك خير لكم وأطهر" ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر. وهذا رد على المعتزلة عظيم في التزام المصالح، لكن راوي الحديث عن زيد ابنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء. والأمر في قوله تعالى: "ذلك خير لكم وأطهر" نص متواتر في الرد على المعتزلة. والله أعلم.

الثالثة: روى الترمذي عن علي بن علقمة الأنماري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة" سألته قال لي النبي ﷺ: (ما ترى دينارا) قلت: لا يطيقونه. قال: (فنصف دينار) قلت: لا يطيقونه. قال: (فكم) قلت: شعيرة. قال: (إنك لزهيد) قال: فنزلت: ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ (المجادلة: ١٣) الآية. قال: فبي خفف الله عن هذه الأمة[3]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله: شعيرة يعني وزن شعيرة من ذهب. قال ابن العربي: وهذا يدل على مسألتين حسنتين أصوليتين: الأولى: نسخ العبادة قبل فعلها. والثانية: النظر في المقدرات بالقياس، خلافا لأبي حنيفة.

---

(١) "صحيح"، وانظر صحيح الجامع (٤٢١٣).

(٢) "موضوع" أخرجه ابن ماجه عن عثمان مرفوعاً، وراجع الضعيفة (١٩٧٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٥٥- أحوذي)، وفي سنده سفيان بن وكيع، وهو صدوق، إلا أنه ابتلي بوراقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه، فنصح فلم يقبل، فسقط حديثه، وفيه أيضا علي بن علقمة الأنماري وهو متكلم فيه.

قلت: الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة. وقد روي عن مجاهد: أن أول من تصدق في ذلك علي بن أبي طالب ﷺ وناجى النبي ﷺ. روي أنه تصدق بخاتم. وذكر القشيري وغيره عن علي ابن أبي طالب أنه قال: في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي، وهي: "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة" كان لي دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفد، فنسخت بالآية الأخرى ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾[1] (المجادلة: ١٣). وكذلك قال ابن عباس: نسخها الله بالآية التي بعدها. وقال ابن عمر: لقد كانت لعلي ﷺ ثلاثة لو كانت لي واحدة منهن كانت أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى.

قوله تعالى: ﴿ ذلك خير لكم ﴾ أي من إمساكها "وأطهر" لقلوبكم من المعاصي "فإن لم تجدوا" يعني الفقراء "فإن الله غفور رحيم".

قوله تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ أأشفقتم ﴾ استفهام معناه التقرير. قال ابن عباس: "أأشفقتم" أي أبخلتم بالصدقة، وقيل: خفتم، والإشفاق الخوف من المكروه. أي خفتم وبخلتم بالصدقة وشق عليكم "أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات" قال مقاتل بن حيان: إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ. وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة. وقال ابن عباس: ما بقي إلا ساعة من النهار حتى نسخ. وكذا قال قتادة. والله أعلم.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ﴾ أي نسخ الله ذلك الحكم. وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدق به "فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة" فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة. وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل، وما روي عن علي ﷺ ضعيف، لأن الله تعالى قال: "فإذ لم تفعلوا" وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدق بشيء. والله أعلم. "وأطيعوا الله" في فرائضه "ورسوله" في سننه "والله خبير بما تعملون".

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ﴾ قال قتادة: هم المنافقون تولوا اليهود "ما هم منكم ولا منهم" يقول: ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم. قال السدي ومقاتل: نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين، كان أحدهما يجالس النبي ﷺ ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبي ﷺ في حجرة من

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٤٨٢) وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

حجراته إذ قال: (يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان) فدخل عبد الله بن نبتل ـ وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية ـ فقال عليه الصلاة والسلام: (علام تشتمني أنت وأصحابك) فحلف بالله ما فعل ذلك. فقال له النبي ﷺ: (فعلت) فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه، فنزلت هذه الآية. وقال معناه ابن عباس. روى عكرمة عنه؛ قال: كان النبي ﷺ جالسا في ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال: (يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر الشيطان) فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق، فدعا به النبي ﷺ فقال: (علام تشتمني أنت وأصحابك) قال: دعني أجيئك بهم. فمر فجاء بهم فحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شيء، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا ﴾ (المجادلة:١٨) إلى قوله: ﴿ هم الخاسرون ﴾[1] واليهود مذكورون في القرآن بـ ﴿ وغضب الله عليهم ﴾ (الفتح: ٦). "أعد الله لهم" أي لهؤلاء المنافقين "عذابا شديدا" في جهنم وهو الدرك الأسفل. "إنهم ساء ما كانوا يعملون" أي بئس الأعمال أعمالهم "اتخذوا أيمانهم جنة" يستجنون بها من القتل. وقرأ الحسن وأبو العالية "إيمانهم" بكسر الهمزة هنا وفي "المنافقون". أي إقرارهم اتخذوه جنة، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل، وكفرت قلوبهم "فلهم عذاب مهين" في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. والصد المنع "عن سبيل الله" أي عن الإسلام. وقيل: في قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق. وقيل: أي بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم.

قوله تعالى: ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ﴾ أي من عذابه شيئا. وقال مقاتل: قال المنافقون: إن محمدا يزعم أنه ينصر يوم القيامة، لقد شقينا إذاً! فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت: "يوم يبعثهم الله جميعا" أي لهم عذاب مهين يوم يبعثهم "فيحلفون له كما يحلفون لكم" اليوم. وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدا، وقد صارت المعارف ضرورية. وقال ابن عباس: هو قولهم ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (الأنعام: ٢٣). "ويحسبون أنهم على شيء" بإنكارهم وحلفهم. قال ابن زيد: ظنوا أنهم ينفعهم في الآخرة. وقيل: "ويحسبون" في الدنيا "أنهم على شيء" لأنهم في الآخرة يعلمون الحق باضطرار. والأول أظهر. وعن ابن عباس قال النبي ﷺ: (ينادي مناد يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القدرية مسودة وجوههم مزرقة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، والحاكم (٢/ ٤٨٢) وغيرهما، وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، وجود إسناده الحافظ ابن كثير في التفسير (٤/ ٣٢٨) وقال الهيثمي في "المجمع" (٧/ ١٢٢): "رواه أحمد والبزار، ورجال الجميع رجال الصحيح"، وصححه العلامة أحمد شاكر في تعليقه على "المسند"، (٢٤٠٧).

ولا وثنا، ولا اتخذنا من دونك إلها)[(١)] . قال ابن عباس: صدقوا والله! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون، ثم تلا "ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون" هم والله القدرية. ثلاثا.

قوله تعالى: ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ أي غلب واستعلى، أي بوسوسته في الدنيا. وقيل: قوي عليهم. وقال المفضل: أحاط بهم. ويحتمل رابعا أي جمعهم وضمهم. يقال: أحوذ الشيء أي جمعه وضم بعضه إلى بعض، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوي عليهم وأحاط بهم. "فأنساهم ذكر الله" أي أوامره في العمل بطاعته. وقيل: زواجره في النهي عن معصيته. والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا. "أولئك حزب الشيطان" طائفته ورهطه "ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون" في بيعهم، لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله ﴾ تقدم. "أولئك في الأذلين" أي من جملة الأذلاء لا أذل منهم "كتب الله لأغلبن" أي قضى الله ذلك. وقيل: كتب في اللوح المحفوظ، عن قتادة. الفراء: كتب بمعنى قال. "أنا" توكيد "ورسلي" من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب، ومن بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة. قال مقاتل قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها؟! والله إنهم لأكثر عددا، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك، فنزلت: "لأغلبن أنا ورسلي". نظيره: ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (الصافات: ١٧١).

قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون ﴾ أي يحبون ويوالون "من حاد الله ورسوله" تقدم "ولو كانوا آباءهم" قال السدي: نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أبي، جلس إلى النبي ﷺ فشرب النبي ﷺ ماء، فقال له: بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبي، لعل الله يطهر بها قلبه؟ فأفضل له فأتاه بها، فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فضلة من شراب النبي ﷺ جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها. فقال له أبوه: فهلا جئتني ببول أمك فإنه

---

(١) ضعيف.

أطهر منها. فغضب وجاء إلى النبي ﷺ ، وقال: يا رسول الله! أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبي ﷺ: (بل ترفق به وتحسن إليه)[١] . وقال ابن جريج: حدثت أن أبا قحافة سب النبي ﷺ فصكه أبو بكر ابنه صكة فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك لـه، فقال: (أو فعلته، لا تعد إليه) فقال: والذي بعثك بالحق نبيا لو كان السيف مني قريبا لقتلته[٢] . وقال ابن مسعود: نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل: يوم بدر. وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتلـه، فأنزل الله حين قتل أباه: "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر"[٣] الآية. قال الواقدي: كذلك يقول أهل الشام. ولقد سألت رجالا من بني الحرث بن فهر فقالوا: توفي أبوه من قبل الإسلام. "أو أبناءهم" يعني أبا بكر دعا ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر، فقال النبي ﷺ: (متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر)[٤] . "أو إخوانهم" يعني مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر. "أو عشيرتهم" يعني عمر بن الخطاب قتل خالـه العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وعلياً وحمزة قتلا عتبة وشيبة والوليد يوم بدر. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي ﷺ عام الفتح، على ما يأتي بيانه أول سورة "الممتحنة" إن شاء الله تعالى. بيّن أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب.

الثانية: استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم. قال أشهب عن مالك: لا تجالس القدرية وعادهم في الله، لقولـه تعالى: ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسولـه ﴾.

قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. وعن الثوري أنه قال: كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان. وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها. وعن النبي ﷺ أنه كان يقول: (اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ـ إلى قولـه ـ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان")[٥] أي خلق في قلوبهم التصديق، يعني من لم يوال من حاد الله. وقيل: كتب أثبت، قالـه الربيع بن

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (٩/ ٣١٨) وقال: "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) كذا ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٣١٠) عن ابن جريج مرسلاً.

(٣) ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، الموضع السابق. وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٦/ ٢٧٤) إلى ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وأبي نعيم والبيهقي في سننه وابن عساكر عن عبد الله بن شوب.

(٤) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٧٤)، والبيهقي (٨/ ١٨٦) عن طريق الحسين بن الفرج ثنا محمد بن عمر مرفوعًا بلفظ: "متعنا بنفسك" دون قولـه: "أما تعلم..." . والحديث مع إرساله، فيه محمد بن عمر وهو الواقدي متروك، ولقولـه: "أما تعلم أنك عندي بمنزلة السمع والبصر" شاهد أخرجه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن حنطب أن النبي ﷺ كان إذا رأى أبا بكر وعمر قال: "هذان السمع والبصر". وراجع الصحيحة (٨١٤).

(٥) "ضعيف" ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٣٣٠) من طريق نعيم بن حماد حدثنا محمد بن ثور عن يونس عن الحسن مرفوعاً مرسلاً. وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٣٧٥) إلى الديلمي من طريق الحسن عن معاذ مرفوعاً، والحسن مدلس وقد عنعنه.

أنس. وقيل: جعل، كقوله تعالى: ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ (آل عمران: ٥٣) أي اجعلنا. وقوله: ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ﴾ (الأعراف: ١٥٦) وقيل: "كتب" أي جمع، ومنه الكتيبة، أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض. وقراءة العامة بفتح الكاف من "كتب" ونصب النون من "الإيمان" بمعنى كتب الله وهو الأجود، لقوله تعالى: ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ وقرأ أبو العالية وزر ابن حبيش والمفضل عن عاصم "كتب" على ما لم يسم فاعله "الإيمان" برفع النون. وقرأ زر بن حبيش "وعشيراتهم" بألف وكسر التاء على الجمع، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم. وقيل: "كتب في قلوبهم" أي على قلوبهم، كما في قوله ﴿ في جذوع النخل ﴾ (طه: ٧١) وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان. "وأيدهم بروح منه" قواهم ونصرهم بروح منه، قال الحسن: وبنصر منه. وقال الربيع بن أنس: بالقرآن وحججه. وقال ابن جريج: بنور وإيمان وبرهان وهدى. وقيل: برحمة من الله. وقال بعضهم: أيدهم بجبريل عليه السلام. "ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم" أي قبل أعمالهم "ورضوا عنه" فرحوا بما أعطاهم "أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون" قال سعيد بن أبي سعيد الجرجاني عن بعض مشايخه، قال داود عليه السلام: إلهي! من حزبك وحول عرشك؟ فأوحى الله إليه: "يا داود الغاضة أبصارهم، النقية قلوبهم، السليمة أكفهم، أولئك حزبي وحول عرشي".

سورة الحشر

مقدمة السورة :

روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ سورة الحشر لم يبق شيء من الجنة والنار والعرش والكرسي والسموات والأرض والهوام والريح والسحاب والطير والدواب والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صلوا عليه واستغفروا له . فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا) (١). خرجه الثعلبي. وخرج الثعالبي عن يزيد الرقاشي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ آخر سورة الحشر ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾(الحشر: ٢١) - إلى آخرها - فمات من ليلته مات شهيدا) (٢). وروى الترمذي عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في يومه مات شهيدا ومن قرأها حين يمسي فكذلك) (٣). قال: حديث حسن غريب.

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾

تقدم.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ﴾قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير؛ وهم رهط من اليهود من ذرية هارون عليه السلام نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارا لمحمد ﷺ وكان من أموهم ما نص الله عليه.

الثانية: قوله تعالى: "لأول الحشر" الحشر الجمع؛ وهو على أربعة أوجه: حشران في الدنيا وحشران في الآخرة؛ أما الذي في الدنيا فقوله تعالى: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل قد كتب عليهم الجلاء؛ فلولا ذلك لعذبهم في الدنيا وكان أول حشر حشروا في الدنيا إلى الشام. قال ابن عباس وعكرمة: من شك أن المحشر في الشام فليقرأ هذه الآية، وأن النبي ﷺ قال لهم: (اخرجوا) قالوا إلى

---

(١) "موضوع"

(٢) "ضعيف جداً" أخرجه بنحوه ابن عدي والبيهقي عن أبي أمامة مرفوعاً، وانظر ضعيف الجامع (٥٧٨٢).

(٣) "ضعيف" أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما، وراجع الإرواء (٢/ ٥٨).

أين؟ قال: (إلى أرض المحشر)[1] . قال قتادة: هذا أول المحشر. قال ابن عباس: هم أول من حشر من أهل الكتاب وأخرج من دياره. وقيل: إنهم أخرجوا إلى خيبر، وأن معنى "لأول الحشر" إخراجهم من حصونهم إلى خيبر، وآخره إخراج عمر ﷺ إياهم من خيبر إلى نجد وأذرعات. وقيل تيماء وأريحاء، وذلك بكفرهم ونقض عهدهم. وأما الحشر الثاني: فحشرهم قرب القيامة. قال قتادة: تأتي نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا، وتأكل منهم من تخلّف. وهذا ثابت في الصحيح، وقد ذكرناه في (كتاب التذكرة). ونحوه روى ابن وهب عن مالك قال: قلت لمالك هو جلاؤهم من ديارهم؟ فقال لي: الحشر يوم القيامة حشر اليهود. قال: وأجلى رسول الله ﷺ اليهود إلى خيبر حين سئلوا عن المال فكتموه؛ فاستحلهم بذلك. قال ابن العربي: للحشر أول ووسط وآخر؛ فالأول إجلاء بني النضير، والأوسط إجلاء خيبر، والآخر حشر يوم القيامة. وعن الحسن: هم بنو قريظة. وخالفه بقية المفسرين وقالوا: بنو قريظة ما حشروا ولكنهم قتلوا. حكاه الثعلبي.

الثالثة: قال الكيا الطبري: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنما كان ذلك في أول الإسلام ثم نسخ. والآن فلا بد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم.

قوله تعالى: ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا﴾ يريد لعظم أمر اليهود ومنعتهم وقوتهم في صدور المسلمين، واجتماع كلمتهم. "وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم" قيل: هي الوطيح والنطاة والسلالم والكتيبة. "من الله" أي من أمره. وكانوا أهل حلقة ـ أي سلاح كثير ـ وحصون منيعة؛ فلم يمنعهم شيء منها. "فأتاهم الله" أي أمره وعذابه. "من حيث لم يحتسبوا" . أي لم يظنوا. وقيل: من حيث لم يعلموا. وقيل: "من حيث لم يحتسبوا" بقتل كعب بن الأشرف؛ قاله ابن جريج والسدي وأبو صالح. "وقذف في قلوبهم الرعب" بقتل سيدهم كعب بن الأشرف؛ وكان الذي قتله هو محمد بن مسلمة وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش ـ وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة ـ وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر. وخبره مشهور في السيرة. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: (نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر)[2] فكيف لا ينصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بني النضير. وهذه خصيصى لمحمد ﷺ دون غيره.

قوله تعالى: ﴿ يخربون بيوتهم﴾ قراءة العامة بالتخفيف من أخرب؛ أي يهدمون. وقرأ السلمي والحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية وقتادة وأبو عمرو "يخرّبون" بالتشديد من التخريب. قال أبو عمرو: إنما اخترت التشديد لأن الإخراب ترك الشيء خرابا بغير ساكن، وبنو النَّضير لم يتركوها خرابا وإنما خربوها بالهدم؛ يؤيده قوله تعالى: ﴿ بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ . وقال آخرون: التخريب والإخراب بمعنى واحد، والتشديد بمعنى التكثير. وحكى سيبويه: أن معنى فعلت وأفعلت يتعاقبان؛ نحو أخربته وخربته وأفرحته وفرحته. واختار أبو عبيد وأبو حاتم الأولى. قال قتادة والضحاك: كان المؤمنون يخربون من خارج ليدخلوا، واليهود يخربون من داخل ليبنوا به ما خرب من حصنهم. فروي أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يكونوا عليه ولا له؛ فلما ظهر يوم بدر قالوا:

(١) عزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٧٧) إلى البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في "البعث والنشور" عن ابن عباس مرفوعاً.

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

هو النبي الذي نعت في التوراة، فلا ترد لـه راية. فلما هزم المسلمون يوم أُحُد ارتابوا ونكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة، فحالفوا عليه قريشا عند الكعبة، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبا غيلة ثم صبحهم بالكتائب؛ فقال لـهم: اخرجوا من المدينة. فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك؛ فتنادوا بالحرب. وقيل: استمهلوا رسول الله ﷺ عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فدس إليهم عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه لا تخرجوا من الحصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن أخرجتم لنخرجن معكم. فدربوا على الأزقة وحصنوها إحدى وعشرين ليلة، فلما قذف الله في قلوبهم الرعب وأيسوا من نصر المنافقين طلبوا الصلح؛ فأبى عليهم إلا الجلاء؛ على ما يأتي بيانه.

وقال الزهري وابن زيد وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ﷺ على أن لـهم ما أقلت الإبل؛ كانوا يستحسنون الخشبة والعمود فيهدمون بيوتهم ويحملون ذلك على إبلـهم ويخرب المؤمنون باقيها. وعن ابن زيد أيضا: كانوا يخربونها لئلا يسكنها المسلمون بعدهم. وقال ابن عباس: كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع موضع القتال، وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي بعدها ليتحصنوا فيها، ويرموا بالتي أخرجوا منها المسلمين. وقيل: ليسدوا بها أزقتهم. وقال عكرمة "بأيديهم" في إخراب دواخلـها وما فيها لئلا يأخذه المسلمون. و"أيدي المؤمنين" في إخراب ظاهرها ليصلوا بذلك إليهم. قال عكرمة: كانت منازلـهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها فخربوها من داخل وخربها المسلمون من خارج. وقيل: "يخربون بيوتهم" بنقض المواعدة "وأيدي المؤمنين" بالمقاتلة؛ قاله الزهري أيضا. وقال أبو عمرو بن العلاء "بأيديهم" في تركهم لـها. و"أيدي المؤمنين" في إجلائهم عنها. قال ابن العربي: التناول للإفساد إذا كان باليد كان حقيقة، وإذا كان بنقض العهد كان مجازا؛ إلا أن قول الزهري في المجاز أمثل من قول أبي عمرو بن العلاء.

قولـه تعالى: ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي اتعظوا يا أصحاب العقول والألباب. وقيل: يا من عاين ذلك ببصره؛ فهو جمع للبصر. ومن جملة الاعتبار هنا أنهم اعتصموا بالحصون من الله فأنزلـهم الله منها. ومن وجوهه: أنه سلط عليهم من كان ينصرهم. ومن وجوهه أيضا: أنهم هدموا أموالـهم بأيديهم. ومن لم يعتبر بغيره اعتبر في نفسه. وفي الأمثال الصحيحة: "السعيد من وعظ بغيره".

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ﴾ أي لولا أنه قضى أنه سيجليهم عن دارهم وأنهم يبقون مدة فيؤمن بعضهم ويولد لـهم من يؤمن. "لعذبهم في الدنيا" أي بالقتل والسبي كما فعل ببني قريظة. والجلاء مفارقة الوطن يقال: جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء. والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما في الإبعاد واحدا من وجهين: أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد. الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة؛ قالـه الماوردي. "ذلك" أي ذلك الجلاء "بأنهم شاقوا الله ورسولـه" أي

عادوه وخالفوا أمره. "ومن يشاق الله" قرأ طلحة بن مصرف ومحمد بن السميقع "ومن يشاقق الله" بإظهار التضعيف كالتي في "الأنفال"، وأدغم الباقون.

قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ "ما" في محل نصب بـ "قطعتم"؛ كأنه قال: أي شيء قطعتم. وذلك أن النبي ﷺ لما نزل على حصون بني النضير ـ وهي البويرة ـ حين نقضوا العهد بمعونة قريش عليه يوم أحد، أمر بقطع نخيلهم وإحراقها. واختلفوا في عدد ذلك؛ فقال قتادة والضحاك: إنهم قطعوا من نخيلهم وأحرقوا ست نخلات. وقال محمد بن إسحاق: إنهم قطعوا نخلة وأحرقوا نخلة. وكان ذلك عن إقرار رسول الله ﷺ أو بأمره؛ إما لإضعافهم بها وإما لسعة المكان بقطعها. فشق ذلك عليهم فقالوا وهم يهود أهل الكتاب: يا محمد، ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر؟ وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد في الأرض؟ فشق ذلك على النبي ﷺ. ووجد المؤمنون في أنفسهم حتى اختلفوا؛ فقال بعضهم: لا تقطعوا مما أفاء الله علينا. وقال بعضهم: اقطعوا لنغيظهم بذلك. فنزلت الآية بتصديق من نهى عن القطع وتحليل من قطع من الإثم، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله[1]. وقال شاعرهم سماك اليهودي في ذلك:

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم نصدف
وأنتم رعاء لشاء عجاف ... بسهل تهامة والأخيف
ترون الرعاية مجدا لكم ... لدى كل دهر لكم مجحف
فيا أيها الشاهدون انتهوا ... عن الظلم والمنطق المؤنف
لعل الليالي وصرف الدهور ... يدلن من العادل المنصف
بقتل النضير وإجلائها ... وعقر النخيل ولم تقطف

فأجابه حسان بن ثابت:

تفاقد معشر نصروا قريشا ... وليس لهم ببلدتهم نصير
همو أوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عمي عن التوراة بور
كفرتم بالقران وقد أبيتم ... بتصديق الذي قال النذير
وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

أدام الله ذلك من صنيع ... وحرق في نواحيها السعير
ستعلم أينا منها بنزه ... وتعلم أي أرضينا تصير
فلو كان النخيل بها ركابا ... لقالوا لا مقام لكم فسيروا

الثانية: كان خروج النبي ﷺ إليهم في ربيع الأول أول السنة الرابعة من الهجرة، وتحصنوا منه في الحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذ نزل تحريم الخمر. ودس عبد الله بن أبي بن سلول

---

(١) أصله في الصحيحين، أخرجه البخاري (٤٨٨٤)، ومسلم (١٧٤٦).

ومن معه من المنافقين إلى بني النضير: إنا معكم، وإن قوتلنا قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم؛ فاغتروا بذلك. فلما جاءت الحقيقة خذلوهم وأسلموهم وألقوا بأيديهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكف عن دمائهم ويجليهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا كذلك إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام. وكان ممن سار منهم إلى خيبر أكابرهم؛ كحيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع. فدانت لهم خيبر.

الثالثة: ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق. ولها يقول حسان:

وهان على سراة بني لوي   حريق بالبويرة مستطير

وفي ذلك نزلت: ﴿ما قطعتم من لينة﴾ الآية[1].

واختلف الناس في تخريب دار العدو وتحريقها وقطع ثمارها على قولين: الأول: أن ذلك جائز؛ قاله في المدونة. الثاني: إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا، وإن يئسوا فعلوا؛ قاله مالك في الواضحة. وعليه يناظر أصحاب الشافعي. ابن العربي: والصحيح الأول. وقد علم رسول الله ﷺ أن نخل بني النضير له؛ ولكنه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية لهم ووهنا فيهم حتى يخرجوا عنها. وإتلاف بعض المال لصلاح باقيه مصلحة جائزة شرعا، مقصودة عقلا.

الرابعة: قال الماوردي: إن في هذه الآية دليلا على أن كل مجتهد مصيب. وقاله الكيا الطبري قال: وإن كان الاجتهاد يبعد في مثله مع وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، ولا شك أن رسول الله ﷺ رأى ذلك وسكت؛ فتلقوا الحكم من تقريره فقط. قال ابن العربي: وهذا باطل؛ لأن رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهاد مع حضور رسول الله ﷺ، وإنما يدل على اجتهاد النبي ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذا بعموم الأذية للكفار، ودخولا في الإذن للكل لما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار؛ وذلك قوله تعالى: "وليخزي الفاسقين".

الخامسة: اختلف في اللينة ما هي؛ على أقوال عشرة: الأول: النخل كله إلا العجوة؛ قاله الزهري ومالك وسعيد بن جبير وعكرمة والخليل. وعن ابن عباس ومجاهد والحسن: أنها النخل كله، ولم يستثنوا عجوة ولا غيرها. وعن ابن عباس أيضا: أنها لون من النخل. وعن الثوري: أنها كرام النخل. وعن أبي عبيدة: أنها جميع ألوان التمر سوى العجوة والبرني. وقال جعفر بن محمد: إنها العجوة خاصة. وذكر أن العتيق والعجوة كانتا مع نوح عليه السلام في السفينة. والعتيق: الفحل. وكانت العجوة أصل الإناث كلها فلذلك شق على اليهود قطعها؛ حكاه الماوردي. وقيل: هي ضرب من النخل يقال لتمره: اللون، تمره أجود التمر، وهو شديد الصفرة، يرى نواه من خارجه ويغيب فيه الضرس؛ النخلة منها أحب إليهم من وصيف. وقيل: هي النخلة القريبة من الأرض. وأنشد الأخفش.

قد شجاني الحمام حين تغنى   بفراق الأحباب من فوق لينه

وقيل: إن اللينة الفسيلة؛ لأنها ألين من النخلة. ومنه قول الشاعر:

غرسوا لينها بمجرى معين   ثم حفوا النخيل بالآجام

وقيل: إن اللينة الأشجار كلها للينها بالحياة؛ قال ذو الرمة:

---

(١) أخرجه مسلم في "الجهاد"، (١٧٤٦).

طراق الخوافي واقع فوق لينة ندى ليله في ريشه يترقرق

والقول العاشر: أنها الدقل؛ قاله الأصمعي. قال: وأهل المدينة يقولون لا تنتفخ الموائد حتى توجد الألوان؛ يعنون الدقل. قال ابن العربي: والصحيح ما قال الزهري ومالك لوجهين: أحدهما: أنهما أعرف ببلدهما وأشجارهما. الثاني: أن الاشتقاق يعضده، وأهل اللغة يصححونه؛ فإن اللينة وزنها لونة، واعتلت على أصولهم فآلت إلى لينة فهي لون، فإذا دخلت الهاء كسر أولها؛ كبرك الصدر (بفتح الباء) وبركه (بكسرها) لأجل الهاء. وقيل لينة أصلها لونة فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها. وجمع اللينة لين. وقيل: ليان؛ قال امرؤ القيس يصف عنق فرسه:

وسالفة كسحوق الليان أضرم فيها الغوي السعر

وقال الأخفش: إنما سميت لينة اشتقاقا من اللون لا من اللين. المهدوي: واختلف في اشتقاقها؛ فقيل: هي من اللون وأصلها لونة. وقيل: أصلها لينة من لان يلين. وقرأ عبد الله "ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوماء على أصولها" أي قائمة على سوقها. وقرأ الأعمش "ما قطعتم من لينة أو تركتموها قوما على أصولها" المعنى لم تقطعوها. وقرئ "قوماء على أصُلها". وفيه وجهان: أحدهما: أنه جمع أصل؛ كَرَهْن ورهُن. والثاني: اكتفي فيه بالضمة عن الواوَ. وقرئ "قائما على أصوله" ذهابا إلى لفظ "ما". "فبإذن الله" أي بأمره "وليخزي الفاسقين" أي ليذل اليهود الكفار به وبنبيه وكتبه.

قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وما أفاء الله ﴾ يعني ما رده الله تعالى "على رسوله" من أموال بني النضير. "فما أوجفتم عليه" أوضعتم عليه. والإيجاف: الإيضاع في السير وهو الإسراع؛ يقال: وجف الفرس إذا أسرع، وأوجفته أنا أي حركته وأتعبته؛ ومنه قول تميم بن مقبل:

مذاويد بالبيض الحديث صقالها عن الركب أحيانا إذا الركب أوجفوا

والركاب الإبل، واحدها راحلة. يقول: لم تقطعوا إليها شقة ولا لقيتم بها حربا ولا مشقة؛ وإنما كانت من المدينة على ميلين؛ قاله الفراء. فمشوا إليها مشيا ولم يركبوا خيلا ولا إبلا؛ إلا النبي ﷺ فإنه ركب جملا وقيل حمارا مخطوما بليف، فافتتحها صلحا وأجلاهم وأخذ أموالهم. فسأل المسلمون النبي ﷺ أن يقسم لهم فنزلت: "وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه" الآية. فجعل أموال بني النضير للنبي ﷺ خاصة يضعها حيث شاء؛ فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين. قال الواقدي: ورواه ابن وهب عن مالك؛ ولم يعط الأنصار منها شيئا إلا ثلاثة نفر محتاجين؛ منهم أبو دجانة سماك بن خرشة، وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمة. وقيل: إنما أعطى رجلين، سهلا

وأبا دجانة. ويقال: أعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق، وكان سيفا لـه ذكر عندهم. ولم يسلم من بني النضير إلا رجلان: سفيان بن عمير، وسعد بن وهب؛ أسلما على أموالـهما فأحرزاها.

وفي صحيح مسلم عن عمر قال: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسولـه مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، وكانت للنبي ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهلـه نفقة سنة، وما بقي يجعلـه في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله تعالى[١]. وقال العباس لعمر رضي الله عنهما: اقض بيني وبين هذا الكاذب الآثم الغادر الخائن ـ يعني عليا ﷺ ـ فيما أفاء الله على رسولـه من أموال بني النضير. فقال عمر: أتعلمان أن النبي ﷺ قال: (لا نورث ما تركناه صدقة) قالا: نعم. قال عمر: إن الله عز وجل كان خص رسولـه ﷺ بخاصة ولم يخصص بها أحدا غيره. قال: "ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى فلله وللرسول" (ما أدري هل قرأ الآية التي قبلـها أم لا) فقسم رسول الله ﷺ بينكم أموال بني النضير، فوالله ما استأثرها عليكم ولا أخذها دونكم حتى بقي هذا المال؛ فكان رسول الله ﷺ يأخذ منه نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي أسوة المال. . . الحديث بطولـه، خرجه مسلم[٢]. وقيل: لما ترك بنو النضير ديارهم وأموالـهم طلب المسلمون أن يكون لـهم فيها حظ كالغنائم؛ فبيّن الله تعالى أنها فيء وكان جرى ثَمَّ بعض القتال؛ لأنهم حوصروا أياما وقاتلوا وقتلوا، ثم صالحوا على الجلاء. ولم يكن قتال على التحقيق؛ بل جرى مبادئ القتال وجرى الحصار، وخص الله تلك الأموال برسولـه ﷺ. وقال مجاهد: أعلمهم الله تعالى وذكرهم أنه إنما نصر رسوله ﷺ ونصرهم بغير كراع ولا عدة. "ولكن الله يسلط رسلـه على من يشاء" أي من أعدائه. وفي هذا بيان أن تلك الأموال كانت خاصة لرسول الله ﷺ دون أصحابه.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى ﴾ قال ابن عباس: هي قريظة والنضير، وهما بالمدينة وفدك، وهي على ثلاثة أيام من المدينة وخيبر. وقرى عرينة وينبع جعلـها الله لرسولـه. وبيّن أن في ذلك المال الذي خصه بالرسول ﷺ سهمانا لغير الرسول نظرا منه لعباده. وقد تكلم العلماء في هذه الآية والتي قبلـها، هل معناهما واحد أو مختلف، والآية التي في الأنفال؛ فقال قوم من العلماء: إن قولـه تعالى: "ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى" منسوخ بما في سورة

---

(١) أخرجه مسلم في "الجهاد والسير" (٤/ ٣٦٢) ط الشعب.

(٢) أخرجه مسلم في "الجهاد والسير" (٤/ ٣٦٢-٣٦٧). وقول النووي في قول العباس في علي: "اقض بيني وبين هذا الكاذب. . . إلخ": قال جماعة من العلماء: معناه هذا الكاذب إن لم ينصف، فحذف الجواب، وقال القاضي عياض: قال المازري: هذا اللفظ الذي وقع لا يليق ظاهره بالعباس، وحاش لعلي أن يكون فيه بعض هذه الأوصاف، فضلا عن كلها، ولسنا نقطع بالعصمة إلا للنبي ﷺ ولمن شهد له بها، لكنا مأمورون بحسن الظن بالصحابة ﷺ أجمعين، ونفي كل رذيلة عنهم، وإذا انسدت طرق تأويلها نسبنا الكذب إلى رواتها، قال: وقد حمل هذا المعنى بعض الناس على أن أزال هذا اللفظ من نسخته تورعًا عن إثبات مثل هذا، ولعله حمل الوهم على رواته، قال المازري: وإذا كان هذا اللفظ لا بد من إثباته، ولم نضف الوهم على رواته، فأجود ما حمل عليه أنه صدر من العباس على جهة الإدلال على ابن أخيه، لأنه بمنزلة ابنه، وقال ما لا يعتقده، وما يعلم براءة ذمة ابن أخيه منه، ولعله قصد بذلك ردعه عما يعتقده أنه مخطئ فيه، وأن هذه الأوصاف يتصف بها لو كان يفعل ما يفعله عن قصد، وأن عليا كان لا يراها إلا موجبة لذلك في اعتقاده، وهذا كما يقول المالكي: شارب النبيذ ناقص الدين، والحنفي يعتقد أنه ليس بناقص، فكل واحد محق في اعتقاده، ولا بد من هذا التأويل.

الأنفال من كون الخمس لمن سمي لـه، والأخماس الأربعة لمن قاتل. وكان في أول الإسلام تقسم الغنيمة على هذه الأصناف ولا يكون لمن قاتل عليها شيء. وهذا قول يزيد بن رومان وقتادة وغيرهما. ونحوه عن مالك. وقال قوم: إنما غنم بصلح من غير إيجاف خيل ولا ركاب؛ فيكون لمن سمى الله تعالى فيه فيئا والأولى للنبي ﷺ خاصة، إذا أخذ منه حاجته كان الباقي في مصالح المسلمين. وقال معمر: الأولى: للنبي ﷺ. والثانية: هي الجزية والخراج للأصناف المذكورة فيه. والثالثة: الغنيمة في سورة الأنفال للغانمين. وقال قوم منهم الشافعي: إن معنى الآيتين واحد؛ أي ما حصل من أموال الكفار بغير قتال قسم على خمسة أسهم؛ أربعة منها للنبي ﷺ. وكان الخمس الباقي على خمسة أسهم: سهم لرسول الله ﷺ أيضا وسهم لذوي القربى ـ وهم بنو هاشم وبنو المطلب ـ لأنهم منعوا الصدقة فجعل لـهم حق في الفيء. وسهم لليتامى. وسهم للمساكين. وسهم لابن السبيل. وأما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فالذي كان من الفيء لرسول الله ﷺ يصرف عند الشافعي في قول إلى المجاهدين المترصدين للقتال في الثغور؛ لأنهم القائمون مقام الرسول عليه الصلاة والسلام. وفي قول آخر لـه: يصرف إلى مصالح المسلمين من سد الثغور وحفر الأنهار وبناء القناطر؛ يقدم الأهم فالأهم، وهذا في أربعة أخماس الفيء. فأما السهم الذي كان لـه من خمس الفيء والغنيمة فهو لمصالح المسلمين بعد موته ﷺ بلا خلاف؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: (ليس لي من غنائمكم إلا الخمس والخمس مردود فيكم)[١]. وقد مضى القول فيه في سورة "الأنفال"[٢].

وكذلك ما خلفه من المال غير موروث، بل هو صدقة يصرف عنه إلى مصالح المسلمين؛ كما قال ﷺ: (إنا لا نورث ما تركناه صدقة)[٣]. وقيل: كان مال الفيء لنبيه ﷺ، لقولـه تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسولـه﴾ فأضافه إليه؛ غير أنه كان لا يتأثَّل مالا، إنما كان يأخذ بقدر حاجة عيالـه ويصرف الباقي في مصالح المسلمين. قال القاضي أبو بكر بن العربي: لا إشكال أنها ثلاثة معان في ثلاث آيات؛ أما الآية الأولى فهي قولـه: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ (الحشر: ٢) ثم قال تعالى: ﴿وما أفاء الله على رسولـه منهم﴾ يعني من أهل الكتاب معطوفا عليهم. "فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب" يريد كما بيّنا؛ فلا حق لكم فيه، ولذلك قال عمر: إنها كانت خالصة لرسول الله ﷺ، يعني بني النضير وما كان مثلـها. فهذه آية واحدة ومعنى متحد.

قولـه تعالى: ﴿ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى فلله وللرسول﴾ وهذا كلام مبتدأ غير الأول لمستحق غير الأول. وسمى الآية الثالثة آية الغنيمة، ولا شك في أنه معنى آخر باستحقاق ثان لمستحق آخر، بيد أن الآية الأولى والثانية، اشتركتا في أن كل واحدة منهما تضمنت شيئا أفاءه الله على رسولـه، واقتضت الآية الأولى أنه حاصل بغير قتال، واقتضت آية الأنفال أنه حاصل بقتال، وعريت الآية الثالثة وهي قولـه تعالى: "ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى" عن ذكر حصولـه بقتال أو بغير قتال؛ فنشأ الخلاف من ها هنا، فمن طائفة قالت: هي ملحقة بالأولى، وهو مال الصلح كلـه

---

(١) جزء من حديث صحيح، أخرجه أحمد (٦٧٢٩ـ ط الشيخ شاكر) وغيره.

(٢) عند تفسير الآية (٤١).

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

ونحوه. ومن طائفة قالت: هي ملحقة بالثانية وهي آية الأنفال. والذين قالوا إنها ملحقة بآية الأنفال اختلفوا؛ هل هي منسوخة ـ كما تقدم ـ أو محكمة؟ وإلحاقها بشهادة الله بالتي قبلها أولى؛ لأن فيه تجديد فائدة ومعنى. ومعلوم أن حمل الحرف من الآية فضلا عن الآية على فائدة متجددة أولى من حمله على فائدة معادة. وروى ابن وهب عن مالك في قوله تعالى: ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب﴾ بني النضير، لم يكن فيها خمس ولم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. كانت صافية لرسول الله ﷺ، فقسمها بين المهاجرين وثلاثة من الأنصار؛ حسب ما تقدم. وقوله: "ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى" هي قريظة، وكانت قريظة والخندق في يوم واحد. قال ابن العربي: قول مالك إن الآية الثانية في بني قريظة، إشارة إلى أن معناها يعود إلى آية الأنفال، ويلحقها النسخ. وهذا أقوى من القول بالإحكام. ونحن لا نختار إلا ما قسمنا وبيّنا أن الآية الثانية لها معنى مجدد حسب ما دللنا عليه. والله أعلم.

قلت: ما اختاره حسن. وقد قيل إن سورة "الحشر" نزلت بعد الأنفال، فمن المحال أن ينسخ المتقدم المتأخر. وقال ابن أبي نجيح: المال ثلاثة: مغنم، أو فيء، أو صدقة، وليس منه درهم إلا وقد بيّن الله موضعه. وهذا أشبه.

الثالثة: الأموال التي للأئمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب: ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم؛ كالصدقات والزكوات. والثاني: الغنائم؛ وهو ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث: الفيء، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفوا صفوا من غير قتال ولا إيجاف؛ كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام ولا وارث له. فأما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملين عليها؛ حسب ما ذكره الله تعالى، وقد مضى في "براءة". وأما الغنائم فكانت في صدر الإسلام للنبي ﷺ يصنع فيها ما شاء؛ كما قال في سورة "الأنفال": ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ (الأنفال: ١)، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ (الأنفال: ٤١) الآية. وقد مضى في الأنفال بيانه. فأما الفيء فقسمته وقسمة الخمس سواء. والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قسمه كله بين الناس، وسوى فيه بين عربيهم ومولاهم. ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا، ويعطوا ذوو القربى من رسول الله ﷺ من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام، وليس له حد معلوم.

واختلف في إعطاء الغني منهم؛ فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم. وقال مالك: لا يعطي منه غير فقرائهم، لأنه جعل لهم عوضا من الصدقة. وقال الشافعي: أيما حصل من أموال الكفار من غير قتال كان يقسم في عهد النبي ﷺ على خمسة وعشرين سهما: عشرون للنبي ﷺ يفعل فيها ما يشاء. والخمس يقسم على ما يقسم عليه خمس الغنيمة. قال أبو جعفر أحمد بن الداودي: وهذا قول ما سبقه به أحد علمناه، بل كان ذلك خالصا له؛ كما ثبت في الصحيح عن عمر مبينا للآية. ولو كان هذا لكان قوله: ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ (الأحزاب: ٥٠) يدل على أنه يجوز الموهوبة

لغيره، وأن قولـه: ﴿ خالصة يوم القيامة ﴾ (الأعراف: ٣٢) يجوز أن يشركهم فيها غيرهمّ. وقد مضى قول الشافعي مستوعبا في ذلك والحمد لله. ومذهب الشافعي رضي الله عنه: أن سبيل خمس الفيء سبيل خمس الغنيمة، وأن أربعة أخماسه كانت للنبي ﷺ، وهي بعده لمصالح المسلمين. ولـه قول آخر: أنها بعده للمرصدين أنفسهم للقتال بعده خاصة؛ كما تقدم.

الرابعة: قال علماؤنا: ويقسم كل مال في البلد الذي جبي فيه، ولا ينقل عن ذلك البلد الذي جبي فيه حتى يغنوا، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جبي فيه فاقة شديدة، فينتقل ذلك إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أعوام الرمادة، وكانت خمسة أعوام أو ستة. وقد قيل عامين. وقيل: عام فيه اشتد الطاعون مع الجوع. وإن لم يكن ما وصفنا ورأى الإمام إيقاف الفيء أوقفه لنوائب المسلمين، ويعطي منه المنفوس ويبدأ بمن أبوه فقير. والفيء حلال للأغنياء. ويسوي بين الناس فيه إلا أنه يؤثر أهل الحاجة والفاقة. والتفضيل فيه إنما يكون على قدر الحاجة. ويعطي منه الغرماء ما يؤدون به ديونهم. ويعطي منه الجائزة والصلة إن كان ذلك أهلا، ويرزق القضاة والحكام ومن فيه منفعة للمسلمين. وأولاهم بتوفر الحظ منهم أعظمهم للمسلمين نفعا. ومن أخذ من الفيء شيئا في الديوان كان عليه أن يغزو إذا غزي.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ كي لا يكون دولة ﴾ قراءة العامة "يكون" بالياء. "دولة" بالنصب، أي كي لا يكون الفيء دولة وقرأ أبو جعفر والأعرج وهشام ـ عن ابن عامر ـ وأبو حيوة "تكون" بتاء "دولة" بالرفع، أي كي لا تقع دولة. فكانت تامة. و"دولة" رفع على اسم كان ولا خبر لـه. ويجوز أن تكون ناقصة وخبرها "بين الأغنياء منكم". وإذا كانت تامة فقولـه: "بين الأغنياء منكم" متعلق بـ "دولة" على معنى تداول بين الأغنياء منكم. ويجوز أن يكون "بين الأغنياء منكم" وصفا لـ "دولة". وقراءة العامة "دولة" بضم الدال. وقرأها السلمي وأبو حيوة بالنصب. قال عيسى بن عمر ويونس والأصمعي: هما لغتان بمعنى واحد. وقال أبو عمرو بن العلاء: الدولة (بالفتح) الظفر في الجواب وغيره، وهي المصدر. وبالضم اسم الشيء الذي يتداول من الأموال. وكذا قال أبو عبيدة: الدولة اسم الشيء الذي يتداول. والدولة الفعل. ومعنى الآية: فعلنا ذلك في هذا الفيء، كي لا تقسمه الرؤساء والأغنياء والأقوياء بينهم دون الفقراء والضعفاء، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا غنموا أخذ الرئيس ربعها لنفسه، وهو المرباع. ثم يصطفي منها أيضا بعد المرباع ما شاء؛ وفيها قال شاعرهم:

لك المرباع منها والصفايا

يقول: كي لا يعمل فيه كما كان يعمل في الجاهلية. فجعل الله هذا لرسولـه ﷺ؛ يقسمه في المواضع التي أمر بها ليس فيها خمس، فإذا جاء خمس وقع بين المسلمين جميعا.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أي ما أعطاكم من مال الغنيمة فخذوه، وما نهاكم عنه من الأخذ والغلول فانتهوا؛ قالـه الحسن وغيره. السدي: ما أعطاكم من مال الفيء فاقبلوه، وما منعكم منه فلا تطلبوه. وقال ابن جريج: ما آتاكم من طاعتي فافعلوه، وما نهاكم عنه من معصيتي فاجتنبوه. الماوردي: وقيل إنه محمول على العموم في جميع

أوامره ونواهيه؛ لا يأمر إلا بصلاح ولا ينهى إلا عن فساد. قلت: هذا هو معنى القول الذي قبله. فهي ثلاثة أقوال.

السابعة: قال المهدوي: قوله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ هذا يوجب أن كل ما أمر به النبي ﷺ أمر من الله تعالى. والآية وإن كانت في الغنائم فجميع أوامره ﷺ ونواهيه دخل فيها. وقال الحكم بن عمير ـ وكانت له صحبة ـ قال النبي ﷺ: (إن هذا القرآن صعب مستصعب عسير على من تركه يسير على من اتبعه وطلبه. وحديثي صعب مستصعب وهو الحكم فمن استمسك بحديثي وحفظه نجا مع القرآن. ومن تهاون بالقرآن وحديثي خسر الدنيا والآخرة. وأمرتم أن تأخذوا بقولي وتكتنفوا أمري وتتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن ومن استهزأ بقولي فقد استهزأ بالقرآن قال الله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾)[١].

الثامنة: قال عبد الرحمن بن زيد: لقي ابن مسعود رجلا محرما وعليه ثيابه فقال له: انزع عنك هذا. فقال الرجل: أتقرأ علي بهذا آية من كتاب الله تعالى؟ قال: نعم، "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا". وقال عبد الله بن محمد بن هارون الفريابي: سمعت الشافعي ﷺ يقول: سلوني عما شئتم أخبركم من كتاب الله تعالى وسنة نبيكم ﷺ؛ قال: فقلت له: ما تقول ـ أصلحك الله ـ في المحرم يقتل الزنبور؟ قال: فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾. وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[٢]. حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أنه أمر بقتل الزنبور. قال علماؤنا: وهذا جواب في نهاية الحسن، أفتى بجواز قتل الزنبور في الإحرام، وبين أنه يقتدي فيه بعمر، وأن النبي ﷺ أمر بالاقتداء به، وأن الله سبحانه أمر بقبول ما يقوله النبي ﷺ؛ فجواز قتله مستنبط من الكتاب والسنة. وقد مضى هذا المعنى من قول عكرمة حين سئل عن أمهات الأولاد فقال: هن أحرار في سورة "النساء" عند قوله تعالى: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (النساء: ٥٩). وفي صحيح مسلم وغيره عن علقمة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله) فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب؛ فجاءت فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت! فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله! فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأت "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا"! قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه.. الحديث[٣]. وقد مضى القول فيه في "النساء"[٤] مستوفى.

التاسعة: قوله تعالى: "وما آتاكم الرسول فخذوه" وإن جاء بلفظ الإيتاء وهو المناولة فإن معناه الأمر؛ بدليل قوله تعالى: "وما نهاكم عنه فانتهوا" فقابله بالنهي، ولا يقابل النهي إلا بالأمر؛

---

(١) قال الحافظ في "الإصابة"، (٢/ ٣٠) في ترجمة الحكم بن عمير الثمالي: "قال ابن أبي حاتم عن أبيه: روى ـ أي الحكم ـ عن النبي ﷺ أحاديث منكرة يرويها عيسى بن إبراهيم وهو ضعيف عن موسى بن أبي حبيب وهو ضعيف عن عمه الحكم". وهذا الخبر منها.

(٢) "صحيح" أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه كما في صحيح الجامع (١١٤٢).

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

(٤) عند الآية (١١٩).

والدليل على فهم ذلك ما ذكرناه قبل مع قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[1]. وقال الكلبي: إنها نزلت في رؤساء المسلمين، قالوا فيما ظهر عليه رسول الله من أموال المشركين: يا رسول الله، خذ صفيك والربع، ودعنا والباقي؛ فهكذا كنا نفعل في الجاهلية. وأنشدوه:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

فأنزل الله تعالى هذه الآية.

العاشرة: قوله تعالى: "واتقوا الله" أي عذاب الله، إنه شديد لمن عصاه. وقيل: اتقوا الله في أوامره ونواهيه فلا تضيعوها. "إن الله شديد العقاب" لمن خالف ما أمره به.

قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أي الفيء والغنائم "للفقراء المهاجرين". وقيل: "كي لا يكون دولة بين الأغنياء" ولكن يكون "للفقراء". وقيل: هو بيان لقوله: "ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" فلما ذكروا بأصنافهم قيل المال لهؤلاء، لأنهم فقراء ومهاجرون وقد أخرجوا من ديارهم؛ فهم أحق الناس به. وقيل: "ولكن الله يسلط رسله على من يشاء" للفقراء المهاجرين لكيلا يكون المال دولة للأغنياء من بني الدنيا. وقيل: والله شديد العقاب للمهاجرين؛ أي شديد العقاب للكفار بسبب الفقراء المهاجرين ومن أجلهم. ودخل في هؤلاء الفقراء المتقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ ولذي القربى واليتامى ﴾. وقيل: هو عطف على ما مضى، ولم يأت بواو العطف كقولك: هذا المال لزيد لبكر لفلان لفلان. والمهاجرون هنا: من هاجر إلى النبي ﷺ حبا فيه ونصرة له. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حبا لله ولرسول، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها. وقال عبد الرحمن ابن أبزى وسعيد بن جبير: كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحج عليها ويغزو فنسبهم الله إلى الفقر وجعل لهم سهما في الزكاة. ومعنى "أخرجوا من ديارهم" أي أخرجهم كفار مكة؛ أي أحوجوهم إلى الخروج؛ وكانوا مائة رجل. "يبتغون" يطلبون. "فضلا من الله" أي غنيمة في الدنيا "ورضوانا" في الآخرة؛ أي مرضاة ربهم. "وينصرون الله ورسوله" في الجهاد في سبيل الله. "أولئك هم الصادقون" في فعلهم ذلك. وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب بالجابية فقال: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد ابن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني؛ فإن الله تعالى جعلني له خازنا وقاسما. ألا وإني باد بأزواج النبي ﷺ فمعطيهن، ثم المهاجرين الأولين؛ أنا وأصحابي اخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ **فيه إحدى عشرة مسألة:**

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلـهم ﴾ لا خلاف أن الذين تبوؤوا الدار هم الأنصار الذين استوطنوا المدينة قبل المهاجرين إليها. "والإيمان" نصب بفعل غير تبوأ؛ لأن التبوء إنما يكون في الأماكن. و"من قبلـهم" "من" صلة تبوأ والمعنى: والذين تبوؤوا الدار من قبل المهاجرين واعتقدوا الإيمان وأخلصوه؛ لأن الإيمان ليس بمكان يتبوأ؛ كقولـه تعالى: ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (يونس: ٧١) أي وادعوا شركاءكم؛ ذكره أبو علي والزمخشري وغيرهما. ويكون من باب قولـه: علفتها تبنا وماء باردا. ويجوز حملـه على حذف المضاف كأنه قال: تبوؤوا الدار ومواضع الإيمان. ويجوز حملـه على ما دل عليه تبوأ؛ كأنه قال: لزموا الدار ولزموا الإيمان فلم يفارقوهما. ويجوز أن يكون تبوأ الإيمان عل طريق المثل؛ كما تقول: تبوأ من بني فلان الصميم. والتبوء: التمكن والاستقرار. وليس يريد أن الأنصار آمنوا قبل المهاجرين، بل أراد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم.

الثانية: واختلف أيضا هل هذه الآية مقطوعة مما قبلـها أو معطوفة؛ فتأول قوم أنها معطوفة على قولـه: "للفقراء المهاجرين" وأن الآيات التي في الحشر كلـها معطوفة بعضها على بعض. ولو تأملوا ذلك وأنصفوا لوجدوه على خلاف ما ذهبوا إليه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ إلى قولـه ﴿ الفاسقين ﴾ (الحشر: ٢) فأخبر عن بني النضير وبني قينقاع. ثم قال: "وما أفاء الله على رسولـه منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسلـه على من يشاء" فأخبر أن ذلك للرسول ﷺ؛ لأنه لم يوجف عليه حين خلوه. وما تقدم فيهم من القتال وقطع شجرهم فقد كانوا رجعوا عنه وانقطع ذلك الأمر. ثم قال: "ما أفاء الله على رسولـه من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل" وهذا كلام غير معطوف على الأول. وكذا "والذين تبوؤوا الدار والإيمان" ابتداء كلام في مدح الأنصار والثناء عليهم؛ فإنهم سلموا ذلك الفيء للمهاجرين؛ وكأنه قال: الفيء للفقراء المهاجرين؛ والأنصار يحبون لـهم لم يحسدوهم على ما صفا لـهم من الفيء. وكذا ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ (الحشر: ١٠) ابتداء كلام؛ والخبر ﴿ يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ (الحشر: ١٠).

وقال إسماعيل بن إسحاق: إن قولـه ﴿ والذين تبوءوا الدار ﴾ "والذين جاءوا معطوف على ما قبل، وأنهم شركاء في الفيء؛ أي هذا المال للمهاجرين والذين تبوؤوا الدار. وقال مالك بن أوس: قرأ عمر بن الخطاب ﷺ هذه الآية ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ (التوبة: ٦٠) فقال: هذه لـهؤلاء. ثم قرأ "واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه" فقال: هذه لـهؤلاء. ثم قرأ "ما أفاء الله على رسولـه ـ حتى بلغ ـ للفقراء المهاجرين"، "والذين تبوؤوا الدار والإيمان"، "والذين جاءوا من بعدهم" ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه منها لم يعرق فيها جبينه. وقيل: إنه دعا

المهاجرين والأنصار واستشارهم فيما فتح الله عليه من ذلك، وقال لهم: تثبتوا الأمر وتدبروه ثم أغدوا علي. ففكر في ليلته فتبين له أن هذه الآيات في ذلك أنزلت. فلما غدوا عليه قال: قد مررت البارحة بالآيات التي في سورة "الحشر" وتلا ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى - إلى قوله - للفقراء المهاجرين ﴾ فلما بلغ قوله: ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ (الحجرات: ١٥) قال: ما هي لهؤلاء فقط. وتلا قوله: ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ إلى قوله ﴿ رؤوف رحيم ﴾ (الحشر: ١٠) ثم قال: ما بقي أحد من أهل الإسلام إلا وقد دخل في ذلك. والله أعلم.

الثالثة: روى مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر قال: لولا من يأتي من آخر الناس ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر. وفي الروايات المستفيضة من الطرق الكثيرة: أن عمر أبقى سواد العراق ومصر وما ظهر عليه من الغنائم؛ لتكون من أعطيات المقاتلة وأرزاق الحشوة والذراري، وأن الزبير وبلالا وغير واحد من الصحابة أرادوه على قسم ما فتح عليهم؛ فكره ذلك منهم واختلف فيما فعل من ذلك؛ فقيل: إنه استطاب أنفس أهل الجيش؛ فمن رضي له بترك حظه بغير ثمن ليبقيه للمسلمين قلة. ومن أبى أعطاه ثمن حظه. فمن قال: إنما أبقى الأرض بعد استطابة أنفس القوم جعل فعله كفعل النبي ﷺ؛ لأنه قسم خيبر، لأن اشتراءه إياها وترك من ترك عن طيب نفسه بمنزلة قسمها. وقيل: إنه أبقاها بغير شيء أعطاه أهل الجيوش. وقيل: إنه تأول في ذلك قول الله سبحانه وتعالى: "للفقراء المهاجرين - إلى قوله - ربنا إنك رؤوف رحيم" على ما تقدم. والله أعلم.

الرابعة: واختلف العلماء في قسمة العقار؛ فقال مالك: للإمام أن يوقفها لمصالح المسلمين. وقال أبو حنيفة: الإمام مخير بين أن يقسمها أو يجعلها وقفا لمصالح المسلمين. وقال الشافعي: ليس للإمام حبسها عنهم بغير رضاهم، بل يقسمها عليهم كسائر الأموال. فمن طاب نفسا عن حقه للإمام أن يجعله وقفا عليهم فله. ومن لم تطب نفسه فهو أحق بمال. وعمر ﷺ استطاب نفوس الغانمين واشتراها منهم.

قلت: وعلى هذا يكون قوله: ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ (الحشر: ١٠) مقطوعا مما قبله، وانهم ندبوا بالدعاء للأولين والثناء عليهم.

الخامسة: قال ابن وهب: سمعت مالكا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق فقال: إن المدينة تُبُوِّئَت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف؛ ثم قرأ "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم" الآية. وقد مضى الكلام في هذا، وفي فضل الصلاة في المسجدين: المسجد الحرام ومسجد المدينة؛ فلا معنى للإعادة.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعني لا يحسدون المهاجرين على ما خصوا به من مال الفيء وغيره؛ كذلك قال الناس. وفيه تقدير حذف مضافين؛ المعنى مس حاجة من فقد ما أوتوا. وكل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته فهو حاجة. وكان المهاجرون في دور الأنصار، فلما غنم عليه الصلاة والسلام أموال بني النضير، دعا الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم، وإشراكهم في أموالهم. ثم قال: (إن أحببتم

قسمت ما أفاء الله علي من بني النضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم). فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: بل نقسمه بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار)[1]. وأعطى رسول الله ﷺ المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئا إلا الثلاثة الذين ذكرناهم. ويحتمل أن يريد به "ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا" إذا كان قليلا بل يقنعون به ويرضون عنه. وقد كانوا على هذه الحالة حين حياة النبي ﷺ دنيا، ثم كانوا عليه بعد موته ﷺ بحكم الدنيا. وقد أنذرهم النبي ﷺ وقال: (سترون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[2].

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ في الترمذي عن أبي هريرة: أن رجلا بات به ضيف فلم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه؛ فقال لامرأته: نومي الصبية وأطفئي السراج وقربي للضيف ما عندك؛ فنزلت هذه الآية "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"[3] قال: هذا حديث حسن صحيح. خرجه مسلم أيضا. وخرج عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى الأخرى فقالت مثل ذلك؛ حتى قلن كلـهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال: من يضيف هذا الليلة رحمه الله؟ فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحلـه فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلليهم بشيء فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل؛ فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئيه. قال: فقعدوا وأكل الضيف. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: (قد عجب الله ـ عز وجل ـ من صنيعكما بضيفكما الليلة). وفي رواية عن أبي هريرة فال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ليضيفه فلم يكن عنده ما يضيفه. فقال: (ألا رجل يضيف هذا رحمه الله)؟ فقام رجل من الأنصار يقال لـه أبو طلحة. فانطلق به إلى رحلـه. . . ؛ وساق الحديث بنحو الذي قبلـه[4]، وذكر فيه نزول الآية. وذكر المهدوي عن أبي هريرة أن هذا نزل في ثابت بن قيس ورجل من الأنصار ـ نزل به ثابت ـ يقال لـه أبو المتوكل، فلم يكن عند أبي المتوكل إلا قوته وقوت صبيانه؛ فقال لامرأته: أطفئي السراج ونومي الصبية؛ وقدم ما كان عنده إلى ضيفه.

وكذا ذكر النحاس قال: قال أبو هريرة: نزل برجل من الأنصار ـ يقال لـه أبو المتوكل ـ ثابت بن قيس ضيفا، ولم يكن عنده إلا قوته وقوت صبيانه؛ فقال لامرأته: أطفئي السراج ونومي الصبية؛ فنزلت "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ـ إلى قولـه ـ فأولئك هم المفلحون". وقيل: إن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٧)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ٢٩، ٣٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع". وأصله في الصحيحين.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٨٤٣).

(٣) "صحيح" انظر صحيح سنن الترمذي (٢٦٣٢).

(٤) أخرجه مسلم (٢٠٥٤)، وهو أيضا عند البخاري (٤٨٨٩).

فاعل ذلك أبو طلحة[١]. وذكر القشيري أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم: وقال ابن عمر: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا؛ فبعثه إليهم، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى أولئك؛ فنزلت "ويؤثرون على أنفسهم"[٢]. ذكره الثعلبي عن أنس قال: أهدي لرجل من الصحابة رأس شاة وكان مجهودا فوجه به إلى جار له، فتداولته سبعة أنفس في سبعة أبيات، ثم عاد إلى الأول؛ فنزلت: "ويؤثرون على أنفسهم" الآية. وقال ابن عباس قال النبي ﷺ للأنصار يوم بني النضير: (إن شئتم قسمت للمهاجرين من دياركم وأموالكم وشاركتموهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم من الغنيمة شيئاً) فقالت الأنصار: بل نقسم لإخواننا من ديارنا وأموالنا ونؤثرهم بالغنيمة؛ فنزلت "ويؤثرون على أنفسهم" الآية. والأول أصح. وفي الصحيحين عن أنس: أن الرجل كان يجعل للنبي ﷺ النخلات من أرضه حتى فتحت عليه قريظة والنضير، فجعل بعد ذلك يرد عليه ما كان أعطاه. لفظ مسلم. وقال الزهري عن أنس بن مالك: لما قدم المهاجرون من مكة المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ويكفونهم العمل والمؤونة؛ وكانت أم أنس بن مالك تدعى أم سليم، وكانت أم عبد الله بن أبي طلحة، كان أخا لأنس لأمه؛ وكانت أعطت أم أنس رسول الله ﷺ عذاقا لها؛ فأعطاها رسول الله ﷺ أم أيمن مولاته، ثم أسامة بن زيد. قال ابن شهاب: فأخبرني أنس ابن مالك: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم. قال: فرد رسول الله ﷺ إلى أمي عذاقها، وأعطى رسول الله ﷺ أم أيمن مكانهن من حائطه. خرجه مسلم أيضا[٣].

الثامنة: الإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، ورغبة في الحظوظ الدينية. وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة. يقال: آثرته بكذا؛ أي خصصته به وفضلته. ومفعول الإيثار محذوف؛ أي يؤثرونهم على أنفسهم بأموالهم ومنازلهم، لا عن غنى بل مع احتياجهم إليها؛ حسب ما تقدم بيانه. وفي موطأ مالك: "أنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ، أن مسكينا سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف؛ فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه؛ فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟ فقالت: أعطيه إياه. قالت: ففعلت. قالت: فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ما كان يُهدى لنا: شاة وكفنها. فدعتني عائشة فقالت: كلي من هذا، فهذا خير من قرصك. قال علماؤنا: هذا من المال الرابح، والفعل الزاكي عند الله تعالى يعجل منه ما يشاء، ولا ينقص ذلك مما يدّخر عنه. ومن ترك شيئا لله لم يجد فقده. وعائشة رضي الله عنها في فعلها هذا من الذين أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة، وأن من فعل ذلك فقد وقى شح نفسه

(١) وهو ثابت أيضا في الصحيحين.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٨٣) من طريق عبيد الله بن الوليد عن محارب بن دثار عن ابن عمر، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه". وردّه الذهبي بقوله: "قلت: عبيد الله ضعفوه".

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧١).

وأفلح فلاحا لا خسارة بعده. ومعنى (شاة وكفنها) فإن العرب ـ أو بعض العرب أو بعض وجوههم ـ كان هذا من طعامهم، يأتون إلى الشاة أو الخروف إذا سلخوه غطوه كلـه بعجين البر وكفنوه به ثم علقوه في التنور، فلا يخرج من ودكه شيء إلا في ذلك الكفن؛ وذلك من طيب الطعام عندهم.

وروى النسائي عن نافع أن ابن عمر اشتكى واشتهى عنبا، فاشتُري لـه عنقود بدرهم، فجاء مسكين فسأل؛ فقال: اعطوه إياه؛ فخالف إنسان فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إلى ابن عمر، فجاء المسكين فسأل؛ فقال: أعطوه إياه؛ ثم خالف إنسان فاشتراه بدرهم، ثم جاء به إليه؛ فأراد السائل أن يرجع فمنع. ولو علم ابن عمر أنه ذلك العنقود ما ذاقه؛ لأن ما خرج لله لا يعود فيه. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا محمد بن مطرف قال: حدثنا أبو حازم عن عبد الرحمن بن سعيد بن يربوع عن مالك الدار: أن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ أربعمائة دينار، فجعلـها في صرة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح، ثم تلكأ ساعة في البيت حتى تنظر ماذا يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك؛ فقال: وصلـه الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان؛ حتى أنفذها. فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعد مثلـها لمعاذ بن جبل؛ وقال: اذهب بهذا إلى معاذ بن جبل؛ وتلكأ في البيت ساعة حتى تنظر ماذا يصنع، فذهب بها إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذه في بعض حاجتك، فقال: رحمه الله ووصلـه، وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن! والله مساكين فأعطنا. ولـم يبق في الخرقة إلا ديناران قد جاء بهما إليها. فرجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك عمر وقال: إنهم إخوة! بعضهم من بعض.

ونحوه عن عائشة رضي الله عنها في إعطاء معاوية إياها، وكان عشرة آلاف وكان المنكدر دخل عليها. فإن قيل: وردت أخبار صحيحة في النهي عن التصدق بجميع ما يملكه المرء، قيل لـه: إنما كره ذلك في حق من لا يوثق منه الصبر على الفقر، وخاف أن يتعرض للمسألة إذا فقد ما ينفقه. فأما الأنصار الذين أثنى الله عليهم بالإيثار على أنفسهم، فلم يكونوا بهذه الصفة، بل كانـوا كما قال الله تعالـى: ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ (البقرة: ١٧٧). وكان الإيثار فيهم أفضل من الإمساك. والإمساك لن لا يصبر ويتعرض للمسألة أولى من الإيثار. وروي أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ بمثل البيضة من الذهب فقال: هذه صدقة، فرماه بها وقال: (يأتي أحدكم بجميع ما يملكه فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس)[1] . والله أعلم.

التاسعة: والإيثار بالنفس فوق الإيثار بالمال وإن عاد إلى النفس. ومن الأمثال السائرة:

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ومن عبارات الصوفية الرشيقة في حد المحبة: أنها الإيثار، ألا ترى أن امرأة العزيز لما تناهت في حبها ليوسف عليه السلام، آثرته على نفسها فقالت: أنا راودته عن نفسه. وأفضل الجود بالنفس الجوة على حماية رسول الله ﷺ، ففي الصحيح أن أبا طلحة ترس على النبي ﷺ يوم أحد، وكان النبي ﷺ يتطلع ليرى

(١) ضعيف، أخرجه بنحوه أبو داود (١٦٧٣) وغيره.

القوم. فيقول له أبو طلحة: لا تشرف يا رسول الله! لا يصيبونك! نحري دون نحرك ووقى بيده رسول الله ﷺ فشلت. وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي - ومعي شيء من الماء - وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به، فقلت له: أسقيك، فأشار برأسه أن نعم، فإذا أنا برجل يقول: آه! آه! فأشار إلي ابن عمي أن انطلق إليه، فاذا هو هشام بن العاص فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم. فسمع آخر يقول: آه! آه! فأشار هشام أن انطلق إليه فجئته فإذا هو قد مات. فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات. فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات. وقال أبو يزيد البسطامي: ما غلبني أحد ما غلبني شاب من أهل بلخ! قدم علينا حاجا فقال لي: يا أبا يزيد، ما حد الزهد عندكم؟ فقلت: إن وجدنا أكلنا. وإن فقدنا صبرنا. فقال: هكذا كلاب بلخ عندنا. فقلت: وما حد الزهد عندكم؟ قال: إن فقدنا شكرنا، وإن وجدنا آثرنا. وسئل ذو النون المصري: ما حد الزاهد المنشرح صدره؟ قال ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار عند القوت.

وحكي عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية من قرى الري، ومعهم أرغفة معدودة لا تشبع جميعهم، فكسروا الرغفان وأطفؤوا السراج وجلسوا للطعام؛ فلما رفع فإذا الطعام بحاله لم يأكل منه أحد شيئا؛ إيثارا لصاحبه على نفسه.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿ولو كان بهم خصاصة﴾ الخصاصة: الحاجة التي تختلّ بها الحال. وأصلها من الاختصاص وهو انفراد بالأمر. فالخصاصة الانفراد بالحاجة؛ أي ولو كان بهم فاقة وحاجة. ومنه قول الشاعر.

أما الربيع إذا تكون خصاصة عاش السقيم به وأثرى المقتر

قوله تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ الشح والبخل سواء؛ يقال: رجل شحيح بيّن الشح والشح والشحاحة. قال عمرو بن كلثوم:

ترى اللحز الشحيح إذا أمرّتْ عليه لماله فيها مهينا

وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخَل. وفي الصحاح: الشح البخل مع حرص؛ تقول: شححت (بالكسر) تشح. وشححت أيضا تَشُحّ وتَشِحّ. ورجل شحيح، وقوم شحاح وأشحة. والمراد بالآية: الشح بالزكاة وما ليس بفرض من صلةَ ذوي الأرحام والضيافة، وما شاكل ذلك. فليس بشحيح ولا بخيل من أنفق في ذلك وإن أمسك عن نفسه. ومن وسع على نفسه ولم ينفق فيما ذكرناه من الزكوات والطاعات فلم يوق شح نفسه. وروى الأسود عن ابن مسعود أن رجلا أتاه فقال له: إني أخاف أن أكون قد هلكت؟ قال: وما ذاك؟ قال: سمعت الله عز وجل يقول: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئا. فقال ابن مسعود: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله تعالى في القرآن، إنما الشح الذي ذكره الله تعالى في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل[1]. ففرق ﷺ بين الشح والبخل. وقال

---

(١) ذكره بنحوه الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١٢٣) وقال: "رواه الطبراني عن شيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم وهو ضعيف".

طاوس: البخل أن يبخل الإنسان بما في يده، والشح أن يشح بما في أيدي الناس، يحب أن يكون لـه ما في أيديهم بالحل والحرام، لا يقنع. ابن جبير: الشح منع الزكاة وادخار الحرام. ابن عيينة: الشح الظلم. الليث: ترك الفرائض وانتهاك المحارم. ابن عباس: من اتبع هواه ولم يقبل الإيمان فذلك الشحيح. ابن زيد: من لم يأخذ شيئا لشيء نهاه الله عنه، ولم يدعه الشح على أن يمنع شيئا من شيء أمره الله به، فقد وقاه الله شح نفسه. وقال أنس: قال النبي ﷺ: (بريء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة)[1]. وعنه أن النبي ﷺ كان يدعو (اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي وإسرافها ووساوسها). وقال أبو الـهياج الأسدي: رأيت رجلا في الطواف يدعو: اللهم قني شح نفسي. لا يزيد على ذلك شيئا، فقلت لـه؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل. فإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف.

قلت: يدل على هذا قولـه ﷺ: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملـهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[2]. وقد بيناه في آخر "آل عمران"[3]. وقال كسرى لأصحابه: أي شيء أضر بابن آدم؟ قالوا: الفقر. فقال كسرى: الشح أضر من الفقر؛ لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح إذا وجد لم يشبع أبدا.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ والذين جاءوا من بعدهم ﴾ يعني التابعين ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة. قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوؤوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم. فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل. وقال بعضهم: كن شمسا، فإن لم تستطع فكن قمرا، فإن لم تستطع فكن كوكبا مضيئا، فإن لم تستطع فكن كوكبا صغيرا، ومن جهة النور لا تنقطع. ومعنى هذا: كن مهاجريا. فإن قلت: لا أجد، فكن أنصاريا. فإن لم تجد فاعمل كأعمالـهم، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لـهم كما أمرك الله. وروى مصعب بن سعد قال: الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقيت منزلة؛ فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت. وعن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن جده علي بن الحسين ﷺ، أنه جاءه رجل فقال لـه: يا ابن بنت رسول الله ﷺ، ما تقول في عثمان؟ فقال لـه: يا أخي أنت من قوم قال الله فيهم: "للفقراء المهاجرين" الآية. قال: لا! قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية فأنت من قوم قال الله فيهم: "والذين تبوؤوا الدار والإيمان" الآية. قال: لا! قال: فوالله لئن لم تكن من أهل الآية الثالثة لتخرجن

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٣٣٩) من رواية ابن جرير عن يزيد بن جارية عن أنس مرفوعاً. وسنده ضعيف، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٩١) إلى ابن جرير وابن مردويه والبيهقي.

(٢) أخرجه مسلم وقد سبق.

(٣) عند تفسير الآية (١٨٠).

من الإسلام وهي قولـه تعالى: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" الآية. وقد قيل: إن محمد بن علي بن الحسين، ﷺ، روى عن أبيه: أن نفرا من أهل العراق جاءوا إليه، فسبوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ـ ثم عثمان ـ ﷺ ـ فأكثروا؛ فقال لـهم: أمن المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا. فقال: أفمن الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلـهم؟ فقالوا: لا. فقال: قد تبرأتم من هذين الفريقين! أنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم" قوموا، فعل الله بكم وفعل ذكره النحاس.

الثانية: هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه جعل لمن بعدهم حظا في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لـهم، وأن من سبهم أو واحدا منهم أو اعتقد فيه شرا إنه لا حق لـه في ألفيء؛ روي ذلك عن مالك وغيره. قال مالك: من كان يبغض أحدا من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل، فليس لـه حق في فيء المسلمين؛ ثم قرأ "والذين جاءوا من بعدهم" الآية.

الثالثة: هذه الآية تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض شملا بين المسلمين أجمعين؛ كما فعل عمر ﷺ؛ إلا أن يجتهد الوالي فينفذ أمرا فيمضى عملـه فيه لاختلاف الناس عليه وأن هذه الآية قاضية بذلك؛ لأن الله تعالى أخبر عن الفيء وجعلـه لثلاث طوائف: المهاجرين والأنصار ـ وهم معلمون ـ "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان". فهي عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين. وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ خرج إلى المقبرة فقال: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون وددت أن رأيت إخواننا) قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: (بل أنتم أصحابي وإخواننا الذين لـم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض)[1]. فبيّن ﷺ أن إخوانهم كل من يأتي بعدهم؛ لا كما قال السدي والكلبي: إنهم الذين هاجروا بعد ذلك. وعن الحسن أيضا "والذين جاءوا من بعدهم" من قصد إلى النبي ﷺ إلى المدينة بعد انقطاع الـهجرة.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ يقولون ﴾ نصب في موضع الحال؛ أي قائلين. "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" فيه وجهان: أحدهما: أمروا أن يستغفروا لمن سبق هذه الأمة من مؤمني أهل الكتاب. قالت عائشة رضي الله عنها: فأمروا أن يستغفروا لـهم فسبوهم. الثاني: أمروا أن يستغفروا للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. قال ابن عباس: أمر الله تعالى بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، وهو يعلم أنهم سيفتنون. وقالت عائشة: أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد فسببتموهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول: (لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها)[2] وقال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا رأيتم الذين يسبون أصحابي فقولوا لعن الله أشركم)[3]. وقال العوام بن

(١) أخرجه مسلم في "الطهارة"، (٢٤٩).
(٢) ضعيف.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٥٨ـ أحوذي) من طريق سيف بن عمر، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: "هذا حديث منكر لا نعرفه من حديث عبيد الله بن عمر إلا من هذا الوجه. وفيه علة أخرى، وهي سيف بن عمر، وهو ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ، أفحش ابن حبان القول فيه، كما في "التقريب"، (١/ ٣٤٤).

حوشب: أدركت صدر هذه الأمة يقولون: اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شجر بينهم فتجسروا الناس عليهم. وقال الشعبي: تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة، سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى. وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بسفك دمائهم وإدحاض حجتهم. أعاذنا الله وإياكم من الأهواء المضلة. "ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا" أي حقدا وحسدا" ربنا إنك رؤوف رحيم".

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا ﴾ تعجب من اغترار اليهود بما وعدهم المنافقون من النصر مع علمهم بأنهم لا يعتقدون دينا ولا كتابا. ومن جملة المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وعبد الله بن نبتل، ورفاعة بن زيد. وقيل: رافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي، كانوا من الأنصار ولكنهم نافقوا، وقالوا ليهود قريظة والنضير: "لئن أخرجتم لنخرجن معكم" وقيل: هو من قول بني النضير لقريظة. "ولا نطيع فيكم أحدا أبدا" يعنون محمدا ﷺ؛ لا نطيعه في قتالكم. وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ من جهة علم الغيب؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم؛ كما قال الله تعالى: "والله يشهد إنهم لكاذبون" أي في قولهم وفعلهم.

قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ﴾ أي منهزمين. "ثم لا ينصرون" قيل: معنى "لا ينصرونهم" طائعين. "ولئن نصروهم" مكرهين "ليولن الأدبار". وقيل: معنى "لا ينصرونهم" لا يدومون على نصرهم. *هذا على أن* الضميرين متفقان. وقيل: إنهما مختلفان؛ والمعنى لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم. "ولئن نصروهم" أي ولئن نصر اليهود المنافقين "ليولن الأدبار". وقيل: "لئن أخرجوا لا يخرجون معهم" أي علم الله منهم أنهم لا يخرجون إن أخرجوا. "ولئن قوتلوا لا ينصرونهم" أي علم الله منهم ذلك. ثم قال: "ليولن الأدبار" فأخبر عما قد أخبر أنه لا يكون كيف كان يكون لو كان؟ وهو كقوله تعالى: ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام: ٢٨). وقيل: معنى "ولئن نصروهم" أي ولئن شئنا أن ينصروهم زينا ذلك لهم. "ليولن الأدبار".

قوله تعالى: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لأنتم ﴾ يا معشر المسلمين "أشد رهبة" أي خوفا وخشية "في صدورهم من الله" يعني صدور بني النضير. وقيل: في صدور المنافقين. ويحتمل أن يرجع إلى الفريقين؛ أي يخافون منكم أكثر مما يخافون من ربهم ذلك الخوف. "ذلك بأنهم قوم لا يفقهون" أي لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته.

قوله تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لا يقاتلونكم جميعا ﴾ يعني اليهود "إلا في قرى محصنة" أي بالحيطان والدور؛ يظنون أنها تمنعهم منكم. "أو من وراء جدر" أي من خلف حيطان يستترون بها لجبنهم ورهبتهم. وقراءة العامة "جدر" على الجمع، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم؛ لأنها نظير قولـه تعالى: "في قرى محصنة" وذلك جمع. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو "جدار" على التوحيد؛ لأن التوحيد يؤدي عن الجمع. وروي عن بعض المكيين "جدر" (بفتح الجيم وإسكان الدال)؛ وهي لغة في الجدار. ويجوز أن يكون معناه من وراء نخيلـهم وشجرهم؛ يقال: أجدر النخل إذا طلعت رؤوسه في أول الربيع. والجدر: نبت واحدته جدرة. وقرئ "جدر" (بضم الجيم وإسكان الدال) جمع الجدار. ويجوز أن تكون الألف في الواحد كألف كتاب، وفي الجمع كألف ظراف. ومثلـه ناقة هجان ونوق هجان؛ لأنك تقول في التثنية: هجانان؛ فصار لفظ الواحد والجمع مشتبهين في اللفظ مختلفين في المعنى؛ قالـه ابن جني.

قولـه تعالى: ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ يعني عداوة بعضهم لبعض. وقال مجاهد: "بأسهم بينهم شديد" أي بالكلام والوعيد لنفعلن كذا. وقال السدي: المراد اختلاف قلوبهم حتى لا يتفقوا على أمر واحد. وقيل: "بأسهم بينهم شديد" أي إذا لم يلقوا عدوا نسبوا أنفسهم إلى الشدة والبأس، ولكن إذا لقوا العدو انهزموا. "تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى" يعني اليهود والمنافقين؛ قاله مجاهد. وعنه أيضا يعني المنافقين. الثوري: هم المشركون وأهل الكتاب. وقال قتادة: "تحسبهم جميعا" أي مجتمعين على أمر ورأي. "وقلوبهم شتى" متفرقة. فأهل الباطل مختلفة آراؤهم، مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق. وعن مجاهد أيضا: أراد أن دين المنافقين مخالف لدين اليهود؛ وهذا ليقوي أنفس المؤمنين عليهم. وقال الشاعر:

إلى الله أشكو نية شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جمع

وفي قراءة ابن مسعود "وقلوبهم أشت" يعني أشد تشتيتا؛ أي أشد اختلافا. "ذلك بأنهم قوم لا يعقلون" أي ذلك التشتيت والكفر بأنهم لا عقل لـهم يعقلون به أمر الله.

قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قال ابن عباس: يعني به قينقاع؛ أمكن الله منهم قبل بني النضير. وقال قتادة: يعني بني النضير؛ أمكن الله منهم قبل قريظة. مجاهد: يعني كفار قريش يوم بدر. وقيل: هو عام في كل من انتقم منه على كفره قبل بني الضير من نوح إلى محمد ﷺ. ومعنى "وبال" جزاء كفرهم. ومن قال: هم بنو قريظة، جعل "وبال أمرهم" نزولهم على حكم سعد بن معاذ؛ فحكم فيهم بقتل المقاتل وسبي الذرية. وهو قول الضحاك. ومن قال المراد بنو النضير قال: "وبال أمرهم" الجلاء والنفي. وكان بين النضير وقريظة سنتان. وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، فلذلك قال: "قريبا" وقد قال قوم: غزوة بني النضير بعد وقعة أحد. "ولهم عذاب أليم" في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ﴾ هذا ضرب مثل للمنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نصرتهم. وحذف حرف العطف، ولم يقل: وكمثل الشيطان؛ لأن حذف حرف العطف كثير كما تقول: أنت عاقل أنت كريم أنت عالم. وقد روي عن النبي ﷺ: أن الإنسان الذي قال له الشيطان اكفر، راهب تركت عنده امرأة أصابها لمم ليدعو لها، فزين له الشيطان فوطئها فحملت، ثم قتلها خوفا أن يفتضح، فدل الشيطان قومها على موضعها، فجاءوا فاستنزلوا الراهب ليقتلوه، فجاء الشيطان فوعده أنه إن سجد له أنجاه منهم، فسجد له فتبرأ منه فأسلمه. ذكره القاضي إسماعيل وعلي بن المديني عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عبيد ابن رفاعة الزرقي عن النبي ﷺ.[1] وذكر خبره مطولا ابن عباس ووهب بن منبه. ولفظهما مختلف.

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ كمثل الشيطان ﴾ : كان راهب في الفترة يقال له: برصيصا؛ قد تعبد في صومعته سبعين سنة، لم يعص الله فيها طرفة عين، حتى أعيا إبليس، فجمع إبليس مردة الشياطين فقال: ألا أجد منكم من يكفيني أمر برصيصا؟ فقال الأبيض، وهو صاحب الأنبياء، وهو الذي قصد النبي ﷺ في صورة جبريل ليوسوس إليه على وجه الوحي، فجاء جبريل فدخل بينهما، ثم دفعه بيده حتى وقع بأقصى الهند فذلك قوله تعالى: ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ (التكوير: ٢٠) فقال: أنا أكفيكه؛ فانطلق فتزيا بزي الرهبان، وحلق وسط رأسه حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه؛ وكان لا ينفتل من صلاته إلا في كل عشرة أيام يوما، ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام؛ وكان يواصل العشرة الأيام والعشرين والأكثر؛ فلما رأى الأبيض أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته؛ فلما انفتل برصيصا من صلاته، رأى الأبيض قائما يصلي في هيئة حسنة من هيئة الرهبان؛ فندم حين لم يجبه، فقال: ما حاجتك؟ فقال: أن أكون معك، فأتأدب بأدبك، وأقتبس

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٢٩٦) وعزاه إلى ابن أبي الدنيا في "مكايد الشيطان"، وابن مردويه والبيهقي في "شعب الإيمان" عن عبيد بن رفاعة الدارمي عن النبي ﷺ بلاغاً.

من عملك، ونجتمع على العبادة؛ فقال: إني في شغل عنك؛ ثم أقبل على صلاته؛ وأقبل الأبيض أيضا على الصلاة؛ فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده وعبادته قال لـه: ما حاجتك؟ فقال: أن تأذن لي فارتفع إليك. فأذن لـه فأقام الأبيض معه حولا لا يفطر إلا في كل أربعن يوما يوما واحدا، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوما، وربما مد إلى الثمانين؛ فلما رأى برصيصا اجتهاده تقاصرت إليه نفسه. ثم قال الأبيض: عندي دعوات يشفي الله بها السقيم والمبتلى والمجنون؛ فعلمه إياها. ثم جاء إلى إبليس فقال: قد والله أهلكت الرجل. ثم تعرض لرجل فخنقه، ثم قال لأهلـه ـ وقد تصور في صورة الآدميين ـ : إن بصاحبكم جنونا أفأطبه؟ قالوا: نعم. فقال: لا أقوى على جنّيّته، ولكن اذهبوا به إلى برصيصا، فإن عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى،واذا دعيَ به أجاب؛ فجاءوه فدعا بتلك الدعوات، فذهب عنه الشيطان.

ثم جعل الأبيض يفعل بالناس ذلك ويرشدهم إلى برصيصا فيعافون. فانطلق إلى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة، وكان أبوهم ملكا فمات واستخلف أخاه، وكان عمها ملكا في بني إسرائيل فعذبها وخنقها. ثم جاء إليهم في صورة رجل متطبب ليعالجها فقال: إن شيطانها مارد لا يطاق، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا فدعوها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لـها فبرئت؛ فقالوا: لا يجيبنا إلى هذا؛ قال: فابنوا صومعة في جانب صومعته ثم ضعوها فيها، وقولوا: هي أمانة عندك فاحتسب فيها. فسألوه ذلك فأبى فبنوا صومعة ووضعوا فيها الجارية؛ فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأسقط في يده، فجاءها الشيطان فخنقها فانفتل من صلاته ودعا لـها فذهب عنها الشيطان، ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فخنقها. وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا، ثم جاءه الشيطان فقال: ويحك! واقعها، فما تجد مثلـها ثم تتوب بعد ذلك. فلم يزل به حتى واقعها فحملت وظهر حملـها. فقال لـه الشيطان: ويحك! قد افتضحت. فهل لك أن تقتلـها ثم تتوب فلا تفتضح، فإن جاءوك وسألوك فقل جاءها شيطانها فذهب بها. فقتلـها برصيصا ودفنها ليلا؛ فأخذ الشيطان طرف ثوبها حتى بقي خارجا من التراب؛ ورجع برصيصا إلى صلاته. ثم جاء الشيطان إلى إخوتها في المنام فقال: إن برصيصا فعل بأختكم كذا وكذا، وقتلـها ودفنها في جبل كذا وكذا؛ فاستعظموا ذلك وقالوا لبرصيصا: ما فعلت أختنا؟ فقال: ذهب بها شيطانها؛ فصدقوه وانصرفوا.

ثم جاءهم الشيطان في المنام وقال: إنها مدفونة في موضع كذا وكذا، وإن طرف ردائها خارج من التراب؛ فانطلقوا فوجدوها، فهدموا صومعته وأنزلوه وخنقوه، وحملوه إلى الملك فأقر على نفسه فأمر بقتلـه. فلما صلب قال الشيطان: أتعرفني؟ قال: لا والله! قال: أنا صاحبك الذي علمتك الدعوات، أما اتقيت الله أما استحيت وأنت أعبد بني إسرائيل ثم لم يكفك صنيعك حتى فضحت نفسك، وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس فان مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك بعدك. فقال: كيف أصنع؟ قال: تطيعني في خصلة واحدة وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم. قال: وما ذاك؟ قال: تسجد لي سجدة واحدة؛ فقال: أنا أفعل؛ فسجد لـه من دون الله. فقال: يا برصيصا، هذا أردت منك؛ كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك، إني بريء منك، إني أخاف الله رب العالمين.

وقال وهب بن منبه: إن عابدا كان في بني إسرائيل، وكان من أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لـهم أخت، وكانت بكرا، ليست لـهم أخت غيرها، فخرج البعث على ثلاثتهم، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم، ولا عند من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها. قال فاجتمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل، وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يقفلوا من غزاتهم، فأبى ذلك عليهم وتعوذ بالله منهم ومن أختهم. قال فلم يزالوا به حتى أطمعهم فقال: أنزلوها في بيت حذاء صومعتي، فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانا، ينزل إليها الطعام من صومعته، فيضعه عند باب الصومعة، ثم يغلق بابه ويصعد في صومعته، ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لـها من الطعام. قال: فتلطف لـه الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها. قال: فلبث بذلك زمانا، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر، وقال لـه: لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك؛ قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها فوضعه في بيتها، قال: فلبث بذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه، وقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة. قال: فلم يزل به حتى حدثها زمانا يطلع عليها من فوق صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد على باب بيتها فتحدثك كان آنس لـها. فلم يزل به حتى أنزلـه وأجلسه على باب صومعته يحدثها، وتخرج الجارية من بيتها، فلبثا زمانا يتحدثان، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها، وقال: لو خرجت من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتها كان آنس لـها. فلم يزل به حتى فعل. قال: فلبثا زمانا، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما لـه من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال لـه: لو دنوت من باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها، ففعل. فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها. فلبثا بذلك حينا ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت معها تحدثها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك. فلم يزل به حتى دخل البيت، فجعل يحدثها نهاره كلـه، فإذا أمسى صعد في صومعته. قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك، فلم يزل يزينها لـه حتى ضرب العابد على فخذها وقبلـها. فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول لـه حتى وقع عليها فأحبلـها، فولدت لـه غلاما، فجاءه إبليس فقال لـه: أرأيت أن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك! كيف تصنع! لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك! فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه، فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل. فقال لـه: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها! خذها فاذبحها وادفنها مع ابنها. فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفيرة مع ابنها، وأطبق عليها صخرة عظيمة، وسوى عليها التراب، وصعد في صومعته يتعبد فيها؛ فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث؛ حتى قفل إخوتها من الغزو، فجاءوه فسألوه عنها فنعاها لـهم وترحم عليها، وبكى لـهم وقال: كانت خير أمة، وهذا قبرها فانظروا إليه.

فأتى إخوتها القبر فبكوا على قبرها وترحموا عليها، وأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا إلى أهاليهم. فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم، أتاهم الشيطان في صورة رجل مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم؛ فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها؛ فكذبه الشيطان وقال: لم يصدقكم أمر أختكم، إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعا منكم، وألقاها في حفيرة احتفرها خلف الباب الذي كانت فيه عن يمين من دخله. فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونهما هنالك جميعا كما أخبرتكم. قال: وأتى الأوسط في منامه وقال له مثل ذلك. ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك. فلما استيقظ القوم استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض، يقول كل واحد منهم: لقد رأيت عجبا، فأخبر بعضهم بعضا بما رأى. قال أكبرهم: هذا حلم ليس بشيء، فامضوا بنا ودعوا هذا. قال أصغرهم: لا أمضي حتى أتي ذلك المكان فأنظر فيه. قال: فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذي كانت فيه أختهم، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما. فاستعدوا عليه ملكهم، فأنزل من صومعته فقدموه ليصلب، فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له: قد علمت أني صاحبك الذي فتنتك في المرأة حتى أحبلتها وذبحتها وذبحت ابنها، فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك خلصتك مما أنت فيه. قال: فكفر العابد بالله؛ فلما كفر خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه.

قال: ففيه نزلت هذه الآية: "كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين - إلى قوله - جزاء الظالمين. قال ابن عباس: فضرب الله هذا مثلا للمنافقين مع اليهود. وذلك أن الله تعالى أمر نبيه عليه السلام أن يجلي بني النضير من المدينة، فدس إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم، فإن قاتلوكم كنا معكم، وإن أخرجوكم كنا معكم، فحاربوا النبي ﷺ فخذلهم المنافقون، وتبرؤوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا العابد. فكان الرهبان بعد ذلك لا يمشون إلا بالتقية والكتمان. وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار فرموهم بالبهتان والقبيح، حتى كان أم جريج الراهب، وبرأه الله فانبسطت بعده الرهبان وظهروا للناس. وقيل: المعنى مثل المنافقين في غدرهم لبني النضير كمثل إبليس إذ قال لكفار قريش: ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ (الأنفال: ٤٨) الآية. وقال مجاهد: المراد بالإنسان ها هنا جميع الناس في غرور الشيطان إياهم. ومعنى قوله تعالى: "إذ قال للإنسان اكفر" أي أغواه حتى قال: إني كافر. وليس قول الشيطان: "إني أخاف الله رب العالمين" حقيقة، إنما هو على وجه التبرؤ من الإنسان، فهو تأكيد لقوله تعالى: "إني بريء منك" وفتح الياء من "إني" نافع وابن كثير وأبو عمرو. وأسكن الباقون.

"فكان عاقبتهما" أي عاقبة الشيطان وذلك الإنسان "أنهما في النار خالدين فيها" نصب على الحال. والتثنية ظاهرة فيمن جعل الآية مخصوصة في الراهب والشيطان. ومن جعلها في الجنس فالمعنى: وكان عاقبة الفريقين أو الصنفين. ونصب "عاقبتهما" على أنه خبر كان. والاسم "أنهما في النار" وقرأ

الحسن "فكان عاقبتهما" بالرفع على الضد من ذلك. وقرأ الأعمش "خالدان فيها" بالرفع وذلك خلاف المرسوم. ورفعه على أنه خبر "أن" والظرف ملغى.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه. "ولتنظر نفس ما قدمت لغد" يعني يوم القيامة. والعرب تكني عن المستقبل بالغد. وقيل: ذكر الغد تنبيها على أن الساعة قريبة؛ كما قال الشاعر:

وإن غدا للناظرين قريب

وقال الحسن وقتادة: قرب الساعة حتى جعلها كغد. ولا شك أن كل آت قريب؛ والموت لا محالة آت. ومعنى "ما قدمت" يعني من خير أو شر. "واتقوا الله" أعاد هذا تكريرا، كقولك: اعجل اعجل، ارم ارم. وقيل التقوى الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب، والثانية اتقاء المعاصي في المستقبل. "إن الله خبير بما تعملون" قال سعيد بن جبير: أي بما يكون منكم. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله ﴾ أي تركوا أمره "فأنساهم أنفسهم" أن يعملوا لها خيرا؛ قاله ابن حبان. وقيل: نسوا حق الله فأنساهم حق أنفسهم؛ قاله سفيان. وقيل: "نسوا الله" بترك شكره وتعظيمه. "فأنساهم أنفسهم" بالعذاب أن يذكر بعضهم بعضا؛ حكاه ابن عيسى. وقال سهل بن عبد الله: "نسوا الله" عند الذنوب "فأنساهم انفسهم" عند التوبة. ونسب تعالى الفعل إلى نفسه في "أنساهم" إذ كان ذلك بسبب أمره ونهيه الذي تركوه. وقيل: معناه وجدهم تاركين أمره ونهيه؛ كقولك: أحمدت الرجل إذا وجدته محمودا. وقيل: "نسوا الله" في الرخاء "فأنساهم أنفسهم" في الشدائد. "أولئك هم الفاسقون" قال ابن جبير: العاصون. وقال ابن زيد: الكاذبون. وأصل الفسق الخروج؛ أي الذين خرجوا عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ أي في الفضل والرتبة "أصحاب الجنة هم الفائزون" أي المقربون المكرمون. وقيل: الناجون من النار. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في "المائدة" عند قوله تعالى: ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ﴾ (المائدة: ١٠٠) وفي سورة "السجدة" عند قوله تعالى: ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ (السجدة: ١٨). وفي سورة "ص" ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (ص: ٢٨) فلا معنى للإعادة، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا ﴾ حث على تأمل مواعظ القرآن وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبر؛ فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة؛ أي متشققة من خشية الله. والخاشع: الذليل. والمتصدع: المتشقق. وقيل: "خاشعا" لله بما كلفه من طاعته. "متصدعاً من خشية الله" أن يعصيه فيعاقبه. وقيل: هو على وجه المثل للكفار. "وتلك الأمثال نضربها للناس لعلـهم يتفكرون" أي أنه لو أنزل هذا القرآن على جبل لخشع لوعده وتصدع لوعيده وأنتم أيها المقهورون بإعجازه لا ترغبون في وعده، ولا ترهبون من وعيده وقيل: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي لو أنزلنا هذا القرآن يا محمد على جبل لما ثبت، وتصدع من نزولـه عليه؛ وقد أنزلناه عليك وثبتناك لـه؛ فيكون ذلك امتنانا عليه أن ثبته لما لا تثبت لـه الجبال. وقيل: إنه خطاب للأمة، وأن الله تعالى لو أنذر بهذا القرآن الجبال لتصدعت من خشية الله. والإنسان أقل قوة وأكثر ثباتا؛ فهو يقوم بحقه إن أطاع، ويقدر على رده إن عصى؛ لأنه موعود بالثواب، ومزجور بالعقاب.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إلـه إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ قال ابن عباس: عالم السر والعلانية. وقيل: ما كان وما يكون. وقال سهل: عالم بالآخرة والدنيا. وقيل: "الغيب" ما لم يعلم العباد ولا عاينوه. "والشهادة" ما علموا وشاهدوا. "هو الرحمن الرحيم".

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هو الله الذي لا إلـه إلا هو الملك القدوس ﴾ أي المنزه عن كل نقص، والطاهر عن كل عيب. والقدس (بالتحريك): السطل بلغة أهل الحجاز؛ لأنه يتطهر به. ومنه القادوس لواحد الأواني التي يستخرج بها الماء من البئر بالسانية. وكان سيبويه يقول: قدوس وسبوح؛ بفتح أولـهما. وحكى أبو حاتم عن يعقوب أنه سمع عند الكسائي أعرابيا فصيحا يكنى أبا الدينار يقرأ "القدوس" بفتح القاف. قال ثعلب: كل اسم على فعول فهو مفتوح الأول؛ مثل سفود وكلوب وتنور وسمور وشبوط، إلا السبوح والقدوس فان الضم فيهما أكثر؛ وقد يفتحان. وكذلك الذروج (بالضم) وقد يفتح. "السلام" أي ذو السلامة من النقائص. وقال ابن العربي: اتفق العلماء رحمة الله عليهم على أن معنى قولنا في الله "السلام": النسبة، تقديره ذو السلامة. ثم اختلفوا في ترجمة النسبة على ثلاثة أقوال: الأول: معناه الذي سلم من كل عيب وبرئ من كل نقص. الثاني: معناه ذو السلام؛ أي

المسلم على عباده في الجنة؛ كما قال: ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ (يس: ٥٨). الثالث: أن معناه الذي سلم الخلق من ظلمه.

قلت: وهذا قول الخطابي؛ وعليه والذي قبله يكون صفة فعل. وعلى أنه البريء من العيوب والنقائص يكون صفة ذات. وقيل: السلام معناه المسلم لعباده.

قوله تعالى: ﴿ المؤمن ﴾ أي المصدق لرسله بإظهار معجزاته عليهم ومصدق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب. وقيل: المؤمن الذي يؤمن أولياءه من عذابه ويؤمن عباده من ظلمه؛ يقال: آمنه من الأمان الذي هو ضد الخوف؛ كما قال تعالى: ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ (قريش: ٤) فهو مؤمن؛ قال النابغة:

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند

وقال مجاهد: المؤمن الذي وحد نفسه بقول: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾ (آل عمران: ١٨). وقال ابن عباس: إذا كان يوم القيامة أخرج أهل التوحيد من النار. وأول من يخرج من وافق اسمه اسم نبي، حتى إذا لم يبق فيها من يوافق اسمه اسم نبي قال الله تعالى لباقيهم: أنتم المسلمون وأنا السلام، وأنتم المؤمنون وأنا المؤمن، فيخرجهم من النار ببركة هذين الاسمين. "المهيمن العزيز" وقال قتادة: المهيمن معناه المشاهد. وقيل: الحافظ. وقال الحسن: المصدق؛ "الجبار" قال ابن عباس: هو العظيم. وجبروت الله عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات، من قولهم: نخلة جبارة. قال امرؤ القيس:

سوامق جبار أثيث فروعه وعالين قنوانا من البسر أحمرا

يعني النخلة التي فاتت اليد. فكان هذا الاسم يدل على عظمة الله وتقديسه عن أن تناله النقائص وصفات الحدث. وقيل: هو من الجبر وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعال من جبر إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير. وقال الفراء: هو من أجبره على الأمر أي قهره. قال: ولم أسمع فعالا من أفعل إلا في جبار ودراك من أدرك. وقيل: الجبار الذي لا تطاق سطوته. "المتكبر" الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله. وقيل: المتكبر عن كل سوء المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم. وأصل الكبر والكبرياء الامتناع وقلة الانقياد. وقال حميد بن ثور:

عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت بها كبرياء الصعب وهي ذلول

والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار)[1]. وقيل: المتكبر معناه العالي. وقيل: معناه الكبير لأنه أجل من أن يتكلف كبرا. وقد يقال: تظلم بمعنى ظلم، وتشتم بمعنى شتم، واستقر بمعنى قر. كذلك المتكبر بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق إذا وصف بتفعل إذا نسب إلى ما لم يكن منه. ثم نزه نفسه فقال: "سبحان الله" أي تنزيها لجلالته وعظمته "عما يشركون".

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٠).

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ "الخالق" هنا المقدر. و"البارئ" المنشئ المخترع. و"المصور" مصور الصور ومركبها على هيئات مختلفة. فالتصوير مرتب على الخلق والبراية وتابع لهما. ومعنى التصوير التخطيط والتشكيل. وخلق الله الإنسان في أرحام الأمهات ثلاث خلق: جحلة علقة، ثم مضغة، ثم جعله صورة وهو التشكيل الذي يكون به صورة وهيئة يعرف بها ويتميز عن غيره بسمتها. فتبارك الله أحسن الخالقين. وقال النابغة:

الخالق البارئ المصور في الـ ـأرحام ماء حتى يصير دما

وقد جعل بعض الناس الخلق بمعنى التصوير، وليس كذلك، وإنما التصوير آخرا والتقدير أولا والبراية بينهما. ومنه قوله الحق: ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير ﴾ (المائدة: ١١٠). وقال زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

يقول: تُقَدِّر ما تُقَدِّر ثم تفريه، أي تمضيه على وفق تقديرك، وغيرك يقدر ما لا يتم له ولا يقع فيه مراده، إما لقصوره في تصور تقديره أو لعجزه عن تمام مراده. وقد أتينا على هذا كله في "الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى" والحمد لله. وعن حاطب بن أبي بلتعة أنه قرأ "البارئ المصور" بفتح الواو ونصب الراء، أي الذي يبرأ المصور، أي يميز ما يصوره بتفاوت الهيئات. ذكره الزمخشري. "له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم" تقدم الكلام فيه. وعن أبي هريرة قال: سألت خليلي أبا القاسم رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم فقال: (يا أبا هريرة، عليك بآخر سورة الحشر فأكثر قراءتها) فأعدت عليه فأعاد علي، فأعدت عليه فأعاد علي[1]. وقال جابر بن زيد: إن اسم الله الأعظم هو الله لمكان هذه الآية. وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)[2]. وعن أبي أمامة قال: قال النبي ﷺ: (من قرأ خواتيم سورة الحشر في ليل أو نهار فقبضه الله في تلك الليلة أو ذلك اليوم فقد أوجب الله له الجنة)[3].

---

(١) "موضوع".

(٢) "موضوع" انظر الموضوعات لابن الجوزي (١/ ٢٣٩و٢٥٦).

(٣) "ضعيف جداً"، أخرجه البيهقي وابن عدي عن أبي أمامة، وانظر ضعيف الجامع (٥٧٨٢).

سورة الممتحنة

مقدمة السورة :

الممتحنة (بكسر الحاء) أي المختبرة، أضيف الفعل إليها مجازا، كما سميت سورة "التوبة" المبعثرة والفاضحة؛ لما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحنة (بفتح الحاء) فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى: ﴿فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن﴾ (الممتحنة: ١٠) الآية. وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف، وولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ عدّى اتخذ إلى مفعولين وهما "عدوكم أولياء". والعدو فعول من عدا، كعفو من عفا. ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجماعة إيقاعه على الواحد. وفي هذه الآية سبع مسائل:

الأولى: روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن علي ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: (ائتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها) فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، فإذا نحن بالمرأة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها. فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: (يا حاطب ما هذا)؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأ ملصقا في قريش - قال سفيان: كان حليفا لهم، ولم يكن من أنفسها - وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي ﷺ: (صدق). فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال: (إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[١] فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾. قيل: اسم المرأة سارة من موالي قريش. وكان في الكتاب: "أما بعد، فإن رسول الله ﷺ قد توجه إليكم بجيش كالليل يسير كالسيل، وأقسم بالله لو لم يسر إليكم إلا وحده لأظفره الله بكم، وأنجز له موعده فيكم، فإن الله وليه وناصره. ذكره بعض المفسرين.

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨٩٠) وفي غير موضع، ومسلم في "فضائل الصحابة"، (٢٤٩٤).

وذكر القشيري والثعلبي: أن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلا من أهل اليمن، وكان لـه حلف بمكة في بني أسد بن عبد العزى رهط الزبير بن العوام. وقيل: كان حليفا للزبير بن العوام، فقدمت من مكة سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام بن عبد مناف إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة. وقيل: كان هذا في زمن الحديبية؛ فقال لـها رسول الله ﷺ: (أمهاجرة جئت يا سارة). فقالت: لا. قال: (أمسلمة جئت) قالت: لا. قال: (فما جاء بك) قالت: كنتم الأهل والموالي والأصل والعشيرة، وقد ذهب الموالي ـ تعني قتلوا يوم بدر ـ وقد احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني؛ فقال ﷺ: (فأين أنت عن شباب أهل مكة) وكانت مغنية، قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر. فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها؛ فكسوها وأعطوها وحملوها فخرجت إلى مكة، وأتاها حاطب فقال: أعطيك عشرة دنانير وبردا على أن تبلغي هذا الكتاب إلى أهل مكة. وكتب في الكتاب: أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت سارة، ونزل جبريل فأخبر النبي ﷺ بذلك، فبعث عليا والزبير وأبا مرثد الغنوي. وفي رواية: عليا والزبير والمقداد. وفي رواية: أرسل علياً وعمار بن ياسر. وفي رواية: عليا وعمارا وعمر والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد ـ وكانوا كلـهم فرسانا ـ وقال لـهم: (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها وخلوا سبيلـها فان لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها) فأدركوها في ذلك المكان، فقالوا لـها: أين الكتاب؟ فحلفت ما معها كتاب، ففتشوا أمتعتها فلم يجدوا معها كتابا، فهموا بالرجوع فقال علي: والله ما كذبنا ولا كذبنا! وسل سيفه وقال: أخرجي الكتاب وإلا والله لأجردنك ولأضربن عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها ـ وفي رواية من حجزتها ـ فخلوا سبيلـها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ. فأرسل إلى حاطب فقال: (هل تعرف الكتاب؟) قال: نعم. وذكر الحديث بنحو ما تقدم[1]. وروي أن النبي ﷺ أمن جميع الناس يوم الفتح إلا أربعة هي أحدهم.

الثانية: السورة أصل في النهي عن موالاة الكفار. وقد مضى ذلك في غير موضع. من ذلك قولـه تعالى: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ (آل عمران: ٢٨). ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ (آل عمران: ١١٨). ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ (المائدة: ٥١). ومثلـه كثير. وذكر أن حاطبا لما سمع "يا أيها الذين آمنوا" غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿تلقون إليهم بالمودة﴾ يعني بالظاهر؛ لأن قلب حاطب كان سليما؛ بدليل أن النبي ﷺ قال لـهم: (أما صاحبكم فقد صدق) وهذا نص في سلامة فؤاده وخلوص اعتقاده. والباء في "بالمودة" زائدة؛ كما تقول: قرأت السورة وقرأت بالسورة، ورميت إليه ما في نفسي وبما في نفسي. ويجوز أن تكون ثابتة على أن مفعول "تلقون" محذوف؛ معناه تلقون إليهم أخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم. وكذلك "تسرون إليهم بالمودة" أي بسبب المودة. وقال الفراء:

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٤٦) بنحوه من طريق معمر عن الزهري عن عروة مرسلا.

"تلقون إليهم بالمودة" من صلة "أولياء" ودخول الباء في المودة وخروجها سواء. ويجوز أن تتعلق بـ "لا تتخذوا" حالا من ضميره. و"أولياء" صفة لـه، ويجوز أن تكون استئنافا. ومعنى "تلقون إليهم بالمودة" تخبرونهم بسرائر المسلمين وتنصحون لـهم؛ وقالـه الزجاج.

الرابعة: من كثر تطلعه على عورات المسلمين وينبه عليهم ويعرف عدوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعلـه لغرض دنيوي واعتقاده على ذلك سليم؛ كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد ولم ينو الردة عن الدين.

الخامسة: إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدا أم لا؟ اختلف الناس فيه؛ فقال مالك وابن القاسم وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام. وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قتل، لأنه جاسوس، وقد قال مالك بقتل الجاسوس - وهو صحيح لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض. ولعل ابن الماجشون إنما اتخذ التكرار في هذا لأن حاطبا أخذ في أول فعلـه.

السادسة: فإن كان الجاسوس كافرا فقال الأوزاعي: يكون نقضا لعهده. وقال أصبغ: الجاسوس الحربي يقتل، والجاسوس المسلم والذمي يعاقبان إلا إن تظاهرا على الإسلام فيقتلان. وقد روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أن النبي ﷺ أتي بعين للمشركين اسمه فرات بن حيان، فأمر به أن يقتل؛ فصاح: يا معشر الأنصار، أقتل وأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله! فأمر به النبي ﷺ فخلى سبيلـه. ثم قال: (إن منكم من أكلُه إلى إيمانه منهم فرات بن حيان)[1]. وقولـه: "وقد كفروا" حال، إما من "لا تتخذوا" وإما من "تلقون" أي لا تتولوهم أو توادوهم، وهذه حالـهم. وقرأ الجحدري "لما جاءكم" أي كفروا لأجل ما جاءكم من الحق.

السابعة: قولـه تعالى: ﴿ يخرجون الرسول ﴾ استئناف كلام كالتفسير لكفرهم وعتوهم، أو حال من "كفروا". "وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم" تعليل لـ "يخرجون" المعنى يخرجون الرسول ويخرجونكم من مكة لأن تؤمنوا بالله أي لأجل إيمانكم بالله. قال ابن عباس: وكان حاطب ممن أخرج مع النبي ﷺ. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي. وقيل: في الكلام حذف، والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي، فلا تلقوا إليهم بالمودة. وقيل: "إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي" شرط وجوابه مقدم. والمعنى إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي فلا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. ونصب "جهادا" و"ابتغاء" لأنه مفعول. وقولـه: "تسرون إليهم بالمودة" بدل من "تلقون" ومبين عنه. والأفعال تبدل من الأفعال، كما قال تعالى: ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف لـه العذاب ﴾ (الفرقان: ٦٨). وأنشد سيبويه:

متى تأتنا تلـمم بنا في ديارنا تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقيل: هو على تقدير أنتم تسرون إليهم بالمودة، فيكون استئنافا. وهذا كلـه معاتبة لحاطب. وهو يدل على فضلـه وكرامته ونصيحته لرسول الله ﷺ وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه. كما قال:

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٢٣١٠).

أعاتب ذا المودة من صديق إذا ما رابني منه اجتناب
إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقي العتاب

ومعنى "بالمودة" أي بالنصيحة في الكتاب إليهم. والباء زائدة كما ذكرنا، أو ثابتة غير زائدة.

قوله تعالى: ﴿وأنا أعلم بما أخفيتم﴾ أضمرتم "وما أعلنتم" أظهرتم. والباء في "بما" زائدة؛ يقال: علمت كذا وعلمت بكذا. وقيل: وأنا أعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون، فحذف من كل أحد. كما يقال: فلان أعلم وأفضل من غيره. وقال ابن عباس: وأنا أعلم بما أخفيتم في صدوركم، وما أظهرتم بألسنتكم من الإقرار والتوحيد. "ومن يفعله منكم" أي من يسر إليهم ويكاتبهم منكم "فقد ضل سواء السبيل" أي أخطأ قصد الطريق.

قوله تعالى: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن يثقفوكم﴾ يلقوكم ويصادفوكم؛ ومنه المثاقفة؛ أي طلب مصادفة الغرة في المسايفة وشبهها. وقيل: "يثقفوكم" يظفروا بكم ويتمكنوا منكم "يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء" أي أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالشتم. "وودوا لو تكفرون" بمحمد؛ فلا تناصحوهم فإنهم لا يناصحونكم.

قوله تعالى: ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ﴾ لما اعتذر حاطب بأن له أولادا وأرحاما فيما بينهم، بيّن الرب عز وجل أن الأهل والأولاد لا ينفعون شيئا يوم القيامة إن عصي من أجل ذلك. "يفصل بينكم" فيدخل المؤمنين الجنة ويدخل الكافرين النار. وفي "يفصل" قراءات سبع: قرأ عاصم "يفصل" بفتح الياء وكسر الصاد مخففا. وقرأ حمزة والكسائي مشددا إلا أنه على ما لم يسم فاعله. وقرأ طلحة والنخعي بالنون وكسر الصاد مشددة. وروي عن علقمة كذلك بالنون مخففة. وقرأ قتادة وأبو حيوة "يفصل" بضم الياء وكسر الصاد مخففة من أفصل. وقرأ الباقون "يفصل" بياء مضمومة وتخفيف الفاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، واختاره أبو عبيد. فمن خفف فلقوله: ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ (الأنعام: ٥٧) وقوله: ﴿ إن يوم الفصل ﴾ (الدخان: ٤٠). ومن شدد فلأن ذلك أبين في الفعل الكثير المكرر المتردد. ومن أتى به على ما لم يسم فاعله فلأن الفاعل معروف. ومن أتى به مسمى الفاعل رد الضمير إلى الله تعالى. ومن قرأ بالنون فعلى التعظيم. "والله بما تعملون بصير".

قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ لما نهى عز وجل عن موالاة الكفار ذكر قصة إبراهيم عليه السلام، وأن من سيرته التبرؤ من الكفار؛ أي فاقتدوا به وأتموا؛ إلا في استغفاره لأبيه. والإِسْوَةُ والأُسْوَة ما يتأسى به، مثل القِدْوة والقُدْوة. ويقال: هو إسوتك؛ أي مثلك وأنت مثله. وقرأ عاصم "أسوة" بضم الهمزة لغتان. "والذين معه" يعني أصحاب إبراهيم من المؤمنين. وقال ابن زيد: هم الأنبياء "إذ قالوا لقومهم" الكفار "إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله" أي الأصنام. وبرآء جمع بريء؛ مثل شريك وشركاء، وظريف وظرفاء. وقراءة العامة على وزن فعلاء. وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق "براء" بكسر الباء على وزن فعال؛ مثل قصير وقصار، وطويل وطوال، وظريف وظراف. ويجوز ترك الهمزة حتى تقول: برا؛ وتنون. وقرئ "براء" على الوصف بالمصدر. وقرئ "براء" على إبدال الضم من الكسر؛ كرخال ورباب. والآية نص في الأمر بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام في فعله. وذلك يصحح أن شرع من قبلنا شرع لنا فيما أخبر الله ورسوله. "كفرنا بكم" أي بما آمنتم به من الأوثان. وقيل: أي بأفعالكم وكذبناها وأنكرنا أن تكونوا على حق. "وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا" أي هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم "حتى تؤمنوا بالله وحده" فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة "إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك" فلا تتأسوا به في الاستغفار فتستغفرون للمشركين؛ فإنه كان عن موعدة منه له، قاله قتادة ومجاهد وغيرهما. وقيل: معنى الاستثناء أن إبراهيم هجر قومه وباعدهم إلا في الاستغفار لأبيه، ثم بين عذره في سورة "التوبة".

وفي هذا دلالة على تفضيل نبينا ﷺ على سائر الأنبياء؛ لأنا حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمرا مطلقا في قوله تعالى: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر: ٧) وحين أمرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام استثنى بعض أفعاله. وقيل: هو استثناء منقطع؛ أي لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، إنما جرى لأنه ظن أنه أسلم، فلما بان له أنه لم يسلم تبرأ منه. وعلى هذا يجوز الاستغفار لمن يظن أنه أسلم؛ وأنتم لم تجدوا مثل هذا الظن، فلم توالوهم. "وما أملك لك من الله من شيء" هذا من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ أي ما أدفع عنك من عذاب الله شيئا إن أشركت به. "ربنا عليك توكلنا" هذا من دعاء إبراهيم عليه السلام وأصحابه. وقيل: علم المؤمنين أن يقولوا هذا. أي تبرؤوا من الكفار وتوكلوا على الله وقولوا: "ربنا عليك توكلنا" أي اعتمدنا "وإليك أنبنا" أي رجعنا "وإليك المصير" لك الرجوع في الآخرة "ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا" أي لا تظهر عدونا علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك. وقيل: لا تسلطهم علينا فيفتنونا ويعذبونا. "واغفر لنا" ذنوبنا "ربنا إنك أنت العزيز الحكيم".

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لقد كان لكم فيهم ﴾ أي في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء. "أسوة حسنة" أي في التبرؤ من الكفار. وقيل: كرر للتأكيد. وقيل: نزل الثاني بعد الأول بمدة؛ وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه. "ومن يتول" أي عن الإسلام وقبول هذه المواعظ "فإن الله هو الغني" أي لم يتعبدهم لحاجته إليهم. "الحميد" في نفسه وصفاته. ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين فعلم الله شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: "عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة" وهذا بأن يسلم الكافر. وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون؛ كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وقيل: المودة تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان؛ فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة. قال ابن عباس: كانت المودة بعد الفتح تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان؛ وكانت تحت عبد الله بن جحش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة. فأما زوجها فتنصر وسألها أن تتابعه على دينه فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية. فبعث النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها؛ فقال النجاشي لأصحابه: من أولاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص. قال فزوجها من نبيكم. ففعل؛ وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار[1]. وقيل: خطبها النبي ﷺ إلى عثمان بن عفان، فلما زوجه إياها بعث إلى النجاشي فيها؛ فساق عنه المهر وبعث بها إليه. فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبي ﷺ ابنته: ذلك الفحل لا يقدع أنفه. "يقدع" بالدال غير المعجمة؛ يقال: هذا فحل لا يقدع أنفه؛ أي لا يضرب أنفه. وذلك إذا كان كريما.

قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: هذه الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم. قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ. قال قتادة: نسختها ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (التوبة: ٥). وقيل: كان هذا الحكم لعلة وهو الصلح، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم وبقي الرسم يتلى. وقيل: هي مخصوصة في حلفاء النبي ﷺ ومن بينه وبينه عهد لم ينقضه؛ قال الحسن. الكلبي: هم خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف. وقاله أبو صالح، وقال: هم خزاعة. وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا. وقيل: يعني

---

(١) صحيح.

به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقاتل؛ فأذن الله في برهم. حكاه بعض المفسرين. وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة. واحتجوا بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: (نعم) خرجه البخاري ومسلم(١). وقيل: إن الآية فيها نزلت. روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه: أن أبا بكر الصديق طلق امرأته قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبي بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قرطا وأشياء؛ فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾. ذكر هذا الخبر الماوردي وغيره، وخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده(٢).

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أن تبروهم ﴾ "أن" في موضع خفض على البدل من "الذين"؛ أي لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم يقاتلوكم. وهم خزاعة، صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا؛ فأمر ببرهم والوفاء لهم إلى أجلهم؛ حكاه الفراء. "وتقسطوا إليهم" أي تعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة. وليس يريد به من العدل؛ فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل؛ قاله ابن العربي.

الثالثة: قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له: استدل به بعض من تعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر. وهذه وهلة عظيمة، إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدل على وجوبه، وإنما يعطيك الإباحة خاصة. وقد بينا أن إسماعيل بن إسحاق القاضي دخل عليه ذمي فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك؛ فتلا هذه الآية عليهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ﴾ أي جاهدوكم على الدين "وأخرجوكم من دياركم" وهم عتاة أهل مكة. "وظاهروا على إخراجكم" أي عاونوا على إخراجكم وهم مشركو أهل مكة "أن تولوهم" "أن" في موضع جر على البدل على ما تقدم في "أن تبروهم". "ومن يتولهم" أي يتخذهم أولياء وأنصارا وأحبابا "فأولئك هم الظالمون".

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) وكذا الحاكم في "المستدرك"، (٢ / ٤٨٥، ٤٨٦)، وصححه وأقره الذهبي.

قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات ﴾ لما أمر المسلمين بترك موالاة المشركين اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة؛ فبيّن أحكام مهاجرة النساء. قال ابن عباس: جرى الصلح مع مشركي قريش عام الحديبية، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية بعد؛ فأقبل زوجها وكان كافرا ـ وهو صيفي بن الراهب. وقيل: مسافر المخزومي ـ فقال: يا محمد، اردد علي امرأتي فإنك شرطت ذلك! وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلـها يسألون رسول الله ﷺ أن يردها. وقيل: هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها عمارة والوليد، فرد رسول الله ﷺ أخويها وحبسها، فقالوا للنبي ﷺ: ردها علينا للشرط، فقال ﷺ: (كان الشرط في الرجال لا في النساء)[1] فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعن عروة قال: كان مما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ يوم الحديبية: ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، حتى أنزل الله تعالى في المؤمنات ما أنزل؛ يومئ إلى أن الشرط في رد النساء نسخ بذلك. وقيل: إن التي جاءت أميمة بنت بشر، كانت عند ثابت بن الشمراخ ففرت منه وهو يومئذ كافر، فتزوجها سهل بن حنيف فولدت لـه عبد الله، قاله زيد بن حبيب. كذا قال الماوردي: أميمة بنت بشر كانت عند ثابت بن الشمراخ. وقال المهدوي: وروى ابن وهب عن خالد أن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر من بني عمرو بن عوف. وهي امرأة حسان بن الدحداح، وتزوجها بعد هجرتها سهل بن حنيف. وقال مقاتل: إنها سعيدة زوجة صيفي بن الراهب مشرك من أهل مكة. والأكثر من أهل العلم أنها أم كلثوم بنت عقبة.

الثانية: واختلف أهل العلم هل دخل النساء في عقد المهادنة لفظا أو عموما؛ فقالت طائفة منهم: قد كان شرط ردهن في عقد المهادنة لفظا صريحا فنسخ الله ردهن من العقد ومنع منه، وبقاه في الرجال على ما كان. وهذا يدل على أن للنبي ﷺ أن يجتهد رأيه في الأحكام، ولكن لا يقره الله على خطأ. وقالت طائفة من أهل العلم: لم يشترط ردهن في العقد لفظا، وإنما أطلق العقد في رد من أسلم؛ فكان ظاهر العموم اشتمالـه عليهن مع الرجال. فبيّن الله تعالى خروجهن عن عمومه. وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين: أحدهما: أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم. الثاني: أنهن أرق قلوبا وأسرع تقلبا منهم. فأما المقيمة منهن على شركها فمردودة عليهم.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فامتحنوهن ﴾ قيل: إنه كان من أرادت منهن إضرار زوجها فقالت: سأهاجر إلى محمد ﷺ؛ فلذلك أمر ﷺ بامتحانهن. واختلف فيما كان يمتحنهن به على ثلاث أقوال:

الأول: قال ابن عباس: كانت المحنة أن تستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل منا؛ بل حبا لله ولرسولـه. فإذا حلفت بالله الذي لا إلـه إلا هو على ذلك، أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها؛ فذلك

(١) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٣٠٦)، وعزاه إلى الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف، عن عبد الله بن أبي أحمد.

قولـه تعالـى: ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لـهم ولا هم يحلون لهن ﴾.

الثاني: أن المحنة كانت أن تشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ قالـه ابن عباس أيضا.

الثالث: بما بيّنه في السورة بعد من قولـه تعالـى: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ (الممتحنة: ١٢) قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان رسول الله ﷺ يمتحن إلا بالآية التي قال الله: ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ (الممتحنة: ١٢) رواه معمر عن الزهري عن عائشة. خرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح[١].

الرابعة: أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان ﷺ عاهد عليه قريشا، من أنه يرد إليهم من جاءه منهم مسلما؛ فنُسِخ من ذلك النساء. وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن. وقال بعض العلماء: كلـه منسوخ في الرَجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمام العدو على أن يرد إليهم من جاءه مسلما، لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز. وهذا مذهب الكوفيين. وعقد الصلح على ذلك جائز عند مالك. وقد احتج الكوفيون لما ذهبوا إليه من ذلك بحديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى قوم من خثعم فاعتصموا بالسجود فقتلـهم، فوداهم رسول الله ﷺ بنصف الدية، وقال: (أنا بريء من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تراءى نارهما)[٢] قالوا: فهذا ناسخ لرد المسلمين إلى المشركين، إذ كان رسول الله ﷺ قد بـرئ ممن أقام معهم في دار الحرب. ومذهب مالك والشافعي أن هذا الحكم غير منسوخ. قال الشافعي: وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره، لأنه يلي الأموال كلـها. فمن عقد غير الخليفة هذا العقد فهو مردود.

الخامسة: قولـه تعالى: ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ أي هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن، لأنه متولي السرائر. "فإن علمتموهن مؤمنات" أي بما يظهر من الإيمان. وقيل: إن علمتموهن مؤمنات قبل الامتحان "فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لـهم ولا هم يحلون لـهن" أي لم يحل الله مؤمنة لكافر، ولا نكاح مؤمن لمشركة.

وهذا أدل دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامها لا هجرتها. وقال أبو حنيفة: الذي فرق بينهما هو اختلاف الدارين. وإليه إشارة في مذهب مالك بل عبارة. والصحيح الأول، لأن الله تعالى قال: ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ فبيّن أن العلة عدم الحل بالإسلام وليس باختلاف الدار. والله أعلم. وقال أبو عمر: لا فرق بين الدارين لا في الكتاب ولا في السنة ولا في القياس، وإنما المراعاة في ذلك الدينان، فباختلافهما يقع الحكم وباجتماعهما، لا بالدار. والله المستعان.

السادسة: قولـه تعالى: ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ أمر الله تعالى إذا أمْسكت المرأة المسلمة أن يُرَدّ على زوجها ما أنفق وذلك من الوفاء بالعهد، لأنه لما منع من أهلـه بحرمة الإسْلام، أمر برد المال إليـه حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال.

---

(١) صحيح، وأخرجه أيضا البخاري في "التفسير"، (٤٨٩١١) مطولاً.

(٢) "صحيح" أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما، وانظر صحيح أبي داود (٢٣٠٤).

السابعة: ولا غرم إلا إذا طالب الزوج الكافر، فإذا حضر وطالب منعناها وغرمنا. فإن كانت ماتت قبل حضور الزوج لم نغرم المهر إذ لم يتحقق المنع. وإن كان المسمى خمرا أو خنزيرا لم نغرم شيئا، لأنه لا قيمة لـه. وللشافعي في هذه الآية قولان: أحدهما: أن هذا منسوخ. قال الشافعي: وإذا جاءتنا المرأة الحرة من أهل الـهدنة مسلمة مهاجرة من دار الحرب إلى الإمام في دار السلام أو في دار الحرب، فمن طلبها من ولي سوى زوجها مُنع منها بلا عوض. وإذا طلبها زوجها لنفسه أو غيره بوكالته ففيه قولان: أحدهما: يعطى العوض، والقول ما قال الله عز وجل، وفيه قول آخر: أنه لا يعطى الزوج المشرك الذي جاءت زوجته مسلمة العوض. فإن شرط الإمام رد النساء كان الشرط ورسول الله ﷺ ألا يرد النساء كان شرط من شرط رد النساء منسوخا وليس عليه عوض، لأن الشرط المنسوخ باطل ولا عوض للباطل.

الثامنة: أمر الله تعالى برد مثل ما أنفقوا إلى الأزواج، وأن المخاطب بهذا الإمام، ينفذ مما بين يديه من بيت المال الذي لا يتعين لـه مصرف. وقال مقاتل: يرد المهر الذي يتزوجها من المسلمين، فإن لم يتزوجها من المسلمين أحد فليس لزوجها الكافر شيء. وقال قتادة: الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد؛ فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليهم الصداق. والأمر كما قالـه.

التاسعة: قولـه تعالى: ﴿ولا جناح عليكم أن تنكحوهن﴾ يعني إذا أسلمن وانقضت عدتهن لما ثبت من تحريم نكاح المشركة والمعتدة. فإن أسلمت قبل الدخول ثبت النكاح في الحال ولـها التزوج.

العاشرة: قولـه تعالى: ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أباح نكاحها بشرط المهر؛ لأن الإسلام فرق بينها وبين زوجها الكافر.

الحادية عشرة: قولـه تعالى: ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ قراءة العامة بالتخفيف من الإمساك. وهو اختيار أبي عبيد لقولـه تعالى: ﴿ فأمسكوهن بمعروف ﴾ (البقرة: ٢٣١). وقرأ الحسن وأبو العالية وأبو عمرو "ولا تمسكوا" مشددة من التمسك. يقال: مسك يمسك تمسكا؛ بمعنى أمسك يمسك. وقرئ "ولا تمسكوا" بنصب التاء؛ أي لا تتمسكوا. والعصم جمع العصمة؛ وهو ما اعتصم به. والمراد بالعصمة هنا النكاح. يقول: من كانت لـه امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها، فليست لـه امرأة، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين. وعن النخعي: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر؛ وكان الكفار يتزوجون المسلمات والمسلمون يتزوجون المشركات؛ ثم نسخ ذلك في هذه الآية. فطلق عمر بن الخطاب حينئذ امرأتين لـه بمكة مشركتين: قريبة بنت أبي أمية فتزوجها معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة. وأم كلثوم بنت عمرو الخزاعية أم عبد الله بـن المغيرة؛ فتزوجها أبو جهم بن حذافة وهما على شركهما. فلما ولي عمر قال أبو سفيان لمعاوية: طلق قريبة لئلا يرى عمر سلبه في بيتك، فأبى معاوية من ذلك. وكانت عند طلحة بن عبيد الله أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ففرق الإسلام بينهما، ثم تزوجها في الإسلام خالد بن سعيد بن العاص، وكانت ممن فر إلى النبي ﷺ من نساء الكفار، فحبسها وزوجها خالدا. وزوج النبي ﷺ زينب ابنته ـ وكانت كافرة ـ من أبي العاص بن الربيع، ثم أسلمت وأسلم زوجها بعدها. ذكر عبد الرزاق عن ابن جريج عن رجل عن ابن شهاب قال: أسلمت زينب بنت النبي ﷺ وهاجرت بعد النبي ﷺ في الـهجرة الأولى، وزوجها أبو العاص بن الربيع عبد العزى مشرك بمكة. الحديث. وفيه: أنه أسلم بعدها.

وكذلك قال الشعبي. قال الشعبي: وكانت زينب بنت رسول الله ﷺ امرأة أبي العاص بن الربيع، فأسلمت ثم لحقت بالنبي ﷺ ثم أتى زوجها المدينة فأمنته فأسلم فردها عليه النبي ﷺ. وقال أبو داود عن عكرمة عن ابن عباس: بالنكاح الأول؛ ولم يحدث شيئا. قال محمد بن عمر في حديثه: بعد ست سنين. وقال الحسن بن علي: بعد سنتين. قال أبو عمر: فإن صح هذا فلا يخلو من وجهين: إما أنها لم تحض حتى أسلم زوجها، وإما أن الأمر فيها منسوخ بقول الله عز وجل: ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ﴾ (البقرة: ٢٢٨) يعني في عدتهن. وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء أنه عني به العدة. وقال ابن شهاب الزهري رحمه الله في قصة زينب هذه: كان قبل أن تنزل الفرائض. وقال قتادة: كان هذا قبل أن تنزل سورة "التوبة" بقطع العهود بينهم وبين المشركين. والله اعلم.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ بعصم الكوافر ﴾ المراد بالكوافر هنا عبدة الأوثان من لا يجوز ابتداء نكاحها، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب. وقيل: هي عامة، نسخ منها نساء أهل الكتاب. ولو كان إلى ظاهر الآية لم تحل كافرة بوجه. وعلى القول الأول إذا أسلم وثني أو مجوسي ولم تسلم امرأته فرق بينهما. وهذا قول بعض أهل العلم. ومنهم من قال: ينتظر بها تمام العدة. فمن قال يفرق بينهما في الوقت ولا ينتظر تمام العدة إذا عرض عليها الإسلام ولم تسلم ـ مالك بن أنس. وهو قول الحسن وطاوس ومجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحكم، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾. وقال الزهري: ينتظر بها العدة. وهو قول الشافعي وأحمد. واحتجوا بأن أبا سفيان بن حرب أسلم قبل هند بنت عتبة امرأته، وكان إسلامه بمر الظهران ثم رجع إلى مكة وهند بها كافرة مقيمة على كفرها، فأخذت بلحيته وقالت: اقتلوا الشيخ الضال. ثم أسلمت بعده بأيام، فاستقرا على نكاحهما لأن عدتها لم تكن انقضت. قالوا: ومثله حكيم بن حزام أسلم قبل امرأته، ثم أسلمت بعده فكانا على نكاحهما. قال الشافعي: ولا حجة لمن احتج بقوله تعالى: ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ لأن نساء المسلمين محرمات على الكفار؛ كما أن المسلمين لا تحل لهم الكوافر والوثنيات ولا المجوسيات بقول الله عز وجل: ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ ثم بيّنت السنة أن مراد الله من قوله هذا أنه لا يحل بعضهم لبعض إلا أن يسلم الباقي منهما في العدة. وأما الكوفيون وهم سفيان وأبو حنيفة وأصحابه فإنهم قالوا في الكافرين الذميين: إذا أسلمت المرأة عرض على الزوج الإسلام، فإن أسلم وإلا فرق بينهما. قالوا: ولو كانا حربيين فهي امرأته حتى تحيض ثلاث حيض إذا كانا جميعا في دار الحرب أو في دار الإسلام. وإن كان أحدهما في دار الإسلام والآخر في دار الحرب انقطعت العصمة بينهما فراعوا الدار؛ وليس بشيء. وقد تقدم.

الثالثة عشرة: هذا الاختلاف إنما هو في المدخول بها، فإن كانت غير مدخول بها فلا نعلم اختلافا في انقطاع العصمة بينهما؛ إذ لا عدة عليها. كذا يقول مالك في المرأة ترتد وزوجها مسلم: انقطعت العصمة بينهما. وحجته "ولا تمسكوا بعصم الكوافر" وهو قول الحسن البصري والحسن بن صالح ابن حي. ومذهب الشافعي وأحمد أنه ينتظر بها تمام العدة.

الرابعة عشرة: فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة ففيها أيضا اختلاف. ومذهب مالك وأحمد والشافعي الوقوف إلى تمام العدة. وهو قول مجاهد. وكذا الوثني تسلم زوجته، إنه إن أسلم في

عدتها فهو أحق بها؛ كما كان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل أحق بزوجتيهما لما أسلما في عدتيهما؛ على حديث ابن شهاب. ذكره مالك في الموطأ. قال ابن شهاب: كان بين إسلام صفوان وبين إسلام زوجته نحو من شهر. قال ابن شهاب: ولم يبلغنا أن امرأة هاجرت إلى رسول الله ﷺ وزوجها كافر مقيم بدار الحرب إلا فرقت هجرتها بينه وبينها؛ إلا أن يقدم زوجها مهاجرا قبل أن تنقضي عدتها. ومن العلماء من قال: ينفسخ النكاح بينهما. قال يزيد بن علقمة: أسلم جدي ولم تسلم جدتي ففرق عمر بينهما رضي الله عنه؛ وهو قول طاوس. وجماعة غيره منهم عطاء والحسن وعكرمة قالوا: لا سبيل عليها إلا بخطبة.

الخامسة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة: ردوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نصفا وعدلا بين الحالتين. وكان هذا حكم الله مخصوصا بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة؛ قاله ابن العربي.

السادسة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ ذلكم حكم الله ﴾ أي ما ذكر في هذه الآية هو حكم الله. "يحكم بينكم والله عليم حكيم". تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم ﴾ في الخبر: أن المسلمين قالوا: رضينا بما حكم الله؛ وكتبوا إلى المشركين فامتنعوا فنزلت: "وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا". وروى الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: حكم الله عز وجل بينكم فقال جل ثناؤه: "واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا" فكتب إليهم المسلمون: قد حكم الله عز وجل بيننا بأنه إن جاءتكم امرأة منا أن توجهوا إلينا بصداقها، وإن جاءتنا امرأة منكم وجهنا إليكم بصداقها. فكتبوا إليهم: أما نحن فلا نعلم لكم عندنا شيئا، فإن كان لنا عندكم شيء فوجهوا به، فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾. وقال ابن عباس في قولـه تعالى: ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ أي بين المسلمين والكفار من أهل العهد من أهل مكة يرد بعضهم إلى بعض. قال الزهري: ولولا العهد لأمسك النساء ولم يرد إليهم صداقا. وقال قتادة ومجاهد: إنما أمروا أن يعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء والغنيمة. وقالا: هي فيمن بيننا وبينه عهد وليس بيننا وبينه عهد. وقالا: ومعنى "فعاقبتم" فاقتصصتم. "فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا" يعني الصدقات. فهي عامة في جميع الكفار. وقال قتادة أيضا: وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار

الذين بينكم وبينهم عهد، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا. ثم نسخ هذا في سورة "التوبة". وقال الزهري: انقطع هذا عام الفتح. وقال سفيان الثوري: لا يعمل به اليوم. وقال قوم: هو ثابت الحكم الآن أيضا. حكاه القشيري.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فعاقبتم ﴾ قراءة العامة "فعاقبتم" وقرأ علقمة والنخعي وحميد والأعرج "فعقبتم" مشددة. وقرأ مجاهد "فأعقبتم" وقال: صنعتم كما صنعوا بكم. وقرأ الزهري "فعقبتم" خفيفة بغير ألف. وقرأ مسروق وشقيق بن سلمة "فعقبتم" بكسر القاف خفيفة. وقال: غنمتم. وكلـها لغات بمعنى واحد. يقال: عاقب وعَقَب وعقّب وأعقب وتعقّب واعتقب وتعاقب إذا غنم. وقال القتبي "فعاقبتم" فغزوتم معاقبين غزوا بعد غزو. وقال ابن بحر: أي فعاقبتم المرتدة بالقتل فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ قال ابن عباس: يقول إن لحقت امرأة مؤمنة بكفار أهل مكة، وليس بينكم وبينهم عهد ولـها زوج مسلم قبلكم فغنمتم، فأعطوا هذا الزوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمس. وقال الزهري: يُعْطَى من مال الفيء. وعنه يعطى من صداق من لحق بنا. وقيل: أي إن امتنعوا من أن يغرموا مهر هذه المرأة التي ذهبت إليهم، فانبذوا العهد إليهم حتى إذا ظفرتم فخذوا ذلك منهم. قال الأعمش: هي منسوخة. وقال عطاء: بل حكمها ثابت. وقد تقدم جميع هذا. القشيري: والآية نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان، ارتدت وتركت زوجها عياض بن غنم القرشي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام. وحكى الثعلبي عن ابن عباس: هن ست نسوة رجعن عن الإسلام ولحقن بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين: أم الحكم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن أبي شداد الفهري. وفاطمة بنت أبي أمية ابن المغيرة أخت أم سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب، فلما هاجر عمر أبت وارتدت. وبروع بنت عقبة، كانت تحت شماس بن عثمان. وعبدة بنت عبد العزى، كانت تحت هشام بن العاص. وأم كلثوم بنت جرول تحت عمر بن الخطاب. وشهبة بنت غيلان. فأعطاهم النبي ﷺ مهور نسائهم من الغنيمة. "واتقوا الله" احذروا أن تتعدوا ما أمرتم به.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ فيه ثماني مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك﴾ لما فتح رسول الله ﷺ مكة جاء نساء أهل مكة يبايعنه، فأمر أن يأخذ عليهن ألا يشركن. وفي صحيح مسلم عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحن بقول الله تعالى: ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك

المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ﴾ إلى آخر الآية . قالت عائشة : فمن أقر بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله ﷺ: (انطلقن فقد بايعتكن) ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام . قالت عائشة : والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله عز وجل، وما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط؛ وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن (قد بايعتكن كلاما)[١]. وروي أنه عليه الصلاة والسلام بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب، وكان يشترط عليهن[٢]. وقيل : لما فرغ من بيعة الرجال جلس على الصفا ومعه عمر أسفل منه، فجعل يشترط على النساء البيعة وعمر يصافحهن[٣]. وروي أنه كلف امرأة وقفت على الصفا فبايعتهن. ابن العربي : وذلك ضعيف، وإنما ينبغي التعويل على ما في الصحيح. وقالت أم عطية: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب، فقام على الباب فسلم فرددن عليه لسلام، فقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكن؛ ألا تشركن بالله شيئا. فقلن: نعم. فمد يده من خارج البيت ومددنا أيدينا من داخل البيت؛ ثم قال: اللهم اشهد[٤]. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ كان إذا بايع النساء دعا بقدح من ماء، فغمس يده فيه ثم أمر النساء فغمسن أيديهن فيه[٥].

الثانية: روي أن النبي ﷺ لما قال: (على ألا يشركن بالله شيئا) قالت هند بنت عتبة وهي منتقبة خوفا من النبي ﷺ أن يعرفها لما صنعته بحمزة يوم أُحُد: والله إنك لتأخذ علينا أمرا ما رأيتك أخذته على الرجال وكان بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ـ فقال النبي ﷺ: (ولا يسرقن) فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصيب من ماله قوتنا. فقال أبو سفيان: هو لك حلال. فضحك النبي ﷺ وعرفها وقال: (أنت هند)؟ فقالت: عفا الله عما سلف. ثم قال: (ولا يزنين) فقالت هند: أو تزني الحرة! ثم قال: (ولا يقتلن أولادهن) أي لا يئدن الموؤودات ولا يسقطن الأجنة. فقالت هند: ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يوم بدر، فأنتم وهم أبصر. وروى مقاتل أنها قالت: ربيناهم صغارا وقتلتموهم كبارا، وأنتم وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى. وكان حنظلة بن أبي سفيان وهو بكرها قتل يوم بدر. ثم قال: "ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف" قيل: معنى "بين أيديهن" ألسنتهن بالنميمة. ومعنى بين "أرجلهن" فروجهن. وقيل: ما كان بين أيديهن من قبلة أو جسة، وبين أرجلهن الجماع وقيل: المعنى لا يلحقن برجالهن ولدا من غيرهم. وهذا قول الجمهور. وكانت المرأة تلتقط ولدا فتلحقه

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨٩١)، ومسلم في "الإمارة"، (١٨٦٦).

(٢) ذكره بنحوه الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٥٠٥)، وقال: "أخرجه يحيى بن سلام في تفسيره عن الشعبي" يعني مرسلا.

(٣) أشار إليه الحافظ في المصدر السابق، وعزاه إلى الطبراني. وهو ضعيف.

(٤) ذكره الحافظ في نفس المصدر وعزاه إلى ابن خزيمة وابن حبان والبزار والطبري وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عبد الرحمن عن جدته أم عطية. ثم تأوله بقوله: ويمكن الجواب بأن مد الأيدي من وراء الحجاب إشارة إلى وقوع المبايعة، وإن لم تقع مصافحة.

(٥) ذكره الحافظ في "الفتح"، (٨/ ٥٠٥) وعزاه إلى ابن إسحاق في المغازي عن أبان بن صالح مرسلا.

بزوجها وتقول: هذا ولدي منك. فكان هذا من البهتان والافتراء. وقيل: ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد؛ لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها. وهذا عام في الإتيان بولد وإلحاقه بالزوج وإن سبق النهي عن الزنى.

وروي أن هندا لما سمعت ذلك قالت: والله إن البهتان لأمر قبيح؛ ما تأمر إلا بالأرشد ومكارم الأخلاق!. ثم قال: "ولا يعصينك في معروف" قال قتادة: لا ينحن. ولا تخلو امرأة منهن إلا بذي محرم. وقال سعيد بن المسيب، ومحمد بن السائب وزيد بن أسلم: هو إلا يخمشن وجها. ولا يشققن جيبا، ولا يدعون ويلا ولا ينشرن شعرا ولا يحدثن الرجال إلا ذا محرم. وروت أم عطية عن النبي ﷺ أن ذلك في النوح. وهو قول ابن عباس. وروى شهر بن حوشب عن أم سلمة عن النبي ﷺ "ولا يعصينك في معروف" فقال: (هو النوح)[١]. وقال مصعب بن نوح: أدركت عجوزا ممن بايع النبي ﷺ، فحدثتني عنه عليه الصلاة والسلام في قوله: "ولا يعصينك في معروف" فقال: (النوح)[٢]. وفي صحيح مسلم عن أم عطية لما نزلت هذه الآية: "يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ـ إلى قوله ـ ولا يعصينك في معروف" قال: (كان منه النياحة) قالت: فقلت يا رسول الله، إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية؛ فلا بد لي من أن أسعدهم. فقال رسول الله ﷺ: (إلا آل فلان)[٣]. وعنها قالت: أخذ علينا رسول الله ﷺ مع البيعة ألا ننوح؛ فما وفت منا امرأة إلا خمس: أم سليم، وأم العلاء، وابنه أبي سبرة امرأة معاذ أو ابنة أبي سبرة، وامرأة معاذ. وقيل: إن المعروف ها هنا الطاعة لله ولرسوله؛ قاله ميمون بن مهران. وقال بكر بن عبد الله المزني: لا يعصينك في كل أمر فيه رشدهن. الكلبي: هو عام في كل معروف أمر الله عز وجل ورسولُه به. فروي أن هندا قالت عند ذلك: ما جلسنا في مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

الثالثة: ذكر الله عز وجل ورسوله ﷺ في صفة البيعة خصالا شتى؛ صرح فيهن بأركان النهي في الدين ولم يذكر أركان الأمر. وهي ستة أيضا: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة. وذلك لأن النهي دائم في كل الأزمان وكل الأحوال؛ فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد. وقيل: إن هذه المناهي كان في النساء كثير من يرتكبها ولا يحجزهن عنها شرف النسب، فخصت بالذكر لهذا. ونحوٌ منه قوله ﷺ لوفد عبد القيس: (وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير والمزفت)[٤] فنبههم على ترك المعصية في شرب الخمر دون سائر المعاصي، لأنها كانت شهوتهم وعادتهم، وإذا ترك المرء شهوته من المعاصي هان عليه ترك سائرها مما لا شهوة له فيها.

الرابعة: لما قال النبي ﷺ في البيعة: (ولا يسرقن) قالت هند: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علي حرج أن آخذ ما يكفيني وولدي؟ قال (لا إلا بالمعروف) فخشيت هند أن تقتصر على ما يعطيها فتضيع أو تأخذ أكثر من ذلك فتكون سارقة ناكثة للبيعة المذكورة فقال لها النبي ﷺ: (لا)

---

(١) "حسن" أخرجه أحمد (٦/ ٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٩)، وانظر صحيح سنن ابن ماجه (١٢٨٣).
(٢) رواه أحمد ورجاله ثقات. كذا قال الهيثمي في "المجمع"، (٣/ ١٥).
(٣) أخرجه مسلم في "الجنائز"، (٩٣٧).
(٤) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

أي لا حرج عليك فيما أخذت بالمعروف، يعني من غير استطالة إلى أكثر من الحاجة. قال ابن العربي: وهذا إنما هو فيما لا يخزنه عنها في حجاب ولا يضبط عليه بقفل، فإنه إذا هتكته الزوجة وأخذت منه كانت سارقة تعصي به وتُقطع يدها بذلك.

الخامسة: قال عبادة بن الصامت: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: (ألا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا يعضه بعضكم بعضا ولا تعصوا في معروف أمركم به)(١). معنى "يعضه" يسحر. والعضه: السحر. ولهذا قال ابن بحر وغيره في قوله تعالى: ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ إنه السحر. وقال الضحاك: هذا نهي عن البهتان، أي لا يعضهن رجلا ولا امرأة. "ببهتان" أي بسحر. والله أعلم. "يفترينه بين أيديهن وأرجلهن" والجمهور على أن معنى "ببهتان" بولد يفترينه بين أيديهن" ما أخذته لقيطا. "وأرجلهن" ما ولدته من زنى. وقد تقدم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ في البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ قال: إنما هو شرط شرطه الله للنساء. واختلف في معناه على ما ذكرنا. والصحيح أنه عام في جميع ما يأمر به النبي ﷺ وينهى عنه؛ فيدخل فيه النوح وتخريق الثياب وجز الشعر والخلوة بغير محرم إلى غير ذلك. وهذه كلها كبائر ومن أفعال الجاهلية. وفي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ قال: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية) فذكر منها النياحة. وروى يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (هذه النوائح يجعلن يوم القيامة صفين صفا عن اليمين وصفا عن اليسار ينبحن كما تنبح الكلاب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يؤمر بهن إلى النار)(٢). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تصلي الملائكة على نائحة ولا مُرنَّة)(٣). وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع نائحة فأتاها فضربها بالدرة حتى وقع خمارها عن رأسها. فقيل: يا أمير المومنين، المرأة المرأة! قد وقع خمارها. فقال: إنها لا حرمة لها(٤). أسند جميعه الثعلبي رحمه الله.

أما تخصيص قوله: ﴿في معروف﴾ مع قوة قوله: ﴿ولا يعصينك﴾ ففيه قولان: أحدهما: أنه تفسير للمعنى على التأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿قال رب احكم بالحق﴾ (الأنبياء: ١١٢) لأنه لو قال احكم لكفى. الثاني: إنما شرط المعروف في بيعة النبي ﷺ حتى يكون تنبيها على أن غيره أولى بذلك وألزم له وأنفى للإشكال.

---

(١) صحيح.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٣/ ١٤) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه سليمان بن داود اليمامي وهو ضعيف". ونقل الحافظ في "اللسان"، (٣/ ٩٩) قول البخاري فيه: منكر الحديث، ومن قلت فيه: منكر الحديث، فلا تحل رواية حديثه. ونقل أيضا ـ أي الحافظ ـ أن ابن عدي ساق لسليمان بن داود هذا عدة أحاديث مما لا يتابعه أحد عليها، منها هذا الحديث.

(٣) أخرجه أحمد في "المسند"، (٢/ ٣٦٢)، وقال الهيثمي في "المجمع"، (٣/ ١٣): "رواه أحمد وأبو يعلى وفيه أبو مرانة، ولم أجد من وثقه ولا جرحه وبقية رجاله ثقات". وذكره المنذري في "الترغيب والترهيب"، (٤/ ١٧٧) وعزاه لأحمد وقال: "وإسناده حسن إن شاء الله".

(٤) الأثر ذكره ابن حجر المكي الهيثمي في "الزواجر"، (١/ ٣٦٠) قائلاً: وحكى الأوزاعي أن عمر بن الخطاب... فذكره مطولا، وهو منقطع، لأن الأوزاعي لم يدرك عمر ولم يلقه.

السابعة: روى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: (أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا) قرأ آية النساء. وأكثر لفظ سفيان قرأ في الآية (فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة لـه ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر لـه منها). وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان؛ فكلـهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب؛ فنزل نبي الله ﷺ فكأني أنظر إليه حين يجلّس الرجال بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلـهن" حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: أنتن على ذلك)؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله؛ لا يدري الحسن من هي. قال: (فتصدقن) وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخ والخواتيم في ثوب بلال. لفظ البخاري[١].

الثامنة: قال المهدوي: أجمع المسلمون على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا؛ والأمر بذلك ندب لا إلزام. وقال بعض أهل النظر: إذا احتيج إلى المحنة من أجل تباعد الدار كان على إمام المسلمين إقامة المحنة.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم﴾ يعني اليهود. وذلك أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم فنهوا عن ذلك. "قد يئسوا من الآخرة" يعني اليهود؛ قالـه ابن زيد. وقيل: هم المنافقون. وقال الحسن: هم اليهود والنصارى. قال ابن مسعود: معناه أنهم تركوا العمل للآخرة وآثروا الدنيا. وقيل: المعنى يئسوا من ثواب الآخرة، قالـه مجاهد. "كما يئس الكفار" أي الأحياء من الكفار. "من أصحاب القبور" أن يرجعوا إليهم؛ قاله الحسن وقتادة. قال ابن عرفة: وهم الذين قالوا: ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (الجاثية: ٢٤). وقال مجاهد: المعنى كما يئس الكفار الذين في القبور أن يرجعوا إلى الدنيا. وقيل: إن الله تعالى ختم السورة بما بدأها من ترك موالاة الكفار؛ وهي خطاب لحاطب بن أبي بلتعة وغيره. قال ابن عباس: "يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا" أي لا توالوهم ولا تناصحوهم؛ رجع تعالى بطولـه وفضلـه على حاطب بن أبي بلتعة. يريد أن كفار قريش قد يئسوا من خير الآخرة كما يئس الكفار المقبورون من حظ يكون لـهم في الآخرة من رحمة الله تعالى. وقال القاسم بن أبي بزة في قولـه تعالى: "قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور" قال: من مات من الكفار يئس من الخير. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٨٩٥).

سورة الصف

مقدمة السورة :

سورة الصف مدنية في قول الجميع، فيما ذكر الماوردي. وقيل: إنها مكية، ذكره النحاس عن ابن عباس. وهي أربع عشرة آية.

قوله تعالى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾ تقدم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ روى الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد[1]. وقال ابن عباس قال عبد الله بن رواحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه؛ فلما نزل الجهاد كرهوه. وقال الكلبي: قال المؤمنون يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؛ فنزلت ﴿ هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ (الصف: ١٠) فمكثوا زمانا يقولون: لو نعلم ما هي لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؛ فدلهم الله تعالى عليها بقوله: ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ (الصف: ١١) الآية. فابتلوا يوم أحد ففروا؛ فنزلت تعيرهم بترك الوفاء. وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بثواب شهداء بدر قالت الصحابة: اللهم اشهد! لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا؛ ففروا يوم أحد فعيرهم الله بذلك. وقال قتادة والضحاك: نزلت في قوم كانوا يقولون: نحن جاهدنا وأبلينا ولم يفعلوا. وقال صهيب: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر وأنكاهم فقتلته. فقال رجل يا نبي الله، إني قتلت فلانا، ففرح النبي ﷺ بذلك. فقال عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف: يا صهيب، أما أخبرت رسول الله ﷺ أنك قتلت فلانا! فإن فلانا انتحل قتله؛ فأخبره فقال: (أكذلك يا أبا يحيى)؟ قال: نعم، والله يا رسول الله؛ فنزلت الآية في المنتحل. وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين؛ كانوا يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: إن خرجتم وقاتلتم خرجنا معكم وقاتلنا؛ فلما خرجوا نكصوا عنهم وتخلفوا.

---

(١) "صحيح" أخرجه أحمد والترمذي والدارمي والحاكم وغيرهم، وانظر صحيح الترمذي (٢٦٣٦).

الثانية: هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفي بها. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى أنه بعث إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن؛ فقال: أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم. وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة بـ "براءة" فأنسيتها؛ غير أني قد حفظت منها "لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب". وكنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيتها؛ غير أني حفظت منها: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون" فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة[1]. قال ابن العربي: وهذا كله ثابت في الدين. أما قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ فثابت في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة. وأما قوله: (شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة) فمعنى ثابت في الدين؛ فإن من التزم شيئا لزمه شرعا. والملتزم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مبتدأ كقول: لله علي صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القرب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعا. ونذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعلي صدقة. فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة: يلزمه الوفاء به. وقال الشافعي في أحد أقواله: إنه لا يلزمه الوفاء به. وعموم الآية حجة لنا، لأنها بمطلقها تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط. وقد قال أصحابه: إن النذر إنما يكون بما القصد منه القربة مما هو من جنس القربة. وهذا وإن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل. قلنا: القرب الشرعية مشقات وكلف وإن كانت قربات. وهذا تكلف التزام هذه القربة بمشقة لجلب نفع أو دفع ضر، فلم يخرج عن سنن التكليف ولا زال عن قصد التقرب. قال ابن العربي: فإن كان المقول منه وعدا فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقوله: إن تزوجت أعنتك بدينار، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك كذا. فهذا لازم إجماعا من الفقهاء. وإن كان وعدا مجردا فقيل يلزم بتعلقه. وتعلقوا بسبب الآية، فإنه روي أنهم كانوا يقولون: لو نعلم أي الأعمال أفضل أو أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهو حديث لا بأس به. وقد روي عن مجاهد أن عبد الله بن رواحة لما سمعها قال: لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أقتل. والصحيح عندي: أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر. قلت: قال مالك: فأما العدة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له: نعم؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه. وقال ابن القاسم: إذا وعد الغرماء فقال: أشهدكم أني قد وهبت له من أن يؤدي إليكم؛ فإن هذا يلزمه. وأما أن يقول: نعم أنا أفعل؛ ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك.

قلت: أي لا يقضي عليه بذلك؛ فأما في مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم. وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ (البقرة: ١٧٧)، وقال تعالى: ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ﴾ (مريم: ٥٤) وقد تقدم بيانه.

(١) أخرجه مسلم في "الزكاة"، (١٠٥٠).

الثالثة: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ (البقرة: ٤٤)، ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ (هود: ٨٨)، ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾. وخرج أبو نعيم الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثمامة أن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت) قلت: (من هؤلاء يا جبريل)؟ قال: (هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون)[1]. وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا؛ فسكت. ثم قيل له: حدثنا. فقال: أترونني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مقت الله!.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله. أما في الماضي فيكون كذبا، وأما في المستقبل فيكون خُلْفا، وكلاهما مذموم. وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ أي لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون. فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ قد يحتج به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي. و"أن" وقع بالابتداء وما قبلها الخبر؛ وكأنه قال: قولكم ما لا تفعلون مذموم، ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف. الكسائي: "أن" في موضع رفع؛ لأن "كبر" فعل بمنزلة بئس رجلا أخوك. و"مقتا" نصب بالتمييز؛ المعنى كبر قولهم ما لا يفعلون مقتا. وقيل: هو حال. والمقت والمقاتة مصدران؛ يقال: رجل مقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ﴾ أي يصفون صفا: والمفعول مضمر؛ أي يصفون أنفسهم صفا. "كأنهم بنيان مرصوص" قال الفراء: مرصوص بالرصاص. وقال المبرد: هو من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة. وقيل: هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض. والتراص التلاصق؛ ومنه وتراصوا في الصف. ومعنى الآية: يحب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء. وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم.

الثانية: وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة. المهدوي: وذلك غير مستقيم، لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات.

---

(١) "ضعيف" أخرجه البيهقي في "الشعب"، (٢/ ٢٨٣) من طريق صدقة بن موسى والحسن بن جعفر قالا: ثنا مالك ابن دينار عن ثمامة بن عبد الله بن أنس عن أنس مرفوعاً. وصدقة بن موسى ضعفه ابن معين وأبو داود والنسائي وأبو بشر الدولابي، وقال ابن معين أيضا: ليس حديثه بشيء، وقال ابن حبان: كان رجلا صالحًا إلا أن الحديث لم يكن من صناعته، فكان إذا روى قلب الأخبار حتى خرج عن حد الاحتجاج به. وقال الدارقطني: متروك. (تهذيب الكمال ١٣/ ١٥٠) بتصرف.

الثالثة: لا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو في رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها. وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما: أنه لا بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلبا للشهادة وتحريضا على القتال. وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالبا لذلك، لأن فيه رياء وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو. وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر؛ كما كانت في حروب النبي ﷺ يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف. وقد مضى القول مستوفى في هذا في "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (البقرة: ١٩٥).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ لما ذكر أمر الجهاد بيّن أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله؛ وحل العقاب بمن خالفهما؛ أي واذكر لقومك يا محمد هذه القصة. "يا قوم لم تؤذونني" وذلك حين رموه بالأدرة؛ حسب ما تقدم في آخر سورة "الأحزاب". ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون: إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور. ومن الأذى قولهم: ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ (الأعراف: ١٣٨). وقولهم: ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا ﴾ (المائدة: ٢٤). وقولهم: إنك قتلت هارون. وقد تقدم هذا. "وقد تعلمون أني رسول الله إليكم" والرسول يحترم ويعظم. ودخلت "قد" على "تعلمون" للتأكيد؛ كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه. "فلما زاغوا" أي مالوا عن الحق "أزاغ الله قلوبهم" أي أمالها عن الهدى. وقيل: "فلما زاغوا" عن الطاعة "أزاغ الله قلوبهم" عن الهداية. وقيل: "فلما زاغوا" عن الإيمان "أزاغ الله قلوبهم" عن الثواب. وقيل: أي لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول ﷺ وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل ﴾ أي واذكر لهم هذه القصة أيضا. وقال: "يا بني إسرائيل" ولم يقل "يا قوم" كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه. "إني رسول الله إليكم" أي بالإنجيل. "مصدقا لما بين يدي من التوراة" لأن في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني. "ومبشرا برسول" مصدقا. "ومبشرا" نصب على الحال؛ والعامل فيها معنى الإرسال. و"إليكم" صلة الرسول. "يأتي من بعدي اسمه أحمد" قرأ نافع وابن

كثير وأبو عمرو "من بعدي" بفتح الياء. وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش وأبي بكر عن عاصم. واختاره أبو حاتم لأنه اسم؛ مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت. الباقون بالإسكان. وقرئ "من بعدي اسمه أحمد" بحذف الياء من اللفظ. و"أحمد" اسم نبينا ﷺ. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى "أحمد" أي أحمد الحامدين لربه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا. وأما محمد فمنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه. فهذا علم من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقا عليه؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ. ثم إنه لم يكن محمدا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه؛ فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد فذكره عيسى عليه السلام فقال: "اسمه أحمد". وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. فلما وجد وبعث كان محمدا بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته. وروي أن النبي ﷺ قال: (اسمي في التوراة أحيد لأني أحيد أمتي عن النار واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض)[1]. وفي الصحيح (لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي وأنا العاقب)[2]. وقد تقدم. "فلما جاءهم بالبينات" قيل: عيسى. وقيل: محمد ﷺ. "قالوا هذا سحر مبين" قرأ الكسائي وحمزة "ساحر" نعتا للرجل. وروي أنها قراءة ابن مسعود. الباقون "سحر" نعتا لما جاء به الرسول.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ومن أظلم﴾ أي لا أحد أظلم "ممن افترى على الله الكذب" تقدم في غير موضع. "وهو يدعى إلى الإسلام" هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما. وقرأ

---

(١) "موضوع" ذكره الحافظ ابن حجر في "اللسان"، (١/ ٣٩٣) في ترجمة إسحاق بن بشر من طريقه قال: حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مرفوعًا بلفظ: "اسمي في القرآن محمد، وفي الإنجيل أحمد، وفي التوراة أحيد، لأني أحيد أمتي عن النار، فأحبوا العرب بكل قلوبكم" وإسحاق بن بشر تركوه، وكذبه علي بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل كتب حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدارقطني: كذاب متروك. وقال الحافظ: يروي العظائم عن ابن إسحاق، وابن جريج، والثوري. وذكره أيضا العلامة الشوكاني في "الفوائد المجموعة"، (٢/ ٤١٢)، وقال: "في إسناده وضاع". يعني: إسحاق بن بشر.

(٢) تقدم تخريجه.

طلحة بن مصرف "وهو يدعي" بفتح الياء والدال وشدها وكسر العين، أي ينتسب. ويدعي وينتسب سواء. "والله لا يهدي القوم الظالمين" أي من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة.

قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ الإطفاء هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور. ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه؛ وهو أن الإطفاء يستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل في الكثير دون القليل؛ فيقال: أطفأت السراج؛ ولا يقال: أخمدت السراج. وفي "نور الله" هنا خمسة أقاويل: أحدها: أنه القرآن؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول؛ قاله ابن عباس وابن زيد. والثاني: أنه الإسلام؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السدي. الثالث: أنه محمد ﷺ؛ يريدون هلاكه بالأراجيف؛ قاله الضحاك. الرابع: حجج الله ودلائله؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم؛ قال ابن بحر. الخامس: أنه مثل مضروب؛ أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق؛ حكاه ابن عيسى. وسبب نزول هذه الآية ما حكاه عطاء عن ابن عباس: أن النبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوما؛ فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتم أمره؛ فحزن رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية واتصل الوحي بعدها؛ حكى جميعه الماوردي رحمه الله. "والله متم نوره" أي بإظهاره في الآفاق. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم "والله متم نوره" بالإضافة على نية الانفصال؛ كقوله تعالى: ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ (آل عمران: ١٨٥) وشبهه، حسب ما تقدم بيانه في "آل عمران". الباقون "متم نوره" لأنه فيما يستقبل؛ فعمل. "ولو كره الكافرون" من سائر الأصناف.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي محمدا بالحق والرشاد. "ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون" أي بالحجج. ومن الظهور الغلبة باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان. قال مجاهد: وذلك إذا نزل عيسى لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام. وقال أبو هريرة: "ليظهره على الدين كله" بخروج عيسى. وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد)(١). وقيل: "ليظهره" أي ليطلع محمدا ﷺ على سائر الأديان؛ حتى يكون عالما بها عارفا بوجوه بطلانها، وبما حرفوا وغيروا منها. "على الدين" أي الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبر به عن جمع.

---

(١) أخرجه مسلم في "الإيمان"، (١٥٥).

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ **فيه خمس مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة ﴾ قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصيت وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار أبدا! فقال رسول الله ﷺ: (إن من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله وخصاء أمتي الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني). فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأتجر فيها؛ فنزلت[1]. وقيل: "أدلكم" أي سأدلكم. والتجارة الجهاد؛ قال الله تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ (التوبة: ١١١) الآية. وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ تنجيكم ﴾ أي تخلصكم "من عذاب أليم" أي مؤلم. وقراءة العامة "تنجيكم" بإسكان النون من الإنجاء. وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة "تنجيكم" مشددا من التنجية. ثم بين التجارة وهي المسألة:

الثالثة: فقال: "تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم" ذكر الأموال أولا لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق. "ذلكم" أي هذا الفعل "خير لكم إن كنتم تعلمون" خير لكم من أموالكم وأنفسكم "إن كنتم تعلمون". و"تؤمنون" عند المبرد والزجاج في معنى آمنوا، ولذلك جاء "يغفر لكم" مجزوما على أنه جواب الأمر. وفي قراءة عبد الله "آمنوا بالله" وقال الفراء "يغفر لكم" جواب الاستفهام؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى؛ وذلك أن يكون "تؤمنون بالله، وتجاهدون" عطف بيان على قوله: "هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم" كأن التجارة لم يدر ما هي؛ فبينت بالإيمان والجهاد؛ فهي هما في المعنى. فكأنه قال: هل تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم. الزمخشري: وجه قول الفراء أن متعلق الدلالة هو التجارة والتجارة مفسرة بالإيمان والجهاد. كأنه قيل: هل تتجرون بالإيمان والجهاد يغفر لكم. قال المهدوي: فإن لم تقدر هذا التقدير لم تصح المسألة؛ لأن التقدير يصير إن دللتم يغفر لكم؛ والغفران إنما نعت بالقبول والإيمان لا بالدلالة. قال الزجاج: ليس إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا. وقرأ زيد بن علي "تؤمنوا"، و"تجاهدوا" على إضمار لام الأمر؛ كقوله:

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٢/ ١٧٩) بلفظ مقارب من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً وليس فيه ذكر لسبب النزول. وأصله في الصحيحين، أخرجه البخاري في "النكاح"، (٥٠٧٣) مختصراً، ومسلم (١٤٠٢).

محمد تَفْد نفسَك كلُّ نفس إذا ما خفت من شيء تبالا

أراد لتفد. وأدغم بعضهم فقالَ: "يغفر لكم" والأحسن ترك الإدغام؛ لأن الراء حرف متكرر قوي فلا يحسن إدغامه في اللام؛ لأن الأقوى لا يدغم في الأضعف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ ومساكن طيبة ﴾ خرج أبو الحسين الآجري عن الحسن قال: سألت عمران بن الحصين وأبا هريرة عن تفسير هذه الآية "ومساكن طيبة" فقالا: على الخبير سقطت، سألنا رسول الله ﷺ عنها فقال: (قصر من لؤلؤة في الجنة فيه سبعون دارا من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتا من زبرجدة خضراء في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش سبعون امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة فيعطي الله تبارك وتعالى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله)[١] . "في جنات عدن" أي إقامة. "ذلك الفوز العظيم" أي السعادة الدائمة الكبيرة. وأصل الفوز الظفر بالمطلوب.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وأخرى تحبونها ﴾ قال الفراء والأخفش: "أخرى" معطوفة على "تجارة" فهي في محل خفض. وقيل: محلها رفع أي ولكم خصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها "نصر من الله" أي هو نصر من الله؛ فـ "نصر" على هذا تفسير "وأخرى". وقيل: رفع على البدل من "أخرى" أي ولكم نصر من الله. "وفتح قريب" أي غنيمة في عاجل الدنيا؛ وقيل: فتح مكة. وقال ابن عباس: يريد فتح فارس والروم. "وبشر المؤمنين" برضا الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

أكد أمر الجهاد؛ أي كونوا حواريي نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حواريي عيسى على من خالفهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع "أنصارا لله" بالتنوين. قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعوانا لله بالسيف على أعدائه. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام "أنصار الله" بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عبيدة لقوله: "نحن أنصار الله" ولم ينون؛ ومعناه كونوا أنصارا لدين الله. ثم قيل: في الكلام إضمار؛ أي قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله؛ أي كونوا أنصارا كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصارا وكانوا حواريين. والحواريون خواص الرسل. قال معمر: كان ذلك بحمد الله؛ أي نصروه وهم سبعون رجلا، وهم الذين بايعوه ليلة العقبة. وقيل: هم من قريش. وسماهم قتادة: أبا بكر

---

(١) ذكره المنذري في "الترغيب والترهيب"، (٤/ ٢٥٤) وعزاه إلى الطبراني والبيهقي بنحوه، وكذا ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٣/ ٢٥٢)، وقال: "هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، وفي إسناده جسر، قال يحيى: ليس بشيء ، لا يكتب حديثه: وقال أبو حاتم : خرج عن حد العدالة.

وعمر وعلي وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة ـ واسمه عامر ـ وعثمان بن مظعون وحمزة بن عبد المطلب؛ ولم يذكر سعيدا فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب ﷺ أجمعين.

قولـه تعالى: ﴿ كما قال عيسى ابن مريم للحواريين ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلا، وقد مضت أسماؤهم في "آل عمران"، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، قال ابن عباس. وقال مقاتل: قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون فاسألهم النصرة، فأتاهم عيسى وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك. فصدقوه ونصروه. "من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله" أي من أنصاري مع الله، كما تقول: الذود إلى الذود إبل، أي مع الذود. وقيل: أي من أنصاري فيما يقرب إلى الله. "قال الحواريون نحن أنصار الله" وقد مضى هذا في آل عمران" "فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة" والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدم في "آل عمران" بيانه. "فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين" "فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم" الذين كفروا بعيسى. "فأصبحوا ظاهرين" أي غالبين. قال ابن عباس: أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار. وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى. وقيل أيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين، من قال كان الله فارتفع، ومن قال كان ابن الله فرفعه الله إليه؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحدا ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد ابن علي وقتادة: "فأصبحوا ظاهرين" غالبين بالحجة والبرهان؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل! . وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام. قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريين والأتباع بطرس وبولس إلى رومية، واندراييس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس إلى قرطاجنة وهي أفريقية. ويحنس إلى دقسوس قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورشليم وهي بيت المقدس، وابن تلما إلى العرابية وهي أرض الحجاز. وسيمن إلى أرض البربر. ويهودا وبردس إلى الإسكندرية وما حولها. فأيدهم الله بالحجة. "فأصبحوا ظاهرين" أي عالين؛ من قولك: ظهرت على الحائط أي علوت عليه. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

سورة الجمعة

مقدمة السورة :

مدنية في قول الجميع، وهي إحدى عشرة آية. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب بن قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا الله له - قال - يوم الجمعة فاليوم لنا وغدا لليهود وبعد غد للنصارى)[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

تقدم الكلام فيه. وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم "الملك القدوس العزيز الحكيم" كلها رفعا؛ أي هو الملك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم﴾ قال ابن عباس: الأميون العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب. وقيل: الأميون الذين لا يكتبون. وكذلك كانت قريش. وروى منصور عن إبراهيم قال: الأمي الذي يقرأ ولا يكتب. وقد مضى في "البقرة". "رسولا منهم" يعني محمدا ﷺ. وما من حي من العرب إلا ولرسول الله ﷺ فيهم قرابة وقد ولدوه. قال ابن إسحاق: إلا حي تغلب؛ فإن الله تعالى طهر نبيه ﷺ منهم لنصرانيتهم، فلم يجعل لهم عليه ولادة. وكان أميا لم يقرأ من كتاب ولم يتعلم ﷺ. قال الماوردي: فإن قيل ما وجه الامتنان فإن بعث نبيا أميا؟ فالجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: لموافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء. الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم. الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعليمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

قلت: وهذا كله دليل معجزته وصدق نبوته.

قوله تعالى: ﴿يتلو عليهم آياته﴾ يعني القرآن "ويزكيهم" أي يجعلهم أزكياء القلوب بالإيمان؛ قاله ابن عباس. وقيل: يطهرهم من دنس الكفر والذنوب؛ قاله ابن جريج ومقاتل. وقال السدي:

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

يـأخذ زكـاة أموالــهم "ويعـلمهم الكـتاب" يعـني القرآن "والحكمة" السنة؛ قال الحسن. وقال ابن عـباس: "الكتاب" الخط بالقلم؛ لأن الخط فشا في العرب بالشرع لما أمروا بتقييده بالخط. وقال مالك ابـن أنس: "الحكمة" الفقه في الدين. وقد مضى القول في هذا في "البقرة". "وإن كانوا من قبل" أي من قبلـه وقبل أن يرسل إليهم. "لفي ضلال مبين" أي في ذهاب عن الحق.

قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾

قولــه تعـالى: ﴿ وآخـرين منهم ﴾ هو عطف على "الأميين" أي بعث في الأميين وبعث في آخرين منهم. ويجوز أن يكون منصوبا بالعطف على الـهاء والميم في "يعلمهم ويزكيهم"؛ أي يعلمهم ويعلم آخـرين مـن المؤمـنين؛ لأن التعلـيم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كلـه مسندا إلى أولـه فكأنه هو الذي تـولى كـل مـا وجـد مـنه. "لمـا يـلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم" أي لم يكونوا في زمانهم وسيجيئون بعدهم. قال ابن عمر وسعيد بن جبير: هم العجم. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: كـنا جلوسا عند النبي ﷺ إذ نزلت عليه سورة "الجمعة" فلما قرأ "وآخرين منهم لما يلحقوا بهم" قال رجـل: مـن هـؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبي ﷺ حتى سألـه مرة أو مرتين أو ثلاثا. قال: وفينا سـلمان الفارسـي. قـال: فوضـع الـنبي ﷺ يده على سلمان ثم قال: (لو كان الإيمان عند الثريا لنالـه رجـال مـن هـؤلاء). في روايـة (لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس ـ أو قال ـ من أبناء فـارس حـتى يتناولـه) لفظ مسلم. وقال عكرمة: هم التابعون. مجاهد: هم الناس كلـهم؛ يعني من بعد العرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ. وقال ابن زيد ومقاتل بن حيان. قالا: هم من دخل في الإسلام بعد النبي ﷺ إلى يوم القيامة. وروى سهل بن سعد الساعدي: أن النبي ﷺ قال: (إن في أصلاب أمتي رجـالا ونـسـاء يدخلـون الجنة بغير حساب ـ ثم تلا ـ ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾[(1)]). والقول الأول أثبـت. وقـد روي أن النبي ﷺ قال: (رأيتني أسقي غنما سودا ثم أتبعتها غنما عفرا أوّلـها يا أبا بكـر) فقـال: يـا رسول الله، أما السود فالعرب، وأما العفر فالعجم تتبعك بعد العرب. فقال النبـي ﷺ: (كـذا أوّلـهـا الملك) يعني جبريل عليه السلام.[(2)] رواه ابن أبي ليلى عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

قـال ابـن عـباس: حيـث ألحـق العجـم بقـريش. يعـني الإسلام، فضل الله يؤتيه من يشاء؛ قاله الكلـبي. وقيل: يعني الوحي والنبوة؛ قالـه مقاتل. وقول رابع: إنه المال ينفق في الطاعة؛ وهو معنى قـول أبي صالح. وقد روى مسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقـالوا: ذهـب أهـل الدثـور بالدرجـات العلا والنعيم المقيم. فقال: (وما ذاك)؟ قالوا: يصلون كما

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة"، (٣٠٩)، وقـال الشيخ الألباني في "ظلال الجنة في تـخريج السنة"، (١/ ١٣٤): "إسناده صحيح".

(٢) ضعيف.

نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: (أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم) قالوا: بلى يا رسول الله؛ قال: (تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة). قال أبو صالح: فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء). وقول خامس: أنه انقياد الناس إلى تصديق النبي ﷺ ودخولهم في دينه ونصرته. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾

ضرب مثلا لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ. "حملوا التوراة" أي كلفوا العمل بها؛ عن ابن عباس. وقال الجرجاني: هو من الحمالة بمعنى الكفالة؛ أي ضمنوا أحكام التوراة. "كمثل الحمار يحمل أسفارا" هي جمع سفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ. قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدري أسفر على ظهره أم زنبيل(١)؛ فهكذا اليهود. وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء. وقال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وقال يحيى بن يمان: يكتب أحدهم الحديث ولا يتفهم ولا يتدبر، فإذا سئل أحدهم عن مسألة جلس كأنه مكاتب. وقال الشاعر:

إن الرواة على جهل بما حملوا ... مثل الجمال عليها يحمل الودع
لا الودع ينفعه حمل الجمال له ... ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

وقال منذر بن سعيد البلوطي رحمه الله فأحسن:

انعق بما شئت تجد أنصارا ... وزم أسفارا تجد حمارا
يحمل ما وضعت من أسفار ... يحمله كمثل الحمار
يحمل أسفارا له وما درى ... إن كان ما فيها صوابا وخطا
إن سئلوا قالوا كذا روينا ... ما إن كذبنا ولا اعتدينا
كبيرهم يصغر عند الحفل ... لأنه قلد أهل الجهل

"ثم لم يحملوها" أي لم يعملوا بها. شبههم ـ والتوراة في أيديهم وهم لا يعملون بها ـ بالحمار يحمل كتبا وليس له إلا ثقل الحمل من غير فائدة. و"يحمل" في موضع نصب على الحال؛ أي حاملا. ويجوز أن يكون في موضع جر على الوصف؛ لأن الحمار كاللئيم. قال:

---

(١) الزنبيل: القُفَّة، أو الجراب، أو الوعاء. (القاموس).

ولقد أمر على اللئيم يسبني

"بئس مثل القوم" المثل الذي ضربناه لهم؛ فحذف المضاف. "والله لا يهدي القوم الظالمين" أي من سبق في علمه أنه يكون كافرا.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾

لما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ (المائدة: ١٨) قال الله تعالى: ﴿إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس﴾ فللأولياء عند الله الكرامة. "فتمنوا الموت إن كنتم صادقين" لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله "ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم" أي أسلفوه من تكذيب محمد ﷺ؛ فلو تمنوه لماتوا؛ فكان في ذلك بطلان قولهم وما ادعوه من الولاية. وفي حديث أن النبي ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: (والذي نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات). وفي هذا إخبار عن الغيب، ومعجزة للنبي ﷺ. وقد مضى معنى هذه الآية في "البقرة" في قوله تعالى: ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (البقرة: ٩٤).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

قال الزجاج: لا يقال: إن زيدا فمنطلق، وها هنا قال: "فإنه ملاقيكم" لما في معنى "الذي" من الشرط والجزاء، أي إن فررتم منه فإنه ملاقيكم، ويكون مبالغة في الدلالة على أنه لا يفنع الفرار منه. قال زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... ولو رام أسباب السماء بسلم

قلت: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: "الذي تفرون منه" ثم يبتدئ "فإنه ملاقيكم". وقال طرفة:

وكفى بالموت فاعلم واعظا ... لمن الموت عليه قد قدر
فاذكر الموت وحاذر ذكره ... إن في الموت لذي اللب عبر
كل شيء سوف يلقى حتفه ... في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجيه من الموت الحذر

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ فيه ثلاث عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ قرأ عبد الله بن الزبير والأعمش وغيرهما "الجمعة" بإسكان الميم على التخفيف. وهما لغتان. وجمعهما جمع وجمعات. قال

الفـراء: يقال الجمعة (بسكون الميم) والجمعة (بضم الميم) والجمعة (بفتح الميم) فيكون صفة اليوم؛ أي تجمع الـناس. كمـا يقـال: ضـحكة للذي يضحك. وقال ابن عباس: نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقـرؤوها جمعـة؛ يعـني بضـم المـيم. وقـال الفـراء وأبو عبيد: والتخفيف أقيس وأحسن؛ نحو غرفة وغرف، وطرفة وطرف، وحجرة وحجر. وفتح الميم لغة بني عقيل. وقيل: إنها لغة النبي ﷺ. وعن سـلمان أن الـنبي ﷺ قـال: (إنما سميت جمعة لأن الله جمع فيها خلق آدم)[1]. وقيل: لأن الله تعالى فرغ فـيها من خلق كل شيء فاجتمعت فيها المخلوقات. وقيل: لتجتمع الجماعات فيها. وقيل: لاجتماع الـناس فـيها للصـلاة. و"مـن" بمعـنى "في"؛ أي في يـوم؛ كقولـه تعـالى: ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ (فاطر: ٤٠) أي في الأرض.

الثانـية: قـال أبـو سـلمة: أول مـن قـال: "أما بعد" كعب بن لوي، وكان أول من سمى الجمعة جمعـة. وكـان يقـال لـيوم الجمعـة: العروبة. وقيل: أول من سماها جمعة الأنصار. قال ابن سيرين: جَمَّع أهل المدينة من قبل أن يقدم النبي ﷺ المدينة، وقبل أن تنزل الجمعة؛ وهم الذين سموها الجمعة؛ وذلـك أنهـم قـالوا: إن لليهود يوما يجتمعون فيه، في كل سبعة أيام يوم وهو السبت. وللنصارى يوم مـثل ذلـك وهـو الأحـد فتعالوا فلنجتمع حتى نجعل يوما لنا نذكر الله ونصلي فيه ـ ونستذكر ـ أو كما قالوا ـ فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى؛ فاجعلوه يوم العروبة. فاجتمعوا إلى أسعد ابـن زرارة (أبـو أمامـة ﷺ) فصـلى بهـم يومئذ ركعتين وذكرهم، فسموه يوم الجمعة حين اجتمعوا. فذبح لـهم أسعد شاة فتعشوا وتغدوا منها لقلتهم. فهذه أول جمعة في الإسلام.

قلـت: وروي أنهـم كـانوا اثني عشر رجلا على ما يأتي. وجاء في هذه الرواية: أن الذي جمع بهم وصـلى أسـعد بن زرارة، وكذا في حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه كعب على ما يأتي. وقـال الـبيهقي: وروينـا عن موسى بن عقبة عن ابن شهاب الزهري أن مصعب بن عمير كان أول من جَمّـع الجمعـة بالمدينة للمسـلمين قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ. قال البيهقي: يحتمل أن يكون مصعب جَمّع بهم بمعونة أسعد بن زرارة فأضافه كعب إليه. والله أعلم.

وأمـا أول جمعـة جمعها النبي ﷺ بأصحابه؛ فقال أهل السير والتواريخ: قدم رسول الله ﷺ مهاجرا حتى نزل بقباء، على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى. ومن تلك السنة يعد التاريخ. فأقام بقباء إلى يوم الخميس وأسس مسجدهم. ثم خرج يـوم الجمعـة إلى المديـنة؛ فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لـهم قد اتخذ القوم في ذلك الموضـع مسجدا؛ فجمع بهم وخطب. وهي أول خطبة خطبها بالمدينة، وقال فيها: (الحمد لله. أحمده وأسـتعينه وأسـتغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفر به. وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه وأشـهد أن محمدا عبده ورسول، أرسلـه بالـهدى ودين الحق، والنور والموعظة والحكمـة عـلى فـترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسولـه فقد رشد. ومن يعص الله ورسوله فقد غوى وفرط وضـل ضلالا بعيدا. أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة،

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٣٦٥) من رواية ابن أبي حاتم بسند ضعيف.

وأن يأمره بتقوى الله. واحذروا ما حذركم الله من نفسه؛ فإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين ربه من أمره في السر والعلانية، لا ينوي به إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره، وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قدم. وما كان مما سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا. ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ (آل عمران: ٣٠). هو الذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك؛ فإنه يقول تعالى: ﴿ ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (ق: ٢٩). فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية؛ فإنه ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (الطلاق: ٥). ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما. وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي عقوبته وتوقي سخطه. وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضي الرب، وترفع الدرجة. فخذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، فقد علمكم كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده؛ هو اجتباكم وسماكم المسلمين. ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. ولا حول ولا قوة إلا بالله. فأكثروا ذكر الله تعالى، واعملوا لما بعد الموت؛ فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). وأول جمعة جمعت بعدها جمعة بقرية يقال لها: "جواثي" من قرى البحرين. وقيل: إن أول من سماها الجمعة كعب بن لؤي بن غالب لاجتماع قريش فيه إلى كعب؛ كما تقدم. والله أعلم.

الثالثة: خاطب الله المؤمنين بالجمعة دون الكافرين تشريفا لهم وتكريما فقال: "يا أيها الذين آمنوا" ثم خصه بالنداء، وإن كان قد دخل في عموم قوله تعالى: ﴿ وإذا ناديتم إلى الصلاة ﴾ (المائدة: ٥٨) ليدل على وجوبه وتأكيد فرضه. وقال بعض العلماء: كون الصلاة الجمعة ها هنا معلوم بالإجماع لا من نفس اللفظ. قال ابن العربي: وعندي أنه معلوم من نفس اللفظ بنكتة وهي قوله: "من يوم الجمعة" وذلك يفيده؛ لأن النداء الذي يختص بذلك اليوم هو نداء تلك الصلاة. فأما غيرها فهو عام في سائر الأيام. ولو لم يكن المراد به نداء الجمعة لما كان لتخصيصه بها وإضافته إليها معنى ولا فائدة.

الرابعة: فقد تقدم حكم الأذان في سورة "المائدة" مستوفى. وقد كان الأذان على عهد رسول الله ﷺ كما في سائر الصلوات؛ يؤذن واحد إذا جلس النبي ﷺ على المنبر. وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعلي بالكوفة. ثم زاد عثمان على المنبر أذانا ثالثا على داره التي تسمى "الزوراء" حين كثر الناس بالمدينة. فإذا سمعوا أقبلوا؛ حتى إذا جلس عثمان على المنبر أذن مؤذن النبي ﷺ، ثم يخطب عثمان. خرجه ابن ماجه في سننه من حديث محمد بن إسحاق عن الزهري عن السائب بن يزيد قال: ما كان لرسول الله ﷺ إلا مؤذن واحد؛ إذا خرج أذن وإذا نزل أقام. وأبو بكر وعمر كذلك. فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على دار في السوق يقال لها "الزوراء"؛ فإذا خرج أذن وإذا نزل

أقام[١] . خرجه البخاري من طرق بمعناه . وفي بعضها : أن الأذان الثاني يوم الجمعة أمر به عثمان بن عفان حين كثر أهل المسجد، وكان التأذين يوم الجمعة حين يجلس الإمام . وقال الماوردي : فأما الأذان الأول فمحدث، فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها . وقد كان عمر ﷺ أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد، فجعله عثمان رضي الله عنه أذانين في المسجد . قال ابن العربي . وفي الحديث الصحيح : أن الأذان كان على عهد رسول الله ﷺ واحدا، فلما كان زمن عثمان زاد الأذان الثالث على الزوراء، وسماه في الحديث ثالثا لأنه أضافه إلى الإقامة، كما قال ﷺ : (بين كل أذانين صلاة لمن شاء)[٢] يعني الأذان والإقامة . ويتوهم الناس أنه أذان أصلي فجعلوا المؤذنين ثلاثة فكان وهما، ثم جمعوهم في وقت واحد فكان وهما على وهم . ورأيتهم يؤذنون بمدينة السلام بعد أذان المنار بين يدي الإمام تحت المنبر في جماعة، كما كانوا يفعلون عندنا في الدول الماضية . وكل ذلك محدث .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿فاسعوا﴾ اختلف في معنى السعي ها هنا على ثلاثة أقوال : أولها : القصد . قال الحسن : والله ما هو بسعي على الأقدام ولكنه سعي بالقلوب والنية . الثاني : أنه العمل، كقوله تعالى : ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ (الإسراء : ١٩)، وقوله : ﴿إن سعيكم لشتى﴾ (الليل : ٤)، وقوله : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم : ٣٩) . وهذا قول الجمهور . وقال زهير :

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم

وقال أيضاً :

وسعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم

أي فاعملوا على المضي إلى ذكر الله، واشتغلوا بأسبابه من الغسل والتطهير والتوجه إليه . الثالث : أن المراد به السعي على الأقدام . وذلك فضل وليس بشرط . ففي البخاري : أن أبا عبس بن جبر - واسمه عبد الرحمن وكان من كبار الصحابة - مشى إلى الجمعة راجلا وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار) . ويحتمل ظاهره رابعا : وهو الجري والاشتداد . قال ابن العربي : وهو الذي أنكره الصحابة الأعلمون والفقهاء الأقدمون . وقرأها عمر : "فامضوا إلى ذكر الله" فرارا عن طريق الجري والاشتداد الذي يدل على الظاهر . وقرأ ابن مسعود كذلك وقال : لو قرأت "فاسعوا" لسعيت حتى يسقط ردائي . وقرأ ابن شهاب : "فامضوا إلى ذكر الله سالكا تلك السبيل" . وهو كله تفسير منهم؛ لا قراءة قرآن منزل . وجائز قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير . قال أبو بكر الأنباري : وقد احتج من خالف المصحف بقراءة عمر وابن مسعود، وأن خرشة ابن الحر قال : رآني عمر ﷺ ومعي قطعة فيها "فاسعوا إلى ذكر الله" فقال لي عمر : من أقرأك هذا؟ قلت أبي . فقال : إن أبيًّا أقرؤنا للمنسوخ . ثم قرأ عمر "فامضوا إلى ذكر الله" . حدثنا إدريس قال

---

(١) صحيح، انظر صحيح ابن ماجه (٩٣١) .

(٢) أخرجاه في الصحيحين .

حدثنا خلف قال حدثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم عن خرشة؛ فذكره[1]. وحدثنا محمد بن يحيى أخبرنا محمد وهو ابن سعدان قال حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: ما سمعت عمر يقرأ قط إلا "فامضوا إلى ذكر الله". وأخبرنا إدريس قال حدثنا خلف قال حدثنا هشيم عن المغيرة عن إبراهيم أن عبد الله بن مسعود قرأ "فامضوا إلى ذكر الله" وقال: لو كانت "فاسعوا" لسعيت حتى يسقط ردائي. قال أبو بكر: فاحتج عليه بأن الأمة أجمعت على "فاسعوا" برواية ذلك عن الله رب العالمين ورسول ﷺ. فأما عبد الله بن مسعود فما صح عنه "فامضوا" لأن السند غير متصل؛ إذ إبراهيم النخعي لم يسمع عن عبد الله بن مسعود شيئا، وإنما ورد "فامضوا" عن عمر ﷺ. فإذا انفرد أحد بما يخالف الآية والجماعة كان ذلك نسيانا منه. والعرب مجمعة على أن السعي يأتي بمعنى المضي؛ غير أنه لا يخلو من الجد والانكماش. قال زهير:

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم

أراد بالسعي المضي بجد وانكماش، ولم يقصد للعدو والإسراع في الخطو. وقال الفراء وأبو عبيدة: معنى السعي في الآية المضي. واحتج الفراء بقولهم: هو يسعى في البلاد يطلب فضل الله؛ معناه هو يمضي بجد واجتهاد. واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر:

أسعى على جل بني مالك كل امرئ في شأنه ساع

فهل يحتمل السعي في هذا البيت إلا مذهب المضي بالانكماش؛ ومحال أن يخفى هذا المعنى على ابن مسعود على فصاحته وإتقان عربيته. قلت: ومما يدل على أنه ليس المراد ها هنا العدو قوله ﷺ: (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ولكن ائتوها وعليكم السكينة)[2]. قال الحسن: أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار؛ ولكن بالقلوب والنية والخشوع. وقال قتادة: السعي أن تسعى بقلبك وعملك. وهذا حسن، فإنه جمع الأقوال الثلاثة. وقد جاء في الاغتسال للجمعة والتطيب والتزين باللباس أحاديث مذكورة في كتب الحديث.

السادسة: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ خطاب للمكلفين بإجماع. ويخرج منه المرضى والزمنى والمسافرون والعبيد والنساء بالدليل، والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة. روى أبو الزبير عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غني حميد)[3] خرجه الدارقطني وقال علماؤنا رحمهم الله: ولا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر لا يمكنه منه الإتيان إليها؛ مثل المرض الحابس، أو خوف الزيادة في المرض، أو خوف جور السلطان عليه في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق. والمطر الوابل مع الوحل عذر إن لم ينقطع. ولم يره مالك عذرا له؛ حكاه المهدوي. ولو تخلف عنها متخلف على ولي حميم له قد حضرته

---

(١) قال الهيثمي في "المجمع": "رواه الطبراني، وإبراهيم لم يدرك ابن مسعود، ورجاله ثقات".
(٢) أخرجه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢).
(٣) أخرجه الدارقطني في سننه وابن عدي في كامله وعنه البيهقي في الكبرى وغيرهم عن ابن لهيعة ثنا معاذ بن محمد الأنصاري عن أبي الزبير عنه، وابن لهيعة فيه كلام وأبو الزبير مدلس، وراجع الإرواء (٣/ ٥٦، ٥٧).

الوفاة، ولم يكن عنده من يقوم بأمره رجا أن يكون في سعة. وقد فعل ذلك ابن عمر. ومن تخلف عنها لغير عذر فصلى قبل الإمام أعاد، ولا يجزيه أن يصلي قبله. وهو في تخلفه عنها مع إمكانه لذلك عاص لله بفعله.

السابعة: قوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة﴾ يختص بوجوب الجمعة على القريب الذي يسمع النداء، فأما البعيد الدار الذي لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب. واختلف فيمن يأتي الجمعة من الداني والقاصي، فقال ابن عمر وأبو هريرة وأنس: تجب الجمعة على من في المصر على ستة أميال. وقال ربيعة: أربعة أميال. وقال مالك والليث: ثلاثة أميال. وقال الشافعي: اعتبار سماع الأذان أن يكون المؤذن صيتا، والأصوات هادئة، والريح ساكنة وموقف المؤذن عند سور البلد. وفي الصحيح عن عائشة: أن الناس كانوا ينتابون الجمعة من منازلهم ومن العوالي فيأتون في الغبار ويصيبهم الغبار فتخرج منهم الريح، فقال رسول الله ﷺ: (لو اغتسلتم ليومكم هذا)[١] قال علماؤنا: والصوت إذا كان منيعا والناس في هدوء وسكون فأقصى سماع الصوت ثلاثة أميال. والعوالي من المدينة أقربها على ثلاثة أميال. وقال أحمد بن حنبل وإسحاق: تجب الجمعة على من سمع النداء. وروى الدارقطني من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله ﷺ قال: (إنما الجمعة على من سمع النداء)[٢]. وقال أبو حنيفة وأصحابه: تجب على من في المصر، سمع النداء أو لم يسمعه، ولا تجب على من هو خارج المصر وإن سمع النداء. حتى سئل: وهل تجب الجمعة على أهل زبارة ـ بينها وبين الكوفة مجرى نهر ـ؟ فقال: لا. وروي عن ربيعة أيضا: أنها تجب على من إذا سمع النداء وخرج من بيته ماشيا أدرك الصلاة. وقد روي عن الزهري: أنها تجب عليه إذا سمع الأذان.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾ دليل على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء، والنداء لا يكون إلا بدخول الوقت، بدليل قوله ﷺ: (إذا حضرت الصلاة فأذنا ثم أقيما وليؤمكما أكبركما)[٣] قاله لمالك بن الحويرث وصاحبه. وفي البخاري عن أنس ابن مالك أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس. وقد روي عن أبي الصديق وأحمد بن حنبل أنها تصلى قبل الزوال. وتمسك أحمد في ذلك بحديث سلمة بن الأكوع: كنا نصلي مع النبي ﷺ ثم ننصرف وليس للحيطان ظل. وبحديث ابن عمر: ما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة. ومثله عن سهل. خرجه مسلم. وحديث سلمة محمول على التبكير. رواه هشام بن عبد الملك عن يعلى بن الحارث عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه. وروى وكيع عن يعلى عن إياس عن أبيه قال: كنا نجمع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفيء. وهذا مذهب الجمهور من الخلف والسلف، وقياسا على صلاة الظهر. وحديث ابن عمر وسهل، دليل على أنهم كانوا يبكرون إلى الجمعة تبكيرا كثيرا عند الغداة أو قبلها، فلا يتناولون ذلك إلا بعد انقضاء الصلاة. وقد رأى مالك أن

---

(١) أخرجه البخاري (٩٠٢)، ومسلم (٨٤٧).

(٢) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/ ٦) من طريق زهير بن محمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً، وفيه انقطاع؛ لأن زهيراً لم يسمع من عمرو بن شعيب.

(٣) أخرجاه في الصحيحين.

التبكير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال بيسير. وتأول قول النبي ﷺ: (من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة...) الحديث بكماله إنه كان في ساعة واحدة. وحمله سائر العلماء على ساعات النهار الزمانية الاثنتي عشرة ساعة المستوية أو المختلفة بحسب زيادة النهار ونقصانه. ابن العربي: وهو أصح؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: ما كانوا يقيلون ولا يتغدون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها.

التاسعة: فرض الله تعالى الجمعة على كل مسلم؛ ردا على من يقول: إنها فرض على الكفاية؛ ونقل عن بعض الشافعية. ونقل عن مالك من لم يحقق: أنها سنة. وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان؛ لقول الله تعالى: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين)[١]. وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها. وفي سنن ابن ماجه عن أبي الجعد الضمري ـ وكانت له صحبة ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طبع الله على قلبه)[٢]. إسناده صحيح. وحديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (من ترك الجمعة ثلاثا من غير ضرورة طبع الله على قلبه)[٣]. ابن العربي: وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم)[٤].

العاشرة: أوجب الله السعي إلى الجمعة مطلقا من غير شرط. وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات؛ لقوله عز وجل: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ (المائدة: ٦) الآية. وقال النبي ﷺ: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور)[٥]. وأغربت طائفة فقالت: إن غسل الجمعة فرض. ابن العربي: وهذا باطل؛ لما روى النسائي وأبو داود في سننهما أن النبي ﷺ قال: (من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت. ومن اغتسل فالغسل أفضل)[٦]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء ثم راح إلى الجمعة فاستمع وأنصت غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة وزيادة ثلاثة أيام. ومن مس الحصى فقد لغا)[٧] وهذا نص. وفي الموطأ: أن رجلا دخل يوم الجمعة وعمر بن الخطاب يخطب... ـ الحديث إلى أن قال: ـ ما زدت على أن توضأت، فقال عمر: والوضوء أيضا؟ وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل. فأمر عمر بالغسل ولم يأمره بالرجوع، فدل على أنه محمول على الاستحباب. فلم يمكن وقد تلبس بالفرض ـ وهو الحضور والإنصات للخطبة ـ أن يرجع عنه إلى السنة، وذلك بمحضر فحول الصحابة وكبار المهاجرين حوالي عمر، وفي مسجد النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٥).
(٢) "صحيح" أخرجه أحمد وأصحاب السنن والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٦١٤٣).
(٣) "صحيح" أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٦١٤٠).
(٤) "صحيح" بنحوه في صحيح أبي داود (٣٣٠).
(٥) صحيح، وقد سبق.
(٦) "حسن" انظر صحيح الجامع (٦١٨٠).
(٧) أخرجه مسلم (٨٥٧).

الحادية عشرة: لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد، خلافا لأحمد بن حنبل فإنه قال: إذا اجتمع عيد وجمعة سقط فرض الجمعة؛ لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عنها. وتعلق في ذلك بما روي أن عثمان أذن في يوم عيد لأهل العوالي أن يتخلفوا عن الجمعة. وقول الواحد من الصحابة ليس بحجة إذا خولف فيه ولم يجمع معه عليه. والأمر بالسعي متوجه يوم العيد كتوجهه في سائر الأيام. وفي صحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ (الأعلى: ١) و﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ (الغاشية: ١) قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما أيضا في الصلاتين[١]. أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿ إلى ذكر الله ﴾ أي الصلاة. وقيل: الخطبة والمواعظ؛ قاله سعيد بن جبير. ابن العربي: والصحيح أنه واجب في الجميع؛ وأول الخطبة. وبه قال علماؤنا؛ إلا عبد الملك بن الماجشون فإنه رآها سنة. والدليل على وجوبها أنها تحرم البيع ولولا وجوبها ما حرمته؛ لأن المستحب لا يحرم المباح. وإذا قلنا: إن المراد بالذكر الصلاة فالخطبة من الصلاة. والعبد يكون ذاكرا لله بفعله كما يكون مسبحا لله بفعله. الزمخشري: فإن قلت: كيف يفسر ذكر الله بالخطبة وفيها غير ذلك؟! قلت: ما كان من ذكر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله. فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقاء بعكس ذلك؛ فهو من ذكر الشيطان، وهو من ذكر الله على مراحل.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وذروا البيع ﴾ منع الله عز وجل منه عند صلاة الجمعة، وحرمه في وقتها على من كان مخاطبا بفرضها. والبيع لا يخلو عن شراء فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله تعالى: ﴿ سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ (النحل: ٨١). وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. ومن لا يجب عليه حضور الجمعة فلا ينهى عن البيع والشراء. وفي وقت التحريم قولان: إنه من بعد الزوال إلى الفراغ منها، قاله الضحاك والحسن وعطاء. الثاني ـ من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة، قاله الشافعي. ومذهب مالك أن يترك البيع إذا نودي للصلاة، ويفسخ عنده ما وقع من ذلك من البيع في ذلك الوقت. ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع. قالوا: وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ. ابن العربي: والصحيح فسخ الجميع، لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به. فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعا مفسوخ ردعا. المهدوي: ورأى بعض العلماء البيع في الوقت المذكور جائزا، وتأول النهي عنه ندبا، واستدل بقوله تعالى: "ذلكم خير لكم"

قلت: وهذا مذهب الشافعي؛ فإن البيع ينعقد عنده ولا يفسخ. وقال الزمخشري في تفسيره: إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدي فساد البيع. قالوا: لأن البيع لم يحرم لعينه، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب؛ فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب، والوضوء بماء مغصوب. وعن بعض الناس أنه فاسد.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).

قلت: والصحيح فساده وفسخه؛ لقوله ﷺ: (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد)[١]. أي مردود. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ﴾ هذا أمر إباحة؛ كقوله تعالى: ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ (المائدة: ٢). يقول: إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم. "وابتغوا من فضل الله" أي من رزقه. وكان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين. وقال جعفر بن محمد في قوله تعالى: ﴿ وابتغوا من فضل الله ﴾ إنه العمل في يوم السبت[٢]. وعن الحسن بن سعيد بن المسيب: طلب العمل. وقيل: التطوع. وعن ابن عباس: لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا؛ إنما هو عيادة المرضى وحضور الجنائز وزيارة الأخ في الله تعالى. "واذكروا الله كثيرا" أي بالطاعة واللسان، وبالشكر على ما به أنعم عليكم من التوفيق لأداء الفرائض. "لعلكم تفلحون" كي تفلحوا. قال سعيد بن جبير: الذكر طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذكره ومن لم يطعه فليس بذاكر وإن كان كثير التسبيح. وقد مضى هذا مرفوعا في "البقرة".

﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ فيه سبع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾ في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا - في رواية أنا فيهم - فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة: "وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما". في رواية: فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. وقد ذكر الكلبي وغيره: أن الذي قدم بها دحية بن خليفة الكلبي من الشام عند مجاعة وغلاء سعر، وكان معه جميع ما يحتاج الناس من بر ودقيق وغيره، فنزل عند أحجار الزيت، وضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه؛ فخرج الناس إلا اثني عشر رجلا. وقيل: أحد عشر رجلا. قال الكلبي: وكانوا في خطبة الجمعة فانفضوا إليها، وبقي مع رسول الله ﷺ ثمانية رجال؛ حكاه الثعلبي عن ابن عباس، وذكر الدارقطني من حديث جابر ابن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يخطبنا يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل الطعام حتى نزلت بالبقيع؛ فالتفتوا إليها وانفضوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ ليس معه إلا أربعون رجلا أنا فيهم. قال: وأنزل الله عز وجل على النبي ﷺ: (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما). قال الدارقطني: لم

---

(١) صحيح، وقد سبق.

(٢) في النسخ التي بين أيدينا (السبب). والصواب ما أثبتناه.

يقل في هذا الإسناد "إلا أربعين رجلا" غير علي بن عاصم عن حصين، وخالفه أصحاب حصين فقالوا: لم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلا[(١)]. وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (والذي نفسي بيده لو خرجوا جميعا لأضرم الله عليهم الوادي نارا)؛ ذكره الزمخشري. وروي في حديث مرسل أسماء الاثني عشر رجلا، رواه أسد بن عمرو والد أسد بن موسى بن أسد. وفيه: أن رسول الله ﷺ لم يبق معه إلا أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد وبلال، وعبد الله بن مسعود في إحدى الروايتين. وفي الرواية الأخرى عمار بن ياسر.

قلت: لم يذكر جابرا؛ وقد ذكر مسلم أنه كان فيهم؛ والدارقطني أيضا. فيكونون ثلاثة عشر. وإن كان عبد الله بن مسعود فيهم فهم أربعة عشر. وقد ذكر أبو داود في مراسيله السبب الذي ترخصوا لأنفسهم في ترك سماع الخطبة، وقد كانوا خليقا بفضلهم ألا يفعلوا؛ فقال: حدثنا محمود ابن خالد قال حدثنا الوليد قال أخبرني أبو معاذ بكر بن معروف أنه سمع مقاتل بن حيان قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين، حتى كان يوم جمعة والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل فقال: إن دحية بن خليفة الكلبي قدم بتجارة، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف؛ فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾. فقدم النبي ﷺ الخطبة يوم الجمعة وأخر الصلاة. وكان لا يخرج أحد لرعاف أو أحداث بعد النهي حتى يستأذن النبي ﷺ، يشير إليه بأصبعه التي تلي الإبهام؛ فيأذن له النبي ﷺ ثم يشير إليه بيده. فكان من المنافقين من ثقل عليه الخطبة والجلوس في المسجد، وكان إذا استأذن رجل من المسلمين قام المنافق إلى جنبه مستترا به حتى يخرج؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ (النور: ٦٣)[(٢)] الآية. قال السهيلي: وهذا الخبر وإن لم ينقل من وجه ثابت فالظن الجميل بأصحاب النبي ﷺ يوجب أن يكون صحيحا. وقال قتادة: وبلغنا أنهم فعلوه ثلاث مرات؛ كل مرة عير تقدم من الشام، وكل ذلك يوافق يوم الجمعة. وقيل: إن خروجهم لقدوم دحية الكلبي بتجارته ونظرهم إلى العير تمر، لهو لا فائدة فيه؛ إلا أنه كان مما لا إثم فيه لو وقع على غير ذلك الوجه، ولكنه لما اتصل به الإعراض عن رسول الله ﷺ والانفضاض عن حضرته، غلظ وكبر ونزل فيه من القرآن وتهجينه باسم اللهو ما نزل. وجاء عن وسول الله ﷺ أنه قال: (كل ما يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه)[(٣)]. الحديث. وقد مضى في سورة "الأنفال" فلله الحمد. وقال جابر ابن عبد الله: كانت الجواري إذا نكحن يمررن بالمزامير والطبل فانفضوا إليها؛ فنزلت. وإنما رد الكناية إلى التجارة لأنها أهم. وقرأ طلحة بن مصرف "وإذا رأوا التجارة واللهو انفضوا إليها". وقيل: المعنى وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوا انفضوا إليه فحذف لدلالته. كما قال:

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٢/ ٤، ٥)، وفيه علي بن عاصم، وهو صدوق يخطئ ويصر، ورمي بالتشيع، كما في التقريب (٢/ ٣٩)، وقد خالف فيه أصحاب حصين.

(٢) ضعيف لإرساله.

(٣) تقدم.

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

وقيل: الأجود في العربية أن يجعل الراجع في الذكر للآخر من الاسمين.

الثانية: واختلف العلماء في العدد الذي تنعقد به الجمعة على أقوال؛ فقال الحسن: تنعقد الجمعة باثنين. وقال الليث وأبو يوسف: تنعقد بثلاثة. وقال سفيان الثوري وأبو حنيفة: بأربعة. وقال ربيعة: باثني عشر رجلا. وذكر النجاد أبو بكر أحمد بن سليمان قال: حدثنا أبو خالد يزيد بن الهيثم ابن طهمان الدقاق، حدثنا صبح بن دينار قال حدثنا المعافى بن عمران حدثنا معقل بن عبيد الله عن الزهري بسنده إلى مصعب بن عمير: أن النبي ﷺ بعثه إلى المدينة، وأنه نزل في دار سعد بن معاذ، فجمع بهم وهم اثنا عشر رجلا ذبح لهم يومئذ شاة. وقال الشافعي: بأربعين رجلا. وقال أبو إسحاق الشيرازي في (كتاب التنبيه على مذهب الإمام الشافعي): كل قرية فيها أربعون رجلا بالغين عقلاء أحرارا مقيمين، لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء إلا ظعن حاجة، وأن يكونوا حاضرين من أول الخطبة إلى أن تقام الجمعة وجبت عليهم الجمعة. ومال أحمد وإسحاق إلى هذا القول ولم يشترطا هذه الشروط. وقال مالك: إذا كانت قرية فيها سوق ومسجد فعليهم الجمعة من غير اعتبار عدد. وكتب عمر بن عبد العزيز: أي قرية اجتمع فيها ثلاثون بيتا فعليهم الجمعة. وقال أبو حنيفة: لا تجب الجمعة على أهل السواد والقرى، لا يجوز لهم إقامتها فيها. واشترط في وجوب الجمعة وانعقادها: المصر الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة والنهر الجاري. واحتج بحديث علي: لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر جامع ورفقة تعينهم. وهذا يرده حديث ابن عباس، قال: إن أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ بقرية من قرى البحرين يقال لها جواثي. وحجة الإمام الشافعي في الأربعين حديث جابر المذكور الذي خرجه الدارقطني. وفي سنن ابن ماجه والدارقطني أيضا ودلائل النبوة للبيهقي عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت قائد أبي حين ذهب بصره، فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان، صلى على أبي أمامة واستغفر له ـ قال ـ فمكث كذلك حينا لا يسمع الأذان بالجمعة إلا فعل ذلك؛ فقلت له: يا أبة، استغفارك لأبي أمامة كلما سمعت أذان الجمعة، ما هو؟ قال: أي بني، هو أول من جمع بالمدِينة في هَزْم من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخضمات؛ قال قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلا. وقال جابر بن عبد الله: مضت السنة أن في كل ثلاثة إماما، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة وأضحى وفطرا، وذلك أنهم جماعة. خرجه الدارقطني [1].

وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد: قرئ على عبد الملك بن محمد الرقاشي وأنا أسمع حدثني رجاء بن سلمة قال حدثنا أبي قال حدثنا روح بن غطيف الثقفي قال حدثني الزهري عن أبي سلمة قال: قلت لأبي هريرة على كم تجب الجمعة من رجل؟ قال: لما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ خمسين رجلا جمع بهم رسول الله ﷺ. قرئ على عبد الملك بن محمد وأنا أسمع قال حدثنا رجاء بن سلمة قال حدثنا عباد بن عباد المهلبي عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه الدارقطني (٢/ ٤)، وفيه عبد العزيز بن عبد الرحمن، قال الدارقطني: منكر الحديث. وقال البيهقي بعدما أخرجه في سننه (٣/ ١٧٧): "هذا الحديث لا يحتج بمثله".

(تجب الجمعة على خمسين رجلا ولا تجب على من دون ذلك)[١]. قال ابن المنذر: وكتب عمر بن عبد العزيز: أيما قرية اجتمع فيها خمسون رجلا فليصلوا الجمعة. وروى الزهري عن أم عبد الله الدوسية قالت: قال رسول الله ﷺ: (الجمعة واجبة على كل قرية وإن لم يكن فيها إلا أربعة)[٢]. يعني بالقرى: المدائن. لا يصح هذا عن الزهري. في رواية (الجمعة واجبة على أهل كل قرية وإن لم يكونوا إلا ثلاثة رابعهم إمامهم). الزهري لا يصح سماعه من الدوسية. والحكم هذا متروك[٣].

الثالثة: وتصح الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره. وقال أبو حنيفة: من شرطها الإمام أو خليفته. ودليلنا أن الوليد بن عقبة والي الكوفة أبطأ يوما فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه. وروي أن عليا صلى الجمعة يوم حصر عثمان ولم ينقل أنه استأذنه. وروي أن سعيد بن العاصي والي المدينة لما خرج من المدينة صلى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان. وقال مالك: إن لله فرائض في أرضه لا يضيعها؛ وليها وال أو لم يلها.

الرابعة: قال علماؤنا: من شرط أدائها المسجد المسقف. قال ابن العربي: ولا أعلم وجهه. قلت: وجهه قوله تعالى: ﴿وطهر بيتي للطائفين﴾ (الحج: ٢٦)، وقوله: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ (النور: ٣٦). وحقيقة البيت أن يكون ذا حيطان وسقف. هذا العرف، والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وتركوك قائما﴾ شرط في قيام الخطيب على المنبر إذا خطب. قال علقمة: سئل عبد الله أكان النبي ﷺ يخطب قائما أو قاعدا؟ فقال: أما تقرأ "وتركوك قائما". وفي صحيح مسلم عن كعب بن عجرة أنه دخل المسجد وعبد الرحمن ابن أم الحكم يخطب قاعدا فقال: انظروا إلى هذا الخبيث، يخطب قاعدا وقال الله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما﴾. وخرج عن جابر أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائما ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب؛ فمن نبأك أنه كان يخطب جالسا فقد كذب؛ فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة[٤]. وعلى هذا جمهور الفقهاء وأئمة العلماء. وقال أبو حنيفة: ليس القيام بشرط فيها. ويروى أن أول من خطب قاعدا معاوية. وخطب عثمان قائما حتى رق فخطب قاعدا. وقيل: إن معاوية إنما خطب قاعدا لسنه. وقد كان النبي ﷺ يخطب قائما ثم يقعد ثم يقوم ولا يتكلم في قعدته. رواه جابر بن سمرة. ورواه ابن عمر في كتاب البخاري.

السادسة: والخطبة شرط في انعقاد الجمعة لا تصح إلا بها؛ وهو قول جمهور العلماء. وقال الحسن: هي مستحبة. وكذا قال ابن الماجشون: إنها سنة وليست بفرض. وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر؛ فإذا تركها وصلى الجمعة فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر. والدليل على وجوبها قوله تعالى: ﴿وتركوك قائما﴾. وهذا ذم، والواجب هو الذي يذم تاركه شرعا، ثم إن النبي ﷺ لم يصلها إلا بخطبة.

---

(١) أخرجه الدارقطني في الموضع السابق، وقال: "جعفر بن الزبير متروك".
(٢) أخرجه الدارقطني (٢/ ٧)، وقال: "لا يصح هذا من الزهري".
(٣) أخرجه الدارقطني (٢/ ٧).
(٤) أخرجه مسلم (٩٢٠).

السابعة: ويخطب متوكئا على قوس أو عصا. وفي سنن ابن ماجة قال حدثنا هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن سعد بن عمار بن سعد قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس، وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا[١].

الثامنة: ويسلم إذا صعد المنبر على الناس عند الشافعي وغيره. ولم يره مالك. وقد روى ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان إذا صعد المنبر سلم[٢].

التاسعة: فإن خطب على غير طهارة الخطبة كلها أو بعضها أساء عند مالك؛ ولا إعادة عليه إذا صلى طاهرا. وللشافعي قولان في إيجاب الطهارة؛ فشرطها في الجديد ولم يشترطها في القديم. وهو قول أبي حنيفة.

العاشرة: وأقل ما يجزي في الخطبة أن يحمد الله ويصلي على نبيه ﷺ، ويوصي بتقوى الله ويقرأ آية من القرآن. ويجب في الثانية أربع كالأولى؛ إلا أن الواجب بدلا من قراءة الآية في الأولى الدعاء؛ قال أكثر الفقهاء. وقال أبو حنيفة: لو اقتصر على التحميد أو التسبيح أو التكبير أجزأه. وعن عثمان ﷺ أنه صعد المنبر فقال: الحمد لله، وارتج عليه فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وإنكم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال، وستأتيكم الخطب؛ ثم نزل فصلى. وكان ذلك بحضرة الصحابة فلم ينكر عليه أحد. وقال أبو يوسف ومحمد: الواجب ما تناوله اسم خطبة. وهو قول الشافعي. قال أبو عمر بن عبد البر: وهو أصح ما قيل في ذلك.

الحادية عشرة: في صحيح مسلم عن يعلى بن أمية أنه سمع النبي ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ﴾ (الزخرف: ٧٧). وفيه عن عمرة بنت عبد الرحمن عن أخت لعمرة قالت: ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ (ق: ١) إلا من في رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة. وقد مضى في أول "ق". وفي مراسيل أبي داود عن الزهري قال: كان صدر خطبة النبي ﷺ (الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا. من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. ونشهد أن لا إله إلا الله؛ وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه، فإنما نحن به وله)[٣]. وعنه قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: (كل ما هو آت قريب، ولا بعد لما هو آت. لا يعجل الله لعجلة أحد، ولا يخف لأمر الناس. ما شاء الله لا ما شاء الناس. يريد الله أمرا ويريد الناس أمرا، ما شاء الله كان ولو كره الناس. ولا مبعد لما قرب الله، ولا مقرب لما بعد الله. لا يكون شيء إلا بإذن الله جل وعز)[٤].

وقال جابر: كان النبي ﷺ يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يحمد الله ويصلي على أنبيائه: (أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن العبد المؤمن بين مخافتين بين

---

(١) "ضعيف" انظر ضعيف ابن ماجه (٢٢٨)، وراجع الضعيفة (٩٦٨).
(٢) حسن، انظر صحيح ابن ماجه (٩١٠).
(٣) ضعيف.
(٤) ضعيف.

أجل قد مضى لا يدري ما الله قاض فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم). وقد تقدم ما خطب به ﷺ أول جمعة عند قدومه المدينة.

الثانية عشرة: السكوت للخطبة واجب على من سمعها وجوب سنة. والسنة أن يسكت لها من يسمع ومن لم يسمع، وهما إن شاء الله في الأجر سواء. ومن تكلم حينئذ لغا؛ ولا تفسد صلاته بذلك. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت)[١]. الزمخشري: وإذا قال المنصت لصاحبه صه؛ فقد لغا، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيا؟ نعوذ بالله من غربة الإسلام ونكد الأيام.

الثالثة عشرة: ويستقبل الناس الإمام إذا صعد المنبر؛ لما رواه أبو داود مرسلا عن أبان بن عبد الله قال: كنت مع عدي بن ثابت يوم الجمعة؛ فلما خرج الإمام ـ أو قال صعد المنبر ـ استقبله وقال: هكذا أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون برسول الله ﷺ. خرجه ابن ماجة عن عدي بن ثابت عن أبيه؛ فزاد في الإسناد: عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم[٢]. قال ابن ماجة: أرجو أن يكون متصلا. قلت: وخرج أبو نعيم الحافظ قال حدثنا محمد بن معمر قال حدثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال حدثنا عباد بن يعقوب قال حدثنا محمد بن الفضل الخراساني عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: كان النبي ﷺ إذا استوى على المنبر استقبلناه بوجوهنا. تفرد به محمد بن الفضل بن عطية عن منصور.

الرابعة عشرة: ولا يركع من دخل المسجد والإمام يخطب؛ عند مالك رحمه الله. وهو قول ابن شهاب رحمه الله وغيره. وفي الموطأ عنه: فخروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام. وهذا مرسل. وفي صحيح مسلم من حديث جابر عن النبي ﷺ (إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما). وهذا نص في الركوع. وبه يقول الشافعي وغيره.

الخامسة عشرة: . . . . ابن عون عن ابن سيرين قال: كانوا يكرهون النوم والإمام يخطب ويقولون فيه قولا شديدا. قال ابن عون: ثم لقيني بعد ذلك فقال: تدري ما يقولون؟ قال: يقولون مثلهم كمثل سرية أخفقوا؛ ثم قال: هل تدري ما أخفقوا؟ لم تغنم شيئا. وعن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: (إذا نعس أحدكم فليتحول إلى مقعد صاحبه وليتحول صاحبه إلى مقعده)[٣].

السادسة عشرة: نذكر فيها من فضل الجمعة وفرضيتها ما لم نذكره. روى الأئمة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: (فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله عز

---

(١) أخرجاه في الصحيحين.

(٢) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (٩٣٢).

(٣) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٢/ ١٨٠) وقال: "رواه البزار والطبراني في الكبير، وفيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف". وقد أخرجه أبو داود وغيره من حديث ابن عمر بسند صحيح بلفظ: "إذا نعس أحدكم وهو في المسجد فليتحول عن مجلسه ذلك إلى غيره".

وجل شيئا إلا أعطاه إياه) وأشار بيده يقللها . وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة) . وروي من حديث أنس أن النبي ﷺ أبطأ علينا ذات يوم ؛ فلما خرج قلنا : احتبست! قال : (ذلك أن جبريل أتاني بكهيئة المرآة البيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل قال هذه الجمعة فيها خير لك ولأمتك وقد أرادها اليهود والنصارى فأخطؤوها وهداكم الله لها قلت يا جبريل ما هذه النكتة السوداء قال هذه الساعة التي في يوم الجمعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه أو ادخر له مثله يوم القيامة أو صرف عنه من السوء مثله وإنه خير الأيام عند الله وإن أهل الجنة يسمونه يوم المزيد)[1] . وذكر الحديث . وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا : حدثنا المسعودي عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة في كثيب من كافور أبيض ، فيكونون منه في القرب ـ قال ابن المبارك ـ على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا . وقال يحيى بن سلام : كمسارعتهم إلى الجمعة في الدنيا . وزاد فَيُحْدِث لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك . قال يحيى : وسمعت غير المسعودي يزيد فيه : وهو قوله تعالى : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ (ق : ٣٥) .

قلت : قوله تعالى : (في كثيب) يريد أهل الجنة . أي وهم على كثيب ؛ كما روى الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أهل الجنة ينظرون إلى ربهم في كل جمعة على كثيب من كافور لا يرى طرفاه وفيه نهر جار حافتاه المسك عليه جوار يقرأن القرآن بأحسن أصوات سمعها الأولون والآخرون فإذا انصرفوا إلى منازلهم أخذ كل رجل بيد ما شاء منهن ثم يمرون على قناطر من لؤلؤ إلى منازلهم فلولا أن الله يهديهم إلى منازلهم ما اهتدوا إليها لما يحدث الله لهم في كل جمعة)[2] ذكره يحيى بن سلام . وعن أنس قال : قال النبي ﷺ : (ليلة أسري بي رأيت تحت العرش سبعين مدينة كل مدينة مثل مدائنكم هذه سبعين مرة مملوءة من الملائكة يسبحون الله ويقدسونه ويقولون في تسبيحهم اللهم اغفر لمن شهد الجمعة اللهم اغفر لمن اغتسل يوم الجمعة)[3] ذكره الثعلبي . وخرج القاضي الشريف أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمي العيسوي من ولد عيسى بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم بإسناد صحيح عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يبعث الأيام يوم القيامة على هيئتها ويبعث الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى كريمها تضيء لهم يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضا ، وريحهم يسطع كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ، ينظر إليهم الثقلان ما يطرقون تعجبا يدخلون الجنة لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون)[4] . وفي سنن ابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ : قال (الجمعة إلى الجمعة كفارة ما بينهما ما لم تُغْشَ الكبائر) خرجه مسلم بمعناه .

---

(١) ذكره المنذري في "الترغيب والترهيب" ، (١/ ٤٨٩) وعزاه إلى الطبراني في "الأوسط" بإسناد جيد .

(٢) ضعيف .

(٣) ضعيف .

(٤) "صحيح" أخرجه ابن خزيمة والحاكم ، وانظر الصحيحة (٧٠٦) .

وعن أوس بن أوس الثقفي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها)(١). وعن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا. وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا. وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتؤجروا. واعلموا أن الله قد فرض عليكم الجمعة في مقامي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي وله إمام عادل أو جائر استخفافا بها أو جحودا لها فلا جمع الله شمله ولا بارك له في أمره. ألا ولا صلاة له ولا زكاة له ولا حج له. ألا ولا صوم له ولا بر له حتى يتوب فمن تاب تاب الله عليه. ألا لا تؤمَّنَّ امرأة رجلا ولا يؤم أعرابي مهاجرا ولا يؤم فاجر مؤمنا إلا أن يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه)(٢). وقال ميمون بن أبي شيبة: أردت الجمعة مع الحجاج فتهيأت للذهاب، ثم قلت: أين أذهب أصلي خلف هذا الفاجر؟ فقلت مرة: أذهب، ومرة لا أذهب، ثم أجمع رأيي على الذهاب، فناداني مناد من جانب البيت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ (الجمعة: ٩).

السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة﴾ فيه وجهان: أحدهما: ما عند الله من ثواب صلاتكم خير من لذة لهوكم وفائدة تجارتكم. الثاني: ما عند الله من رزقكم الذي قسمه لكم خير مما أصبتموه من لهوكم وتجارتكم. وقرأ أبو رجاء العطار دي: "قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة للذين آمنوا". "والله خير الرازقين" فمنه فاطلبوا، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٤٠٥).
(٢) "ضعيف" انظر ضعيف ابن ماجه (٢٢٤)، وراجع الإرواء (٥٩١).

سورة المنافقون

قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول: "لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا". وقال: "لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل" فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا؛ فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني. فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل: "إذا جاءك المنافقون - إلى قوله - هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله - إلى قوله - ليخرجن الأعز منها الأذل" فأرسل إلي رسول الله ﷺ، ثم قال: (إن الله قد صدقك)[1] خرجه الترمذي قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الترمذي عن زيد بن أرقم قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب فكنا نبدر الماء، وكان الأعراب يسبقونا إليه فيسبق الأعرابي أصحابه فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة، ويجعل النطع عليه حتى تجيء أصحابه. قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابيا فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه، فانتزع حجرا فغاض الماء؛ فرفع الأعرابي خشبة فضرب بها رأس الأنصاري فشجه، فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبي ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعني الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام؛ فقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمدا بالطعام، فليأكل هو ومن عنده. ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال زيد: وأنا ردف عمي فسمعت عبد الله بن أبي فأخبرت عمي، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ؛ فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد. قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني. قال: فجاء عمي إلي فقال: ما أردت إلى أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمنافقون. قال: فوقع علي من جرأتهم ما لم يقع على أحد. قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر قد خَفَقْتُ برأسي من الهم إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي؛ فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا. ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ قلت: ما قال شيئا إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي؛ فقال: أبشر! ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر. فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين[2]. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وسئل حذيفة بن اليمان عن المنافق، فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به. وهو اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٠)، وفي عدة مواضع من صحيحه، ومسلم (٢٧٧٢).
(٢) "صحيح".

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان). وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)[(١)]. أخبر ﷺ أن من جمع هذه الخصال كان منافقا، وخبره صدق. وروي عن الحسن أنه ذكر لـه هذا الحديث فقال: إن بني يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا وائتمنوا فخانوا. إنما هذا القول من النبي ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لـهم أن يعتادوا هذه الخصال؛ شفقا أن تفضي بهم إلى النفاق. وليس المعنى: أن من بدرت منه هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق. وقد مضى في سورة "التوبة" القول في هذا مستوفى والحمد لله. وقال رسول الله ﷺ :(المؤمن إذا حدث صدق وإذا وعد أنجز وإذا ائتمن وفى). والمعنى: المؤمن الكامل إذا حدث صدق. والله أعلم.

قولـه تعالى: ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ قيل: معنى "نشهد" نحلف. فعبر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب؛ ومنه قول قيس بن ذريح.

وأشـــهد عند الله أني أحبها فهذا لـها عندي فما عندها ليا

ويحتمل أن يكون ذلك محمولا على ظاهره أنهم يشهدون أن محمدا رسول الله ﷺ اعترافا بالإيمان ونفيا للنفاق عن أنفسهم، وهو الأشبه. "والله يعلم إنك لرسولـه" كما قالوه بألسنتهم. "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" أي فيما أظهروا من شهادتهم وحلفهم بألسنتهم. وقال الفراء: "والله يشهد إن المنافقين لكاذبون" بضمائرهم، فالتكذيب راجع إلى الضمائر. وهذا يدل على أن الإيمان تصديق القلب، وعلى أن الكلام الحقيقي كلام القلب. ومن قال شيئا واعتقد خلافه فهو كاذب. وقد مضى هذا المعنى في أول "البقرة" مستوفى وقيل: أكذبهم الله في أيمانهم وهو قولـه تعالى: ﴿ يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ (التوبة: ٥٦).

قوله تعالى:﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ أي سترة. وليس يرجع إلى قولـه "نشهد إنك لرسول الله" وإنما يرجع إلى سبب الآية التي نزلت عليه، حسب ما ذكره البخاري والترمذي عن ابن أبيّ أنه حلف ما قال وقد قال. وقال الضحاك: يعني حلفهم بالله "إنهم لمنكم" وقيل: يعني بأيمانهم ما أخبر الرب عنهم في سورة "التوبة" إذ قال: ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ (التوبة: ٧٤).

الثانية: من قال أقسم بالله أو أشهد بالله أو أعزم بالله أو أحلف بالله، أو أقسمت بالله أو أشهدت بالله أو أعزمت بالله أو أحلفت بالله، فقال في ذلك كلـه "بالله" فلا خلاف أنها يمين. وكذلك عند مالك وأصحابه إن قال: أقسم أو أشهد أو أعزم أو أحلف، ولـم يقل "بالله"، إذا أراد "بالله". وإن لـم يرد "بالله" فليس بيمين. وحكاه الكيا عن الشافعي، قال الشافعي: إذا قال أشهد بالله ونوى اليمين

(١) أخرجاه أيضا في الصحيحين.

كان يمينا . وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو قال أشهد بالله لقد كان كذا كان يمينا ، ولو قال أشهد لقد كان كذا دون النية كان يمينا لـهذه الآية ، لأن الله تعالى ذكر منهم الشهادة ثم قال : "اتخذوا أيمانهم جنة" . وعند الشافعي لا يكون ذلك يمينا وإن نوى اليمين ، لأن قولـه تعالى : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ ليس يرجع إلـى قولـه : "قالوا نشهد" وإنما يرجع إلى ما في "التوبة" من قولـه تعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ (التوبة : ٧٤) .

الثالثة : قولـه تعالى : ﴿ فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أعرضوا ، وهو من الصدود . أو صرفوا المؤمنين عن إقامة حكم الله عليهم من القتل والسبي وأخذ الأموال ، فهو من الصد ، أو منعوا الناس عن الجهاد بأن يتخلفوا ويقتدي بهم غيرهم . وقيل : فصدوا اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام ، بأن يقولوا ها نحن كافرون بهم ، ولو كان محمد حقا لعرف هذا منا ، ولجعلنا نكالا . فبين الله أن حالـهم لا يخفى عليه ، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان أجرى عليه في الظاهر حكم الإيمان . "إنهم ساء ما كانوا يعملون" أي بئست أعمالـهم الخبيثة ـ من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة وصدهم عن سبيل الله ـ أعمالا .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ﴾ هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر . أي أقروا باللسان ثم كفروا بالقلب . وقيل : نزلت الآية في قوم آمنوا ثم ارتدوا "فطبع على قلوبهم" أي ختم عليها بالكفر "فهم لا يفقهون" الإيمان ولا الخير . وقرأ زيد بن علي "فطبع الله على قلوبهم" .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

قولـه تعالى : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ﴾ أي هيئاتهم ومناظرهم . "وإن يقولوا تسمع لقولـهم" يعني عبد الله بن أبي . قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبي وسيما جسيما صحيحا صبيحا ذلق اللسان ، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته . وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة . وقال الكلبي : المراد ابن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير ، كانت لـهم أجسام ومنظر وفصاحة . وفي صحيح مسلم : "كأنهم خشب مسندة" قال : كانوا رجالا أجمل شيء كأنهم خشب مسندة ، شبههم بخشب مسندة إلى الحائط لا يسمعون ولا يعقلون ، أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام . وقيل : شبههم بالخشب التي قد تآكلت فهي مسندة بغيرها لا يعلم ما في بطنها . وقرأ قنبل وأبو عمرو والكسائي "خشْب" بإسكان الشين . وهي قراءة البراء بن عازب واختيار أبي عبيد ، لأن واحدتها خشبة . كما تقول : بَدَنة وبُدْن ، وليس في اللغة فعلة يجمع على فعل . ويلزم من ثقلـها أن تقول : البُدُن ، فتقرأ "والبُدُن" . وذكر اليزيدي أنه جماع الخشباء ، كقوله عز وجل : "وحدائق غلبا" واحدتها حديقة غلباء . وقرأ الباقون بالتثقيل وهي رواية البزي عن ابن كثير وعياش عن أبي عمرو ، وأكثر الروايات عن عاصم . واختاره أبو حاتم ، كأنه جمع خشاب وخشب ، نحو ثمرة وثمار وثمر . وإن شئت جمعت

خشبة على خشب كما قالوا: بدنة وبدن وبدن. وقد روي عن ابن المسيب فتح الخاء والشين في "خشب". قال سيبويه: خشبة وخشب، مثل بدنة وبدن، قال: ومثلـه بغير هاء أسد وأسد، ووثن ووثن وتقرأ خشب وهو جمع الجمع، خشبة وخشاب وخشب، مثل ثمرة وثمار وثمر. والإسناد الإمالة، تقول: أسندت الشيء أي أملته. و"مسندة" للتكثير؛ أي استندوا إلى الأيمان بحقن دمائهم.

قولـه تعالى: ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو ﴾ أي كل أهل صيحة عليهم هم العدو. فـ"هم العدو" في موضع المفعول الثاني على أن الكلام لا ضمير فيه. يصفهم بالجبن والخور. قال مقاتل والسدي: أي إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة أو أنشدت ضالة ظنوا أنهم المرادون؛ لما في قلوبهم من الرعب. كما قال الشاعر وهو الأخطل:

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيـلا تكـر عليهـم ورجـالا

وقيل: "يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو" كلام ضميره فيه لا يفتقر إلى ما بعد؛ وتقديره: يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم بنفاقهم؛ لأن للريبة خوفا. ثم استأنف الله خطاب نبيه ﷺ فقال: "هم العدو" وهذا معنى قول الضحاك وقيل: يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم، وأن النبي ﷺ قد أمر فيها بقتلـهم؛ فهم أبدا وجلون من أن ينزل الله فيهم أمرا يبيح به دماءهم، ويهتك به أستارهم. وفي هذا المعنى قول الشاعر:

فلو أنها عصفورة لحسبتها مسومة تدعو عبيدا وأزنما

بطن من بني يربوع. ثم وصفهم الله بقولـه: "هم العدو فاحذرهم" حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم. وفي قولـه تعالى: "فاحذرهم" وجهان: أحدهما: فاحذر أن تثق بقولـهم أو تميل إلى كلامهم. الثاني: فاحذر ممايلتهم لأعدائك وتخذيلـهم لأصحابك.

قولـه تعالى: ﴿ قاتلـهم الله ﴾ أي لعنهم الله قاله ابن عباس وأبو مالك. وهي كلمة ذم وتوبيخ. وقد تقول العرب: قاتلـه الله ما أشعره! يضعونه موضع التعجب. وقيل: معنى "قاتلـهم الله" أي أحلـهم محل من قاتلـه عدو قاهر؛ لأن الله تعالى قاهر لكل معاند. حكاه ابن عيسى. "أنى يؤفكون" أي يكذبون؛ قالـه ابن عباس. قتادة: معناه يعدلون عن الحق. الحسن: معناه يصرفون عن الرشد. وقيل: معناه كيف تضل عقولـهم عن هذا مع وضوح الدلائل؛ وهو من الإفك وهو الصرف. و"أنى" بمعنى كيف؛ وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ وإذا قيل لـهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ﴾ لما نزل القرآن بصفتهم مشى إليهم عشائرهم وقالوا: افتضحتم بالنفاق فتوبوا إلى رسول الله من النفاق، واطلبوا أن يستغفر لكم. فلووا رؤوسهم؛ أي حركوها استهزاء وإباء؛ قاله ابن عباس. وعنه أنه كان لعبد الله بن أبي موقف في كل سبب يحض على طاعة الله وطاعة رسولـه؛ فقيل لـه: وما ينفعك ذلك ورسول الله ﷺ غضبان: فأته يستغفر لك؛ فأبى وقال: لا أذهب إليه. وسبب نزول هذه الآيات أن النبي ﷺ غزا بني المصطلق على

ماء يقال لـ "المريسيع" من ناحية "قديد" إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال لـه: "جهجاه" مع حليف لعبد الله بن أبي يقال لـه: "سنان" على ماء "بالمشلل"؛ فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سنان بالأنصار؛ فلطم جهجاه سنانا فقال عبد الله بن أبي: أو قد فعلوها! والله ما مثلنا ومثلـهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز ـ يعني أبيا ـ الأذل؛ يعني محمدا ﷺ. ثم قال لقومه: كفوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه. فقال زيد بن أرقم ـ وهو من رهط عبد الله ـ أنت والله الذليل المنتقص في قومك؛ ومحمد ﷺ في عز من الرحمن ومودة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبدا. فقال عبد الله: اسكت إنما كنت ألعب. فأخبر زيد النبي ﷺ بقوله: فأقسم بالله ما فعل ولا قال؛ فعذره النبي ﷺ. قال زيد: فوجدت في نفسي ولامني الناس؛ فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله. فقيل لعبد الله: قد نزلت فيك آيات شديدة فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك؛ فألوى برأسه، فنزلت الآيات. خرجه البخاري ومسلم والترمذي بمعناه. وقد تقدم أول السورة. وقيل: "يستغفر لكم" يستتبكم من النفاق؛ لأن التوبة استغفار.

قولـه تعالى: ﴿ ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ أي يعرضون عن الرسول متكبرين عن الإيمان. وقرأ نافع (لوَوْا) بالتخفيف. وشدد الباقون؛ واختاره أبو عبيد وقال: هو فعل الجماعة. النحاس: وغلط في هذا؛ لأنه نزل في عبد الله بن أبي لما قيل لـه: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ حرك رأسه استهزاء. فإن قيل: كيف أخبر عنه بفعل الجماعة؟ قيل لـه: العرب تفعل هذا إذا كنت عن الإنسان. أنشد سيبويه لحسان:

ظننتم بأن يخفى الذي قد صنعتم وفينا رسول عنده الوحي واضعه

وإنما خاطب حسان ابن الأبيرق في شيء سرقه بمكة. وقصته مشهورة. وقد يجوز أن يخبر عنه وعمن فعل فعلـه. وقيل: قال ابن أبي لما لوى رأسه: أمرتموني أن أومن فقد آمنت، وأن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت؛ فما بقي إلا أن أسجد لمحمد.

قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ سواء عليهم أستغفرت لـهم أم لم تستغفر لـهم ﴾ يعني كل ذلك سواء، لا ينفع استغفارك شيئا؛ لأن الله لا يغفر لـهم. نظيره: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ (البقرة: ٦)، ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ (الشعراء: ١٣٦). وقد تقدم. "إن الله لا يهدي القوم الفاسقين" أي من سبق في علم الله أنه يموت فاسقا.

قوله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ﴾ ذكرنا سبب النزول فيما تقدم. وابن أبي قال: لا تنفقوا على من عند محمد حتى ينفضوا؛ حتى يتفرقوا عنه. فأعلمهم الله سبحانه أن خزائن السموات والأرض لـه، ينفق كيف يشاء. قال رجل لحاتم الأصم:

من أين تأكل؟ فقال: "ولله خزائن السموات والأرض". وقال الجنيد: خزائن السموات الغيوب، وخزائن الأرض القلوب؛ فهو علام الغيوب ومقلب القلوب. وكان الشبلي يقول: "ولله خزائن السموات والأرض" فأين تذهبون. "ولكن المنافقين لا يفقهون" أنه إذا أراد أمرا يسره.

قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

القائل ابن أبي كما تقدم. وقيل: إنه لما قال: "ليخرجن الأعز منها الأذل" ورجع إلى المدينة لم يلبث إلا أياما يسيرة حتى مات؛ فاستغفر لـه رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه؛ فنزلت هذه الآية: "لن يغفر الله لـهم". وقد مضى بيان هذا كلـه في سورة "التوبة" مستوفى. وروي أن عبد الله بن عبد الله ابن أبي بن سلول قال لأبيه: والذي لا إلـه إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنا الأذل؛ فقالـه. توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع؛ فبيّن الله أن العزة والمنعة والقوة لله.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

حذّر المؤمنين أخلاق المنافقين؛ أي لا تشتغلوا بأموالكم كما فعل المنافقون إذ قالوا ـ للشح بأموالـهم ـ: لا تنفقوا على من عند رسول الله. "عن ذكر الله" أي عن الحج والزكاة. وقيل: عن قراءة القرآن. وقيل: عن إدامة الذكر. وقيل: عن الصلوات الخمس؛ قالـه الضحاك. وقال الحسن: جميع الفرائض؛ كأنه قال عن طاعة الله. وقيل: هو خطاب للمنافقين؛ أي آمنتم بالقول فآمنوا بالقلب. "ومن يفعل ذلك" أي من يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه "فأولئك هم الخاسرون".

قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ﴾ يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلا. وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ سأل الرجعة إلى الدنيا ليعمل صالحا. وروى الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: من كان لـه مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت. فقال رجل: يا ابن عباس، اتق الله، إنما سأل الرجعة الكفار. فقال: سأتلو عليك بذلك قرانا: "يا أيها

الذين آمنوا لا تلـهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون. وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين" إلى قولـه "والله خبير بما تعملون" قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: إذا بلغ المال مائتين فصاعدا. قال: فما يوجب الحج؟ قال: الزاد والراحلة(١).

قلت: ذكره الحليمي أبو عبد الله الحسين بن الحسن في كتاب (منهاج الدين) مرفوعا فقال: وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: (من كان عنده مال يبلغه الحج. . .) الحديث؛ فذكره. وقد تقدم في "آل عمران" لفظه(٢).

الثالثة: قال ابن العربي: أخذ ابن عباس بعموم الآية في إنفاق الواجب خاصة دون النفل؛ فأما تفسيره بالزكاة فصحيح كلـه عموما وتقديرا بالمائتين. وأما القول في الحج ففيه إشكال؛ لأنا إن قلنا: إن الحج على التراخي ففي المعصية في الموت قبل الحج خلاف بين العلماء؛ فلا تخرج الآية عليه. وإن قلنا: إن الحج على الفور فالآية في العموم صحيح؛ لأن من وجب عليه الحج فلم يؤده لقي من الله ما يود أنه رجع ليأتي بما ترك من العبادات. وأما تقدير الأمر بالزاد والراحلة ففي ذلك خلاف مشهور بين العلماء. وليس لكلام ابن عباس فيه مدخل؛ لأجل أن الرجعة والوعيد لا يدخل في المسائل المجتهد فيها ولا المختلف عليها، وإنما يدخل في المتفق عليه. والصحيح تناولـه للواجب من الإنفاق كيف تصرف بالإجماع أو بنص القرآن؛ لأجل أن ما عدا ذلك لا يتطرق إليه تحقيق الوعيد.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ لولا ﴾ أي هلا؛ فيكون استفهاما. وقيل: "لا" صلة؛ فيكون الكلام بمعنى التمني. "فأصدق" نصب على جواب التمني بالفاء. "وأكون" عطف على "فأصدق" وهي قراءة ابن عمرو وابن محيصن ومجاهد. وقرأ الباقون "وأكن" بالجزم عطفا على موضع الفاء؛ لأن قولـه: "فأصدق" لو لم تكن الفاء لكان مجزوما؛ أي أصدق. ومثلـه: ﴿ من يضلل الله فلا هادي لـه ويذرهم ﴾ (الأعراف: ١٨٦) فيمن جزم. قال ابن عباس: هذه الآية أشد على أهل التوحيد؛ لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد لـه عند الله خير في الآخرة.

قلت: إلا الشهيد فإنه يتمنى الرجوع حتى يقتل، لما يرى من الكرامة. "والله خبير بما تعملون" من خير وشر. وقراءة العامة بالتاء على الخطاب. وقرأ أبو بكر عن عاصم والسلمي بالياء؛ على الخبر عمن مات وقال هذه المقالة.

---

(١) ضعيف.

(٢) راجع تفسير الآية (٩٧).

سورة التغابن

مقدمة السورة :

مدنية في قول الأكثرين. وقال الضحاك: مكية. وقال الكلبي: هي مكية ومدنية. وهي ثماني عشرة آية. وعن ابن عباس أن "سورة التغابن" نزلت بمكة؛ إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله وولده، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ (التغابن: ١٤) إلى آخر السورة[١].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبي ﷺ: ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة "سورة التغابن"[٢].

قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾

قال ابن عباس: إن الله خلق بني آدم مؤمنا وكافرا، ويعيدهم في يوم القيامة مؤمنا وكافرا. وروى أبو سعيد الخدري قال: خطبنا النبي ﷺ عشية فذكر شيئا مما يكون فقال: (يولد الناس على طبقات شتى. يولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت مؤمنا. ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت كافرا. ويولد الرجل مؤمنا ويعيش مؤمنا ويموت كافرا. ويولد الرجل كافرا ويعيش كافرا ويموت مؤمنا)[٣]. وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: (خلق الله فرعون في بطن أمه كافرا وخلق يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنا)[٤]. وفي الصحيح من حديث ابن مسعود: (وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها). خرجه البخاري والترمذي وليس فيه ذكر الباع.

وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله ﷺ قال: (إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة). قال علماؤنا: والمعنى تعلق العلم الأزلي بكل معلوم؛ فيجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك الكفر.

---

(١) ضعيف.

(٢) ذكره الحافظ ابن كثير في "التفسير"، (٤/ ٣٧٣) من طريق الطبراني وقال: "أورده ابن عساكر في ترجمة الوليد بن صالح وهو غريب جداً بل منكر".

(٣) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٣٤٣)، وعزاه إلى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً.

(٤) أخرجه الطبراني وابن عدي، واللالكائي، ونقل المناوي في "الفيض"، (٣/ ٤٤٩) عن الهيتمي قوله فيه: "إسناده جيد"، وتابعه الشيخ الألباني فأورده في الصحيحة (١٨٣١).

وقيل في الكلام محذوف: فمنكم مؤمن ومنكم كافر ومنكم فاسق؛ فحذف لما في الكلام من الدلالة عليه؛ قاله الحسن. وقال غيره: لا حذف فيه؛ لأن المقصود ذكر الطرفين. وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا. قالوا: وتمام الكلام "هو الذي خلقكم". ثم وصفهم فقال: "فمنكم كافر ومنكم مؤمن" كقوله تعالى: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ (النور: ٤٥) الآية. قالوا: فالله خلقهم؛ والمشي فعلهم. واختاره الحسين بن الفضل، قال: لو خلقهم مؤمنين وكافرين لما وصفهم بفعلهم في قوله "فمنكم كافر ومنكم مؤمن". واحتجوا بقوله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)[١] الحديث. وقد مضى في "الروم" مستوفى. قال الضحاك: فمنكم كافر في السر مؤمن في العلانية كالمنافق، ومنكم مؤمن في السر كافر في العلانية كعمار وذويه. وقال عطاء بن أبي رباح: فمنكم كافر بالله مؤمن بالكواكب، ومنكم مؤمن بالله كافر بالكواكب؛ يعني في شأن الأنواء. وقال الزجاج ـ وهو أحسن الأقوال، والذي عليه الأئمة والجمهور من الأمة ـ: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب؛ مع أن الله خالق الكفر. وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب؛ مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه. ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما غير الذي قدر عليه وعلمه منه؛ لأن وجود خلاف المقدور عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل، ولا يليقان بالله تعالى. وفي هذا سلامة من الجبر والقدر؛ كما قال الشاعر:

يا ناظرا في الدين ما الأمر   لا قـــدرٌ صحَّ ولا جبْر

وقال سيلان: قدم أعرابي البصرة فقيل له: ما تقول في القدر؟ فقال: أمر تغالت فيه الظنون، واختلف فيه المختلفون؛ فالواجب أن نرد ما أشكل علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه.

قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ تقدم في غير موضع؛ أي خلقها حقا يقينا لا ريب فيه. وقيل: الباء بمعنى اللام أي خلقها للحق وهو أن يجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. "وصوركم فأحسن صوركم" يعني آدم عليه السلام، خلقه بيده كرامة له؛ قاله مقاتل. الثاني: جميع الخلائق. وقد مضى معنى التصوير، وأنه التخطيط والتشكيل. فإن قيل: كيف أحسن صورهم؟ قيل له: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه صورة بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب؛ كما قال عز وجل: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (التين: ٤) على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. "وإليه المصير" أي المرجع؛ فيجازي كلا بعمله.

قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

تقدم في غير موضع. فهو عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء.

(١) صحيح، وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ألم يأتكم ﴾ الخطاب لقريش أي ألم يأتكم خبر كفار الأمم الماضية. "فذاقوا وبال أمرهم" أي عوقبوا. "ولهم" في الآخرة "عذاب أليم" أي موجع. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ذلك ﴾ أي هذا العذاب لهم بكفرهم بالرسل تأتيهم "بالبينات" أي بالدلائل الواضحة. "فقالوا أبشر يهدوننا" أنكروا أن يكون الرسول من البشر. وارتفع "أبشر" على الابتداء. وقيل: بإضمار فعل، والجمع على معنى بشر؛ ولهذا قال: "يهدوننا" ولم يقل يهدينا. وقد يأتي الواحد بمعنى الجمع فيكون اسما للجنس؛ وواحده إنسان لا واحد له من لفظه. وقد يأتي الجمع بمعنى الواحد؛ نحو قوله تعالى: ﴿ ما هذا بشرا ﴾ (يوسف: ٣١). "فكفروا وتولوا" أي بهذا القول؛ إذ قالوه استصغارا ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده. وقيل: كفروا بالرسل وتولوا عن البرهان وأعرضوا عن الإيمان والموعظة. "واستغنى الله" أي بسلطانه عن طاعة عباده؛ قاله مقاتل. وقيل: استغنى الله بما أظهره لهم من البرهان وأوضحه لهم من البيان، عن زيادة تدعو إلى الرشد وتقود إلى الهداية.

قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ أي ظنوا. الزعم هو القول بالظن. وقال شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا. قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي مع خباب حسب ما تقدم بيانه في آخر سورة "مريم"، ثم عمت كل كافر. "قل" يا محمد "بلى وربي لتبعثن" أي لتخرجن من قبوركم أحياء. "ثم لتنبؤن" لتخبرن. "بما عملتم" أي بأعمالكم. "وذلك على الله يسير" إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة. "والنور الذي أنزلنا" وهو القرآن، وهو نور يُهْتَدَى به من ظلمة الضلال. "والله بما تعملون خبير".

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ العامل في "يوم" "لتنبؤن" أو "خبير" لما فيه من معنى الوعد؛ كأنه قال: والله يعاقبكم يوم يجمعكم. أو بإضمار اذكر. والغبن: النقص. يقال: غبنه غبنا إذا أخذ الشيء منه بدون قيمته. وقراءة العامة "يجمعكم" بالياء؛ لقولـه تعالى: "والله بما تعملون خبير" فأخبر. ولذكر اسم الله أولا. وقرأ نصر وابن أبي إسحاق والجحدري ويعقوب وسلام "نجمعكم" بالنون؛ اعتبارا بقولـه: "والنور الذي أنزلنا". ويوم الجمع يوم يجمع الله الأولين والآخرين والإنس والجن وأهل السماء وأهل الأرض. وقيل: هو يوم يجمع الله بين كل عبد وعملـه. وقيل: لأنه يجمع فيه بين الظالم والمظلوم. وقيل: لأنه يجمع فيه بين كل نبي وأمته. وقيل: لأنه يجمع فيه بين ثواب أهل الطاعات وعقاب أهل المعاصي. "ذلك يوم التغابن" أي يوم القيامة. قال:

وما أرتجي بالعيش في دار فرقة ألا إنما الراحـات يوم التغابن

وسُمِّيَ يوم القيامة يوم التغابن؛ لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار. أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة؛ فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والجيد بالرديء، والنعيم بالعذاب. يقال: غبنت فلانا إذا بايعته أو شاريته فكان النقص عليه والغلبة لك. وكذا أهل الجنة وأهل النار؛ على ما يأتي بيانه. ويقال: غبنت الثوب وخبنته إذا طال عن مقدارك فخطت منه شيئا؛ فهو نقصان أيضا. والمغابن: ما انثنى من الخلق نحو الإبطين والفخذين. قال المفسرون: فالمغبون من غبن أهلـه ومنازلـه في الجنة. ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام. قال الزجاج: ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان دون منزلته.

الثانية: فإن قيل: فأي معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها. قيل لـه: هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع؛ كما قال تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالـهدى ﴾ (البقرة: ١٦). ولما ذكر أن الكفار اشتروا الضلالة بالـهدى وما ربحوا في تجارتهم بل خسروا، وذكر أيضا أنهم غبنوا؛ وذلك أن أهل الجنة اشتروا الآخرة بترك الدنيا، واشترى أهل النار الدنيا بترك الآخرة. وهذا نوع مبادلة اتساعا ومجازا. وقد فرق الله سبحانه وتعالى الخلق فريقين: فريقا للجنة وفريقا للنار. ومنازل الكل موضوعة في الجنة والنار. فقد يسبق الخذلان على العبد ـ كما بيناه في هذه السورة وغيرها ـ فيكون من أهل النار، فيحصل الموفق على منزل المخذول ومنزل الموفق في النار للمخذول؛ فكأنه وقع التبادل فحصل التغابن. والأمثال موضوعة للبيان في حكم اللغة والقرآن. وذلك كلـه مجموع من نشر الآثار وقد جاءت مفرقة في هذا الكتاب. وقد يخبر عن هذا التبادل بالوراثة كما بيناه في ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ (المؤمنون: ١) والله أعلم. وقد يقع التغابن في غير ذلك اليوم على ما يأتي بيانه بعد؛ ولكنه أراد التغابن الذي لا جبران لنهايته. وقال الحسن وقتادة: بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف: رجل علم علما فعلمه وضيعه هو ولم يعمل به فشقي به، وعمل به من تعلمه منه فنجا به. ورجل اكتسب مالا من وجوه يسأل عنها وشح عليه، وفرط في طاعة ربه بسببه،، ولم يعمل فيه خيرا، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه؛ فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه. ورجل كان لـه عبد فعمل العبد بطاعة ربه

فسعد، وعمل السيد بمعصية ربه فشقي. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله تعالى يقيم الرجل والمرأة يوم القيامة بين يديه فيقول الله تعالى لـهما قولا فما أنتما بقائلين فيقول الرجل يا رب أوجبت نفقتها علي فتعسفتها من حلال وحرام وهؤلاء الخصوم يطلبون ذلك ولم يبق لي ما أوفي به فتقول المرأة يا رب وما عسى أن أقول اكتسبه حراما وأكلته حلالا وعصاك في مرضاتي ولم أرض لـه بذلك فبعدا لـه وسحقا فيقول الله تعالى قد صدقت فيؤمر به إلى النار ويؤمر بها إلى الجنة فتطلع عليه من طبقات الجنة وتقول لـه غبناك غبناك سعدنا بما شقيت أنت به) فذلك يوم التغابن.

الثالثة: قال ابن العربي: استدل علماؤنا بقولـه تعالى: ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ على أنه لا يجوز الغبن في المعاملة الدنيوية؛ لأن الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة فقال: "ذلك يوم التغابن" وهذا الاختصاص يفيد أنه لا غبن في الدنيا؛ فكل من اطلع على غبن في مبيع فإنه مردود إذا زاد على الثلث. واختاره البغداديون واحتجوا عليه بوجوه: منها قولـه ﷺ لحبان بن منقذ: (إذا بايعت فقل لا خلابة ولك الخيار ثلاثا)[١]. وهذا فيه نظر طويل بيناه في مسائل الخلاف. نكتته أن الغبن في الدنيا ممنوع بإجماع في حكم الدين؛ إذ هو من باب الخداع المحرم شرعا في كل ملة، لكن اليسير منه لا يمكن الاحتراز عنه لأحد، فمضى في البيوع؛ إذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبدا؛ لأنه لا يخلو منه، حتى إذا كان كثيرا أمكن الاحتراز منه فوجب الرد به. والفرق بين القليل والكثير أصل في الشريعة معلوم، فقدر علماؤنا الثلث لـهذا الحد؛ إذ رأوه في الوصية وغيرها. ويكون معنى الآية على هذا: ذلك يوم التغابن الجائز مطلقا من غير تفصيل. أو ذلك يوم التغابن الذي لا يستدرك أبدا؛ لأن تغابن الدنيا يستدرك بوجهين: إما برد في بعض الأحوال، وإما بربح في بيع آخر وسلعة أخرى. فأما من خسر الجنة فلا درك لـه أبدا. وقد قال بعض علماء الصوفية: إن الله كتب الغبن على الخلق أجمعين، فلا يلقى أحد ربه إلا مغبونا، لأنه لا يمكنه الاستيفاء للعمل حتى يحصل لـه استيفاء الثواب. وفي الأثر قال النبي ﷺ: (لا يلقى الله أحد إلا نادما إن كان مسيئا إن لم يحسن، وإن كان محسنا إن لم يزدد).

قولـه تعالى: ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته وندخلـه جنات ﴾ قرأ نافع وابن عامر بالنون فيهما، والباقون بالياء.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ يعني القرآن "أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير" لما ذكر ما للمؤمنين ذكر ما للكافرين؛ كما تقدم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ أي بإرادته وقضائه. وقال الفراء: يريد إلا بأمر الله. وقيل: إلا بعلم الله. وقيل: سبب نزولـها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا

(١) أخرجه البخاري وغيره، وقد سبق.

لصانهم الله عن المصائب في الدنيا؛ فبين الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، يقتضي هَمًّا أو يوجب عقابا عاجلا أو آجلا فبعلم الله وقضائه.

قوله تعالى: ﴿ ومن يؤمن بالله ﴾ أي يصدق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله. "يهد قلبه" للصبر والرضا. وقيل: يثبته على الإيمان. وقال أبو عثمان الجيزي: من صح إيمانه يهد الله قلبه لاتباع السنة. وقيل: ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ عند المصيبة فيقول: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ (البقرة: ١٥٦)؛ قاله ابن جبير. وقال ابن عباس: هو أن يجعل الله في قلبه اليقين ليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وقال الكلبي: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر، وإذا ظلم غفر. وقيل: يهد قلبه إلى نيل الثواب في الجنة. وقراءة العامة "يهد" بفتح الياء وكسر الدال؛ لذكر اسم الله أولا. وقرأ السلمي وقتادة "يهد قلبه" بضم الياء وفتح الدال على الفعل المجهول ورفع الباء؛ لأنه اسم فعل لم يسم فاعله.

وقرأ طلحة بن مصرف والأعرج "نهد" بنون على التعظيم "قلبه" بالنصب. وقرأ عكرمة "يهدأ قلبه" بهمزة ساكنة ورفع الباء، أي يسكن ويطمئن. وقرأ مثله مالك بن دينار، إلا أنه لين الهمزة. "والله بكل شيء عليم" لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلم لأمره، ولا كراهة من كرهه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

أي هونوا على أنفسكم المصائب، واشتغلوا بطاعة الله، واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول في العمل بسنته؛ فإن توليتم عن الطاعة فليس على الرسول إلا التبليغ.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي؛ شكا إلى النبي ﷺ جفاء أهله وولده؛ فنزلت. ذكره النحاس. وحكاه الطبري عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة "التغابن" كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ورققوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم؛ فنزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ﴾ الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي. وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة. وروى الترمذي عن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ - قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ، فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم؛

فأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم﴾[(١)] الآية. هذا حديث حسن صحيح.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا يبين وجه العداوة؛ فإن العدو لم يكن عدوا لذاته وإنما كان عدوا بفعله. فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ثم قعد له على طريق الجهاد فقال له أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ويقسم مالك فخالفه فجاهد فقتل، فحق على الله أن يدخله الجنة)[(٢)]. وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة. والثاني: بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب؛ قال الله تعالى: ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ (فصلت: ٢٥). وفي حكمة عيسى ﷺ: من اتخذ أهلا ومالا وولدا كان للدنيا عبدا. وفي صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك في حال العبد؛ قال النبي ﷺ: (تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)[(٣)]. ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم، ولا همة أخس من همة ترتفع بثوب جديد.

كما أن الرجل يكون له ولده وزوجه عدوا كذلك المرأة يكون لها زوجها وولدها عدوا بهذا المعنى بعينه. وعموم قوله: "من أزواجكم" يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فاحذروهم ﴾ معناه على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدين. وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة. فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به. "وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم" روى الطبري عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: فإذا أسلم وفقه قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر، فلأفعلن ولأفعلن؛ قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال: ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم. والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

---

(١) "حسن" انظر صحيح الترمذي (٢٦٤٢).

(٢) "صحيح" أخرجه أحمد والنسائي وابن حبان والبخاري في تاريخه وليس في صحيحه كما قال المصنف، وانظر صحيح النسائي (٢٩٣٧).

(٣) أخرجه البخاري وغيره، وقد سبق.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ أي بلاء واختبار يحملكم على كسب المحرم ومنع حق الله تعالى فلا تطيعوهم في معصية الله. وفي الحديث: (يؤتى برجل يوم القيامة فيقال أكل عيالـه حسناته). وعن بعض السلف: العيال سوس الطاعات. وقال القتيبي: "فتنة" أي إغرام؛ يقال: فتن الرجل بالمرأة أي شغف بها. وقيل: "فتنة" محنة. ومنه قول الشاعر:

لقـد فتن الناس في دينهـم   وخلّى ابن عفان شرا طويلا

وقال ابن مسعود: لا يقولن أحدكم اللهم اعصمني من الفتنة؛ فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ ولكن ليقل: اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن. وقال الحسن في قولـه تعالى: ﴿ إن من أزواجكم ﴾: أدخل "من" للتبعيض؛ لأن كلـهم ليسوا بأعداء. ولم يذكر "من" في قولـه تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما. روى الترمذي وغيره عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: رأيت النبي ﷺ يخطب؛ فجاء الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران؛ فنزل ﷺ فحملـهما بين يديه، ثم قال: (صدق الله عز وجل إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما)[1] ثم أخذ في خطبته. "والله عنده أجر عظيم" يعني الجنة، فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين. وفي الصحيحين واللفظ للبخاري ـ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا يا رب وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[2]. ولا شك في أن الرضا غاية الآمال. وأنشد الصوفية في تحقيق ذلك:

امـــتحن الله بـــه خلقـــه   فالـــنار والجـــنة في قبـــته
فهجـــره أعظـــم من ناره   ووصلـــه أطـــيب من جنته

قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ذهب جماعة من أهل التأويل إلى أن هذه الآية ناسخة لقولـه تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢) منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد. ذكر الطبري: وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قولـه

(١) "صحيح" أخرجه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وغيرهم، وانظر صحيح الترمذي (٢٩٦٨).
(٢) أخرجاه في الصحيحين. وقد سبق.

تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢) قال: جاء أمر شديد، قالوا: ومن يعرف قدر هذا أو يبلغه؟ فلما عرف الله أنه قد اشتد ذلك عليهم نسخها عنهم وجاء بهذه الآية الأخرى فقال: "اتقوا الله ما استطعتم". وقيل: هي محكمة لا نسخ فيها. وقال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢) إنها لم تنسخ، ولكن حق تقاته أن يجاهد لله حق جهاده، ولا يأخذه في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم. وقد تقدم.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الآية محكمة غير منسوخة فما وجه قوله في سورة التغابن: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وكيف يجوز اجتماع الأمر باتقاء الله حق تقاته، والأمر باتقائه ما استطعنا. والأمر باتقائه حق تقاته إيجاب القرآن بغير خصوص ولا وصل بشرط، والأمر باتقائه ما استطعنا أمر باتقائه موصولا بشرط. قيل له: قوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ بمعزل مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢) وإنما عنى بقوله: "فاتقوا الله ما استطعتم" فاتقوا الله أيها الناس وراقبوه فيما جعل فتنة لكم من أموالكم وأولادكم أن تغلبكم فتنتهم، وتصدكم عن الواجب لله عليكم من الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام؛ فتتركوا الهجرة ما استطعتم؛ بمعنى وأنتم للهجرة مستطيعين. وذلك أن الله جل ثناؤه قد كان عذر من لم يقدر على الهجرة بتركها بقوله تعالى: ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ إلى قوله ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ (النساء: ٩٧). فأخبر أنه قد عفا عمن لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا بالإقامة في دار الشرك؛ فكذلك معنى قوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ في الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام أن تتركوها بفتنة أموالكم وأولادكم. ومما يدل على صحة هذا أن قوله: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ عقيب قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾.

ولا خلاف بين السلف من أهل العلم بتأويل القرآن أن هذه الآيات نزلت بسبب قوم كفار تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك؛ حسب ما تقدم. وهذا كله اختيار الطبري. وقيل: "فاتقوا الله ما استطعتم" فيما تطوع به من نافلة أو صدقة؛ فإنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢) اشتد على القوم فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تعالى تخفيفا عنهم: ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ فنسخت الأولى؛ قاله ابن جبير. قال الماوردي: ويحتمل إن لم يثبت هذا النقل أن المكره على المعصية غير مؤاخذ بها؛ لأنه لا يستطيع اتقاءها.

قوله تعالى: ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ أي اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه. وقال مقاتل: اسمعوا" أي اصغوا إلى ما ينزل عليكم من كتاب الله؛ وهو الأصل في السماع. "وأطيعوا" لرسوله فيما أمركم أو نهاكم. وقال قتادة: عليهما بويع النبي ﷺ على السمع والطاعة. وقيل: "واسمعوا" أي اقبلوا ما تسمعون؛ وعبر عنه بالسماع لأنه فائدته.

قلت: وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقصرها على عبد الملك بن مروان فقال: "فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا" هي لعبد الملك بن مروان أمين الله وخليفته، ليس فيها

مثنوية، والله لو أمرت رجلا أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحل لي دمه. وكذب في تأويلها بل هي للنبي ﷺ أولا ثم لأولي الأمر من بعده. دليله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ (النساء: ٥٩).

قوله تعالى: ﴿ وأنفقوا ﴾ قيل: هو الزكاة؛ قاله ابن عباس. وقيل: هو النفقة في النفل. وقال الضحاك: هو النفقة في الجهاد. وقال الحسن: هو نفقة الرجل لنفسه. قال ابن العربي: وإنما أوقع قائل هذا قوله: "لأنفسكم" وخفي عليه أن نفقة النفل والفرض في الصدقة هي نفقة الرجل على نفسه؛ قال الله تعالى: ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾. (الإسراء: ٧). وكل ما يفعله الرجل من خير فإنما هو لنفسه. والصحيح أنها عامة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: (أنفقه على نفسك) قال: عندي آخر؟ قال: (أنفقه على عيالك) قال: عندي آخر؟ قال: (أنفقه على ولدك) قال: عندي آخر؟ قال: (تصدق به)[1] فبدأ بالنفس والأهل والولد وجعل الصدقة بعد ذلك. وهو الأصل في الشرع.

قوله تعالى: ﴿ خيرا لأنفسكم ﴾ "خيرا" نصب بفعل مضمر عند سيبويه؛ دل عليه "وأنفقوا" كأنه قال: ايتُوا في الإنفاق خيرا لأنفسكم، أو قدموا خيرا لأنفسكم من أموالكم. وهو عند الكسائي والفرّاء نعت لمصدر محذوف؛ أي أنفقوا إنفاقا خيرا لأنفسكم. وهو عند أبي عبيدة خبر كان مضمرة؛ أي يكن خيرا لكم. ومن جعل الخير المال فهو منصوب بـ "أنفقوا". "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون" تقدم الكلام فيه. وكذا "إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم" تقدم الكلام فيه. "ويغفر لكم والله شكور حليم" تقدم معنى الشكر في "البقرة". والحليم: الذي لا يعجل.

قوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي ما غاب وحضر. وهو "العزيز" أي الغالب القاهر. فهو من صفات الأفعال، ومنه قوله عز وجل: ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ (الجاثية: ٢). أي من الله القاهر المحكم خالق الأشياء. وقال الخطابي: وقد يكون بمعنى نفاسة القدر، يقال منه: عز يعز (بكسر العين) فيتناول معنى العزيز على هذا أنه لا يعادله شيء وأنه لا مثل له. والله أعلم. "الحكيم" في تدبير خلقه. وقال ابن الأنباري: "الحكيم" هو المحكم لخلق الأشياء، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومنه قوله عز وجل: ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ (يونس: ١) معناه المحكم، فصرف عن مفعل إلى فعيل. والله أعلم.

---

(١) "حسن" أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم، وانظر صحيح أبي داود (١٤٨٣).

سورة الطلاق

مقدمة السورة :

مدنية في قول الجميع . وهي إحدى عشرة آية ، أو اثنتا عشرة آية .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) ﴾ فيه أربع عشرة مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، خوطب بلفظ الجماعة تعظيما وتفخيما . وفي سنن ابن ماجه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ طلق حفصة رضي الله عنها ثم راجعها[١] . وروى قتادة عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة رضي الله عنها فأتت أهلها ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ . وقيل له : راجعها فإنها قوامة صوامة ، وهي من أزواجك في الجنة[٢] . ذكره الماوردي والقشيري والثعلبي . زاد القشيري : ونزل في خروجها إلى أهلها قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ . وقال الكلبي : سبب نزول هذه الآية غضب رسول الله ﷺ على حفصة ، لما أسر إليها حديثا فأظهرته لعائشة فطلقها تطليقة ، فنزلت الآية . وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر ، طلق امرأته حائضا تطليقة واحدة فأمره رسول الله ﷺ بأن يراجعها ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر ، فإذا أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها . فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء[٣] . وقد قيل : إن رجالا فعلوا مثل ما فعل عبد الله بن عمر ، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص ، وعمرو بن سعد بن العاص ، وعتبة بن غزوان ، فنزلت الآية فيهم . قال ابن العربي : وهذا كله وإن لم يكن صحيحا فالقول الأول أمثل . والأصح فيه أنه بيان لشرع مبتدأ . وقد قيل : إنه خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته . وغاير بين اللفظين من حاضر وغائب وذلك لغة فصيحة ، كما قال : ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ﴾ (يونس : ٢٢) . تقديره : يا أيها النبي قل لهم إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن . وهذا هو قولهم : إن الخطاب له وحده والمعنى له وللمؤمنين . وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله : "يا أيها النبي" . فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال : "يا أيها الرسول" .

---

(١) "صحيح" انظر صحيح ابن ماجه (١٦٣٨) ، وراجع الإرواء (١٦٣٨) .

(٢) أصله في البخاري وغيره من غير ذكر سبب النزول .

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٨) ، وفي غير موضع .

قلت: ويدل على صحة هذا القول نزول العدة في أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية. ففي كتاب أبي داود عنها أنها طلقت على عهد النبي ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله تعالى حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق، فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق[١]. وقيل: المراد به نداء النبي ﷺ تعظيما، ثم ابتدأ فقال: "إذا طلقتم النساء"؛ كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ﴾ (المائدة: ٩٠) الآية. فذكر المؤمنين على معنى تقديمهم وتكريمهم؛ ثم افتتح فقال: "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام" الآية.

الثانية: روى الثعلبي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق)[٢]. وعن علي عن النبي ﷺ قال: (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش)[٣]. وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات)[٤]. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق)[٥]. أسند جميعه الثعلبي رحمه الله في كتابه. وروى الدارقطني قال: حدثنا أبو العباس محمد بن موسى بن علي الدولابي ويعقوب بن إبراهيم قالا حدثنا الحسن بن عرفة قال حدثنا إسماعيل بن عياش عن حميد بن مالك اللخمي عن مكحول عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العتاق ولا خلق الله شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق. فإذا قال الرجل لمملوكه أنت حر إن شاء الله فهو حر ولا استثناء له وإذا قال الرجل لامرأته أنت طالق إن شاء الله فله استثناؤه ولا طلاق عليه)[٦]. حدثنا محمد بن موسى بن علي قال: حدثنا حميد بن الربيع قال حدثنا يزيد بن هارون حدثنا إسماعيل بن عياش بإسناده نحوه. قال حميد: قال لي يزيد بن هارون: وأي حديث لو كان حميد بن مالك معروفا؟ قلت: هو جدي. قال يزيد: سررتني سررتني! الآن صار حديثا. حدثنا عثمان بن أحمد الدقاق قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن سنين حدثنا عمر بن إبراهيم بن خالد حدثنا حميد بن مالك اللخمي حدثنا مكحول عن مالك بن يخامر عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق فمن طلق واستثنى فله ثنياه)[٧]. قال ابن المنذر: اختلفوا في الاستثناء في الطلاق والعتق؛ فقالت

---

(١) "حسن" انظر صحيح أبي داود (١٩٩٦).

(٢) "ضعيف" أخرجه أبو داود (٢١٧٨)، ومن طريقه البيهقي في "الكبرى"، (٧/ ٣٢٢)، وانظر ضعيف الجامع (٤٩٨٨)، وراجع الإرواء (٢٠٤٠).

(٣) "موضوع" أخرجه الخطيب في تاريخه والديلمي في مسنده وغيرهما، وفيه عمرو بن جميع، كان يروي المناكير عن المشاهير، والموضوعات عن الأثبات كما قال الخطيب، وانظر ضعيف الجامع (٢٤٢٨) وراجع الضعيفة (٧٣١).

(٤) "ضعيف" أخرجه الطبراني وابن أبي شيبة من طريق ليث عن شهر بن حوشب، وهما ضعيفان، قال المناوي في "الفيض"، (٦/ ٤١١): "قال عبد الحق: وليس لهذا الحديث إسناد قوي. قال ابن القطان: وصدق بل هو مع ذلك منقطع"، وكذا ضعفه الشيخ الألباني في "غاية المرام"، (٢٥٥، ٢٥٦) فراجعه فقد أفاد فيه وأجاد.

(٥) "ضعيف" انظر ضعيف الجامع (٥٠٥٧).

(٦) أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٢٣) من طريق حميد بن مالك عن مكحول عن معاذ مرفوعاً، وهو مع ضعف إسناده منقطع، لأن مكحولاً لم يلق معاذاً، ولذا قال الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة: (٣٢٩٤): "إسناده ضعيف ومنقطع".

(٧) ضعيف. وقد سبق.

طائفة: ذلك جائز. ورويتا هذا القول عن طاوس. وبه قال حماد الكوفي والشافعي وأبو ثور وأصحاب الرأي. ولا يجوز الاستثناء في الطلاق في قول مالك والأوزاعي. وهذا قول قتادة في الطلاق خاصة. قال ابن المنذر: وبالقول الأول أقول.

الثالثة: روى الدارقطني من حديث عبد الرزاق أخبرني عمي وهب بن نافع قال سمعت عكرمة يحدث عن ابن عباس يقول: الطلاق على أربعة وجوه: وجهان حلالان ووجهان حرامان؛ فأما الحلال فأن يطلقها طاهرا عن غير جماع وأن يطلقها حاملا مستبينا حملها. وأما الحرام فأن يطلقها وهي حائض، أو يطلقها حين يجامعها، لا تدري اشتمل الرحم على ولد أم لا.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ في كتاب أبي داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية أنها طلقت على عهد النبي ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله سبحانه حين طلقت أسماء بالعدة للطلاق؛ فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق. وقد تقدم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ لعدتهن ﴾ يقتضي أنهن اللاتي دخل بهن من الأزواج؛ لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ (الأحزاب: ٤٩).

السادسة: من طلق في طهر لم يجامع فيه نفذ طلاقه وأصاب السُّنّة. وإن طلقها حائضا نفذ طلاقه وأخطأ السُّنّة. وقال سعيد بن المسيب في أخرى: لا يقع الطلاق في الحيض لأنه خلاف السنة. وإليه ذهبت الشيعة. وفي الصحيحين ـ واللفظ للدارقطني ـ عن عبد الله بن عمر قال: طلقت امرأتي وهي حائض؛ فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ؛ فتغيظ رسول الله ﷺ فقال: (ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا من حيضتها قبل أن يمسها فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله)(١). وكان عبد الله بن عمر طلقها تطليقة، فحسبت من طلاقها وراجعها عبد الله بن عمر كما أمره رسول الله ﷺ. في رواية عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هي واحدة). وهذا نص. وهو يرد على الشيعة قولهم.

السابعة: عن عبد الله بن مسعود قال: طلاق السُّنّة أن يطلقها في كل طهر تطليقة؛ فإذا كان آخر ذلك فتلك العدة التي أمر الله تعالى بها. رواه الدارقطني عن الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله. قال علماؤنا: طلاق السُّنّة ما جمع شروطا سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهرا، لم يمسها في ذلك الطهر، ولا تقدمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طهر يتلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدم. وقال الشافعي: طلاق السُّنّة أن يطلقها في كل طهر خاصة، ولو طلقها ثلاثا في طهر لم يكن بدعة. وقال أبو حنيفة: طلاق السُّنّة أن يطلقها في كل طهر طلقة. وقال الشعبي: يجوز أن يطلقها في طهر جامعها فيه. فعلماؤنا قالوا: يطلقها واحدة في طهر لم يمس فيه، ولا تبعه طلاق في عدة، ولا يكون الطهر تاليا لحيض وقع فيه الطلاق؛ لقول النبي ﷺ: (مره فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء

---

(١) أخرجه الدارقطني (٤/ ٦)، والبخاري (٥٢٥٨)، وفي غير موضع، ومسلم (١٤٧١).

أمسك وإن شاء طلق. فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لـها النساء). وتعلق الإمام الشافعي بظاهر قولـه تعالى: ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ وهذا عام في كل طلاق كان واحدة أو اثنتين أو أكثر. وإنما راعى الله سبحانه الزمان في هذه الآية ولم يعتبر العدد. وكذلك حديث ابن عمر لأن النبي ﷺ علمه الوقت لا العدد. قال ابن العربي: وهذه غفلة عن الحديث الصحيح؛ فإنه قال: (مره فليراجعها) وهذا يدفع الثلاث. وفي الحديث أنه قال: أرأيت لو طلقها ثلاثا؟ قال: حرمت عليك وبانت منك بمعصية. وقال أبو حنيفة: ظاهر الآية يدل على أن الطلاق الثلاث والواحدة سواء. وهو مذهب الشافعي لولا قولـه بعد ذلك: "لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا". وهذا يبطل دخول الثلاث تحت الآية. وكذلك قال أكثر العلماء؛ وهو بديع لـهم. وأما مالك فلم يخف عليه إطلاق الآية كما قالوا، ولكن الحديث فسرها كما قلنا. وأما قول الشعبي: إنه يجوز طلاق في طهر جامعها فيه، فيرده حديث ابن عمر بنصه ومعناه. أما نصه فقد قدمناه، وأما معناه فلأنه إذا منع من طلاق الحائض لعدم الاعتداد به، فالطهر المجامع فيه أولى بالمنع؛ لأنه يسقط الاعتداد به لمخافة شغل الرحم وبالحيض التالي لـه.

قلت: وقد احتج الشافعي في طلاق الثلاث بكلمة واحدة بما رواه الدارقطني عن سلمة بن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف طلق امرأته تماضر بنت الأصبغ الكلبية وهي أم أبي سلمة ثلاث تطليقات في كلمة واحدة؛ فلم يبلغنا أن أحدا من أصحابه عاب ذلك. قال: وحدثنا سلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المغيرة طلق امرأته فاطمة بنت قيس على عهد رسول الله ﷺ ثلاث تطليقات في كلمة؛ فأبانها منه رسول الله ﷺ، ولم يبلغنا أن النبي ﷺ عاب ذلك عليه. واحتج أيضا بحديث عويمر العجلاني لما لاعن قال: يا رسول الله، هي طالق ثلاث. فلم ينكر عليه النبي ﷺ. وقد انفصل علماؤنا عن هذا أحسن انفصال. بيانه في غير هذا الموضع. وقد ذكرناه في كتاب (المقتبس من شرح موطأ مالك بن أنس). وعن سعيد بن المسيب وجماعة من التابعين أن من خالف السُّنّة في الطلاق فأوقعه في حيض أو ثلاث لم يقع؛ فشبهوه بمن وكل بطلاق السنة فخالف.

الثامنة: قال الجرجاني: اللام في قولـه تعالى: ﴿ لعدتهن ﴾ بمعنى في؛ كقولـه تعالى: ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ (الحشر: ٢). أي في أول الحشر. فقولـه: "لعدتهن" أي في عدتهن؛ أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن. وحصل الإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع وفي الطهر مأذون فيه. ففيه دليل على أن القرء هو الطهر. وقد مضى القول فيه في "البقرة" فإن قيل: معنى "فطلقوهن لعدتهن" أي في قُبُل عدتهن، أو لقُبُل عدتهن. وهي قراءة النبي ﷺ؛ كما قال ابن عمر في صحيح مسلم وغيره. فقُبُل العدة آخر الطهر حتى يكون القرء الحيض، قيل لـه: هذا هو الدليل الواضح لمالك ومن قال بقولـه؛ على أن الأقراء هي الأطهار. ولو كان كما قال الحنفي ومن تبعه لوجب أن يقال: إن من طلق في أول الطهر لا يكون مطلقا لقبل الحيض؛ لأن الحيض لم يقبل بعد. وأيضا إقبال الحيض يكون بدخول الحيض، وبانقضاء الطهر لا يتحقق إقبال الحيض. ولو كان إقبال الشيء إدبار ضده لكان الصائم مفطرا قبل مغيب الشمس؛ إذ

الليل يكون مقبلا في إدبار النهار قبل انقضاء النهار. ثم إذا طلق في آخر الطهر فبقية الطهر قرء، ولأن بعض القرء يسمى قرءا لقوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾(البقرة: ١٩٧) يعني شوالا وذا القعدة وبعض ذي الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه﴾(البقرة: ٢٠٣) وهو ينفر في بعض اليوم الثاني. وقد مضى هذا كله في "البقرة" مستوفى.

التاسعة: قوله تعالى: ﴿وأحصوا العدة﴾ يعني في المدخول بها؛ لأن غير المدخول بها لا عدة عليها، وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، ويكون بعدها كأحد الخطاب. ولا تحل له في الثلاث إلا بعد زوج.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وأحصوا العدة﴾ معناه احفظوها؛ أي احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق، حتى إذا انفصل المشروط منه وهو الثلاثة قروء في قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾(البقرة: ٢٢٨) حلت للأزواج. وهذا يدل على أن العدة هي الأطهار وليست بالحيض. ويؤكده ويفسره قراءة النبي ﷺ "لقبل عدتهن" وقبل الشيء بعضه لغة وحقيقة، بخلاف استقباله فإنه يكون غيره.

الحادية عشرة: من المخاطب بأمر الإحصاء؟ وفيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنهم الأزواج. الثاني: أنهم الزوجات. الثالث: أنهم المسلمون. ابن العربي: "والصحيح أن المخاطب بهذا اللفظ الأزواج؛ لأن الضمائر كلها من "طلقتم" و"أحصوا" و"لا تخرجوا" على نظام واحد يرجع إلى الأزواج، ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج؛ لأن الزوج يحصي ليراجع، وينفق أو يقطع، وليسكن أو يخرج وليلحق نسبه أو يقطع. وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك. وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدة للفتوى عليها، وفصل الخصومة عند المنازعة فيها. وهذه فوائد الإحصاء المأمور به".

الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿واتقوا الله ربكم﴾ أي لا تعصوه. "لا تخرجوهن من بيوتهن" أي ليس للزوج أن يخرجها من مسكن النكاح ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضا لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدة. والرجعية والمبتوتة في هذا سواء. وهذا لصيانة ماء الرجل. وهذا معنى إضافة البيوت إليهن؛ كقوله تعالى: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾(الأحزاب: ٣٤)، وقوله تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾(الأحزاب: ٣٣) فهو إضافة إسكان وليس إضافة تمليك. وقوله: "لا تخرجوهن" يقتضي أن يكون حقا في الأزواج. ويقتضي قوله: "ولا يخرجن" أنه حق على الزوجات. وفي صحيح الحديث عن جابر بن عبد الله قال: طلقت خالتي فأرادت أن تَجُدَّ نخلها فزجرها رجل أن تخرج؛ فأتت النبي ﷺ فقال: (بلى فَجُدِّي نخلك فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلي معروفا). خرجه مسلم. ففي هذا الحديث دليل لمالك والشافعي وابن حنبل والليث على قولهم: إن المعتدة تخرج بالنهار في حوائجها، وإنما تلزم منزلها بالليل. وسواء عند مالك كانت رجعية أو بائنة. وقال الشافعي في الرجعية: لا تخرج ليلا ولا نهارا، وإنما تخرج نهارا المبتوتة. وقال أبو حنيفة: ذلك في المتوفى عنها زوجها، وأما المطلقة فلا تخرج لا ليلا ولا نهارا. والحديث يرد عليه.

وفي الصحيحين أن أبا حفص بن عمرو خرج مع علي بن أبي طالب إلى اليمن، فأرسل إلى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لـها الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة بنفقة؛ فقالا لـها: والله ما لك من نفقة إلا أن تكوني حاملا. فأتت النبيﷺ فذكرت لـه قولـهما. فقال: (لا نفقة لك)، فاستأذنته في الانتقال فأذن لـها؛ فقالت: أين يا رسول الله؟ فقال: (إلى ابن أم مكتوم)، وكان أعمى تضع ثيابها عنده ولا يراها. فلما مضت عدتها أنكحها النبيﷺ أسامة بن زيد. فأرسل إليها مروان قبيصة بن ذؤيب يسألـها عن الحديث، فحدثته. فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، سنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها. فقالت فاطمة حين بلغها قول مروان: فبيني وبينكم القرآن، قال الله عز وجل: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ الآية، قالت: هذا لمن كانت لـه رجعة؛ فأي أمر يحدث بعد الثلاث؟ فكيف تقولون: لا نفقة لـها إذا لم تكن حاملا، فعلام تحبسونها؟ لفظ مسلم. فبين أن الآية في تحريم الإخراج والخروج إنما هو في الرجعية. وكذلك استدلت فاطمة بأن الآية التي تليها إنما تضمنت النهي عن خروج المطلقة الرجعية؛ لأنها بصدد أن يحدث لمطلقها رأي في ارتجاعها ما دامت في عدتها؛ فكأنها تحت تصرف الزوج في كل وقت. وأما البائن فليس لـه شيء من ذلك؛ فيجوز لـها أن تخرج إذا دعتها إلى ذلك حاجة، أو خافت عورة منزلـها؛ كما أباح لـها النبيﷺ ذلك. وفي مسلم ـ قالت فاطمة يا رسول الله، زوجي طلقني ثلاثا وأخاف أن يقتحم علي. قال: فأمرها فتحولت.

وفي البخاري عن عائشة أنها كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها؛ فلذلك أرخص النبيﷺ لـها. وهذا كلـه يرد على الكوفي قوله. وفي حديث فاطمة: أن زوجها أرسل إليها بتطليقة كانت بقيت من طلاقها؛ فهو حجة لمالك وحجة على الشافعي. وهو أصح من حديث سلمة بن أبي سلمة عن أبيه أن حفص بن المغيرة طلق امرأته ثلاث تطليقات في كلمة؛ على ما تقدم.

الثالثة عشرة: قولـه تعالى: ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن عباس وابن عمر والحسن والشعبي ومجاهد: هو الزنى؛ فتخرج ويقام عليها الحد. وعن ابن عباس أيضا والشافعي: أنه البذاء على أحمائها؛ فيحل لـهم إخراجها. وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال في فاطمة: تلك امرأة استطالت على أحمائها بلسانها فأمرهاﷺ أن تنتقل[1]. وفي كتاب أبي داود قال سعيد: تلك امرأة فتنت الناس، إنها كانت لسنة فوضعت على يدي ابن أم مكتوم الأعمى. قال عكرمة: في مصحف أبي "إلا أن يفحشن عليكم". ويقوي هذا أن محمد بن إبراهيم بن الحارث روى أن عائشة قالت لفاطمة بنت قيس: اتقي الله فإنك تعلمين لم أخرجت؟ وعن ابن عباس أيضا: الفاحشة كل معصية كالزنى والسرقة والبذاء على الأهل. وهو اختيار الطبري. وعن ابن عمر أيضا والسدي: الفاحشة خروجها من بيتها في العدة. وتقدير الآية: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق؛

---

(١) قال الشوكاني معلقاً على وصف فاطمة بهذا: "وأما دعوى أن سبب خروجها كان لفحش في لسانها. . . فقد أعاذ الله فاطمة عن ذلك الفحش الذي رماها به، فإنها من خيرة نساء الصحابة فضلاً وعلماً، ومن المهاجرات الأولات، ولهذا ارتضاها رسول اللهﷺ لحبه وابن حبه أسامة، وممن لا يحملها رقة الدين على فحش اللسان الموجب لإخراجها من دارها، ولو صح شيء من ذلك لكان أحق الناس بإنكار ذلك عليها رسول اللهﷺ". نيل الأوطار (٦/ ٣٠٤).

أي لو خرجت كانت عاصية. وقال قتادة: الفاحشة النشوز، وذلك أن يطلقها على النشوز فتتحول عن بيته. قال ابن العربي: أما من قال إنه الخروج للزنى؛ فلا وجه له؛ لأن ذلك الخروج هو خروج القتل والإعدام: وليس ذلك بمستثنى في حلال ولا حرام. وأما من قال: إنه البذاء؛ فهو مفسر في حديث فاطمة بنت قيس. وأما من قال: إنه كل معصية؛ فوهم لأن الغيبة ونحوها من المعاصي لا تبيح الإخراج ولا الخروج. وأما من قال: إنه الخروج بغير حق؛ فهو صحيح. وتقدير الكلام: لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن شرعا إلا أن يخرجن تعديا.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي هذه الأحكام التي بيّنها أحكام الله على العباد، وقد منع التجاوز عنها فمن تجاوز فقد ظلم نفسه وأوردها مورد الهلاك. "لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا" الأمر الذي يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه؛ فيراجعها. وقال جميع المفسرين: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الواحدة والنهي عن الثلاث؛ فإنه إذا طلق أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلا. وقال مقاتل: "بعد ذلك" أي بعد طلقة أو طلقتين "أمرا" أي المراجعة من غير خلاف.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي قاربن انقضاء العدة؛ كقوله تعالى: ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن ﴾ (البقرة: ٢٣١) أي قربن من انقضاء الأجل. "فأمسكوهن بمعروف" يعني المراجعة بالمعروف؛ أي بالرغبة من غير قصد المضارة في الرجعة تطويلا لعدتها. كما تقدم في "البقرة". "أو فارقوهن بمعروف" أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فيملكن أنفسهن. وفي قوله تعالى: "فإذا بلغن أجلهن" ما يوجب أن يكون القول قول المرأة في انقضاء العدة إذا ادعت ذلك، على ما بيّناه في سورة "البقرة" عند قوله تعالى: ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ (البقرة: ٢٢٨) الآية.

قوله تعالى: ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ وأشهدوا ﴾ أمر بالإشهاد على الطلاق. وقيل: على الرجعة. والظاهر رجوعه إلى الرجعة لا إلى الطلاق. فإن راجع من غير إشهاد ففي صحة الرجعة قولان للفقهاء. وقيل: المعنى وأشهدوا عند الرجعة والفرقة جميعا. وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبي حنيفة؛ كقوله تعالى: ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ (البقرة: ٢٨٢). وعند الشافعي واجب في الرجعة، مندوب إليه في الفرقة. وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يتهم في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدعي الباقي ثبوت الزوجية ليرث.

الثانية: الإشهاد عند أكثر العلماء على الرجعة ندب. وإذا جامع أو قَبَّل أو باشر يريد بذلك الرجعة، وتكلم بالرجعة يريد به الرجعة فهو مراجع عند مالك، وإن لم يرد بذلك الرجعة فليس بمراجع. وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا قَبَّل أو باشر أو لامس بشهوة فهو رجعة. وقالوا: والنظر إلى الفرج رجعة. وقال الشافعي وأبو ثور: إذا تكلم بالرجعة فهو رجعة. وقد قيل: وطؤه مراجعة على كل حال، نواها أو لم ينوها. وروي ذلك عن طائفة من أصحاب مالك. وإليه ذهب الليث. وكان مالك يقول: إذا وطئ ولم ينو الرجعة فهو وطء فاسد؛ ولا يعود لوطئها حتى يستبرئها من مائه الفاسد، وله الرجعة في بقية العدة الأولى، وليس له رجعة في هذا الاستبراء.

الثالثة: أوجب الإشهاد في الرجعة أحمد بن حنبل في أحد قوليه، والشافعي كذلك لظاهر الأمر. وقال مالك وأبو حنيفة وأحمد والشافعي في القول الآخر: إن الرجعة لا تفتقر إلى القبول، فلم تفتقر إلى الإشهاد كسائر الحقوق، وخصوصا حل الظهار بالكفارة. قال ابن العربي: وركب أصحاب الشافعي على وجوب الإشهاد في الرجعة أنه لا يصح أن يقول: كنت راجعت أمس وأنا أشهد اليوم على الإقرار بالرجعة، ومن شرط الرجعة الإشهاد فلا تصح دونه. وهذا فاسد مبني على أن الإشهاد في الرجعة تعبد. ونحن لا نسلم فيها ولا في النكاح بأن نقول: إنه موضع للتوثق، وذلك موجود في الإقرار كما هو موجود في الإنشاء.

الرابعة: من ادعى بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته في العدة، فإن صدقته جاز وإن أنكرت حلفت، فإن أقام بينة أنه ارتجعها في العدة ولم تعلم بذلك لم يضره جهلها بذلك، وكانت زوجته، وإن كانت قد تزوجت ولم يدخل بها ثم أقام الأول البينة على رجعتها فعن مالك في ذلك روايتان: إحداهما: أن الأول أحق بها. والأخرى: أن الثاني أحق بها. فإن كان الثاني قد دخل بها فلا سبيل للأول إليها.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ ذوي عدل منكم ﴾ قال الحسن: من المسلمين. وعن قتادة: من أحراركم. وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث؛ لأن "ذوي" مذكر. ولذلك قال علماؤنا: لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال. وقد مضى ذلك في سورة "البقرة".

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي تقربا إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها، إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير. وقد مضى في سورة "البقرة" معناه عند قوله تعالى: ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ (البقرة: ٢٨٢). "ذلكم يوعظ به" أي يرضى به. "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" فأما غير المؤمن فلا ينتفع بهذه المواعظ.

قوله تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ عن النبي ﷺ أنه سئل عمن طلق ثلاثا أو ألفا هل له من مخرج؟ فتلاها. وقال ابن عباس والشعبي والضحاك: هذا في الطلاق خاصة؛ أي من طلق كما أمره الله يكن له مخرج في الرجعة في العدة، وأن يكون كأحد الخطاب بعد العدة. وعن ابن عباس أيضا "يجعل له مخرجا" ينجيه من كل كرب في الدنيا والآخرة. وقيل: المخرج هو أن يقنعه الله بما رزقه؛ قاله علي بن صالح. وقال الكلبي: "ومن يتق الله" بالصبر عند المصيبة. "يجعل له مخرجا" من النار

إلى الجنة. وقال الحسن: مخرجا مما نهى الله عنه. وقال أبو العالية: مخرجا من كل شدة. الربيع بن خيثم: "يجعل لـه مخرجا" من كل شيء ضاق على الناس. الحسين بن الفضل: "ومن يتق الله" في أداء الفرائض، "يجعل لـه مخرجا" من العقوبة. "ويرزقه" الثواب "من حيث لا يحتسب" أي يبارك لـه فيما آتاه. وقال سهل بن عبد الله: "ومن يتق الله" في اتباع السنة "يجعل لـه مخرجا" من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب. وقيل: "ومن يتق الله" في الرزق بقطع العلائق يجعل لـه مخرجا بالكفاية. وقال عمر بن عثمان الصدفي: "ومن يتق الله" فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضيق إلى السعة، ومن النار إلى الجنة. "ويرزقه من حيث لا يحتسب" من حيث لا يرجو. وقال ابن عيينة: هو البركة في الرزق. وقال أبو سعيد الخدري: ومن يبرأ من حولـه وقوته بالرجوع إلى الله يجعل لـه مخرجا مما كلفه بالمعونة لـه. وتأول ابن مسعود ومسروق الآية على العموم. وقال أبو ذر: قال النبي ﷺ: (إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم - ثم تلا - "ومن يتق الله يجعل لـه مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب"). فما زال يكررها ويعيدها[١].

وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ "ومن يتق الله يجعل لـه مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب" قال: (مخرجا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة)[٢]. وقال أكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبي: إنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي. روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن ابني أسره العدو وجزعت الأم. وعن جابر بن عبد الله: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنا لـه يسمى سالما، فأتـى رسول الله ﷺ وشكا إليه الفاقة وقال: إن العدو أسر ابني وجزعت الأم، فما تأمرني؟ فقال ﷺ: (اتق الله واصبر وآمرك وإياها أن تستكثرا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله). فعاد إلى بيته وقال لامرأته: إن رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نستكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله. فقالت: نعم ما أمرنا به. فجعلا يقولان؛ فغفل العدو عن ابنه، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه؛ وهي أربعة آلاف شاة. فنزلت الآية[٣]، وجعل النبي ﷺ تلك الأغنام لـه. في رواية: أنه جاء وقد أصاب إبلا من العدو وكان فقيرا. قال الكلبي: أصاب خمسين بعيرا. وفي رواية: فأفلت ابنه من الأسر وركب ناقة للقوم، ومر في طريقه بسرح لـهم فاستاقه. وقال مقاتل: أصاب غنما ومتاعا فسأل النبي ﷺ: أيحل لي أن آكل مما أتى به ابني؟ قال: (نعم). ونزلت: "ومن يتق الله يجعل لـه مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب". فروى الحسن عن عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ: (من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا وكلـه الله إليها)[٤]. وقال الزجاج: أي إذا اتقى وآثر الحلال والتصبر على أهلـه، فتح الله عليه إن كان ذا ضيقة ورزقه من حيث لا يحتسب.

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه والدارمي، وقال الشيخ الألباني في تعليقه على المشكاة (٥٣٠٦): "إسناده منقطع".

(٢) ذكره الديلمي في "فردوس الأخبار"، (٥/ ١٣٢) بغير إسناد، والعجلوني في "كشف الخفاء"، (٢/ ٣٤٥).

(٣) ذكره الواحدي في "أسباب النزول"، (ص٣٢٣، ٣٢٤).

(٤) "ضعيف" ذكره الهيثمي في "المجمع"، (١٠/٣٠٣) وقال: "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يغرب ويخطئ ويخالف وبقية رجاله ثقات".

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (من أكثر الاستغفار جعل الله لـه من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)[1].

قولـه تعالى: ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أي من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه. وقيل: أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه، فلـه فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية. ولم يرد الدنيا؛ لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل. "إن الله بالغ أمره" قال مسروق: أي قاض أمره فيمن توكل عليه وفيمن لم يتوكل عليه؛ إلا أن من توكل عليه فيكفر عنه سيئاته ويعظم لـه أجرا. وقراءة العامة "بالغ" منونا. "أمره" نصبا. وقرأ عاصم "بالغ أمره" بالإضافة وحذف التنوين استخفافا. وقرأ المفضل "بالغا أمره" على أن قولـه: "قد جعل الله" خبر "إن" و"بالغا" حال. وقرأ داود بن أبي هند "بالغ أمره" بالتنوين ورفع الراء. قال الفراء: أي أمره بالغ. وقيل: "أمره" مرتفع "ببالغ" والمفعول محذوف؛ والتقدير: بالغ أمره ما أراد. "قد جعل الله لكل شيء قدرا" أي لكل شيء من الشدة والرخاء أجلا ينتهي إليه. وقيل تقديرا. وقال السدي: هو قدر الحيض في الأجل والعدة. وقال عبد الله بن رافع: لما نزل قولـه تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه" قال أصحاب النبي ﷺ: فنحن إذا توكلنا عليه نرسل ما كان لنا ولا نحفظه؛ فنزلت: "إن الله بالغ أمره" فيكم وعليكم. وقال الربيع بن خيثم: إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وثق به نجاه، ومن دعاه أجاب لـه. وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ (التغابن: ١١). ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (الطلاق: ٣). ﴿ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم﴾ (التغابن: ١٧). ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ (آل عمران: ١٠١). ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (البقرة: ١٨٦).

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ فيه سبع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ﴾ لما بين أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء، عرفهم في هذه السورة عدة التي لا ترى الدم وقال أبو عثمان عمر بن سالم: لما نزلت عدة النساء في سورة "البقرة" في المطلقة والمتوفى عنها زوجها قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن ناسا يقولون قد بقي من النساء من لم يذكر فيهن شيء: الصغار وذوات الحمل، فنزلت: "واللائي يئسن" الآية. وقال مقاتل: لما ذكر قولـه تعالى: ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ (البقرة: ٢٢٨) قال خلاد بن النعمان: يا رسول الله، فما عدة التي لم

---

(١) "ضعيف" أخرجه أحمد والحاكم، وانظر ضعيف الجامع (٥٤٨٠)، وراجع الضعيفة (٧٠٦).

تحض، وعدة التي انقطع حيضها، وعدة الحبلى؟ فنزلت: "واللائي يئسن من المحيض من نسائكم" يعني قعدن عن المحيض. وقيل: إن معاذ بن جبل سأل عن عدة الكبيرة التي يئست؛ فنزلت الآية. والله أعلم. وقال مجاهد: الآية واردة في المستحاضة لا تدري دم حيض هو أو دم علة.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي شككتم، وقيل تيقنتم. وهو من الأضداد؛ يكون شكا ويقينا كالظن. واختيار الطبري أن يكون المعنى: إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن. وقال الزجاج: إن ارتبتم في حيضها وقد انقطع عنها الحيض وكانت ممن يحيض مثلـها. القشيري: وفي هذا نظر؛ لأنا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر. والمعتبر في سن اليأس في قول: أقصى عادة امرأة في العالم، وفي قول: غالب نساء عشيرة المرأة. وقال مجاهد: قولـه "إن ارتبتمْ" للمخاطبين؛ يعني إن لـم تعلموا كم عدة اليائسة والتي لم تحض فالعدة هذه. وقيل: المعنى إن ارتبتم أن الدم الذي يظهر منها من أجل كبر أو من الحيض المعهود أو من الاستحاضة فالعدة ثلاثة أشهر. وقال عكرمة وقتادة: من الريبة المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لـها الحيض؛ تحيض في أول الشهر مرارا وفي الأشهر مرة. وقيل: إنه متصل بأول السـورة. والمعنى: لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدة. وهو أصح ما قيل فيه.

الثالثة: المرتابة في عدتها لا تنكح حتى تستبرئ نفسها من ريبتها ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة. وقد قيل في المرتابة التي ترفعها حيضتها وهي لا تدري ما ترفعها: إنها تنتظر سنة من يوم طلقها زوجها؛ منها تسعة أشهر استبراء، وثلاثة عدة. فإن طلقها فحاضت حيضة أو حيضتين ثم ارتفع عنها بغير يأس منها انتظرت تسعة أشهر، ثم ثلاثة من يوم طهرت من حيضتها ثم حلت للأزواج. وهذا قالـه الشافعي بالعراق. فعلى قياس هذا القول تقيم الحرة المتوفى عنها زوجها المستبرأة بعد التسعة أشهر أربعة أشهر وعشرا، والأمة شهرين وخمس ليال بعد التسعة الأشهر. وروي عن الشافعي أيضا أن أقراءها على ما كانت حتى تبلـغ سن اليائسات. وهو قول النخعي والثوري وغيرهما، وحكاه أبو عبيد عن أهل العراق.

الرابعة: فإن كانت المرأة شابة استؤني بها هل هي حامل أم لا؛ فإن استبان حملـها فإن أجلـها وضعه. وإن لم يستبن فقال مالك: عدة التي ارتفع حيضها وهي شابة سنة. وبه قال أحمد وإسحاق ورووه عن عمر بن الخطاب ﷺ وغيره. وأهل العراق يرون أن عدتها ثلاث حيض بعدما كانت حاضت مرة واحدة في عمرها، وإن مكثت عشرين سنة، إلا أن تبلغ من الكبر مبلغا تيأس فيه من الحيض فتكون عدتها بعد الإياس ثلاثة أشهر. قال الثعلبي: وهذا الأصح من مذهب الشافعي وعليه جمهور العلماء. وروي ذلك عن ابن مسعود وأصحابه. قال الكيا: وهو الحق؛ لأن الله تعالى جعل عدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ والمرتابة ليست آيسة.

الخامسة: وأما من تأخر حيضها لمرض؛ فقال مالك وابن القاسم وعبد الله بن أصبغ: تعتد تسعة أشهر ثم ثلاثة. وقال أشهب: هي كالمرضع بعد الفطام بالحيض أو بالسنة. وقد طلق حبان بن منقذ امرأته وهي ترضع؛ فمكثت سنة لا تحيض لأجل الرضاع، ثم مرض حبان فخاف أن ترثه فخاصمها

إلى عثمان وعنده علي وزيد، فقالا: نرى أن ترثه؛ لأنها ليست من القواعد ولا من الصغار؛ فمات حبان فورثته واعتدت عدة الوفاة.

السادسة: ولو تأخر الحيض لغير مرض ولا رضاع فإنها تنتظر سنة لا حيض فيها، تسعة أشهر ثم ثلاثة؛ على ما ذكرناه. فتحل ما لم ترتب بحمل؛ فإن ارتابت بحمل أقامت أربعة أعوام، أو خمسة، أو سبعة؛ على اختلاف الروايات عن علمائنا. ومشهورها خمسة أعوام؛ فإن تجاوزتها حلت. وقال أشهب: لا تحل أبدا حتى تنقطع عنها الريبة. قال ابن العربي: وهو الصحيح؛ لأنه إذا جاز أن يبقى الولد في بطنها خمسة أعوام جاز أن يبقى عشرة وأكثر من ذلك. وقد روي عن مالك مثله.

السابعة: وأما التي جهل حيضها بالاستحاضة ففيها ثلاثة أقوال: قال ابن المسيب: تعتد سنة. وهو قول الليث. قال الليث: عدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت مستحاضة سَنَةٌ. وهو مشهور قول علمائنا؛ سواء علمت دم حيضها من دم استحاضتها، وميزت ذلك أو لم تميزه، عدتها في ذلك كله عند مالك في تحصيل مذهبه سنة؛ منها تسعة أشهر استبراء وثلاثة عدة. وقال الشافعي في أحد أقواله: عدتها ثلاثة أشهر. وهو قول جماعة من التابعين والمتأخرين من القرويين. ابن العربي: وهو الصحيح عندي. وقال أبو عمر: المستحاضة إذا كان دمها ينفصل فعلمت إقبال حيضتها أو إدبارها اعتدت ثلاثة قروء. وهذا أصح في النظر، وأثبت في القياس والأثر.

قوله تعالى: ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ ـ يعني الصغيرة ـ فعدتهن ثلاثة أشهر؛ فأضمر الخبر. وإنما كانت عدتها بالأشهر لعدم الأقراء فيها عادة، والأحكام إنما أجراها الله تعالى على العادات؛ فهي تعتد بالأشهر. فإذا رأت الدم في زمن احتماله عند النساء انتقلت إلى الدم لوجود الأصل، وإذا وجد الأصل لم يبق للبدل حكم؛ كما أن المسنة إذا اعتدت بالدم ثم ارتفع عادت إلى الأشهر. وهذا إجماع.

قوله تعالى: ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن﴾ وضع الحمل، وإن كان ظاهرا في المطلقة لأنه عليها عطف وإليها رجع عقب الكلام؛ فإنه في المتوفى عنها زوجها كذلك؛ لعموم الآية وحديث سُبَيْعة. وقد مضى في "البقرة" القول فيه مستوفى.

الثانية: إذا وضعت المرأة ما وضعت من علقة أو مضغة حلت. وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا تحل إلا بما يكون ولدا. وقد مضى القول فيه في سورة "البقرة" وسورة "الرعد" والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ قال الضحاك: أي من يتقه في طلاق السنة يجعل له من أمره يسرا في الرجعة. مقاتل: ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسرا في توفيقه للطاعة. "ذلك أمر الله" أي الذي ذكر من الأحكام أمر الله أنزله إليكم وبينه لكم. "ومن يتق الله" أي يعمل بطاعته. "يكفر عنه سيئاته" من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة. "ويعظم له أجرا" أي في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ

﴿أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم﴾ قال أشهب عن مالك: يخرج عنها إذا طلقها ويتركها في المنزل؛ لقولـه تعالى: ﴿أسكنوهن﴾. فلو كان معها ما قال أسكنوهن. وقال ابن نافع: قال مالك في قول الله تعالى: ﴿أسكنوهن من حيث سكنتم﴾ يعني المطلقات اللائي بنَّ من أزواجهن فلا رجعة لـهم عليهن وليست حاملا، فلـها السكنى ولا نفقة لـها ولا كسوة، لأنها بائن منه، لا يتوارثان ولا رجعة لـه عليها. وإن كانت حاملا فلـها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضي عدتها. أما من لم تبن منهن فإنهن نساؤهم يتوارثون، ولا يخرجن إلا أن يأذن لـهن أزواجهن ما كنّ في عدتهن، ولم يؤمروا بالسكنى لـهن لأن ذلك لازم لأزواجهن مع نفقتهن وكسوتهن، حوامل كن أو غير حوامل. وإنما أمر الله بالسكنى للائي بنَّ من أزواجهن مع نفقتهن، قال الله تعالى: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملـهن﴾ فجعل عز وجل للحوامل اللائي قد بنَّ من أزواجهن السكنى والنفقة. قال ابن العربي: وبسط ذلك وتحقيقه أن الله سبحانه لما ذكر السكنَى أطلقها لكل مطلقة، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لـها. وهي مسألة عظيمة قد مهدنا سبلـها قرآنا وسنة ومعنى في مسائل الخلاف. وهذا مأخذها من القرآن.

قلت: اختلف العلماء في المطلقة ثلاثا على ثلاثة أقوال، فمذهب مالك والشافعي: أن لـها السكنى ولا نفقة لـها. ومذهب أبي حنيفة وأصحابه: أن لـها السكنى والنفقة. ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور: أن لا نفقة لـها ولا سكنى، على حديث فاطمة بنت قيس، قالت: دخلت إلى رسول الله ﷺ ومعي أخو زوجي فقلت: إن زوجي طلقني وإن هذا يزعم أن ليس لي سكنى ولا نفقة؟ قال: (بل لك السكنى ولك النفقة). قال: إن زوجها طلقها ثلاثا. فقال رسول الله ﷺ: (إنما السكنى والنفقة على من لـه عليها الرجعة). فلما قدمت الكوفة طلبني الأسود بن يزيد ليسألني عن ذلك، وإن أصحاب عبد الله يقولون: إن لـها السكنى والنفقة. خرجه الدارقطني[(١)]. ولفظ مسلم عنها: أنه طلقها زوجها في عهد النبي ﷺ، وكان أنفق عليها نفقة دُون، فلما رأت ذلك قالت: والله لأعلمن رسول الله ﷺ، فإن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحني وإنّ لم تكن لي نفقة لم آخذ شيئا. قالت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (لا نفقة لك ولا سكنى)[(٢)]. وذكر الدارقطني عن الأسود قال: قال عمر لما بلغه قول فاطمة بنت قيس: لا نجيز في المسلمين قول امرأة. وكان يجعل للمطلقة ثلاثا السكنى والنفقة[(٣)]. وعن الشعبي قال: لقيني الأسود بن يزيد فقال. يا شعبي، اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس؛ فإن عمر كان يجعل لـها السكنى والنفقة. قلت: لا أرجع عن شيء حدثتني به فاطمة بنت قيس عن رسول الله ﷺ[(٤)].

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٢٣)، وفي سنده جابر الجعفي، وهو ضعيف رافضي كما في "التقريب"، (١/ ١٢٣).

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (١٤٨٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٤/ ١٦)، والبيهقي في "الكبرى"، (٧/ ٣٧٥).

(٤) أخرجه الدارقطني الموضع السابق، وقال ابن القيم معلقا: "ونحن نشهد بالله شهادة نسأل عنها إذا لقيناه أن هذا كذب على عمر، وكذب على رسول الله ﷺ وينبغي أن لا يحمل الإنسان فرط الانتصار للمذهب والتعصب على=

قلت: ما أحسن هذا. وقد قال قتادة وابن أبي ليلى: لا سكنى إلا للرجعية؛ لقولـه تعالى: ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ (الطلاق: ١)، وقولـه تعالى: ﴿ أسكنوهن ﴾ راجع إلى ما قبلـه، وهي المطلقة الرجعية. والله أعلم. ولأن السكنى تابعة للنفقة وجارية مجراها؛ فلما لم تجب للمبتوتة نفقة لم يجب لـها سكنى. وحجة أبي حنيفة أن للمبتوتة النفقة قولـه تعالى: ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ وترك النفقة من أكبر الأضرار. وفي إنكار عمر على فاطمة قولـها ما يبين هذا، ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لـها النفقة كالرجعية، ولأنها محبوسة عليه لحقِّه فاستحقت النفقة كالزوجة. ودليل مالك قولـه تعالى: ﴿ وإن كن أولات حمل ﴾ الآية. على ما تقدم بيانـه. وقـد قـيل: إن الله تعالـى ذكر المطلقة الرجعية وأحكامها أول الآية إلى قولـه: ﴿ ذوي عدل منكم ﴾ (الطلاق: ٢) ثم ذكر بعد ذلك حكما يعم المطلقات كلـهن من تعديد الأشهر وغير ذلك. وهو عام في كل مطلقة؛ فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كل مطلقة.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ من وُجدكم ﴾ أي من سعتكم؛ يقال وجدت في المال أجدُ وُجْداً ووَجْداً ووجْداً وجدَةً. والوجد: الغنى والمقدرة. وقراءة العامة بضم الواو. وقرأ الأعرج والزَهري بفتحها، ويعقوب بكَسرها. وكلـها لغات فيها.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ قال مجاهد: في المسكن. مقاتل: في النفقة؛ وهو قول أبي حنيفة. وعن أبي الضحى: هو أن يطلقها فإذا بقي يومان من عدتها راجعها ثم طلقها.

الرابعة: قولـه تعالى: ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملـهن ﴾ لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ثلاثا أو أقل منهن حتى تضع حملـها. فأما الحامل المتوفى عنها زوجها فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان والضحاك: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: لا ينفق عليها إلا من نصيبها. وقد مضى في "البقرة" بيانه.

= معارضة السنن النبوية الصريحة الصحيحة بالكذب البحت فلو يكون هذا عند عمر عن النبي ﷺ لخرست فاطمة وذووها ولم ينبزوا بكلمة ولا دعت فاطمة إلى المناظرة اهـ. وقال الشوكاني: "فإن قلت: إن ذلك القول من عمر يتضمن الطعن على رواية فاطمة لقوله: لقول امرأة لا تدري لعلها حفظت أو نسيت. قلت: هذا طعن باطل بإجماع المسلمين للقطع بأنه لم ينقل عن أحد من العلماء أنه رد خبر المرأة لكونها امرأة فكم من سنة قد تلقتها الأمة بالقبول عن امرأة واحدة من الصحابة، وهذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة، ولم ينقل أيضا عن أحد من المسلمين أنه يرد الخبر بمجرد تجويز نسيان ناقله، ولو كان ذلك مما يقتدح به لم يبق حديث من الأحاديث النبوية إلا وكان مقدوحاً فيه؛ لأن تجويز النسيان لا يسلم منه أحد فيكون ذلك مفضيا إلى تعطيل السنن بأسرها مع كون فاطمة المذكورة من المشهورات بالحفظ كما يدل على ذلك حديثها الطويل في شأن الدجال، ولم تسمعه من رسول الله ﷺ إلا مرة واحدة يخطب به على المنبر فوعته جميعه، فكيف يظن بها أن تحفظ مثل هذا وتنسى أمرا متعلقا بها مقترنا بفراق زوجها وخروجها من بيته، واحتمال النسيان أمر مشترك بينها وبين من اعترض عليها، فإن عمر نسي تيمم الجنب وذكره عمار فلم يذكر". نيل الأوطار للعلامة الشوكاني (٦/ ٣٠٤).

قولـه تعالى: ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ - يعني المطلقات - أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهن أجرة إرضاعهن. وللرجل أن يستأجر امرأته للرضاع كما يستأجر أجنبية ولا يجوز عند أبي حنيفة وأصحابه الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يبن. ويجوز عند الشافعي. وتقدم القول في الرضاع في "البقرة" و"النساء" مستوفى ولله الحمد.

الثانية: قولـه تعالى: ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ هو خطاب للأزواج والزوجات؛ أي وليقبل بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع. وقيل: ائتمروا في رضاع الولد فيما بينكم بمعروف حتى لا يلحق الولد إضرار. وقيل: هو الكسوة والدثار. وقيل: معناه لا تضار والدة بولدها ولا مولود لـه بولده.

الثالثة: قولـه تعالى: ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ أي في أجرة الرضاع فأبى الزوج أن يعطي الأم رضاعها وأبت الأم أن ترضعه فليس لـه إكراهها؛ وليستأجر مرضعة غير أمه. وقيل: معناه وإن تضايقتم وتشاكستم فليسترضع لولده غيرها؛ وهو خبر في معنى الأمر. وقال الضحاك: إن أبت الأم أن ترضع استأجر لولده أخرى، فإن لم يقبل أجبرت أمه على الرضاع بالأجر. وقد اختلف العلماء فيمن يجب عليه رضاع الولد على ثلاثة أقوال: قال علماؤنا: رضاع الولد على الزوجة ما دامت الزوجية؛ إلا لشرفها وموضعها فعلى الأب رضاعه يومئذ في مالـه. الثاني: قال أبو حنيفة: لا يجب على الأم بحال. الثالث: يجب عليها في كل حال.

الرابعة: فإن طلقها فلا يلزمها رضاعه إلا أن يكون غير قابل ثدي غيرها فيلزمها حينئذ الإرضاع. فإن اختلفا في الأجر فإن دعت إلى أجر مثلـها وامتنع الأب إلا تبرعا فالأم أولى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعا. وإن دعا الأب إلى أجر المثل وامتنعت الأم لتطلب شططا فالأب أولى به. فإن أعسر الأب بأجرتها أخذت جبرا برضاع ولدها.

قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿ لينفق ﴾ أي لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه حتى يوسع عليهما إذا كان موسعا عليه. ومن كان فقيرا فعلى قدر ذلك. فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفق والحاجة من المنفَق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة؛ فينظر المفتي إلى قدر حاجة المنفَق، عليه ثمَ ينظر إلى حالة المنفق، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه، فإن اقتصرت حالته على حاجة المنفق عليه ردها إلى قدر احتمالـه. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه وأصحابه: النفقة مقدرة محددة، ولا اجتهاد لحاكم ولا لمفت فيها. وتقديرها هو بحال الزوج وحده من يسره وعسره، ولا يعتبر بحالـها وكفايتها. قالوا: فيجب لابنة الخليفة ما يجب لابنة الحارس. فإن كان الزوج موسرا لزمه مدان، وإن كان متوسـطا فمـد ونصف، وإن كان معسرا فمد. واستدلوا بقولـه تعالى: ﴿ لينفـق ذو سعة من سعته ﴾ الآية. فجعل الاعتبار بالزوج في اليسر والعسر دونها؛ ولأن الاعتبار بكفايتها لا سبيل إلى

علمه للحاكم ولا لغيره؛ فيؤدي إلى الخصومة؛ لأن الزوج يدعي أنها تلتمس فوق كفايتها، وهي تزعم أن الذي تطلب قدر كفايتها؛ فجعلناها مقدرة قطعا للخصومة. والأصل في هذا عندهم قوله تعالى: ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ ـ كما ذكرنا ـ وقوله: ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ (البقرة: ٢٣٦). والجواب أن هذه الآية لا تعطي أكثر من فرق بين نفقة الغني والفقير، وإنها تختلف بعسر الزوج ويسره. وهذا مسلم. فأما إنه لا اعتبار بحال الزوجة على وجهه فليس فيه، وقد قال الله تعالى: ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ (البقرة: ٢٣٣) وذلك يقتضي تعلق المعروف في حقهما؛ لأنه لم يخص في ذلك واحدا منهما. وليس من المعروف أن يكون كفاية الغنية مثل نفقة الفقيرة؛ وقد قال رسول الله ﷺ لهند: (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف). فأحالها على الكفاية حين علم السعة من حال أبي سفيان الواجب عليه بطلبها، ولم يقل لها لا اعتبار بكفايتك وأن الواجب لك شيء مقدر، بل ردها إلى ما يعلمه من قدر كفايتها ولم يعلقه بمقدار معلوم. ثم ما ذكروه من التحديد يحتاج إلى توقيف؛ والآية لا تقتضيه.

الثانية: روي أن عمر ﷺ فرض للمنفوس مائة درهم، وفرض له عثمان خمسين درهما. ابن العربي: "واحتمل أن يكون هذا الاختلاف بحسب اختلاف السنين أو بحسب حال القدر في التسعير لثمن القوت والملبس، وقد روى محمد بن هلال المزني قال: حدثني أبي وجدتي أنها كانت ترد على عثمان ففقدها فقال لأهله: ما لي لا أرى فلانة؟ فقالت امرأته: يا أمير المؤمنين، ولدت الليلة؛ فبعث إليها بخمسين درهما وشقيقة سُنْبُلانية. ثم قال: هذا عطاء ابنك وهذه كسوته، فإذا مرت له سنة رفعناه إلى مائة. وقد أتي علي ﷺ بمنبوذ ففرض له مائة. قال ابن العربي: (هذا الفرض قبل الفطام مما اختلف فيه العلماء؛ فمنهم من رآه مستحبا لأنه داخل في حكم الآية، ومنهم من رآه واجبا لما تجدد من حاجته وعرض من مؤنته؛ وبه أقول. ولكن يختلف قدره بحاله عند الولادة وبحاله عند الفطام. وقد روى سفيان بن وهب أن عمر أخذ المد بيد والقسط بيد فقال: إني فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مدي حنطة وقسطي خل وقسطي زيت. زاد غيره: وقال إنا قد أجرينا لكم أعطياتكم وأرزاقكم في كل شهر، فمن انتقصها فعل الله به كذا وكذا؛ فدعا عليه. قال أبو الدرداء: كم سُنَّة راشدة مهدية قد سنّها عمر ﷺ في أمة محمد ﷺ! والمد والقسط كيلان شاميان في الطعام والإدام؛ وقد درسا بعرف آخر. فأما المد فدرس إلى الكيلجة. وأما القسط فدرس إلى الكيل، ولكن التقدير فيه عندنا ربعان في الطعام وثُمنان في الإدام. وأما الكسوة فبقدر العادة قميص وسراويل وجبة في الشتاء وكساء وإزار وحصير. وهذا الأصل، ويتزيد بحسب الأحوال والعادة".

الثالثة: هذه الآية أصل في وجوب النفقة للولد على الوالد دون الأم؛ خلافاً لمحمد بن المواز يقول: إنها على الأبوين على قدر الميراث. ابن العربي: ولعل محمدا أراد أنها على الأم عند عدم الأب. وفي البخاري عن النبي ﷺ: (تقول لك المرأة أنفق علي وإلا فطلقني ويقول لك العبد أنفق علي واستعملني ويقول لك ولدك أنفق علي إلى من تكلني) فقد تعاضد القرآن والسنة وتواردا في شرعة واحدة.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ﴾ أي لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني.

"سيجعل الله بعد عسر يسرا" أي بعد الضيق غنى، وبعد الشدة سعة.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وكأين من قرية ﴾ لما ذكر الأحكام ذكر وحذر مخالفة الأمر، وذكر عتو قوم وحلول العذاب بهم. وقد مضى القول في "كأين" في "آل عمران" والحمد لله. "عتت عن أمر ربها ورسله" أي عصت؛ يعني القرية والمراد أهلها. "فحاسبناها حسابا شديدا" أي جازيناها بالعذاب في الدنيا "وعذبناها عذابا نكرا" في الآخرة. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ فعذبناها عذابا نكرا في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف والمسخ وسائر المصائب، وحاسبناها في الآخرة حسابا شديدا. والنكر: المنكر. وقرئ مخففا ومثقلا؛ وقد مضى في سورة "الكهف". "فذاقت وبال أمرها" أي عاقبة كفرها "وكان عاقبة أمرها خسرا" أي هلاكا في الدنيا بما ذكرنا، والآخرة بجهنم. وجيء بلفظ الماضي كقوله تعالى: ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ﴾ (الأعراف: ٤٤) ونحو ذلك؛ لأن المنتظر من وعد الله ووعيده ملقى في الحقيقة؛ وما هو كائن فكأن قد. "أعد الله لهم عذابا شديدا" بيّن ذلك الخسر وأنه عذاب جهنم في الآخرة. "فاتقوا الله يا أولي الألباب" أي العقول. "الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا" بدل من "أولي الألباب" أو نعت لهم؛ أي يا أولي الألباب الذين آمنتم بالله اتقوا الله الذي أنزل عليكم القرآن؛ أي خافوه واعملوا بطاعته وانتهوا عن معاصيه. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ رسولا ﴾ قال الزجاج: إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل؛ أي أنزل إليكم قرآنا وأرسل رسولا. وقيل: إن المعنى قد أنزل الله إليكم صاحب ذكر رسولا؛ "فرسولا" نعت للذكر على تقدير حذف المضاف. وقيل: إن رسولا معمول للذكر لأنه مصدر؛ والتقدير: قد أنزل الله إليكم أن ذكر رسولا. ويكون ذكره الرسول قوله: ﴿ محمد رسول الله ﴾ (الفتح: ٢٩). ويجوز أن يكون "رسولا" بدلاً من ذكر، على أن يكون "رسولا" بمعنى رسالة، أو على أن يكون على بابه ويكون محمولا على المعنى، كأنه قال: قد أظهر الله لكم ذكرا رسولا، فيكون من باب بدل الشيء من الشيء وهو هو. ويجوز أن ينتصب "رسولا" على الإغراء كأنه قال: اتبعوا رسولا. وقيل: الذكر هنا الشرف، نحو قوله تعالى: ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ (الأنبياء: ١٠)، وقوله تعالى: ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ (الزخرف: ٤٤)، ثم بيّن هذا الشرف، فقال: "رسولا". والأكثر على أن المراد بالرسول هنا محمد ﷺ. وقال الكلبي: هو جبريل، فيكونان جميعا منزلين. "يتلو عليكم آيات الله" نعت لرسول. و"آيات الله" القرآن. "مبينات" قراءة العامة بفتح الياء؛ أي بينها الله. وقرأ ابن

عامر وحفص وحمزة والكسائي بكسرها، أي يبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام. والأولى قراءة ابن عباس واختيار أبي عبيد وأبي حاتم، لقولـه تعالى: ﴿ قد بينا لكم الآيات ﴾ (الحديد: ١٧).

قولـه تعالى: ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي من سبق لـه ذلك في علم الله. "من الظلمات" أي من الكفر. "إلى النور" الـهدى والإيمان. قال ابن عباس: نزلت في مؤمني أهل الكتاب. وأضاف الإخراج إلى الرسول لأن الإيمان يحصل منه بطاعته. "ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخلـه جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا" قرأ نافع وابن عامر بالنون، والباقون بالياء. "قد أحسن الله لـه رزقا" أي وسع الله لـه في الجنات.

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلـهن ﴾ دل على كمال قدرته وأنه يقدر على البعث والمحاسبة. ولا خلاف في السموات أنها سبع بعضها فوق بعض؛ دل على ذلك حديث الإسراء وغيره. ثم قال: "ومن الأرض مثلـهن" يعني سبعا. واختلف فيهن على قولين: أحدهما: وهو قول الجمهور ـ أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك: "ومن الأرض مثلـهن" أي سبعا من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السموات. والأول أصح؛ لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما. وقد مضى ذلك مبينا في "البقرة". وقد خرج أبو نعيم قال: حدثنا محمد بن علي بن حبيش قال: حدثنا إسماعيل بن إسحاق السراج، (ح) وحدثنا أبو محمد بن حبان قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن ناجية قال: حدثنا سويد بن سعيد قال حدثنا حفص بن ميسرة عن موسى بن عقبة عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه أن كعبا حلف لـه بالذي فلق البحر لموسى أن صهيبا حدثه أن محمدا ﷺ لم ير قرية يريد دخولـها إلا قال حين يراها: (اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما أذرين إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلـها ونعوذ بك من شرها وشر أهلـها وشر ما فيها)[١]. قال أبو نعيم: هذا حديث ثابت من حديث موسى بن عقبة تفرد به عن عطاء. روى عنه ابن أبي الزناد وغيره.

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يُطَوَّقه يوم القيامة من سبع أرضين)[٢] ومثلـه حديث عائشة، وأبين منهما حديث أبي هريرة

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (١/ ٤٤٦)، وصححه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ١٣٥): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير عطاء بن أبي مروان وأبيه وكلاهما ثقة". قلت: وفي سنده أيضا سويد بن سعيد، وهو صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، وأفحش فيه ابن معين القول، كما في "التقريب"، (١/ ٣٤٠).

(٢) سبق تخريجه.

قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة)[1]. قال الماوردي: وعلى أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض العليا، ولا تلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز. وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم الضوء منها قولان: أحدهما ـ أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها. وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة. والقول الثاني: أنهم لا يشاهدون السماء، وأن الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدونه. وهذا قول من جعل الأرض كالكرة. وفي الآية قول ثالث حكاه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة؛ ليس: بعضها فوق بعض، تفرق بينها البحار وتظل جميعهم السماء. فعلى هذا إن لم يكن لأحد من أهل الأرض وصول إلى أرض أخرى اختصت دعوة الإسلام بأهل هذه الأرض، وإن كان لقوم منهم وصول إلى أرض أخرى احتمل أن تلزمهم دعوة الإسلام عند إمكان الوصول إليهم؛ لأن فصل البحار إذا أمكن سلوكها لا يمنع من لزوم ما عم حكمه، واحتمل ألا تلزمهم دعوة الإسلام لأنها لو لزمتهم لكان النص بها واردا، ولكان ﷺ بها مأمورا. والله أعلم ما استأثر بعلمه، وصواب ما اشتبه على خلقه. ثم قال: "يتنزل الأمر بينهن" قال مجاهد: يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع. وقال الحسن: بين كل سماءين أرض وأمر. والأمر هنا الوحي؛ في قول مقاتل وغيره. وعليه فيكون قوله: "بينهن" إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: الأمر القضاء والقدر. وهو قول الأكثرين. فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى: "بينهن" إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: "يتنزل الأمر "بينهن" بحياة بعض وموت بعض وغنى قوم وفقر قوم. وقيل: هو ما يدبر فيهن من عجيب تدبيره؛ فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها؛ فينقلهم من حال إلى حال. قال ابن كيسان: وهذا على مجال اللغة واتساعها؛ كما يقال للموت: أمر الله؛ وللريح والسحاب ونحوها. "لتعلموا أن الله على كل شيء قدير" يعني أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن؛ وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومُكْنَتِه. "وأن الله قد أحاط بكل شيء علما" فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته. ونصب "علما" على المصدر المؤكد؛ لأن "أحاط" بمعنى علم. وقيل: بمعنى وأن الله أحاط إحاطة علما.

ختمت السورة بحمد الله وعونه.

---

(١) سبق تخريجه.

سورة التحريم

مقدمة السورة :

مدنية في قول الجميع، وهي اثنتا عشرة آية. وتسمى سورة "النبي".

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

قولـه تعالى: ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ فيه خمس مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿يا أيها النبي لم تحرمُ ما أحل الله لك﴾ ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ، كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا، قالت: فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل: إني أجد منك ريح مغافير! أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت لـه ذلك. فقال: (بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود لـه). فنزل: "لم تحرم ما أحل الله لك ـ إلى قولـه ـ إن تتوبا: (لعائشة وحفصة)، ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا﴾ (التحريم ٣٠) لقولـه: (بل شربت عسلا)[١]. وعنها أيضا قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فيدنو منهن، فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لـها امرأة من قومها عكة من عسل، فسقت رسول الله ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن لـه، فذكرت ذلك لسودة وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي لـه: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ فإنه سيقول لك: لا. فقولي لـه: ما هذه الريح؟ ـ وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح ـ فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل. فقولي لـه: جرست نحلـه العُرْفُط. وسأقول ذلك لـه، وقوليه أنت يا صفية. فلما دخل على سودة ـ قالت: تقول سودة والله الذي لا إلـه إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي، وإنه لعلى الباب، فرقا منك. فلما دنا رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: (لا) قالت: فما هذه الريح؟ قال: (سقتني حفصة شربة عسل) قال: جرست نحلـه العرفط. فلما دخل علي قلت لـه مثل ذلك. ثم دخل على صفية فقالت بمثل ذلك. فلما دخل على حفصة قالت: يا رسول الله، ألا أسقيك منه. قال (لا حاجة لي به) قالت: تقول سودة سبحان الله! والله لقد حرمناه. قالت: قلت لـها اسكتي[٢]. ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها العسل حفصة. وفي الأولى زينب. وروى ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة. وقد قيل: إنما هي أم سلمة، رواه أسباط عن السدي. وقالـه عطاء بن أبي مسلم. ابن العربي: وهذا كلـه جهل أو تصور بغير علم. فقال باقي نسائه حسدا وغيرة لمن شرب ذلك عندها: إنا لنجد منك ريح المغافير. والمغافير:

---

(١) أخرجه البخاري في "التفسير"، (٤٩١٢)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم في "الطلاق" (١٤٧٤).
(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق.

بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة، فيها حلاوة. واحدها مغفور، وجرست: أكلت. والعرفط: نبت له ريح كريح الخمر. وكان ﷺ يعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة أو يجدها، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة الملك. فهذا قول.

وقول آخر ـ أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها لأجل أزواجه، قاله ابن عباس وعكرمة. والمرأة أم شريك. وقول ثالث ـ إن التي حرم مارية القبطية، وكان قد أهداها له المقوقس ملك الإسكندرية. قال ابن إسحاق: هي من كورة أنصنا من بلد يقال له حفن فواقعها في بيت حفصة. روى الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها ـ وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها ـ فقالت له: تدخلها بيتي! ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها: (لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها) قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها ألا يقربها. فقال النبي ﷺ: (لا تذكريه لأحد). فذكرته لعائشة، فآلى لا يدخل على نسائه شهرا، فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة، فأنزل الله عز وجل "لم تحرم ما أحل الله لك" الآية[١].

الثانية: أصح هذه الأقوال أولها. وأضعفها أوسطها. قال ابن العربي: "أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن رد النبي ﷺ للموهوبة ليس تحريما لها، لأن من رد ما وهب له لم يحرم عليه، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل. وأما من روى أنه حرم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في الصحيح. وروي مرسلا. وقد روى ابن وهب عن مالك عن زيد بن أسلم قال: حرم رسول الله ﷺ أم إبراهيم فقال: (أنت علي حرام والله لا آتينك)[٢]. فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ وروى مثله ابن القاسم عنه. وروى أشهب عن مالك قال: راجعت عمر امرأة من الأنصار في شيء فاقشعر من ذلك وقال: ما كان النساء هكذا! قال: بلى، وقد كان أزواج النبي ﷺ يراجعنه. فأخذ ثوبه فخرج إلى حفصة فقال لها: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم، ولو أعلم أنك تكره ما فعلت. فلما بلغ عمر أن رسول الله ﷺ هجر نساءه قال: رغم أنف حفصة. وإنما الصحيح أنه كان في العسل وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، فجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسر ذلك. ونزلت الآية في الجميع.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لم تحرم﴾ إن كان النبي ﷺ حرم ولم يحلف فليس ذلك بيمين عندنا. ولا يحرم قول الرجل: "هذا علي حرام" شيئا حاشا الزوجة. وقال أبو حنيفة: إذا أطلق حمل على المأكول

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٣/ ٢٨)، وفيه عبد الله بن شبيب، قال الذهبي في الميزان (٣/ ١٥٢): ذاهب الحديث، متهم بالوضع. وقد ذكر الحافظ للحديث عدة طرق منها ما أخرجه الضياء في "المختارة" من مسند الهيثم بن كليب ثم من طريق جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر، وللطبراني في "عشرة النساء" وابن مردويه من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن أبي هريرة، وللطبراني أيضا من طريق الضحاك عن ابن عباس، ثم قال: "وهذه طرق يقوي بعضها بعضا، فيحتمل أن تكون الآية نزلت في السببين معا". (الفتح ٨/ ٥٢٥).

(٢) ضعيف.

والمشروب دون الملبوس، وكانت يمينا توجب الكفارة. وقال زفر: هو يمين في الكل حتى في الحركة والكون. وعول المخالف على أن النبي ﷺ حرم العسل فلزمته الكفارة. وقد قال الله تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ (التحريم: ٢) فسماه يمينا. ودليلنا قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ (المائدة: ٨٧)، وقوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون﴾ (يونس: ٥٩). فذم الله المحرم للحلال ولم يوجب عليه كفارة. قال الزجاج: ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله. ولم يجعل لنبيه ﷺأن يحرم إلا ما حرم الله عليه. فمن قال لزوجته أو أمته: أنت علي حرام؛ ولم ينو طلاقا ولا ظهارا فهذا اللفظ يوجب كفارة اليمين. ولو خاطب بهذا اللفظ جمعا من الزوجات والإماء فعليه كفارة واحدة. ولو حرم على نفسه طعاما أو شيئا آخر لم يلزمه بذلك كفارة عند الشافعي ومالك. وتجب بذلك كفارة عند ابن مسعود والثوري وأبي حنيفة.

الرابعة: واختلف العلماء في الرجل يقول لزوجته: "أنت علي حرام" على ثمانية عشر قولا:

أحدها: لا شيء عليه. وبه قال الشعبي ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأصبغ. وهو عندهم كتحريم الماء والطعام؛ قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ (المائدة: ٨٧) والزوجة من الطيبات ومما أحل الله. وقال تعالى: ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ (النحل: ١١٦). وما لم يحرمه الله فليس لأحد أن يحرمه، ولا أن يصير بتحريمه حراما. ولم يثبت عن رسول الله ﷺأنه قال لما أحله الله هو علي حرام. وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله: (والله لا أقربها بعد اليوم) فقيل له: لم تحرم ما أحل الله لك؛ أي لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني أقدم عليه وكفر.

ثانيها: أنها يمين يكفرها؛ قاله أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ والأوزاعي؛ وهو مقتضى الآية. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إذا حرم الرجل عليه امرأته فإنما هي يمين يكفرها. وقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ يعني أن النبي ﷺكان حرم جاريته فقال الله تعالى: ﴿لم تحرم ما أحل الله لك ـ إلى قوله تعالى ـ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ فكفر عن يمينه وصير الحرام يمينا. خرجه الدارقطني.

ثالثها: أنها تجب فيها كفارة وليست بيمين؛ قاله ابن مسعود وابن عباس أيضا في إحدى روايتيه، والشافعي في أحد قوليه، وفي هذا القول نظر. والآية ترده على ما يأتي.

رابعها: هي ظهار؛ ففيها كفارة الظهار، قاله عثمان وأحمد بن حنبل وإسحاق.

خامسها: أنه إن نوى الظهار وهو ينوي أنها محرمة كتحريم ظهر أمه كان ظهارا. وإن نوى تحريم عينها عليه بغير طلاق تحريما مطلقا وجبت كفارة يمين. وإن لم ينو شيئا فعليه كفارة يمين، قاله الشافعي.

سادسها: أنها طلقة رجعية، قاله عمر بن الخطاب والزهري وعبد العزيز بن أبي سلمة وابن الماجشون.

سابعها: أنها طلقة بائنة، قالـه حماد بن أبي سليمان وزيد بن ثابت. ورواه ابن خُوَيْزِمَنْدَاد عن مالك.

ثامنها: أنها ثلاث تطليقات، قاله علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت أيضا وأبو هريرة.

تاسعها: هي في المدخول بها ثلاث، وينوي في غير المدخول بها، قالـه الحسن وعلي بن زيد والحكم. وهو مشهور مذهب مالك.

عاشرها: هي ثلاث؛ ولا ينوي بحال ولا في محل وإن لم يدخل؛ قالـه عبد الملك في المبسوط، وبه قال ابن أبي ليلى.

حادي عشرها: هي في التي لم يدخل بها واحدة، وفي التي دخل بها ثلاث؛ قالـه أبو مصعب ومحمد بن عبد الحكم.

ثاني عشرها: أنه إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى. فإن نوى الطلاق فواحدة بائنة إلا أن ينوي ثلاثا. فإن نوى ثنتين فواحدة. فإن لم ينو شيئا كانت يمينا وكان الرجل موليا من امرأته؛ قالـه أبو حنيفة وأصحابه. وبمثلـه قال زفر؛ إلا أنه قال: إذا نوى اثنتين ألزمناه.

ثالث عشرها: أنه لا تنفعه نية الظهار وإنما يكون طلاقا؛ قالـه ابن القاسم.

رابع عشرها: قال يحيى بن عمر: يكون طلاقا؛ فإن ارتجعها لم يجز لـه وطؤها حتى يكفر كفارة الظهار.

خامس عشرها: إن نوى الطلاق فما أراد من أعداده. وإن نوى واحدة فهي رجعية. وهو قول الشافعي ﷺ. وروي مثلـه عن أبي بكر وعمر وغيرهم من الصحابة والتابعين.

سادس عشرها: إن نوى ثلاثا فثلاثا، وإن واحدة فواحدة. وإن نوى يمينا فهي يمين. وإن لم ينو شيئا فلا شيء عليه. وهو قول سفيان. وبمثلـه قال الأوزاعي وأبو ثور؛ إلا أنهما قالا: إن لم ينو شيئا فهي واحدة.

سابع عشرها: لـه نيته ولا يكون أقل من واحدة؛ قالـه ابن شهاب. وإن لم ينو شيئا لم يكن شيء؛ قاله ابن العربي. ورأيت لسعيد بن جبير وهو:

الثامن عشر: أن عليه عتق رقبة وإن لم يجعلـها ظهارا. ولست أعلم لـها وجها ولا يبعد في المقالات عندي.

قلت: قد ذكره الدارقطني في سننه عن ابن عباس فقال: حدثنا الحسين بن إسماعيل قال حدثنا محمد بن منصور قال حدثنا روح قال: حدثنا سفيان الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه أتاه رجل فقال: إني جعلت امرأتي علي حراما. فقال: كذبت! ليست عليك بحرام؛ ثم تلا "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك" عليك أغلظ الكفارات: عتق رقبة[1]. وقد قال جماعة من أهل التفسير: إنه لما نزلت هذه الآية كفر عن يمينه بعتق رقبة، وعاد إلى مارية ﷺ؛ قالـه زيد بن أسلم وغيره.

---

(١) إسناده ضعيف، أخرجه الدارقطني (٤/ ٤٣)، وكذا النسائي في "الطلاق"، (٣٤٢٠)، وانظر ضعيف سنن النسائي (٢٢٣).

الخامسة: قال علماؤنا: سبب الاختلاف في هذا الباب أنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ نص ولا ظاهر صحيح يعتمد عليه في هذه المسألة، فتجاذبها العلماء لذلك. فمن تمسك بالبراءة الأصلية فقال: لا حكم، فلا يلزم بها شيء. وأما من قال إنها يمين؛ فقال: سماها الله يمينا. وأما من قال: تجب فيها كفارة وليست بيمين؛ فبناه على أحد أمرين: أحدهما: أنه ظن أن الله تعالى أوجب الكفارة فيها وإن لم تكن يمينا. والثاني: أن معنى اليمين عنده التحريم، فوقعت الكفارة على المعنى. وأما من قال: إنها طلقة رجعية؛ فإنه حمل اللفظ على أقل وجوهه، والرجعية محرمة الوطء كذلك؛ فيحمل اللفظ عليه. وهذا يلزم مالكا، لقوله: إن الرجعية محرمة الوطء. وكذلك وجه من قال: إنها ثلاث، فحمله على أكبر معناه وهو الطلاق الثلاث. وأما من قال: إنه ظهار، فلأنه أقل درجات التحريم، فإنه تحريم لا يرفع النكاح. وأما من قال: إنه طلقة بائنة، فعول على أن الطلاق الرجعي لا يحرم المطلقة، وأن الطلاق البائن يحرمها. وأما قول يحيى بن عمر فإنه احتاط بأن جعله طلاقا، فلما ارتجعها احتاط بأن يلزمه الكفارة. ابن العربي: "وهذا لا يصح، لأنه جمع بين المتضادين، فإنه لا يجتمع ظهار وطلاق في معنى لفظ واحد، فلا وجه للاحتياط فيما لا يصح اجتماعه في الدليل. وأما من قال: إنه ينوى في التي لم يدخل بها، فلأن الواحدة تبينها وتحرمها شرعا إجماعا. وكذلك قال من لم يحكم باعتبار نيته: إن الواحدة تكفي قبل الدخول في التحريم بالإجماع، فيكفي أخذا بالأقل المتفق عليه. وأما من قال: إنه ثلاث فيهما، فلأنه أخذ بالحكم الأعظم، فإنه لو صرح بالثلاث لنفذت في التي لم يدخل بها نفوذها في التي دخل بها. ومن الواجب أن يكون المعنى مثله وهو التحريم". والله أعلم. وهذا كله في الزوجة. وأما في الأمة فلا يلزم فيها شيء من ذلك، إلا أنه ينوي به العتق عند مالك. وذهب عامة العلماء إلى أن عليه كفارة يمين. ابن العربي: والصحيح أنها طلقة واحدة، لأنه لو ذكر الطلاق لكان أقله وهو الواحدة إلا أن يعدده. كذلك إذا ذكر التحريم يكون أقله إلا أن يقيده بالأكثر، مثل أن يقول: أنت علي حرام إلا بعد زوج، فهذا نص على المراد.

قلت: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة لما خلا النبي ﷺ في بيتها بجاريته؛ ذكره الثعلبي. وعلى هذا فكأنه قال: لا يحرم عليك ما حرمته على نفسك ولكن عليك كفارة يمين، وإن كان في تحريم العسل والجارية أيضا. فكأنه قال: لم يحرم عليك ما حرمته، ولكن ضممت إلى التحريم يمينا فكفر عن اليمين. وهذا صحيح، فإن النبي ﷺ حرم ثم حلف، كما ذكره الدارقطني. وذكر البخاري معناه في قصة العسل عن عبيد بن عمير عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عند زينب بنت جحش عسلا ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل: أكلت مغافير؟ إني لأجد منك ريح مغافير! قال: (لا ولكن شربت عسلا ولن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا). يبتغي مرضات أزواجه[1]. فيعني بقوله: (ولن أعود له على جهة التحريم) وبقوله: (حلفت) أي بالله، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: "يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك" يعني العسل المحرم بقوله: (لن أعود

---

(١) تقدم تخريجه.

لـه). "تبتغي مرضات أزواجك" أي تفعل ذلك طلبا لرضاهن. "والله غفور رحيم" غفور لما أوجب المعاتبة، رحيم برفع المؤاخذة. وقد قيل: إن ذلك كان ذنبا من الصغائر. والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، وأنه لم تكن لـه صغيرة ولا كبيرة.

قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ تحليل اليمين كفارتها. أي إذا أحببتم استباحة المحلوف عليه، وهو قولـه تعالى في سورة "المائدة": ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين﴾ (المائدة: ٨٩). ويتحصل من هذا أن من حرم شيئا من المأكول والمشروب لم يحرم عليه عندنا، لأن الكفارة لليمين لا للتحريم على ما بيناه. وأبو حنيفة يراه يمينا في كل شيء، ويعتبر الانتفاع المقصود فيما يحرمه، فإذا حرم طعاما فقد حلف على أكلـه، أو أمة فعلى وطئها، أو زوجة فعلى الإيلاء منها إذا لم يكن لـه نية، وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن. وكذلك إن نوى ثنتين أو ثلاثا. وإن قال: نويت الكذب دينَ فيما بينه وبين الله تعالى. ولا يدين في القضاء بإبطال الإيلاء. وإن قال: كل حلال عليه حرام؛ فعلَى الطعام والشراب إذا لم ينو، وإلا فعلى ما نوى. ولا يراه الشافعي يمينا ولكن سببا في الكفارة في النساء وحدهن. وإن نوى الطلاق فهو رجعي عنده، على ما تقدم بيانه. فإن حلف ألا يأكلـه حنث وبر بالكفارة.

الثانية: فإن حرم أمته أو زوجته فكفارة يمين، كما في صحيح مسلم عن ابن عباس قال: إذا حرم الرجل عليه امرأته، فهي يمين يكفرها. وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة[1].

الثالثة: قيل: إن النبي ﷺ كفر عن يمينه. وعن الحسن: لم يكفر، لأن النبي ﷺ قد غفر لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكفارة اليمين في هذه السورة إنما أمر بها الأمّة. والأول أصح، وأن المراد بذلك النبي ﷺ. ثم إن الأمة تقتدي به في ذلك. وقد قدمنا عن زيد بن أسلم أنه عليه السلام كفر بعتق رقبة. وعن مقاتل أن رسول الله ﷺ أعتق رقبة في تحريم مارية. والله أعلم. وقيل: أي قد فرض الله لكم تحليل ملك اليمين، فبيّن في قولـه تعالى: ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله لـه﴾ (الأحزاب: ٣٨) أي فيما شرعه لـه في النساء المحللات. أي حلل لكم ملك الأيمان، فلم تحرم مارية على نفسك مع تحليل الله إياها لك. وقيل: تحلة اليمين الاستثناء، أي فرض الله لكم الاستثناء المخرج عن اليمين. ثم عند قوم يجوز الاستثناء من الأيمان متى شاء وإن تخلل مدة. وعند المعظم لا يجوز إلا متصلا، فكأنه قال: استثن بعد هذا فيما تحلف عليه. وتحلة اليمين تحليلـها بالكفارة، والأصل تحللة، فأدغمت. وتفعلة من مصادر فعل؛ كالتسمية والتوصية. فالتحلة تحليل اليمين. فكأن اليمين عقد والكفارة حل. وقيل: التحلة الكفارة؛ أي إنها تحل للحالف ما حرم على نفسه؛ أي إذا كفر صار كمن لم يحلف. "والله مولاكم" وليكم وناصركم بإزالة الحظر فيما تحرمونه على أنفسكم، وبالترخيص لكم في تحليل أيمانكم بالكفارة، وبالثواب على ما تخرجونه في الكفارة.

---

(١) أخرجه مسلم في "الطلاق"، (١٤٧٣).

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا﴾ أي واذكر إذ أسر النبي إلى حفصة "حديثا" يعني تحريم مارية على نفسه واستكتامه إياها ذلك. وقال الكلبي: أسر إليها أن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتي على أمتي من بعدي؛ وقاله ابن عباس. قال: أسر أمر الخلافة بعده إلى حفصة فذكرته حفصة. روى الدارقطني في سننه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: "وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا" قال: اطلعت حفصة على النبي ﷺ مع أم إبراهيم فقال: (لا تخبري عائشة) وقال لها: (إن أباك وأباها سيملكان أو سيليان بعدي فلا تخبري عائشة) قال: فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعض. قال أعرض عن قوله: (إن أباك وأباها يكونان بعدي). كره رسول الله ﷺ أن ينشر ذلك في الناس[1]. "فلما نبأت به" أي أخبرت به عائشة لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبي ﷺ. "وأظهره الله عليه" أي أطلعه الله على أنها قد نبأت به. وقرأ طلحة بن مصرف "فلما أنبأت" وهما لغتان: أنبأ ونبأ. "عرف بعضه وأعرض عن بعض" عرف حفصة بعض ما أوحي إليه من أنها أخبرت عائشة بما نهاها عن أن تخبرها، وأعرض عن بعض تكرما؛ قاله السدي. وقال الحسن: ما استقصى كريم قط، قال الله تعالى: "عرف بعضه وأعرض عن بعض". وقال مقاتل: يعني أخبرها ببعض ما قالت لعائشة، وهو حديث أم ولده ولم يخبرها ببعض وهو قول حفصة لعائشة: إن أبا بكر وعمر سيملكان بعده. وقراءة العامة "عرف" مشددا، ومعناه ما ذكرناه. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، يدل عليه قوله تعالى: "وأعرض عن بعض" أي لم يعرفها إياه. ولو كانت مخففة لقال في ضده وأنكر بعضا. وقرأ علي وطلحة بن مصرف وأبو عبد الرحمن السلمي والحسن وقتادة والكلبي والكسائي والأعمش عن أبي بكر "عرف" مخففة. قال عطاء: كان أبو عبد الرحمن السلمي إذا قرأ عليه الرجل "عرف" مشددة حصبه بالحجارة. قال الفراء: وتأويل قوله عز وجل: "عرف بعضه" بالتخفيف، أي غضب فيه وجازى عليه؛ وهو كقولك لمن أساء إليك: لأعرفن لك ما فعلت، أي لأجازينك عليه. وجازاها النبي ﷺ بأن طلقها طلقة واحدة. فقال عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما كان رسول الله ﷺ طلقك. فأمره جبريل بمراجعتها وشفع فيها. واعتزل النبي ﷺ نساءه شهرا، وقعد في مشربة مارية أم إبراهيم حتى نزلت آية التحريم على ما تقدم. وقيل: هم بطلاقها حتى قال له جبريل: (لا تطلقها فإنها صوامة قوامة وإنها من نسائك في الجنة) فلم يطلقها[2]. "فلما نبأها به" أي أخبر حفصة بما

(١) أخرجه الدارقطني في سننه (٤/ ٨٧، ٨٨) من طريق أبي بكر بن عياش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مرفوعاً، والكلبي هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، متهم بالكذب، ورمي بالرفض كما في التقريب (٢/ ١٦٣).

(٢) صحيح.

أظهره الله عليه. "قالت من أنبأك هذا" يا رسول الله عني. فظننت أن عائشة أخبرته، فقال عليه السلام: "قال نبأني العليم الخبير" أي الذي لا يخفى عليه شيء. و"هذا" سد مسد مفعولي "أنبأ". و"نبأ" الأول تعدى إلى مفعول، و"نبأ" الثاني تعدى إلى مفعول واحد، لأن نبأ وأنبأ إذا لم يدخلا على المبتدأ والخبر جاز أن يكتفى فيهما بمفعول واحد وبمفعولين، فإذا دخلا على الابتداء والخبر تعدى كل واحد منهما إلى ثلاثة مفعولين. ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث، لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل فلا يقتصر دونه، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر.

قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله﴾ يعني حفصة وعائشة، حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ. "فقد صغت قلوبكما" أي زاغت ومالت عن الحق. وهو أنهما أحبتا ما كره النبي ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل، وكان ﷺ يحب العسل والنساء. قال ابن زيد: مالت قلوبهما بأن سرهما أن يحتبس عن أم ولده، فسرهما ما كرهه رسول الله ﷺ. وقيل: فقد مالت قلوبكما إلى التوبة. وقال: "فقد صغت قلوبكما" ولم يقل: فقد صغى قلباكما، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين، من اثنين جمعوهما، لأنه لا يشكل. وقد مضى هذا المعنى في "المائدة" في قولـه تعالى: ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ (المائدة: ٣٨). وقيل: كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به، لأنه أمكن وأخف. وليس قولـه: "فقد صغت قلوبكما" جزاء للشرط، لأن هذا الصغو كان سابقا، فجواب الشرط محذوف للعلم به. أي إن تتوبا كان خيرا لكما، إذ قد صغت قلوبكما.

قولـه تعالى: ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي تتظاهرا وتتعاونا على النبي ﷺ بالمعصية والإيذاء. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسألـه هيبة لـه، حتى خرج حاجا فخرجت معه، فلما رجع فكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة لـه، فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ من أزواجه؟ فقال: تلك حفصة وعائشة. قال: فقلت لـه: والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك. قال: فلا تفعل، ما ظننت أن عندي من علم فسلني عنه، فإن كنت أعلمه أخبرتك. . . وذكر الحديث[1]. "فإن الله هو مولاه" أي وليه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منهما. "وجبريل وصالح المؤمنين" قال عكرمة وسعيد بن جبير: أبو بكر وعمر، لأنهما أبوا عائشة وحفصة، وقد كانا عونا لـه عليهما. وقيل: صالح المؤمنين علي رضي الله عنه. وقيل: خيار المؤمنين. وصالح: اسم جنس كقولـه تعالى: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر﴾ (العصر: ٢)، قالـه الطبري. وقيل: "صالح المؤمنين" هم الأنبياء، قاله العلاء بن زيادة وقتادة وسفيان. وقال ابن زيد:

(١) أخرجاه في الصحيحين.

هم الملائكة. السدي: هم أصحاب محمد ﷺ. وقيل: "صالح المؤمنين" ليس لفظ الواحد وإنما هو صالحو المؤمنين: فأضاف الصالحين إلى المؤمنين، وكتب بغير واو على اللفظ لأن لفظ الواحد والجمع واحد فيه. كما جاءت أشياء في المصحف متنوع فيها حكم اللفظ دون وضع الخط.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه ـ وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب ـ فقال عمر: فقلت لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت على عائشة فقلت: يا ابنة أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ! فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب! عليك بعيبتك! قال: فدخلت على حفصة بنت عمر فقلت لـها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ! والله لقد علمت أن رسول الله ﷺ لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله ﷺ. فبكت أشد البكاء، فقلت لـها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة. فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعدا على أُسْكُفَّة المشربة مدل رجليه على نقير من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر. فناديت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلي فلم يقل شيئا. ثم قلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة ثم نظر إلي فلم يقل شيئا. ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربن عنقها، ورفعت صوتي فأومأ إلي أن ارْقَه؛ فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره؛ وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلـها قرظا في ناحية الغرفة؛ وإذا أفيقٌ معلق ـ قال ـ فابتدرت عيناي. قال: (ما يبكيك يا ابن الخطاب)؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: (يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولـهم الدنيا) قلت: بلى. قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء؛ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك. وقلما تكلمت ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله عز وجل يصدق قولي الذي أقول ونزلت هذه الآية، آية التخيير: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدلـه أزواجا خيرا منكن﴾ (التحريم: ٥). ﴿وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾.

وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء رسول الله ﷺ. فقلت: يا رسول الله، أطلقتهن؟ قال: (لا). قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه أفأنزل فأخبرهم أنك لـم تطلقهن؟ قال: (نعم إن شئت). فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغرا. ثم نزل

نبي الله ﷺ ونزلت؛ فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده. فقلت: يا رسول الله، إنما كنت في الغرفة تسعا وعشرين. قال: (إن الشهر يكون تسعا وعشرين) فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه(١). ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ (النساء: ٨٣). فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر؛ وأنزل الله آية التخيير.

قوله تعالى: ﴿وجبريل﴾ فيه لغات تقدمت في سورة "البقرة". ويجوز أن يكون معطوفا على "مولاه" والمعنى: الله وليه وجبريل وليه؛ فلا يوقف على "مولاه" ويوقف على "جبريل" ويكون "وصالح المؤمنين" مبتدأ "والملائكة" معطوفا عليه. و"ظهير" خبرا؛ وهو بمعنى الجمع. وصالح المؤمنين أبو بكر؛ قاله المسيب بن شريك. وقال سعيد بن جبير: عمر. وقال عكرمة: أبو بكر وعمر. وروى شقيق عن عبد الله عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين﴾ قال: إن صالح المؤمنين أبو بكر وعمر(٢). وقيل: هو علي. عن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ("وصالح المؤمنين" علي بن أبي طالب)(٣). وقيل غير هذا مما تقدم القول فيه. ويجوز أن يكون "وجبريل" مبتدأ وما بعده معطوفا عليه. والخبر "ظهير" وهو بمعنى الجمع أيضا. فيوقف على هذا على "مولاه". ويجوز أن يكون "جبريل وصالح المؤمنين" معطوفا على "مولاه" فيوقف على "المؤمنين" ويكون "والملائكة بعد ذلك ظهير" ابتداء وخبرا. ومعنى "ظهير" أعوان. وهو بمعنى ظهراء؛ كقوله تعالى: ﴿وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء: ٦٩). وقال أبو علي: قد جاء فعيل للكثرة كقوله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميما. يبصرونهم﴾ (المعارج: ١٠، ١١). وقيل: كان التظاهر منهما في التحكم على النبي ﷺ في النفقة، ولهذا آلى منهن شهرا واعتزلهن. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا - قال - فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها؛ فضحك رسول الله ﷺ وقال: (هن حولي كما ترى يسألنني النفقة). فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها؛ كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين. ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ حتى بلغ ﴿للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾ (الأحزاب: ٢٨) الحديث(٤). وقد ذكرناه في سورة "الأحزاب".

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩) واللفظ له.

(٢) ذكره الهيثمي في "المجمع"، (٧/ ١٢٧)، وقال: "رواه الطبراني، وفيه عبد الرحيم بن زيد العمي، وهو متروك".

(٣) ذكره الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٣٨٩) من طريق محمد بن جعفر بن محمد بن الحسين قال: أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى علي قال: قال رسول الله ﷺ... فذكره، ثم قال ابن كثير: إسناده ضعيف وهو منكر جداً.

(٤) أخرجه مسلم في "الطلاق"، (١٤٧٨).

قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ قد تقدم في الصحيح أن هذه الآية نزلت على لسان عمر ﷺ ثم قيل: كل "عسى" في القرآن واجب؛ إلا هذا. وقيل: هو واجب ولكن الله عز وجل علقه بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن. "أن يبدله أزواجا خيرا منكن" لأنكن لو كنتن خيرا منهن ما طلقكن رسول الله ﷺ قال معناه السدي. وقيل: هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ، لو طلقهن في الدنيا أن يزوجه في الدنيا نساء خيرا منهن. وقرئ "أن يبدله" بالتشديد والتخفيف. والتبديل والإبدال بمعنى، كالتنزيل والإنزال. والله كان عالما بأنه كان لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته، على أنه إن طلقهن أبدله خيرا منهن تخويفا لهن. وهو كقوله تعالى: ﴿وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم﴾ (محمد: ٣٨). وهو إخبار عن القدرة وتخويف لهم، لا أن في الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مسلمات﴾ يعني مخلصات، قاله سعيد بن جبير. وقيل: معناه مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله. "مؤمنات" مصدقات بما أمرن به ونهين عنه. "قانتات" مطيعات. والقنوت: الطاعة. وقد تقدم. "تائبات" أي من ذنوبهن؛ قاله السدي. وقيل: راجعات إلى أمر رسول الله ﷺ تاركات لمحاب أنفسهن. "عابدات" أي كثيرات العبادة لله تعالى. وقال ابن عباس: كل عبادة في القرآن فهو التوحيد. "سائحات" صائبات؛ قاله ابن عباس والحسن وابن جبير. وقال زيد بن أسلم وابنه عبد الرحمن ويمان: مهاجرات. قال زيد: وليس في أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة. والسياحة الجولان في الأرض. وقال الفراء والقتبي وغيرهما: سمي الصائم سائحا لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل من حيث يجد الطعام. وقيل: ذاهبات في طاعة الله عز وجل؛ من ساح الماء إذا ذهب. وقد مضى في سورة "التوبة" والحمد لله. "ثيبات وأبكارا" أي منهن ثيب ومنهن بكر. وقيل: إنما سميت الثيب ثيبا لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها، أو إلى غيره إن فارقها. وقيل: لأنها ثابت إلى بيت أبويها. وهذا أصح؛ لأنه ليس كل ثيب تعود إلى زوج. وأما البكر فهي العذراء؛ سميت بكرا لأنها على أول حالتها التي خلقت بها. وقال الكلبي: أراد بالثيب مثل آسية امرأة فرعون، وبالبكر مثل مريم بنت عمران.

قلت: وهذا إنما يمشي على قول من قال: إن التبديل وعد من الله لنبيه لو طلقهن في الدنيا زوجه في الآخرة خيرا منهن. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾ فيه مسألة واحدة وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار. قال الضحاك: معناه قوا أنفسكم، وأهلوكم فليقوا أنفسهم نارا. وروى

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم. وقال علي ﷺ وقتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم وقوا أهليكم بوصيتكم. ابن العربي: وهو الصحيح، والفقه الذي يعطيه العطف الذي يقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في معنى الفعل؛ كقولـه:

علفتها تبنا وماء باردا

وكقولـه:

ورأيت زوجك في الوغى متقلدا سـيفا ورمحا

فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهلـه إصلاح الراعي للرعية. ففي صحيح الحديث أن النبي ﷺ قال: (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم)(١). وعن هذا عبر الحسن في هذه الآية بقولـه: يأمرهم وينهاهم. وقال بعض العلماء لما قال: "قوا أنفسكم" دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه. كما دخل في قولـه تعالى: ﴿ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم﴾ (النور: ٦١) فلم يفردوا بالذكر إفراد سائر القرابات. فيعلمه الحلال والحرام، ويجنبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام. وقال ﷺ: (حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ)(٢). وقال ﷺ: (ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن)(٣). وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ (مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع)(٤). خرجه جماعة من أهل الحديث. وهذا لفظ أبي داود. وخرج أيضا عن سمرة بن جندب قال: قال النبي ﷺ: (مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها)(٥). وكذلك يخبر أهلـه بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب؛ مستندا في ذلك إلى رؤية الـهلال.

وقد روى مسلم أن النبي ﷺ كان إذا أوتر يقول: (قومي فأوتري يا عائشة)(٦). وروي أن النبي ﷺ قال: (رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهلـه فإن لم تقم رش وجهها بالماء. رحم الله امرأة قامت من الليل تصلي وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء)(٧). ومنه قولـه ﷺ: (أيقظوا صواحب الحجر)(٨). ويدخل هذا في عموم قولـه تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ (المائدة: ٢). وذكر القشيري أن عمر ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: يا رسول الله، نقي أنفسنا، فكيف لنا بأهلينا؟. فقال: (تنهونهم عما نهاكم الله وتأمرونهم بما أمر الله)(٩). وقال مقاتل: ذلك حق عليه

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣)، وفي مواضع أخر من صحيحه، ومسلم (١٨٢٩).

(٢) "ضعيف جداً" أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، (١/ ١٨٤)، والديلمي في مسند الفردوس، من حديث أبي هريرة، وانظر ضعيف الجامع (٢٧٣٣).

(٣) "ضعيف" أخرجه أحمد والترمذي والحاكم من حديث عمرو بن سعيد بن العاصي، وانظر ضعيف الجامع (٥٢٣١)

(٤) "حسن" أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم، وانظر صحيح الجامع (٥٨٦٨)، وراجع الإرواء (٢٤٧).

(٥) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٨٦٧)، وراجع الإرواء (٢٤٧). من حديث سبرة وليس سمرة كما قال المصنف.

(٦) أخرجه مسلم (٧٤٤).

(٧) "حسن صحيح" انظر صحيح أبي داود (١١٦٠).

(٨) أخرجه البخاري في "التهجد"، (١١٢٦).

(٩) ذكره بنحوه الحافظ ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٣٩١)، لكن من قول قتادة.

في نفسه وولده وأهله وعبيده وإمائه. قال الكيا: فعلينا تعليم أولادنا وأهلينا الدين والخير، وما لا يستغنى عنه من الأدب. وهو قوله تعالى: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ (طه: ١٣٢). ونحو قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. (الشعراء: ٢١٤). وفي الحديث: (مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع).

قوله تعالى: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ تقدم في سورة "البقرة". "عليها ملائكة غلاظ شداد" يعني الملائكة الزبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استُرْحِمُوا، خُلقوا من الغضب، وحُبب إليهم عذاب الخلق كما حُبِّبَ لبني آدم أكل الطعام والشراب. "شداد" أي شداد الأبدان. وقيل: غلاظ الأقوال شداد الأفعال. وقيل: غلاظ في أخذهم أهل النار شداد عليهم. يقال: فلان شديد على فلان؛ أي قوي عليه يعذبه بأنواع العذاب. وقيل: أراد بالغلاظ ضخامة أجسامهم، وبالشدة القوة. قال ابن عباس: ما بين منكبي الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم. وذكر ابن وهب قال: وحدثنا عبد الرحمن بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ في خزنة جهنم: (ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب).

قوله تعالى: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ أي لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان. "ويفعلون ما يؤمرون" أي في وقته، فلا يؤخرونه ولا يقدمونه. وقيل: أي لذتهم في امتثال أمر الله؛ كما أن سرور أهل الجنة في الكون في الجنة؛ ذكره بعض المعتزلة. وعندهم أنه يستحيل التكيف غدا. ولا يخفى معتقد أهل الحق في أن الله يكلف العبد اليوم وغدا، ولا ينكر التكليف في حق الملائكة. ولله أن يفعل ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ فإن عذركم لا ينفع. وهذا النهي لتحقيق اليأس. "إنما تجزون ما كنتم تعملون" في الدنيا. ونظيره: ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ (الروم: ٥٧). وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله﴾ أمر بالتوبة وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان. وقد تقدم بيانها والقول فيها في "النساء" وغيرها. "توبة نصوحا" اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا؛ فقيل: هي التي لا

عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع؛ وروي عن عمر وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل ﷺ. ورفعه معاذ إلى النبي ﷺ. وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة. وقيل: الخالصة؛ يقال: نصح أي أخلص لـه القول. وقال الحسن: النصوح أن يبغض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره. وقيل: هي التي لا يثق بقبولـها ويكون على وجل منها. وقيل: هي التي لا يحتاج معها إلى توبة.

وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود. وقال سعيد بن جبير: هي التوبة المقبولة؛ ولا تقبل ما لم يكن فيها ثلاثة شروط: خوف ألا تقبل، ورجاء أن تقبل، وإدمان الطاعات. وقال سعيد بن المسيب: توبة تنصحون بها أنفسكم. وقال القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، وإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيّئ الخلان. وقال سفيان الثوري: علامة التوبة النصوح أربعة: القلة والعلة والذلة والغربة. وقال الفضيل بن عياض: هو أن يكون الذنب بين عينيه، فلا يزال كأنه ينظر إليه. ونحوه عن ابن السماك: أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك. وقال أبو بكر الوراق: هو أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، وتضيق عليك نفسك؛ كالثلاثة الذين خلفوا. وقال أبو بكر الواسطي: هي توبة لا لفقد عوض؛ لأن من أذنب في الدنيا لرفاهية نفسه ثم تاب طلبا لرفاهيتها في الآخرة؛ فتوبته على حفظ نفسه لا لله. وقال أبو بكر الدقاق المصري: التوبة النصوح هي رد المظالم، واستحلال الخصوم، وإدمان الطاعات. وقال رويم: هو أن تكون لله وجها بلا قفا، كما كنت لـه عند المعصية قفا بلا وجه. وقال ذو النون: علامة التوبة النصوح ثلاث: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام. وقال شقيق: هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة، ولا ينفك من الندامة؛ لينجو من آفاتها بالسلامة. وقال سري السقطي: لا تصلح التوبة النصوح إلا بنصيحة النفس والمؤمنين؛ لأن من صحب توبته أحب أن يكون الناس مثلـه. وقال الجنيد: التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدا؛ لأن من صحت توبته صار محبا لله، ومن أحب الله نسي ما دون الله. وقال ذو الأذنين: هو أن يكون لصاحبها دمع مسفوح، وقلب عن المعاصي جموح. وقال فتح الموصلي: علامتها ثلاث: مخالفة الـهوى، وكثرة البكاء، ومكابدة الجوع والظمأ. وقـال سهل بن عبد الله التستري: هي التوبة لأهل السنة والجماعة؛ لأن المبتدع لا توبة لـه؛ بدليل قولـه ﷺ: (حجب الله على كل صاحب بدعة أن يتوب)[1]. وعن حذيفة: بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة"، (٣٧) من طريق محمد بن عبد الرحمن حدثني حميد عن أنس مرفوعاً، وقال الشيخ الألباني في "ظلال الجنة في تخريج السنة"، (١/ ٢١): "حديث صحيح، إسناده ضعيف جداً، محمد بن عبد الرحمن وهو القشيري الكوفي، قال ابن عدي: منكر الحديث. وقال الدارقطني: متروك الحديث". لكن أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والهروي والبيهقي في الشعب من طرق عن هارون بن موسى: حدثنا أبو ضمرة عن حميد عن أنس مرفوعاً قال الهيثمي في "المجمع"، (١٠/ ١٨٩): "رواه الطبراني في "الأوسط" ورجاله رجال الصحيح غير هارون بن موسى الفروي وهو ثقة"، وحسن إسناده المنذري في "الترغيب" (١/ ٤٥)، وعلى هذا فالعمدة على هذه الطريق كما قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٤/ ١٥٥) وليس على التي قبلها، فإن فيها القشيري وهو واه.

وأصل التوبة النصوح من الخلوص؛ يقال: هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع. وقيل: هي مأخوذة من النصاحة وهي الخياطة. وفي أخذها منها وجهان: أحدهما: لأنها توبة قد أحكمت طاعته وأوثقتها كما يحكم الخياط الثوب بخياطته ويوثقه. والثاني: لأنها قد جمعت بينه وبين أولياء الله وألصقته بهم؛ كما يجمع الخياط الثوب ويلصق بعضه ببعض. وقراءة العامة "نصوحا" بفتح النون، على نعت التوبة، مثل امرأة صبور، أي توبة بالغة في النصح. وقرأ الحسن وخارجة وأبو بكر عن عاصم بالضم؛ وتأويله على هذه القراءة: توبة نصح لأنفسكم. وقيل: يجوز أن يكون "نصوحا"، جمع نصح، وأن يكون مصدرا، يقال: نصح نصاحة ونصوحا. وقد يتفق فعالة وفعول في المصادر، نحو الذهاب والذهوب. وقال المبرد: أراد توبة ذات نصح، يقال: نصحت نصحا ونصاحة ونصوحا.

الثانية: في الأشياء التي يتاب منها وكيف التوبة منها. قال العلماء: الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو، إما أن يكون حقا لله أو للآدميين. فإن كان حقا لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها. وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطا في الزكاة. وإن كان ذلك قتل نفس بغير حق فأن يُمَكِّن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوبا به. وإن كان قذفا يوجب الحد فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوبا به. فإن عفي عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص. وكذلك إن عفي عنه في القتل بمال فعليه أن يؤديه إن كان واجدا له، قال الله تعالى: ﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ (البقرة: ١٧٨). وإن كان ذلك حدا من حدود الله كائنا ما كان فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. وقد نص الله تعالى على سقوط الحد عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم. وفي ذلك دليل على أنها لا تسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم؛ حسب ما تقدم بيانه. وكذلك الشراب والسراق والزناة إذا أصلحوا وتابوا وعرف ذلك منهم، ثم رفعوا إلى الإمام فلا ينبغي له أن يحدهم. وإن رفعوا إليه فقالوا: تبنا، لم يتركوا، وهم في هذه الحالة كالمحاربين إذا غلبوا. هذا مذهب الشافعي. فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه والخروج عنه ـ عينا كان أو غيره ـ إن كان قادرا عليه، فإن لم يكن قادرا فالعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه. وإن كان أضر بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتى، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه. وإن أرسل من يسأل ذلك له، فعفا ذلك المظلوم عن ظالمه ـ عرفه بعينه أو لم يعرفه ـ فذلك صحيح. وإن أساء رجل إلى رجل بأن فزعه بغير حق، أو غمه أو لطمه، أو صفعه بغير حق، أو ضربه بسوط فآلمه، ثم جاءه مستعفيا نادما على ما كان منه، عازما على ألا يعود، فلم يزل يتذلل له حتى طابت نفسه فعفا عنه، سقط عنه ذلك الذنب. وهكذا إن كان شانه بشتم لا حد فيه.

قوله تعالى: ﴿عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ "عسى" من الله واجبة. وهو معنى قوله ﷺ: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)(١). و"أن" في موضع رفع اسم عسى.

(١) "حسن" انظر صحيح ابن ماجه (٣٤٢٧)، وراجع القول فيه في الضعيفة تحت حديث (٦١٥).

قولـه تعالى: "ويدخلكم" معطوف على "يكفر". وقرأ ابن أبي عبلة "ويدخلكم" مجزوما عطفا على محل عسى أن يكفر. كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار. "يوم لا يخزي الله النبي" العامل في "يوم": "يدخلكم" أو فعل مضمر. ومعنى "يخزي" هنا يعذب، أي لا يعذبه ولا يعذب الذين آمنوا معه. "نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم" تقدم في سورة "الحديد". "يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير" قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين؛ حسب ما تقدم بيانه في سورة "الحديد".

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾ فيه مسألة واحدة: وهو التشديد في دين الله. فأمره أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله. والمنافقين بالغلظة وإقامة الحجة؛ وأن يعرفهم أحوالـهم في الآخرة، وأنهم لا نور لـهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين. وقال الحسن: أي جاهدهم بإقامة الحدود عليهم؛ فإنهم كانوا يرتكبون موجبات الحدود. وكانت الحدود تقام عليهم. "ومأواهم جهنم" يرجع إلى الصنفين. "وبئس المصير" أي المرجع.

قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما الدين. وكان اسم امرأة نوح والـهة، واسم امرأة لوط والعة؛ قالـه مقاتل. وقال الضحاك عن عائشة رضي الله عنها: إن جبريل نزل على النبي ﷺ فأخبره أن اسم امرأة نوح واغلة واسم امرأة لوط والـهة. "فخانتاهما" قال عكرمة والضحاك: بالكفر. وقال سليمان بن رقية والضحاك: بالكفر. وقال سليمان بن رقية عن ابن عباس: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأه نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقيل: خيانتهما النميمة إذا أوحى الله إليهما شيئا أفشتاه إلى المشركين؛ قالـه الضحاك. وقيل: كانت امرأة لوط إذا نزل به ضيف دخنت لتعلم قومها أنه قد نزل به ضيف؛ لما كانوا عليه من إتيان الرجال. "فلم يغنيا عنهما من الله شيئا" أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما ـ لما عصتا ـ شيئا من عذاب الله؛ تنبيها بذلك على أن العذاب يدفع بالطاعة لا بالوسيلة. ويقال: إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمدا

ﷺ يشفع لنا؛ فبيّن الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفار مكة وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما. وقيل لهما: "وقيل ادخلا النار مع الداخلين" في الآخرة؛ كما يقال لكفار مكة وغيرهم. ثم قيل: يجوز أن تكون "امرأة نوح" بدلا من قوله: "مثلا" على تقدير حذف المضاف؛ أي ضرب الله مثلا مثل امرأة نوح. ويجوز أن يكونا مفعولين.

قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ واسمها آسية بنت مزاحم. قال يحيى ابن سلام: قوله "ضرب الله مثلا للذين كفروا" مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة في المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلا بامرأة فرعون ومريم بنت عمران؛ ترغيبا في التمسك بالطاعة والثبات على الدين. وقيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة؛ أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وكانت آسية آمنت بموسى. وقيل: هي عمة موسى آمنت به. قال أبو العالية: اطلع فرعون على إيمان امرأته فخرج على الملأ فقال لهم: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها. فقال لهم: إنها تعبد ربا غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتادا وشد يديها ورجليها فقالت: "رب ابن لي عندك بيتا في الجنة" ووافق ذلك حضور فرعون، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة. فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها! إنا نعذبها وهي تضحك؛ فقبض روحها. وقال سلمان الفارسي فيما روى عنه عثمان النهدي: كانت تعذب بالشمس، فإذا أذاها حر الشمس أظلتها الملائكة بأجنحتها. وقيل: سمر يديها ورجليها في الشمس ووضع على ظهرها رحى؛ فأطلعها الله حتى رأت مكانها في الجنة. وقيل: لما قالت: "رب ابن لي عندك بيتا في الجنة" أريت بيتها في الجنة يبنى. وقيل: إنه من درة؛ عن الحسن. ولما قالت: "ونجني" نجاها الله أكرم نجاة، فرفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب وتتنعم. "من فرعون وعمله" تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته. وقال ابن عباس: الجماع. "ونجني من القوم الظالمين" قال الكلبي: أهل مصر. مقاتل: القبط. قال الحسن وابن كيسان: نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة؛ فهي فيها تأكل وتشرب.

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ومريم ابنت عمران﴾ أي واذكر مريم. وقيل: هو معطوف على امرأة فرعون. والمعنى: وضرب الله مثلا لمريم بنت عمران وصبرها على أذى اليهود. "التي أحصنت فرجها" أي

عن الفواحش. وقال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب لأنه قال: "فنفخنا فيه من روحنا" وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها. وهي في قراءة أبي "فنفخنا في جيبها من روحنا". وكل خرق في الثوب يسمى جيبا؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وما لها من فروج﴾ (ق: ٦). ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها. ومعنى "فنفخنا" أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها "من روحنا" أي روحا من أرواحنا وهي روح عيسى. وقد مضى في آخر سورة "النساء" بيانه مستوفى والحمد لله. "وصدقت بكلمات ربها" قراءة العامة "وصدقت" بالتشديد. وقرأ حميد والأموي "وصدقت" بالتخفيف. "بكلمات ربها" قول جبريل لها: ﴿إنما أنا رسول ربك﴾ (مريم: ١٩) الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى وأنه نبي وعيسى كلمة الله. وقد تقدم. وقرأ الحسن وأبو العالية (بكلمة ربها وكتابه) وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم "وكتبه" جمعا. وعن أبي رجاء "وكتبه" مخفف التاء. والباقون "بكتابه" على التوحيد. والكتاب يراد به الجنس؛ فيكون في معنى كل كتاب أنزل الله تعالى. "وكانت من القانتين" أي من المطيعين. وقيل: من المصلين بين المغرب والعشاء. وإنما لم يقل من القانتات؛ لأنه أراد وكانت من القوم القانتين. ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها؛ فإنهم كانوا مطيعين لله. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها: (أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله في الكره خيرا فإذا قدمت على ضراتك فأقرئيهن مني السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة أو قال حكيمة بنت عمران أخت موسى بن عمران). فقالت: بالرفاء والبنين يا رسول الله[1]. وروى قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: (حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم)[2]. وقد مضى في (آل عمران) الكلام في هذا مستوفى والحمد لله.

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تاريخه (٢/ ٦٢) من طريق محمد بن الحسن بن زبالة عن يعلى بن المغيرة عن ابن أبي داود قال: دخل رسول الله ﷺ على خديجة وهي في مرضها الذي توفيت فيه فقال لها: بالكره مني... فذكره بنحوه، وهو مع كونه منقطعاً كما هو ظاهر، ففي إسناده محمد بن الحسن بن زبالة، كذبوه كما في التقريب (٢/ ١٥٤)، وبه أعله الهيثمي في "المجمع" (٩/ ٢١٨) بقوله: "رواه الطبراني منقطع الإسناد، وفيه محمد بن الحسن بن زبالة وهو ضعيف".

(٢) "صحيح" انظر صحيح الترمذي (٣٠٥٣).

سورة الملك

مقدمة السورة :

مكية في قول الجميع. وتسمى الواقية والمنجية. وهي ثلاثون آية.

روى الترمذي عن ابن عباس قال: ضرب رجل من أصحاب رسول الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة "الملك" حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة "الملك" حتى ختمها؟ فقال رسول الله ﷺ: (هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر)[1]. قال: حديث حسن غريب. وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (وددت أن "تبارك الذي بيده الملك" في قلب كل مؤمن)[2] ذكره الثعلبي. وعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل حتى أخرجته من النار يوم القيامة وأدخلته الجنة وهي سورة "تبارك")[3]. خرجه الترمذي بمعناه، وقال فيه: حديث حسن. وقال ابن مسعود: إذا وضع الميت في قبره فيؤتى من قبل رجليه، فيقال: ليس لكم عليه سبيل، فإنه كان يقوم بسورة "الملك" على قدميه. ثم يؤتى من قبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنه كان يقرأ بي سورة "الملك" ثم قال: هي المانعة من عذاب الله، وهي في التوراة سورة "الملك" من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب. وروي أن من قرأها كل ليلة لم يضره الفتان.

قوله تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿تبارك﴾ تفاعل من البركة وقد تقدم. وقال الحسن: تقدس. وقيل: دام. فهو الدائم الذي لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه. "الذي بيده الملك" أي ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة. وقال ابن عباس: بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع. وقال محمد بن إسحاق: له ملك النبوة التي أعز بها من اتبعه وذل بها من خالفه. "وهو على كل شيء قدير" من إنعام وانتقام.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني للموت في الدنيا والحياة في الآخرة وقدم الموت على الحياة؛ لأن الموت إلى القهر أقرب؛ كما قدم

(١) "ضعيف"، أخرجه الترمذي (٣٠٥٢ـ أحوذي) واستغربه، وقال المباركفوري: في سنده يحيى بن عمرو بن مالك وهو ضعيف.

(٢) "ضعيف جداً" وانظر ضعيف الجامع (٦١٣١).

(٣) "حسن" انظر صحيح الترمذي (٢٣١٥).

البنات على البنين فقال: ﴿يهب لمن يشاء إناثا﴾ (الشورى: ٤٩). وقيل: قدمه لأنه أقدم؛ لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوه. وقال قتادة: كان رسول الله ﷺ يقول: (إن الله تعالى أذل بني آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء)[١]. وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: (لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه الفقر والمرض والموت وإنه مع ذلك لوثاب)[٢].

الثانية: قدم الموت على الحياة، لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه؛ فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق لـه الآية أهم قال العلماء: الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال وانتقال من دار إلى دار. والحياة عكس ذلك. وحكي عن ابن عباس والكلبي ومقاتل: أن الموت والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبش لا يمر بشيء ولا يجد ريحه إلا مات، وخلق الحياة على صورة فرس أنثى بلقاء ـ وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها ـ خطوتها مد البصر، فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء يجد ريحها إلا حيي، ولا تطأ على شيء إلا حيي. وهي التي أخذ السامري من أثرها فألقاه على العجل فحيي. حكاه الثعلبي والقشيري عن ابن عباس. والماوردي معناه عن مقاتل والكلبي.

قلت: وفي التنزيل ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ (السجدة: ١١)، ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ (الأنفال: ٥٠) ثم ﴿توفته رسلنا﴾ (الأنعام: ٦١)، ثم قال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر: ٤٢). فالوسائط ملائكة مكرمون صلوات الله عليهم. وهو سبحانه المميت على الحقيقة، وإنما يمثل الموت بالكبش في الآخرة ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح. وما ذكر عن ابن عباس يحتاج إلى خبر صحيح يقطع العذر. والله أعلم. وعن مقاتل أيضا: خلق الموت؛ يعني النطفة والعلقة والمضغة، وخلق الحياة؛ يعني خلق إنسانا ونفخ فيه الروح فصار إنسانا.

قلت: وهذا قول حسن؛ يدل عليه قوله تعالى ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ وتقدم الكلام فيه في سورة "الكهف". وقال السدي في قوله تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ أي أكثركم للموت ذكرا وأحسن استعدادا، ومنه أشد خوفا وحذرا. وقال ابن عمر: تلا النبي ﷺ "تبارك الذي بيده الملك ـ حتى بلغ ـ أيكم أحسن عملا" فقال: (أورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله). وقيل: معنى "ليبلوكم" ليعاملكم معاملة المختبر؛ أي ليبلو العبد بموت من يعز عليه ليبين صبره، وبالحياة ليبين شكره. وقيل: خلق الله الموت للبعث والجزاء، وخلق الحياة للابتلاء. فاللام في "ليبلوكم" تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت؛ ذكره الزجاج. وقال الفراء والزجاج أيضا: لم تقع البلوى على "أي" لأن فيما بين البلوى و"أي" إضمار فعل؛ كما تقول: بلوتكم لأنظر أيكم أطوع. ومثله قوله تعالى: ﴿سلهم أيهم بذلك زعيم﴾ (القلم: ٤٠) أي سلهم ثم انظر أيهم. "فأيكم" رفع بالابتداء و"أحسن" خبره. والمعنى: ليبلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عملا. "وهو العزيز" في انتقامه ممن عصاه. "الغفور" لمن تاب.

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٩٦) من رواية ابن أبي حاتم مرسلاً.
(٢) المشهور أن هذا الكلام من قول الحسن البصري رحمه الله، وليس حديثًا مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقا﴾ أي بعضها فوق بعض. والملتزق منها أطرافها؛ كذا روي عن ابن عباس. و"طباقا" نعت "لسبع" فهو وصف بالمصدر. وقيل: مصدر بمعنى المطابقة؛ أي خلق سبع سموات وطبقها تطبيقا أو مطابقة. أو على طوبقت طباقا. وقال سيبويه: نصب "طباقا" لأنه مفعول ثان.

قلت: فيكون "خلق" بمعنى جعل وصير. وطباق جمع طبق؛ مثل جمل وجمال. وقيل: جمع طبقة. وقال أبان بن تغلب: سمعت بعض الأعراب يذم رجلا فقال: شره طباق، وخيره غير باق. ويجوز في غير القرآن سبع سموات طباق؛ بالخفض على النعت لسموات. ونظيره ﴿وسبع سنبلات خضر﴾ (يوسف: ٤٦).

قوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ قراءة حمزة والكسائي "من تفوت" بغير ألف مشددة. وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه. الباقون "من تفاوت" بألف. وهما لغتان مثل التعاهد والتعهد، والتحمل والتحامل، والتظهر والتظاهر، وتصاغر وتصغر، وتضاعف وتضعف، وتباعد وتبعد؛ كله بمعنى. واختار أبو عبيد "من تفوت" واحتج بحديث عبد الرحمن بن أبي بكر: "أمثلي يتفوت عليه في بناته"! النحاس: وهذا أمر مردود على أبي عبيد، لأن يتفوت يفتات بهم. "وتفاوت" في الآية أشبه. كما يقال تباين يقال: تفاوت الأمر إذا تباين وتباعد؛ أي فات بعضها بعضا. ألا ترى أن قبله قوله تعالى: "الذي خلق سبع سموات طباقا". والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاج ولا تناقض ولا تباين ـ بل هي مستقيمة مستوية دالة على خالقها ـ وإن اختلفت صوره وصفاته. وقيل: المراد بذلك السموات خاصة؛ أي ما ترى في خلق السموات من عيب. وأصله من الفوت، وهو أن يفوت شيء شيئا فيقع الخلل لقلة استوائها؛ يدل عليه قول ابن عباس رضي الله عنه: من تفرق. وقال أبو عبيدة: يقال: تفوت الشيء أي فات. ثم أمر بأن ينظروا في خلقه ليعتبروا به فيتفكروا في قدرته: فقال: "فارجع البصر هل ترى من فطور" أي اردد طرفك إلى السماء. ويقال: قلب البصر في السماء. ويقال: اجهد بالنظر إلى السماء. والمعنى متقارب. وإنما قال: "فارجع" بالفاء وليس قبله فعل مذكور؛ لأنه قال: "ما ترى". والمعنى انظر ثم ارجع البصر هل ترى من فطور؛ قاله قتادة. والفطور: الشقوق، عن مجاهد والضحاك. وقال قتادة: من خلل. السدي: من خروق. ابن عباس: من وهن. وأصله من التفطر والانفطار وهو الانشقاق. قال الشاعر:

بنى لكم بلا عمد سماء وزينها فما فيها فطور

وقال آخر:

شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور
تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا سكر ولم يبلغ سرور

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴿٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ "كرتين" في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي مرة بعد أخرى. وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى. فأخبر تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيبا بل يتحير بالنظر إليها؛ فذلك قولـه تعالى: "ينقلب إليك البصر خاسئاً" أي خاشعا صاغرا متباعدا عن أن يرى شيئا من ذلك. يقال: خسأت الكلب أي أبعدته وطردته. وخسأ الكلب بنفسه، يتعدى ولا يتعدى. وانخسأ الكلب أيضا. وخسأ بصره خسأ وخسوءا أي سدر، ومنه قولـه تعالى: ﴿ينقلب إليك البصر خاسئا﴾ وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى. "وهو حسير" أي قد بلغ الغاية في الإعياء. فهو بمعنى فاعل؛ من الحسور الذي هو الإعياء. ويجوز أن يكون مفعولا من حسره بعد الشيء، وهو معنى قول ابن عباس. ومنه قول الشاعر:

مـن مد طرفا إلـى ما فوق غايته ... ارتد خسآن منه الطرف قد حسرا

يقال: قد حسر بصره يحسر حسورا، أي كل وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حسير ومحسور أيضا. قال:

نظرت إليها بالمحصب من منى ... فعاد إلي الطرف وهو حسـير

وقال آخر يصف ناقة:

فشطرها نظر العينين محسور

نصب "شطرها" على الظرف، أي نحوها. وقال آخر:

والخيل شـعث ما تزال جيادها ... حسرى تغادر بالطريق سخالـها

وقيل: إنه النادم. ومنه قول الشاعر:

ما أنا اليوم على شيء خلا ... يابنة القـين تولى بحسـر

المراد "بكرتين" ها هنا التكثير. والدليل على ذلك: "ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير" وذلك دليل على كثرة النظر.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ جمع مصباح وهو السراج. وتسمى الكواكب مصابيح لإضاءتها. "وجعلناها رجوما للشياطين" أي جعلنا شهبها؛ فحذف المضاف. دليله ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ (الصافات: ١٠). وعلى هذا فالمصابيح لا تزول ولا يرجم بها. وقيل: إن الضمير راجع إلى المصابيح على أن الرجم من أنفس الكواكب، ولا يسقط الكوكب نفسه إنما ينفصل منه شيء يرجم به من غير أن ينقص ضوءه ولا صورته. قال أبو علي جوابا لمن قال: كيف تكون زينة وهي رجوم لا تبقى. قال المهدوي: وهذا على أن يكون الاستراق من موضع الكواكب. والتقدير الأول على أن يكون الاستراق من الـهوى الذي هو دون موضع الكواكب.

القشيري: وأمثل من قول أبي علي أن نقول: هي زينة قبل أن يرجم بها الشياطين. والرجوم جمع رجم؛ وهو مصدر سمي به ما يرجم به. قال قتادة: خلق الله تعالى النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها في البر والبحر والأوقات. فمن تأول فيها غير ذلك فقد تكلف ما لا علم لـه به، وتعدى وظلم. وقال محمد بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنهم يتخذون الكهانة سبيلا ويتخذون النجوم علة. "وأعتدنا لـهم عذاب السعير" أي أعتدنا للشياطين أشد الحريق؛ يقال: سعرت النار فهي مسعورة وسعير؛ مثل مقتولة وقتيل. "وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير".

قوله تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿إذا ألقوا فيها﴾ يعني الكفار. "سمعوا لـها شهيقا" أي صوتا. قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عند إلقاء الكفار فيها؛ تشهق إليهم شهقة البغلة للشعير، ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف. وقيل: الشهيق من الكفار عند إلقائهم في النار قالـه عطاء. والشهيق في الصدر، والزفير في الحلق. وقد مضى في سورة "هود". "وهي تفور" أي تغلي؛ ومنه قول حسان:

تركتم قدركم لا شيء فيها وقـدر القـوم حـامية تفور

قال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحب القليل في الماء الكثير. وقال ابن عباس: تغلي بهم على المرجل؛ وهذا من شدة لـهب النار من شدة الغضب؛ كما تقول فلان يفور غيظا.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ يعني تتقطع وينفصل بعضها من بعض؛ قالـه سعيد بن جبير. وقال ابن عباس والضحاك وابن زيد: تتفرق. "من الغيظ" من شدة الغيظ على أعداء الله تعالى. وقيل: "من الغيظ" من الغليان. وأصل "تميز" تتميز. "كلما ألقي فيها فوج" أي جماعة من الكفار. "سألـهم خزنتها" على جهة التوبيخ والتقريع "ألم يأتكم نذير" أي رسول في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا.

قولـه تعالى: ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير﴾ أنذرنا وخوفنا. "فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء" أي على ألسنتكم. "إن أنتم" يا معشر الرسل. "إلا في ضلال كبير" اعترفوا بتكذيب الرسل، ثم اعترفوا بجهلـهم فقالوا وهم في النار: "لو كنا نسمع" من النذر ـ يعني الرسل ـ ما جاؤوا به "أو نعقل" عنهم. قال ابن عباس: لو كنا نسمع الـهدى أو نعقلـه، أو لو كنا نسمع سماع من يعي ويفكر، أو نعقل عقل من يميز وينظر. ودل هذا على أن الكافر لم يعط من العقل شيئا. وقد مضى في

"الطور" بيانه والحمد لله. "ما كنا في أصحاب السعير" يعني ما كنا من أهل النار. وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لقد ندم الفاجر يوم القيامة قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فقال الله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم﴾ أي بتكذيبهم الرسل. والذنب ها هنا بمعنى الجمع؛ لأن فيه معنى الفعل. يقال: خرج عطاء الناس أي أعطيتهم. "فسحقا لأصحاب السعير" أي فبعدا لهم من رحمة الله. وقال سعيد بن جبير وأبو صالح: هو واد في جهنم يقال له السحق. وقرأ الكسائي وأبو جعفر "فسحقا" بضم الحاء، ورويت عن علي. الباقون بإسكانها، وهما لغتان مثل السحت والرعب. الزجاج: وهو منصوب على المصدر؛ أي أسحقهم الله سحقا؛ أي باعدهم بعدا. قال امرؤ القيس:

يجول بأطراف البلاد معربا وتسحقه ريح الصبا كل مسحق

وقال أبو علي: القياس إسحاقا؛ فجاء المصدر على الحذف؛ كما قيل:

وإن أهلك فذلك كان قدري

أي تقديري. وقيل: إن قوله تعالى: "إن أنتم إلا في ضلال كبير" من قول خزنة جهنم لأهلها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ نظيره: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ (ق: ٣٣) وقد مضى الكلام فيه. أي يخافون الله ويخافون عذابه الذي هو بالغيب؛ وهو عذاب يوم القيامة. "لهم مغفرة" لذنوبهم "وأجر كبير" وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به الخبر؛ يعني إن أخفيتم كلامكم في أمر محمد ﷺ أو جهرتم به "فإنه عليم بذات الصدور" يعني بما في القلوب من الخير والشر. ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ فيخبره جبريل عليه السلام؛ فقال بعضهم لبعض: أسروا قولكم كي لا يسمع رب محمد؛ فنزلت: "وأسروا قولكم أو اجهروا به". يعني: أسروا قولكم في أمر محمد ﷺ. وقيل في سائر الأقوال. أو اجهروا به؛ أعلنوه. "إنه عليم بذات الصدور" ذات الصدور ما فيها؛ كما يسمى ولد المرأة وهو جنين "ذا بطنها". ثم قال: "ألا يعلم من خلق" يعني ألا يعلم السر من خلق السر. يقول أنا خلقت السر في القلب أفلا أكون عالما بما في قلوب العباد. وقال أهل المعاني: إن شئت جعلت "من" اسما للخالق جل وعز؛ ويكون المعنى: ألا يعلم الخالق خلقه. وإن شئت جعلته اسما للمخلوق، والمعنى: ألا يعلم الله من خلق. ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه. قال ابن المسيب: بينما رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغيضة بصوت

عظيم: ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير. وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: من أسماء صفات الذات ما هو للعلم؛ منها "العليم" ومعناه تعميم جميع المعلومات. ومنها "الخبير" ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها "الحكيم" ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف. ومنها "الشهيد" ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر ومعناه أن لا يغيب عنه شيء، ومنها الحافظ ويختص بأنه لا ينسى. ومنها "المحصي" ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم؛ مثل ضوء النور واشتداد الريح وتساقط الأوراق؛ فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات في كل ورقة. وكيف لا يعلم وهو الذي يخلق! وقد قال: "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير".

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا﴾ أي سهلة تستقرون عليها. والذلول المنقاد الذي يذل لك والمصدر الذل وهو اللين والانقياد. أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة. وقيل: أي ثبتها بالجبال لئلا تزول بأهلها؛ ولو كانت تتكفأ متمائلة لما كانت منقادة لنا. وقيل: أشار إلى التمكن من الزرع والغرس وشق العيون والأنهار وحفر الآبار. "فامشوا في مناكبها" هو أمر إباحة، وفيه إظهار الامتنان. وقيل: هو خبر بلفظ الأمر؛ أي لكي تمشوا في أطرافها ونواحيها وآكامها وجبالها. وقال ابن عباس وقتادة وبشير بن كعب: "في مناكبها" في جبالها. وروي أن بشير ابن كعب كانت له سرية فقال لها: إن أخبرتني ما مناكب الأرض فأنت حرة؟ فقالت: مناكبها جبالها. فصارت حرة، فأراد أن يتزوجها فسأل أبا الدرداء فقال: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. مجاهد: في أطرافها. وعنه أيضا: في طرقها وفجاجها. وقاله السدي والحسن. وقال الكلبي: في جوانبها. ومنكبا الرجل: جانباه. وأصل المنكب الجانب؛ ومنه منكب الرجل. والريح النكباء. وتنكب فلان عن فلان. يقول: امشوا حيث أردتم فقد جعلتها لكم ذلولا لا تمتنع. وحكى قتادة عن أبي الجلد: أن الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ؛ فللسودان اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانية آلاف، وللفرس ثلاثة آلاف، وللعرب ألف. "وكلوا من رزقه" أي مما أحله لكم؛ قاله الحسن. وقيل: مما أتيته لكم. "وإليه النشور" المرجع. وقيل: معناه أن الذي خلق السماء لا تفاوت فيها، والأرض ذلولا قادر على أن ينشركم.

قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾ قال ابن عباس: أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه. وقيل: تقديره أأمنتم من في السماء قدرته وسلطانه وعرشه ومملكته. وخص السماء وإن عم ملكه تنبيها على أن الإله الذي تنفذ قدرته في السماء لا من يعظمونه في الأرض. وقيل: هو إشارة إلى الملائكة. وقيل: إلى جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب.

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون. "فإذا هي تمور" أي تذهب وتجيء. والمور: الاضطراب بالذهاب والمجيء. قال الشاعر:

رمين فأقصدن القلوب ولن ترى   دما مائرا إلا جرى في الحيازم

جمع حيزوم وهو وسط الصدر. وإذا خسف بإنسان دارت به الأرض فهو المور. وقال المحققون: أمنتم من فوق السماء؛ كقوله: ﴿فسيحوا في الأرض﴾ (التوبة: ٢) أي فوقها لا بالمماسة والتحيز لكن بالقهر والتدبير. وقيل: معناه أمنتم من على السماء؛ كقوله تعالى: ﴿ولأصلبنكم في جذوع النخل﴾ (طه: ٧١) أي عليها. ومعناه أنه مديرها ومالكها؛ كما يقال: فلان على العراق والحجاز؛ أي واليها وأميرها. والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة منتشرة، مشيرة إلى العلو؛ لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل معاند. والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت. ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام. وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته؛ كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان. ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان. وقرأ قنبل عن ابن كثير "النشور وامنتم" بقلب الهمزة الأولى واوا وتخفيف الثانية. وقرأ الكوفيون والبصريون وأهل الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتخفيف في الهمزتين، وخفف الباقون. وقد تقدم جميعه.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا﴾ أي حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل. وقيل: ريح فيها حجارة وحصباء. وقيل: سحاب فيه حجارة. "فستعلمون كيف نذير" أي إنذاري. وقيل: النذير بمعنى المنذر. يعني محمدا ﷺ فستعلمون صدقه وعاقبة تكذيبكم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ يعني كفار الأمم؛ كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب الرس وقوم فرعون "فكيف كان نكير" أي إنكاري وقد تقدم. وأثبت ورش الياء في "نذيري، ونكيري" في الوصل. وأثبتها يعقوب في الحالين. وحذف الباقون اتباعا للمصحف.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾ أي كما ذلل الأرض للآدمي ذلل الهواء للطيور. و"صافات" أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها؛ لأنهن إذا بسطنها صففن قوائمها

صفا. "ويقبضن" أي يضربن بها جنوبهن. قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صاف، وإذا ضمهما فأصابا جنبه: قابض؛ لأنه يقبضهما. قال أبو خراش:

يبادر جنح الليل فهو موائل   يحث الجناح بالتبسط والقبض

وقيل: ويقبضن أجنحتهن بعد بسطها إذا وقفن من الطيران. وهو معطوف على "صافات" عطف المضارع على اسم الفاعل؛ كما عطف اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

بات يعشيها بعضب باتر   يقصد في أسوقها وجائر

"ما يمسكهن" أي ما يمسك الطير في الجو وهي تطير إلا الله عز وجل. "إنه بكل شيء بصير".

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم﴾ قال ابن عباس: حزب ومنعة لكم. "ينصركم من دون الرحمن" فيدفع عنكم ما أراد بكم إن عصيتموه. ولفظ الجند يُوَحَّد؛ ولهذا قال: "هذا الذي هو جند لكم" وهو استفهام إنكار؛ أي لا جند لكم يدفع عنكم عذاب الله "من دون الرحمن" أي من سوى الرحمن. "إن الكافرون إلا في غرور" من الشياطين؛ تغرهم بأن لا عذاب ولا حساب.

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم﴾ أي يعطيكم منافع الدنيا. وقيل المطر من آلهتكم. "إن أمسك رزقه" يعني الله تعالى رزقه. "بل لجوا" أي تمادوا وأصروا. "في عتو" طغيان "ونفور" عن الحق.

قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه﴾ ضرب الله مثلا للمؤمن والكافر "مكبا" أي منكسا رأسه لا ينظر أمامه ولا يمينه ولا شماله؛ فهو لا يأمن من العثور والانكباب على وجهه. كمن يمشي سويا معتدلا ناظرا ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله. قال ابن عباس: هذا في الدنيا؛ ويجوز أن يريد به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسف؛ فلا يزال ينكب على وجهه. وأنه ليس كالرجل السوي الصحيح البصير الماشي في الطريق المهتدي له. وقال قتادة: هو الكافر أكب على معاصي الله في الدنيا فحشره الله يوم القيامة على وجهه. وقال ابن عباس والكلبي: عنى بالذي يمشي مكبا على وجهه أبا جهل، وبالذي يمشي سويا رسول الله ﷺ. وقيل أبو بكر. وقيل حمزة. وقيل عمار بن ياسر؛ قاله عكرمة. وقيل: هو عام في الكافر والمؤمن؛ أي أن الكافر لا يدري أعلى حق هو أم على باطل. أي أهذا الكافر أهدى أو المسلم الذي يمشي سويا معتدلا يبصر للطريق وهو "على صراط مستقيم" وهو الإسلام. ويقال: أكب الرجل على وجهه؛ فيما لا يتعدى بالألف. فإذا تعدى قيل: كبه الله لوجهه؛ بغير ألف.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قولـه تعالى: "قل هو الذي أنشأكم" أمر نبيه أن يعرفهم قبح شركهم مع اعترافهم بأن الله خلقهم. "وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة" يعني القلوب "قليلا ما تشكرون" أي لا تشكرون هذه النعم، ولا توحدون الله تعالى. تقول: قلما أفعل كذا؛ أي لا أفعلـه.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم في الأرض؛ قاله ابن عباس. وقيل: نشركم فيها وفرقكم على ظهرها؛ قالـه ابن شجرة. "وإليه تحشرون" حتى يجازي كلا بعملـه. "ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين" أي متى يوم القيامة ومتى هذا العذاب الذي تعدوننا به وهذا استهزاء منهم. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿قل إنما العلم عند الله﴾ أي قل لـهم يا محمد علم وقت قيام الساعة عند الله فلا يعلمه غيره. نظيره: ﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ (الأعراف: ١٨٧) الآية. "وإنما أنا نذير مبين" أي مخوف ومعلم لكم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة﴾ مصدر بمعنى مزدلفا أي قريبا؛ قاله مجاهد. الحسن عيانا. وأكثر المفسرين على أن المعنى: فلما رأوه يعني العذاب، وهو عذاب الآخرة. وقال مجاهد: يعني عذاب بدر. وقيل: أي رأوا ما وعدوا من الحشر قريبا منهم. ودل عليه "تحشرون". وقال ابن عباس: لما رأوا عملـهم السيئ قريبا. "سيئت وجوه الذين كفروا" أي فعل بها السوء. وقال الزجاج: تبين فيها السوء أي ساءهم ذلك العذاب وظهر على وجوههم سمة تدل على كفرهم؛ كقولـه تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ (آل عمران: ١٠٦). وقرأ نافع وابن محيصن وابن عامر والكسائي "سيئت" بإشمام الضم. وكسر الباقون بغير إشمام طلباً للخفة. ومن ضم لاحظ الأصل. "وقيل هذا الذي كنتم به تدعون" قال الفراء: "تدعون" تفتعلون من الدعاء وهو قول أكثر العلماء أي تتمنون وتسألون. وقال ابن عباس: تكذبون؛ وتأويلـه: هذا الذي كنتم من أجلـه تدعون الأباطيل والأحاديث؛ قالـه الزجاج. وقراءة العامة "تدعون" بالتشديد، وتأويلـه ما ذكرناه. وقرأ قتادة وابن أبي إسحاق والضحاك ويعقوب "تدعون" مخففة. قال قتادة: هو قولـهم ﴿ربنا عجل لنا قطنا﴾ (ص: ١٦). وقال الضحاك: هو قولـهم ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء﴾ (الأنفال: ٣٢) الآية. وقال أبو العباس: "تدعون" تستعجلون؛ يقال: دعوت بكذا إذا

طلبته؛ وادعيت افتعلت منه. النحاس: "تدَّعُونَ وتَدْعُون" بمعنى واحد؛ كما يقال: قدر واقتدر، وعدى واعتدى؛ إلا أن في "افتعل" معنى شيء بعد شيء، و"فعل" يقع على القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله﴾ أي قل لهم يا محمد ـ يريد مشركي مكة، وكانوا يتمنون موت محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ (الطور: ٣٠) ـ أرأيتم إن متنا أو رحمنا فأخرت آجالنا فمن يجيركم من عذاب الله؛ فلا حاجة بكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة. وأسكن الياء في "أهلكني" ابن محيصن والمسيبي وشيبة والأعمش وحمزة. وفتحها الباقون. وكلهم فتح الياء في "ومن معي" إلا أهل الكوفة فإنهم سكنوها. وفتحها حفص كالجماعة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون﴾ قرأ الكسائي بالياء على الخبر؛ ورواه عن علي. الباقون بالتاء على الخطاب. وهو تهديد لهم. ويقال: لم أخر مفعول "آمنا" وقدم مفعول "توكلنا" فيقال: لوقوع "آمنا" تعريضا بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم. كأنه قيل: آمنا ولم نكفر كما كفرتم. ثم قال "وعليه توكلنا" خصوصا لم نتكل على ما أنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزمخشري.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم﴾ يا معشر قريش "إن أصبح ماؤكم غورا" أي غائرا ذاهبا في الأرض لا تناله الدلاء. وكان ماؤهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون. "فمن يأتيكم بماء معين" أي جار؛ قاله قتادة والضحاك. فلا بد لهم من أن يقولوا لا يأتينا به إلا الله؛ فقل لهم لم تشركون به من لا يقدر على أن يأتيكم. يقال: غار الماء يغور غورا؛ أي نضب. والغور: الغائر؛ وصف بالمصدر للمبالغة؛ كما تقول: رجل عدل ورضا. وقد مضى في سورة "الكهف" ومضى القول في المعنى في سورة "المؤمنون" والحمد لله. وعن ابن عباس: "بماء معين" أي ظاهر تراه العيون؛ فهو مفعول. وقيل: هو من معن الماء أي كثر؛ فهو على هذا فعيل. وعن ابن عباس أيضا: أن المعنى فمن يأتيكم بماء عذب. والله أعلم.

ختمت السورة والحمد لله رب العالمين.

سورة القلم

مقدمة السورة :

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس وقتادة: من أولها إلى قوله تعالى: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ (القلم: ١٦) مكي. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أكبر لو كانوا يعلمون﴾ (القلم: ٣٣) مدني. ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿يكتبون﴾ (القلم: ٤٧) مكي. ومن بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿من الصالحين﴾ (القلم: ٥٠) مدني، وما بقي مكي؛ قاله الماوردي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ن والقلم﴾ أدغم النون الثانية في هجائها في الواو أبو بكر والمفضل وهبيرة وورش وابن محيصن وابن عامر والكسائي ويعقوب. والباقون بالإظهار. وقرأ عيسى بن عمر بفتحها؛ كأنه أضمر فعلا. وقرأ ابن عباس ونصر وابن أبي إسحاق بكسرها على إضمار حرف القسم. وقرأ هارون ومحمد بن السميقع بضمها على البناء. واختلف في تأويله؛ فروى معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: (ن لوح من نور)[1]. وروى ثابت البناني أن "ن" الدواة. وقاله الحسن وقتادة. وروى الوليد بن مسلم قال: حدثنا مالك بن أنس عن سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح السمان عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول ما خلق الله القلم ثم خلق النون وهي الدواة وذلك قوله تعالى: "ن والقلم" ثم قال له اكتب قال: وما أكتب قال: ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل أو أجل أو رزق أو أثر فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة - قال - ثم ختم فم القلم فلم ينطق ولا ينطق إلى يوم القيامة. ثم خلق العقل فقال الجبار ما خلقت خلقا أعجب إلي منك وعزتي وجلالي لأكملنك فيمن أحببت ولأنقصنك فيمن أبغضت) قال: ثم قال رسول الله ﷺ: (أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعملهم بطاعته)[2]. وعن مجاهد قال: "ن" الحوت الذي تحت الأرض السابعة. قال: "والقلم" الذي كتب به الذكر. وكذا قال مقاتل ومرة الهمداني وعطاء الخراساني والسدي والكلبي: إن النون هو الحوت الذي عليه الأرضون. وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: أول ما خلق الله القلم فجرى بما هو كائن، ثم رفع بخار الماء فخلق منه السماء، ثم خلق النون فبسط الأرض على ظهره، فمادت الأرض فأثبتت بالجبال، وإن الجبال لتفخر على الأرض. ثم قرأ ابن عباس "ن والقلم" الآية. وقال الكلبي ومقاتل: اسمه البهموت. قال الراجز:

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤٠١/٤٠) من رواية ابن جرير بسنده عن معاوية بن قرة عن أبيه، وقال: "وهذا مرسل غريب".

(٢) ذكره الحافظ في "اللسان"، (٥/ ٤٧٥، ٤٧٦) في ترجمة محمد بن وهب الدمشقي قائلاً: "وروى له ابن عدي حديثا - يعني هذا - وقال هذا باطل، ثم قال أيضا بعدما ساقه بإسناده: فصدق ابن عدي في أن الحديث باطل".

ما لي أراكم كلكم سكوتا   والله ربـي خلق البهموتا

وقال أبو اليقظان والواقدي: ليوثا. وقال كعب: لوثوثا. وقال: بلـهموثا. وقال كعب: إن إبليس تغلغل إلى الحوت الذي على ظهره الأرضون فوسوس في قلبه، وقال: أتدري ما على ظهرك يا لوثوثا من الدواب والشجر والأرضين وغيرها، لو لفظتهم ألقيتهم عن ظهرك أجمع؛ فهمّ ليوثا أن يفعل ذلك، فبعث الله إليه دابة فدخلت منخره ووصلت إلى دماغه، فضج الحوت إلى الله عز وجل منها فأذن الله لـها فخرجت. قال كعب: فوالله إنه لينظر إليها وتنظر إليه إن همّ بشيء من ذلك عادت كما كانت. وقال الضحاك عن ابن عباس: إن "ن" آخر حروف من حروف الرحمن. قال: الر، وحم، ون؛ الرحمن تعالى متقطعة. وقال ابن زيد: هو قسم أقسم تعالى به. وقال ابن كيسان: هو فاتحة السورة. وقيل: اسم السورة. وقال عطاء وأبو العالية: هو افتتاح اسمه نصير ونور وناصر. وقال محمد بن كعب: أقسم الله تعالى بنصره للمؤمنين؛ وهو حق. بيانه قولـه تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾(الروم: ٤٧) وقال جعفر الصادق: هو نهر من أنهار الجنة يقال لـه نون. وقيل: هو المعروف من حروف المعجم، لأنه لو كان غير ذلك لكان معربا؛ وهو اختيار القشيري أبو نصر عبد الرحيم في تفسيره. قال: لأن "ن" حرف لم يعرب، فلو كان كلمة تامة أعرب كما أعرب القلم، فهو إذا حرف هجاء كما في سائر مفاتيح السور. وعلى هذا قيل: هو اسم السورة، أي هذه السورة "ن". ثم قال: "والقلم" أقسم بالقلم لما فيه من البيان كاللسان؛ وهو واقع على كل قلم مما يكتب به من في السماء ومن في الأرض؛ ومنه قول أبي الفتح البستي:

إذا أقسـم الأبطـال يومـا بسـيفهم   وعـدوه ممـا يكسب المجد والكرم

كفـى قلـم الكتاب عـزا ورفعـة   مدى الدهر أن الله أقسـم بالقلـم

وللشعراء في تفضيل القلم على السيف أبيات كثيرة؛ ما ذكرناه أعلاها. وقال ابن عباس: هذا قسم بالقلم الذي خلقه الله؛ فأمره فجرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وهو قلم من نور طولـه كما بين السماء والأرض. ويقال. خلق الله القلم ثم نظر إليه فانشق نصفين؛ فقال: اجر؛ فقال: يا رب بم أجري؟ قال: بما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فجرى على اللوح المحفوظ. وقال الوليد بن عبادة بن الصامت: أوصاني أبي عند موته فقال: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقي ولن تبلغ العلم حتى تؤمن بالله وحده، والقدر خيره وشره، سمعت النبي ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال لـه اكتب فقال: يا رب وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وما هو كائن إلى الأبد)[١] وقال ابن عباس: أول ما خلق الله القلم فأمره أن يكتب ما هو كائن؛ فكتب فيما كتب ﴿تبت يدا أبي لـهب﴾ (المسد: ١). وقال قتادة: القلم نعمة من الله تعالى على عباده. قال غيره: فخلق الله القلم الأول فكتب ما يكون في الذكر ووضعه عنده فوق عرشه، ثم خلق القلم الثاني ليكتب به في الأرض؛ على ما يأتي بيانه في سورة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ (العلق: ١).

---

(١) "صحيح" انظر صحيح أبي داود (٣٩٣٣).

قوله تعالى: ﴿وما يسطرون﴾ أي وما يكتبون. يريد الملائكة يكتبون أعمال بني آدم؛ قاله ابن عباس: وقيل: وما يكتبون أي الناس ويتفاهمون به. وقال ابن عباس: ومعنى "وما يسطرون" وما يعلمون. و"ما" موصولة أو مصدرية؛ أي ومسطوراتهم أو وسطرهم، ويراد به كل من يسطر أو الحفظة؛ على الخلاف. "ما أنت بنعمة ربك بمجنون" هذا جواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (الحجر: ٦) فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم "ما أنت بنعمة ربك بمجنون" أي برحمة ربك. والنعمة ها هنا الرحمة. ويحتمل ثانيا ـ أن النعمة ها هنا قسم؛ وتقديره: ما أنت ونعمة ربك بمجنون؛ لأن الواو والباء من حروف القسم. وقيل هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك؛ كقولهم: سبحانك اللهم وبحمدك؛ أي والحمد لله. ومنه قول لبيد:

وأفردت في الدنيا بفقد عشيرتي ... وفارقني جار بأربد نافع

أي وهو أربد. وقال النابغة:

لم يحرموا حسن الغذاء وأمهم ... طفحت عليك بناتق مذكار

أي هو ناتق. والباء في "بنعمة ربك" متعلقة "بمجنون" منفيا؛ كما يتعلق بغافل مثبتا. كما في قولك: أنت بنعمة ربك غافل. ومحله النصب على الحال؛ كأنه قال: ما أنت بمجنون منعما عليك بذلك. "وإن لك لأجرا" أي ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة. "غير ممنون" أي غير مقطوع ولا منقوص؛ يقال: مننت الحبل إذا قطعته. وحبل منين إذا كان غير متين. قال الشاعر:

غُبْسا كواسب لا يُمَنّ طعامها

أي لا يقطع. وقال مجاهد: "غير ممنون" محسوب. الحسن: "غير ممنون" غير مكدر بالمن. الضحاك: أجرا بغير عمل. وقيل: غير مقدر وهو التفضل؛ لأن الجزاء مقدر والتفضل غير مقدر؛ ذكره الماوردي، وهو معنى قول مجاهد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قال ابن عباس ومجاهد: على خلق، على دين عظيم من الأديان، ليس دين أحب إلى الله تعالى ولا أرضى عنده منه. وفي صحيح مسلم عن عائشة: أن خلقه كان القرآن. وقال علي رضي الله عنه وعطية: هو أدب القرآن. وقيل: هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم. وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهي عنه مما نهى الله عنه. وقيل: أي إنك على طبع كريم. الماوردي: وهو الظاهر. وحقيقة الخلق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقا؛ لأنه يصير كالخلقة فيه. وأما ما طبع عليه من الأدب فهو الخيم (بالكسر): السجية والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخيم: اسم جبل. فيكون الخلق الطبع المتكلف. والخيم الطبع الغريزي. وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال:

وإذا ذو الفضول ضن على المو لى وعـادت لخيمها الأخـلاق

أي رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

قلت: ما ذكرته عن عائشة في صحيح مسلم أصح الأقوال. وسئلت أيضا عن خلقه ﷺ؛ فقرأت ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ (المؤمنون: ١) إلى عشر آيات، وقالت: ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من الصحابة ولا من أهل بيته إلا قال لبيك، ولذلك قال الله تعالى: "وإنك لعلى خلق عظيم". ولم يذكر خلق محمود إلا وكان للنبي ﷺ منه الحظ الأوفر. وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما لأنه لم تكن لـه همة سوى الله تعالى. وقيل: سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه؛ يدل عليه قولـه ﷺ: (إن الله بعثني لأتمم مكارم الأخلاق)[(١)]. وقيل: لأنه امتثل تأديب الله تعالى إياه بقولـه تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: ١٩٩). وقد روي عنه ﷺ أنه قال: (أدبني ربي تأديبا حسنا)[(٢)] إذ قال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: ١٩٩) فلما قبلت ذلك منه قال: "إنك لعلى خلق عظيم".

الثانية: روى الترمذي عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[(٣)]. قال: حديث حسن صحيح. وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء)[(٤)]. قال: حديث حسن صحيح. وعنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: (ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصلاة والصوم)[(٥)]. قال: حديث غريب من هذا الوجه. وعن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: (تقوى الله وحسن الخلق). وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: (الفم والفرج)[(٦)] قال: هذا حديث صحيح غريب. وعن عبد الله بن المبارك أنه وصف حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. وعن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا ـ قال ـ وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون). قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: (المتكبرون)[(٧)]. قال: وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

---

(١) "صحيح" انظر الصحيحة (٤٥).
(٢) "ضعيف" انظر الضعيفة (٧٢).
(٣) صحيح.
(٤) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٦٣٢).
(٥) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٥٧٢٦).
(٦) صحيح.
(٧) صحيح.

قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾

قولـه تعالى: ﴿فستبصر ويبصرون﴾ قال ابن عباس: معناه فستعلم ويعلمون يوم القيامة. وقيل: فسترى ويرون يوم القيامة حين يتبين الحق والباطل. "بأيكم المفتون" الباء زائدة؛ أي فستبصر ويبصرون أيكم المفتون. أي الذي فتن بالجنون؛ كقولـه تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾ (المؤمنون: ٢٠) و﴿يشرب بها عباد الله﴾ (الإنسان: ٦). وهذا قول قتادة وأبي عبيد والأخفش. وقال الراجز:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل: الباء ليست بزائدة؛ والمعنى: "بأيكم المفتون" أي الفتنة. وهو مصدر على وزن المفعول، ويكون معناه الفتون؛ كما قالوا: ما لفلان مجلود ولا معقول؛ أي عقل ولا جلادة. وقالـه الحسن والضحاك وابن عباس. وقال الراعي:

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحمـا ولا لفـؤاده معقولا

أي عقلا. وقيل في الكلام تقدير حذف مضاف؛ والمعنى: بأيكم فتنة المفتون. وقال الفراء: الباء بمعنى في؛ أي فستبصر ويبصرون في أي الفريقين المجنون؛ أبالفرقة التي أنت فيها من المؤمنين أم بالفرقة الأخرى. والمفتون: المجنون الذي فتنه الشيطان. وقيل: المفتون المعذب. من قول العرب: فتنت الذهب بالنار إذا حميته. ومنه قولـه تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ (الذاريات: ١٣) أي يعذبون.

ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل. وقيل: المفتون هو الشيطان؛ لأنه مفتون في دينه. وكانوا يقولون: إن به شيطانا، وعنوا بالمجنون هذا؛ فقال الله تعالى: فسيعلمون غدا بأيهم المجنون؛ أي الشيطان الذي يحصل من مسه الجنون واختلاط العقل. "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيلـه" أي إن الله هو العالم بمن حاد عن دينه. "وهو أعلم بالمهتدين" أي الذين هم على الـهدى فيجازي كلا غدا بعملـه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾

نهاه عن ممايلة المشركين؛ وكانوا يدعونه إلى أن يكف عنهم ليكفوا عنه، فبيّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر. وقال تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ (الإسراء: ٧٤). وقيل: أي فلا تطع المكذبين فيما دعوك إليه من دينهم الخبيث. نزلت في مشركي قريش حين دعوه إلى دين آبائه.

قوله تعالى: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ ﴾

قال ابن عباس وعطية والضحاك والسدي: ودوا لو تكفر فيتمادون على كفرهم. وعن ابن عباس أيضا: ودوا لو ترخص لـهم فيرخصون لك. وقال الفراء والكلبي: لو تلين فيلينون لك. والادهان:

التليين لمن لا ينبغي لـه التليين؛ قالـه الفراء. وقال مجاهد: المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيمالئونك. وقال الربيع بن أنس: ودوا لو تكذب فيكذبون. وقال قتادة: ودوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك. الحسن: ودوا لو تصانعهم في دينك فيصانعونك في دينهم. وعنه أيضا: ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم. زيد بن أسلم: لو تنافق وترائي فينافقون ويراؤون. وقيل: ودوا لو تضعف فيضعفون؛ قال أبو جعفر. وقيل: ودوا لو تداهن في دينك فيداهنون في أديانهم؛ قالـه القتبي. وعنه: طلبوا منه أن يعبد آلـهتهم مدة ويعبدوا إلـهه مدة. فهذه اثنا عشر قولا. ابن العربي: ذكر المفسرون فيها نحو عشرة أقوال كلـها دعاوى على اللغة والمعنى. أمثلـها قولـهم: ودوا لو تكذب فيكذبون، ودوا لو تكفر فيكفرون.

قلت: كلـها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى؛ فإن الادهان: اللين والمصانعة. وقيل: مجاملة العدو ممايلته. وقيل: المقاربة في الكلام والتليين في القول. قال الشاعر:

لبعض الغشم أحزم في أمور تنـوبك مـن مداهنـة العـده

وقال المفضل: النفاق وترك المناصحة. فهي على هذا الوجه مذمومة، وعلى الوجه الأول غير مذمومة، وكل شيء منها لم يكن. قال المبرد: يقال أدهن في دينه وداهن في أمره؛ أي خان فيه وأظهر خلاف ما يضمر. وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غششت؛ قال الجوهري. وقال: "فيدهنون" فساقه على العطف، ولو جاء به جواب النهي لقال فيدهنوا. وإنما أراد: إن تمنوا لو فعلت فيفعلون مثل فعلك؛ عطفا لا جزاء عليه ولا مكافأة، وإنما هو تمثيل وتنظير.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

يعني الأخنس بن شريق؛ في قول الشعبي والسدي وابن إسحاق. وقيل: الأسود بن عبد يغوث، أو عبد الرحمن بن الأسود؛ قالـه مجاهد. وقيل: الوليد بن المغيرة، عرض على النبي ﷺ مالا وحلف أن يعطيه إن رجع عن دينه؛ قاله مقاتل. وقال ابن عباس: هو أبو جهل بن هشام. والحلاف: الكثير الحلف. والمهين: الضعيف القلب؛ عن مجاهد. ابن عباس: الكذاب. والكذاب مهين. وقيل: المكثار في الشر؛ قالـه الحسن وقتادة. وقال الكلبي: المهين الفاجر العاجز. وقيل: معناه الحقير عند الله. وقال ابن شجرة: إنه الذليل. الرماني: المهين الوضيع لإكثاره من القبيح. وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة. وهي هنا القلة في الرأي والتمييز. أو هو فعيل بمعنى مفعل؛ والمعنى مهان. "هماز" قال ابن زيد: الـهماز الذي يهمز الناس بيده ويضربهم. واللماز باللسان. وقال الحسن: هو الذي يهمز ناحية في المجلس؛ كقولـه تعالى: ﴿همزة﴾ (الـهمزة: ١). وقيل: الـهماز الذي يذكر الناس في وجوههم. واللماز الذي يذكرهم في مغيبهم؛ قالـه أبو العالية وعطاء بن أبي رباح والحسن أيضا. وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الـهمزة الذي يغتاب بالغيبة. واللمزة الذي يغتاب في الوجه. وقال مرة: هما سواء. وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب. ونحوه عن ابن عباس وقتادة. قال الشاعر:

تدلي بود إذا لاقيتني كذبا وإن أغب فأنت الهامز اللُّمَزَه

"مشاء بنميم" أي يمشي بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم. يقال: نم ينم نما ونميما ونميمة؛ أي يمشي ويسعى بالفساد. وفي صحيح مسلم عن حذيفة أنه بلغه أن رجلا ينم الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يدخل الجنة نمام). وقال الشاعر:

ومولى كبيت النمل لا خير عنده لمولاه إلا سعيه بنميم

قال الفراء: هما لغتان. وقيل: النميم جمع نميمة. "مناع للخير" أي للمال أن ينفق في وجوهه. وقال ابن عباس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته. وقال الحسن: يقول لهم من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبدا. "معتد" أي على الناس في الظلم متجاوز للحد، صاحب باطل. "أثيم" أي ذي إثم، ومعناه أثوم، فهو فعيل بمعنى فعول. "عتل بعد ذلك زنيم" العتل الجافي الشديد في كفره. وقال الكلبي والفراء: هو الشديد الخصومة بالباطل. وقيل: إنه الذي يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب. مأخوذ من العتل وهو الجر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿خذوه فاعتلوه﴾ (الدخان: ٤٧). وفي الصحاح: وعتلت الرجل أعْتله وأعتُله إذا جذبته جذبا عنيفا. ورجل معْتَل (بالكسر). وقال يصف فرسا:

نفرعه فرعا ولسنا نَعْتله

قال ابن السكيت: عتله وعتنه، باللام والنون جميعا. والعَتل الغليظ الجافي. والعتل أيضا: الرمح الغليظ. ورجل عتل (بالكسر) بيِّن العتل؛ أي سريع إلى الشر. ويقال: لا أنعتل معك؛ أي لا أبرح مكاني. وقال عبيد بن عمير: العتل الأكول الشروب القوي الشديد يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة؛ يدفع الملك من أولئك في جهنم بالدفعة الواحدة سبعين ألفا. وقال علي بن أبي طالب والحسن: العتل الفاحش السيئ الخلق. وقال معمر: هو الفاحش اللئيم. قال الشاعر:

بعُتُلّ من الرجال زنيم غير ذي نجدة وغير كريم

وفي صحيح مسلم عن حارثة بن وهب سمع النبي ﷺ قال: (ألا أخبركم بأهل الجنة - قالوا بلى قال - كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار - قالوا بلى قال - كل عتل جواظ مستكبر). وفي رواية عنه (كل جواظ زنيم متكبر). الجواظ: قيل هو الجموع المنوع. وقيل الكثير اللحم المختال في مشيته. وذكر الماوردي عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم، ورواه ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا العتل الزنيم). فقال رجل: ما الجواظ وما الجعظري وما العتل الزنيم؟ فقال رسول الله ﷺ: (الجواظ الذي جمع ومنع. والجعظري الغليظ. والعتل الزنيم الشديد الخلق الرحيب الجوف المصحح الأكول الشروب الواجد للطعام الظلوم للناس). وذكره الثعلبي عن شداد بن أوس: (لا يدخل الجنة جواظ ولا جعظري ولا عتل زنيم) سمعتهن من النبي ﷺ قلت: وما الجواظ؟ قال: الجماع المناع. قلت: وما الجعظري؟ قال: الفظ الغليظ. قلت: وما العتل الزنيم؟ قال: الرحيب الجوف الوثير الخلق الأكول الشروب الغشوم الظلوم.

قلت: فهذا التفسير من النبي ﷺ في العتل قد أربى على أقوال المفسرين. ووقع في كتاب أبي داود في تفسير الجواظ أنه الفظ الغليظ. ذكره من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة الجواظ ولا الجعظري)[١] قال: والجواظ الفظ الغليظ. ففيه تفسيران مرفوعان حسب ما ذكرناه أولا. وقد قيل: إنه الجافي القلب. وعن زيد بن أسلم في قولـه تعالى: ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ قال: قال النبي ﷺ: (تبكي السماء من رجل أصح الله جسمه ورحب جوفه وأعطاه من الدنيا بعضا فكان للناس ظلوما فذلك العتل الزنيم. وتبكي السماء من الشيخ الزاني ما تكاد الأرض تقلـه)[٢].

والزنيم الملصق بالقوم الدعي؛ عن ابن عباس وغيره. قال الشاعر:

زنيـــم تداعـــاه الرجـــال زيادة   كما زيد في عرض الأديم الأكارع

وعن ابن عباس أيضا: أنه رجل من قريش كانت لـه زنمة كزنمة الشاة. وروى عنه ابن جبير: أنه الذي يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها. وقال عكرمة: هو اللئيم الذي يعرف بلؤمه كما تعرف الشاة بزنمتها. وقيل: إنه الذي يعرف بالأُبنَـة. وهو مروي عن ابن عباس أيضا. وعنه أنه الظلوم. فهذه ستة أقوال. وقال مجاهد: زنيم كانت لـهَ ستة أصابع في يده، في كل إبهام لـه إصبع زائدة. وعنه أيضا وسعيد بن المسيب وعكرمة: هو ولد الزنى الملحق في النسب بالقوم. وكان الوليد دعيا في قريش ليس من سنخهم؛ ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة من مولده. قال الشاعر:

زنيم ليس يعرف من أبوه   بغـي الأم ذو حسب لئيم

وقال حسان:

وأنت زنيم نيـــط فـــي آل هاشـــم   كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

قلت: وهذا هو القول الأول بعينه. وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه الذي لا أصل لـه؛ والمعنى واحد. وروي أن النبي ﷺ قال: (لا يدخل الجنة ولد زنى ولا ولده ولا ولد ولده)[٣]. وقال عبد الله ابن عمر: إن النبي ﷺ قال: (إن أولاد الزنى يحشرون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير)[٤]. وقالت ميمونة: سمعت النبي ﷺ يقول: (لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنى فإذا فشا فيهم ولد الزنى أوشك أن يعمهم الله بعقاب)[٥]. وقال عكرمة: إذا كثر ولد الزنى قحط المطر.

قلت: أما الحديث الأول والثاني فما أظن لـهما سندا يصح، وأما حديث ميمونة وما قالـه عكرمة ففي صحيح مسلم عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: خرج النبي ﷺ يوما فزعا محمرا وجهه يقول: (لا إلـه إلا الله. ويل للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه)

---

(١) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٧٦٦٩).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤٠٤/٤٠) من رواية ابن جرير بسنده عن زيد بن أسلم، وقال: "وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين. . . ".

(٣) ذكره ابن الجوزي في "الموضوعات"، (٣/ ١١٠) وقال: "ليس في هذه الأحاديث شيء يصح".

(٤) كسابقه، وانظر تضعيف المصنف لهما في أول الصفحة القادمة.

(٥) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني، وقال: "لا تزال أمتي بخير متماسك أمرها ما لم يظهر. . . وفيه محمد بن عبد الرحمن بن لبيبة وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، ومحمد بن إسحاق قد صرح بالتحديث، فالحديث صحيح أو حسن. كذا قال الهيثمي في "المجمع"، (٦/ ٢٥٧).

وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها. قالت فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث) خرّجه البخاري. وكثرة الخبث ظهور الزنى وأولاد الزنى؛ كذا فسره العلماء. وقول عكرمة "قحط المطر" تبيين لما يكون به الهلاك. وهذا يحتاج إلى توقيف، وهو أعلم من أين قاله. ومعظم المفسرين على أن هذا نزل في الوليد بن المغيرة، وكان يطعم أهل منى حيسا ثلاثة أيام، وينادي ألا لا يوقدن أحد تحت برمة، ألا لا يدخنن أحد بكراع، ألا ومن أراد الحيس فليأت الوليد بن المغيرة. وكان ينفق في الحجة الواحدة عشرين ألفا وأكثر. ولا يعطي المسكين درهما واحدا فقيل: "مناع للخير". وفيه نزل: ﴿وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة﴾ (فصلت: ٦). وقال محمد بن إسحاق: نزلت في الأخنس بن شريق، لأنه حليف ملحق في بني زهرة، فلذلك سمي زنيما. وقال ابن عباس: في هذه الآية نعت، فلم يعرف حتى قتل فعرف، وكان له زنمة في عنقه معلقة يعرف بها. وقال مُرَّة الهمداني: إنما ادعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة.

قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أن كان ذا مال وبنين﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وأبو حيوة والمغيرة والأعرج "آن كان" بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام. وقرأ المفضل وأبو بكر وحمزة "أأن كان" بهمزتين محققتين. وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر؛ فمن قرأ بهمزة مطولة أو بهمزتين محققتين فهو استفهام والمراد به التوبيخ، ويحسن له أن يقف على "زنيم"، ويبتدئ "أن كان" على معنى ألأن كان ذا مال وبنين تطيعه. ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يقول إذا تتلى عليه آياتنا: أساطير الأولين!! ويجوز أن يكون التقدير: ألأن كان ذا مال وبنين يكفر ويستكبر. ودل عليه ما تقدم من الكلام فصار كالمذكور بعد الاستفهام. ومن قرأ "أن كان" بغير استفهام فهو مفعول من أجله والعامل فيه فعل مضمر، والتقدير: يكفر لأن كان ذا مال وبنين. ودل على هذا الفعل: "إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين" ولا يعمل في "أن": "تتلى" ولا "قال" لأن ما بعد "إذا" لا يعمل فيما قبلها؛ لأن "إذا" تضاف إلى الجمل التي بعدها، ولا يعمل المضاف إليه فيما قبل المضاف. و"قال" جواب الجزاء ولا يعمل فيما قبل الجزاء؛ إذا حكم العامل أن يكون قبل المعمول فيه، وحكم الجواب أن يكون بعد الشرط فيصير مقدما مؤخرا في حال. ويجوز أن يكون المعنى لا تطعه لأن كان ذا يسار وعدد. قال ابن الأنباري: ومن قرأ بلا استفهام لم يحسن أن يقف على "زنيم" لأن المعنى لأن كان وبأن كان، "فأن" متعلقة بما قبلها. قال غيره: يجوز أن يتعلق بقوله: "مشاء بنميم" والتقدير يمشي بنميم لأن كان ذا مال وبنين. وأجاز أبو علي أن يتعلق "بعتل". وأساطير الأولين: أباطيلهم وترهاتهم وخرافاتهم. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿سنسمه﴾ قال ابن عباس: معنى "سنسمه" سنخطمه بالسيف. قال: وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف؛ فلم يزل مخطوما إلى أن مات. وقال قتادة: سنسمه يوم القيامة على أنفه سمة يعرف بها؛ يقال: وسمته وسما وسمة إذا أثرت فيه بسمة وكي. وقد قال تعالى: ﴿يوم

تبيض وجوه وتسود وجوه﴾ (آل عمران: ١٠٦) فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿ونحشر المجرمين يومئذ زرقا﴾ (طه: ١٠٢) وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية علامة ثالثة وهي الوسم على الأنف بالنار؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم﴾ (الرحمن: ٤١) قاله الكلبي وغيره. وقال أبو العالية ومجاهد: "سنسمه على الخرطوم" أي على أنفه، ونسود وجهه في الآخرة فيعرف بسواد وجهه. والخرطوم: الأنف من الإنسان. ومن السباع: موضع الشفة. وخراطيم القوم: ساداتهم. قال الفراء: وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه في معنى الوجه؛ لأن بعض الشيء يعبر به عن الكل. وقال الطبري: نبين أمره تبيانا واضحا حتى يعرفوه فلا يخفى عليهم كما لا تخفى السمة على الخراطيم. وقيل: المعنى سنلحق به عارا وسبة حتى يكون كمن وسم على أنفه. قال القتبي: تقول العرب للرجل يسب سبة سوء قبيحة باقية: قد وسم ميسم سوء؛ أي ألصق به عار لا يفارقه؛ كما أن السمة لا يمحى أثرها. قال جرير:

لما وضعت على الفرزدق ميسمي وعلى البعيث جدعت أنف الأخطل

أراد به الهجاء. قال: وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة. ولا نعلم أن الله تعالى بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه؛ فألحقه به عارا لا يفارقه في الدنيا والآخرة؛ كالوسم على الخرطوم. وقيل: هو ما ابتلاه الله به في الدنيا في نفسه وماله وأهله من سوء وذل وصغار؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقول الأعشى:

فدعها وما يغنيك واعمد لغيرها بشعرك واعْلُب أنف من أنت واسم

وقال النضر بن شميل: المعنى سنحده على شرب الخمر، والخرطوم: الخمر، وجمعه خراطيم، قال الشاعر:

تظل يومك في لهو وفي طرب وأنت بالليل شرّاب الخراطيم

قال الراجز:

صهباء خرطوما عقارا قرقفا

وقال آخر:

أبا حاضر من يزن يعرف زناؤه ومن يشرب الخرطوم يصبح مسكرا

الثانية: قال ابن العربي: "كان الوسم في الوجه لذي المعصية قديما عند الناس، حتى أنه روي - كما تقدم - أن اليهود لما أهملوا رجم الزاني اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجه؛ وهذا وضع باطل. ومن الوسم الصحيح في الوجه: ما رأى العلماء من تسويد وجه شاهد الزور، علامة على قبح المعصية وتشديدا لمن يتعاطاها لغيره ممن يرجى تجنبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته؛ فقد كان عزيزا بقول الحق وقد صار مهينا بالمعصية. وأعظم الإهانة إهانة الوجه. وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببا لخيرة الأبد والتحريم له على النار؛ فإن الله تعالى قد حرم على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود؛ حسب ما ثبت في الصحيح.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قولـه تعالى: ﴿إنا بلوناهم﴾ يريد أهل مكة. والابتلاء الاختبار. والمعنى أعطيناهم أموالا ليشكروا لا ليبطروا؛ فلما بطروا وعادوا محمدا ﷺ ابتليناهم بالجوع والقحط كما بلونا أهل الجنة المعروف خبرها عندهم. وذلك أنها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم على فراسخ من صنعاء ـ ويقال بفرسخين ـ وكانت لرجل يؤدي حق الله تعالى منها؛ فلما مات صارت إلى ولده، فمنعوا الناس خيرها وبخلوا بحق الله فيها؛ فأهلكها الله من حيث لم يمكنهم دفع ما حل بها. قال الكلبي: كان بينهم وبين صنعاء فرسخان؛ ابتلاهم الله بأن أحرق جنتهم. وقيل: هي جنة بضوران، وضوران على فرسخ من صنعاء، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى عليه السلام بيسير ـ وكانوا بخلاء ـ فكانوا يجدون التمر ليلا من أجل المساكين، وكانوا أرادوا حصاد زرعها وقالوا: لا يدخلـها اليوم عليكم مسكين، فغدوا عليها فإذا هي قد اقتلعت من أصلـها فأصبحت كالصريم؛ أي كالليل. ويقال أيضا للنهار صريم. فإن كان أراد الليل فلاسوداد موضعها. وكأنهم وجدوا موضعها حمأة. وإن كان أراد بالصريم النهار فلذهاب الشجر والزرع ونقاء الأرض منه. وكان الطائف الذي طاف عليها جبريل عليه السلام فاقتلعها. فيقال: إنه طاف بها حول البيت ثم وضعها حيث مدينة الطائف اليوم؛ ولذلك سميت الطائف. وليس في أرض الحجاز بلدة فيها الشجر والأعناب والماء غيرها. وقال البكري في المعجم: سميت الطائف لأن رجلا من الصدف يقال لـه الدمون، بنى حائطا وقال: قد بنيت لكم طائفا حول بلدكم؛ فسميت الطائف. والله أعلم.

الثانية: قال بعض العلماء: على من حصد زرعا أو جد ثمرة أن يواسي منها من حضره؛ وذلك معنى قولـه: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ (الأنعام: ١٤١) وأنه غير الزكاة على ما تقدم في "الأنعام" بيانه. وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصّادون. وكان بعض العباد يتحرون أقواتهم من هذا. وروي أنه نُهي عن الحصاد بالليل. فقيل: إنه لما ينقطع عن المساكين في ذلك من الرفق. وتأول من قال هذا الآية التي في سورة "ن والقلم". قيل: إنما نهي عن ذلك خشية الحيات وهوام الأرض.

قلت: الأول أصح؛ والثاني حسن. وإنما قلنا الأول أصح لأن العقوبة كانت بسبب ما أرادوه من منع المساكين كما ذكر الله تعالى. روى أسباط عن السدي قال: كان قوم باليمن وكان أبوهم رجلا صالحا، وكان إذا بلغ ثماره أتاه المساكين فما يمنعهم من دخولـها وأن يأكلوا منها ويتزودوا؛ فلما مات قال بنوه بعضهم لبعض: علام نعطي أموالنا هؤلاء المساكين! تعالوا فلندلج فنصرمنها قبل أن يعلم المساكين؛ ولم يستثنوا؛ فانطلقوا وبعضهم يقول لبعض خفتاً: لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين؛ فذلك قولـه تعالى: ﴿إذ أقسموا﴾ يعني حلفوا فيما بينهم "ليصرمنها مصبحين" يعني لنجذنها وقت الصبح قبل أن تخرج المساكين؛ ولا يستثنون؛ يعني لم يقولوا إن شاء الله. وقال ابن عباس: كانت تلك الجنة دون صنعاء بفرسخين، غرسها رجل من أهل الصلاح وكان لـه ثلاثة بنين، وكان للمساكين كل ما تعداه المنجل فلم يجذه من الكرم، فإذا طرح على البساط فكل شيء سقط عن البساط

فهو أيضا للمساكين، فإذا حصدوا زرعهم فكل شيء تعداه المنجل فهو للمساكين، فإذا درسوا كان لهم كل شيء انتثر؛ فكان أبوهم يتصدق منها على المساكين، وكان يعيش في ذلك في حياة أبيهم اليتامى والأرامل والمساكين، فلما مات أبوهم فعلوا ما ذكر الله عنهم. فقالوا: قل المال وكثر العيال؛ فتحالفوا بينهم ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين. وهو قوله: "إذ أقسموا" أي حلفوا "ليصرمنها" ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة من الليل لئلا ينتبه المساكين لهم. والصرم القطع. يقال: صرم العذق عن النخلة. وأصرم النخل أي حان وقت صرامه. مثل أركب المهر وأحصد الزرع، أي حان ركوبه وحصاده.

قوله تعالى: ﴿ولا يستثنون﴾ أي ولم يقولوا إن شاء الله. وقال مجاهد: كان حرثهم عنبا ولم يقولوا إن شاء الله. وقال أبو صالح: كان استثناؤهم قولهم سبحان الله ربنا. وقيل: معنى "ولا يستثنون" أي لا يستثنون حق المساكين؛ قاله عكرمة. فجاؤوها ليلا فرأوا الجنة مسودة قد طاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. قيل: الطائف جبريل عليه السلام؛ على ما تقدم ذكره. وقال ابن عباس: أمر من ربك. وقال قتادة: عذاب من ربك. ابن جريج: عُنُق من نار خرج من وادي جهنم. والطائف لا يكون إلا بالليل؛ قاله الفراء.

الثالثة: قلت: في هذه الآية دليل على أن العزم مما يؤاخذ به الإنسان؛ لأنهم عزموا على أن يفعلوا فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ (الحج: ٢٥). وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار) قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصا على قتل صاحبه)[1]. وقد مضى مبينا في سورة "آل عمران" عند قوله تعالى: ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ (آل عمران: ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي كالليل المظلم؛ عن ابن عباس والفراء وغيرهما. قال الشاعر:

تطاول ليلك الجون البهيم فما ينجاب عن صبح صريم

أي احترقت فصارت كالليل الأسود. وعن ابن عباس أيضا: كالرماد الأسود. قال: الصريم الرماد الأسود بلغة خزيمة. الثوري: كالزرع المحصود. فالصريم بمعنى المصروم أي المقطوع ما فيه. وقال الحسن: صرم عنها الخير أي قطع؛ فالصريم مفعول أيضا. وقال المؤرج: أي كالرملة انصرمت من معظم الرمل. يقال: صريمة وصرائم؛ فالرملة لا تنبت شيئا ينتفع به. وقال الأخفش: أي كالصبح انصرم من الليل. وقال المبرد: أي كالنهار؛ فلا شيء فيها. قال شمر: الصريم الليل والصريم

---

(١) أخرجاه في الصحيحين، وقد تقدم.

النهار؛ أي ينصرم هذا عن ذاك وذاك عن هذا. وقيل: سمي الليل صريما لأنه يقطع بظلمته عن التصرف؛ ولهذا يكون فعيل بمعنى فاعل. قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن النهار يسمى صريما ولا يقطع عن تصرف. "فتنادوا مصبحين" ينادي بعضهم بعضا ليقطعن ثمر نخيلهم إذا أصبحوا بسدفة من الليل لئلا ينتبه المساكين "أن اغدوا على حرثكم" عازمين على الصرام والجداد. قال قتادة: حاصدين زرعكم. وقال الكلبي: ما كان في جنتهم من زرع ولا نخيل. فتحالفوا بينهم ليغدون غدوة قبل خروج الناس ثم ليصرمنها ولا تعرف المساكين.

قوله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ (٢٤) وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ (٢٥)﴾

قوله تعالى: ﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾ أي يتسارون؛ أي يخفون كلامهم ويسرونه لئلا يعلم بهم أحد؛ قاله عطاء وقتادة. وهو من خفت يخفت إذا سكن ولم يبين. كما قال دريد بن الصمة:

وإني لم أهلك سلالا ولم أمت خفاتا وكلا ظنه بي عودي

وقيل: يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم. وكان أبوهم يخبر الفقراء والمساكين فيحضروا وقت الحصاد والصرام. "وغدوا على حرد قادرين" أي على قصد وقدرة في أنفسهم ويظنون أنهم تمكنوا من مرادهم. قال معناه ابن عباس وغيره. والحرد القصد. حرَد يحرِد (بالكسر) حردا قصد. تقول: حردْتُ حردَك؛ أي قصدت قصدك. ومنه قول الراجز:

أقبل سيل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المُغلَّه

أنشده النحاس:

قد جاء سيل جاء من أمر الله يحرد حرد الجنة المغله

قال المبرد: المغلة ذات الغلة. وقال غيره: المغلة التي يجري الماء في غللها أي في أصولها. ومنه تغللت بالغالية. ومنه تغليت، أبدل من اللام ياء. ومن قال تغلفت فمعناه عنده جعلتها غلافا. وقال قتادة ومجاهد: "على حرد" أي على جد. الحسن: على حاجة وفاقة. وقال أبو عبيدة والقتيبي: على حرد على منع؛ من قولهم حاردت الإبل حرادا أي قلت ألبانها. والحرود من النوق القليلة الدر. وحاردت السنة قل مطرها وخيرها. وقال السدي وسفيان: "على حرد" على غضب. والحرد الغضب. قال أبو نصر أحمد بن حاتم صاحب الأصمعي: وهو مخفف؛ وأنشد شعراً:

إذا جياد الخيل جاءت تردي مملوءة من غضب وحرد

وقال ابن السكيت: وقد يحرك؛ تقول منه: حرد (بالكسر) حردا، فهو حارد وحردان. ومنه قيل: أسد حارد، وليوث حوارد. وقيل: "على حرد" على انفراد. يقال: حرد يحرد حرودا؛ أي تنحى عن قومه ونزل منفردا ولم يخالطهم. وقال أبو زيد: رجل حريد من قوم حرداء. وقد حرد يحرد حرودا؛ إذا ترك قومه وتحول عنهم. وكوكب حريد؛ أي معتزل عن الكواكب. قال الأصمعي: رجل حريد؛ أي فريد وحيد. قال: والمنحرد المنفرد في لغة هذيل. وأنشد لأبي ذؤيب:

كأنه كوكب في الجو منحرد

ورواه أبو عمرو بالجيم، وفسره: منفرد. قال: وهو سهيل. وقال الأزهري: حرد اسم قريتهم. السدي: اسم جنتهم؛ وفيه لغتان: حَرْد وحَرَد. وقرأ العامة بالإسكان. وقرأ أبو العالية وابن السميقع بالفتح؛ وهما لغتان. ومعنى "قادرين" قد قدروا أمرهم وبنوا عليه؛ قاله الفراء. وقال قتادة: قادرين على جنتهم عند أنفسهم. وقال الشعبي: "قادرين" يعني على المساكين. وقيل: معناه من الوجود؛ أي منعوا وهم واجدون.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾ أي لما رأوها محترقة لا شيء فيها قد صارت كالليل الأسود ينظرون إليها كالرماد، أنكروها وشكوا فيها. وقال بعضهم لبعض: "إنا لضالون" أي ضللنا الطريق إلى جنتنا؛ قاله قتادة. وقيل: أي إنا لضالون عن الصواب في غدونا وعلى نية منع المساكين؛ فلذلك عوقبنا. "بل نحن محرومون" أي حرمنا جنتنا بما صنعنا. روى أسباط عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم والمعاصي إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا كان هُيِّئ له - ثم تلا - ﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ (القلم: ١٩) الآيتين[1]).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: "قال أوسطهم" أي أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم. "ألم أقل لكم لولا تسبحون" أي هلا تستثنون. وكان استثناؤهم تسبيحا؛ قال مجاهد وغيره. وهذا يدل على أن هذا الأوسط كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه. قال أبو صالح: كان استثناؤهم سبحان الله. فقال لهم: هلا تسبحون الله؛ أي تقولون سبحان الله وتشكرونه على ما أعطاكم. قال النحاس: أصل التسبيح التنزيه لله عز وجل؛ فجعل مجاهد التسبيح في موضع إن شاء الله؛ لأن المعنى تنزيه الله عز وجل أن يكون شيء إلا بمشيئته. وقيل: هلا تستغفرونه من فعلكم وتتوبون إليه من خبث نيتكم؛ فإن أوسطهم قال لهم حين عزموا على ذلك وذكرهم انتقامه من المجرمين "قالوا سبحان ربنا" اعترفوا بالمعصية ونزهوا الله عن أن يكون ظالما فيما فعل. قال ابن عباس في قولهم: "سبحان ربنا" أي نستغفر الله من ذنبنا. "إنا كنا ظالمين" لأنفسنا في منعنا المساكين. "فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون" أي يلوم هذا هذا في القسم ومنع المساكين، ويقول: بل أنت أشرت علينا بهذا. "قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين" أي عاصين بمنع

---

(١) "ضعيف" ذكره ابن كثير في "التفسير"، (٤٠٦/٤٠)، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو صدوق، اختلط أخيراً، ولم يتميز حديثه فترك، كما في التقريب (١٣٨/٢).

حق الفقراء وترك الاستثناء. وقال ابن كيسان: طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها آباؤنا من قبل. "عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها" تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعن كما صنعت آباؤنا؛ فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها، وأمر جبريل أن يقتلع تلك الجنة المحترقة فيجعلها بزغر من أرض الشام، ويأخذ من الشام جنة فيجعلها مكانها. وقال ابن مسعود: إن القوم أخلصوا وعرف الله منهم صدقهم فأبدلهم جنة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغل منها عنقودا واحدا. وقال اليماني أبو خالد: دخلت تلك الجنة فرأيت كل عنقود منها كالرجل الأسود القائم. وقال الحسن: قول أهل الجنة "إنا إلى ربنا راغبون" لا أدري إيمانا كان ذلك منهم أو على حد ما يكون من المشركين إذا أصابتهم الشدة؛ فيوقف في كونهم مؤمنين. وسئل قتادة عن أصحاب الجنة: أهم من أهل الجنة أم من أهل النار؟ فقال: لقد كلفتني تعبا. والمعظم يقولون: إنهم تابوا وأخلصوا؛ حكاه القشيري. وقراءة العامة "يبدلنا" بالتخفيف. وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو بالتشديد، وهما لغتان. وقيل: التبديل تغيير الشيء أو تغيير حاله وعين الشيء قائم. والإبدال رفع الشيء ووضع آخر مكانه. وقد مضى في سورة "النساء" القول في هذا.

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿كذلك العذاب﴾ أي عذاب الدنيا وهلاك الأموال؛ عن ابن زيد. وقيل: إن هذا وعظ لأهل مكة بالرجوع إلى الله لما ابتلاهم بالجدب لدعاء النبي ﷺ، أي كفعلنا بهم نفعل بمن تعدى حدودنا في الدنيا "ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون" وقال ابن عباس: هذا مثل لأهل مكة حين خرجوا إلى بدر وحلفوا ليقتلن محمدا ﷺ وأصحابه، وليرجعن إلى مكة حتى يطوفوا بالبيت ويشربوا الخمر، وتضرب القينات على رؤوسهم؛ فأخلف الله ظنهم وأسروا وقتلوا وانهزموا كأهل هذه الجنة لما خرجوا عازمين على الصرام فخابوا. ثم قيل: إن الحق الذي منعه أهل الجنة المساكين يحتمل أنه كان واجبا عليهم، ويحتمل أنه كان تطوعا؛ والأول أظهر، والله أعلم. وقيل: السورة مكية؛ فبعد حمل الآية على ما أصاب أهل مكة من القحط، وعلى قتال بدر.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ تقدم القول فيه؛ أي إن للمتقين في الآخرة جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص، لا يشوبه ما ينغصه كما يشوب جنات الدنيا. وكان صناديد قريش يرون وفور حظهم من الدنيا وقلة حظوظ المسلمين منها؛ فإذا سمعوا بحديث الآخرة وما وعد الله المؤمنين قالوا: إن صح أنا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هي في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا. فقال: "أفنجعل المسلمين

كالمجرمين" أي كالكفار. وقال ابن عباس وغيره: قالت كفار مكة: إنا نعطى في الآخرة خيرا مما تعطون؛ فنزلت "أفنجعل المسلمين كالمجرمين" ثم وبخهم فقال: "ما لكم كيف تحكمون" هذا الحكم الأعوج؛ كأن أمر الجزاء مفوض إليكم حتى تحكموا فيه بما شئتم أن لكم من الخير ما للمسلمين. "أم لكم كتاب فيه تدرسون" أي لكم كتاب تجدون فيه المطيع كالعاصي. "إن لكم فيه لما تخيرون" تختارون وتشتهون. والمعنى: أن لكم (بالفتح) ولكنه كسر لدخول اللام؛ تقول علمت أنك عاقل (بالفتح)، وعلمت إنك لعاقل (بالكسر). فالعامل في "إن لكم فيه لما تخيرون" "تدرسون" في المعنى. ومنعت اللام من فتح "إن". وقيل: تم الكلام عند قولـه: "تدرسون" ثم ابتدأ فقال: "إن لكم فيه لما تخيرون" أي إن لكم في هذا الكتاب إذاً ما تخيرون؛ أي ليس لكم ذلك. والكناية في "فيه" الأولى والثانية راجعة إلى الكتاب.

قولـه تعالى: ﴿أم لكم أيمان علينا﴾ أي عهود ومواثيق. "بالغة إلى يوم القيامة" مؤكدة. والبالغة المؤكدة بالله تعالى. أي أم لكم عهود على الله تعالى استوثقتم بها في أن يدخلكم الجنة. "إن لكم لما تحكمون" كسرت "إن" لدخول اللام في الخبر. وهي من صلة "أيمان"، والموضع النصب ولكن كسرت لأجل اللام؛ تقول: حلفت إن لك لكذا. وقيل: تم الكلام عند قولـه: "إلى يوم القيامة" ثم قال: "إن لكم لما تحكمون" إذاً أي ليس الأمر كذلك. وقرأ ابن هرمز "أين لكم فيه لما تخيرون" "أين لكم لما تحكمون"؛ بالاستفهام فيهما جميعا. وقرأ الحسن البصري "بالغة" بالنصب على الحال؛ إما من الضمير في "لكم" لأنه خبر عن "أيمان" ففيه ضمير منه. وإما من الضمير في "علينا" إن قدرت "علينا" وصفا للأيمان لا متعلقا بنفس الأيمان؛ لأن فيه ضميرا منه، كما يكون إذا كان خبرا عنه. ويجوز أن يكون حالا من "أيمان" وإن كانت نكرة، كما أجازوا نصب "حقا" على الحال من "متاع" في قولـه تعالى: ﴿متاع بالمعروف حقا على المتقين﴾ (البقرة: ٢٤١). وقرأ العامة "بالغة" بالرفع نعت لـ "أيمان".

قوله تعالى: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿سلـهم أيهم بذلك زعيم﴾ أي سل يا محمد هؤلاء المتقولين علي: أيهم كفيل بما تقدم ذكره. وهو أن لـهم من الخير ما للمسلمين. والزعيم: الكفيل والضمين؛ قال ابن عباس وقتادة. وقال ابن كيسان: الزعيم هنا القائم بالحجة والدعوى. وقال الحسن: الزعيم الرسول. "أم لـهم شركاء" أي ألـهم والميم صلة. "شركاء" أي شهداء. "فليأتوا بشركائهم" يشهدون على ما زعموا. "إن كانوا صادقين" في دعواهم. وقيل: أي فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم؛ فهو أمر معناه التعجيز.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ يجوز أن يكون العامل في "يوم" "فليأتوا" أي فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق ليشفع الشركاء لهم. ويجوز أن ينتصب بإضمار فعل، أي اذكر يوم يكشف عن ساق؛ فيوقف على "صادقين" ولا يوقف عليه على التقدير الأول. وقرئ "يوم نكشف" بالنون. "وقرأ" ابن عباس "يوم تكشف عن ساق" بتاء مسمى الفاعل؛ أي تكشف الشدة أو القيامة عن ساقها؛ كقولهم: شمرت الحرب عن ساقها. قال الشاعر:

فتى الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال الراجز:

قد كشفت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

وقال آخر:

عجبت من نفسي ومن إشفاقها ومن طراد الطير عن أرزاقها
في سَنة قد كشفت عن ساقها حمراء تبري اللحم عن عراقها

وقال آخر:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح

وعن ابن عباس أيضا والحسن وأبي العالية "تكشف" بتاء غير مسمى الفاعل. وهذه القراءة راجعة إلى معنى "يكشف" وكأنه قال: يوم تكشف القيامة عن شدة. وقرئ "يوم تكشف" بالتاء المضمومة وكسر الشين؛ من أكشف إذا دخل في الكشف. ومنه: أكشف الرجل فهو مكشف؛ إذا انقلبت شفته العليا. وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسامة بن زيد عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق" قال: عن كرب وشدة. أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال: شدة الأمر وجده. وقال مجاهد: قال ابن عباس: هي أشد ساعة في يوم القيامة. وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه. والأصل فيه أن من وقع في شيء يحتاج فيه إلى الجد شمر عن ساقه؛ فاستعير الساق والكشف عنها في موضع الشدة. وقيل: ساق الشيء أصله الذي به قوامه؛ كساق الشجرة وساق الإنسان. أي يوم يكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصلها. وقيل: يكشف عن ساق جهنم. وقيل: عن ساق العرش. وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل وضعف البدن؛ أي يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج. فأما ما روي أن الله يكشف عن ساقه فإنه عز وجل يتعالى عن الأعضاء والتبعيض وأن يكشف ويتغطى. ومعناه أن يكشف عن العظيم من أمره. وقيل: يكشف عن نوره عز وجل.

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ في قوله تعالى: "عن ساق" قال: (يكشف عن نور عظيم يخرّون له سجدا)[1]. وقال أبو الليث السمرقندي في تفسيره: حدثنا الخليل بن أحمد قال حدثنا ابن منيع قال حدثنا هدبة قال حدثنا حماد بن سلمة عن عدي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبي موسى قال حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا كان يوم القيامة مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون في الدنيا فيذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويبقى أهل التوحيد فيقال لهم ما تنتظرون وقد ذهب الناس فيقولون إن لنا ربا كنا نعبده في الدنيا ولم نره - قال - وتعرفونه إذا رأيتموه فيقولون نعم فيقال فكيف تعرفونه ولم تروه قالوا إنه لا شبيه له فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فيخرون له سجدا وتبقى أقوام ظهورهم مثل صياصي البقر فينظرون إلى الله تعالى فيريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى: "يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون" فيقول الله تعالى عبادي ارفعوا رؤوسكم فقد جعلت بدل كل رجل منكم رجلا من اليهود والنصارى في النار)[2]. قال أبو بردة: فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز فقال: آلله الذي لا إله إلا هو لقد حدثك أبوك بهذا الحديث؟ فحلف له ثلاثة أيمان؛ فقال عمر: ما سمعت في أهل التوحيد حديثا هو أحب إلي من هذا. وقال قيس بن السكن: حدث عبد الله بن مسعود عند عمر بن الخطاب فقال: إذا كان يوم القيامة قام الناس لرب العالمين أربعين عاما شاخصة أبصارهم إلى السماء، حفاة عراة يلجمهم العرق، فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم أربعين عاما، ثم ينادي مناد: أيها الناس، أليس عدلا من ربكم الذي خلقكم وصوركم وأماتكم وأحياكم ثم عبدتم غيره أن يولي كل قوم ما تولوا؟ قالوا: نعم. قال: فيرفع لكل قوم ما كانوا يعبدون من دون الله فيتبعونها حتى تقذفهم في النار، فيبقى المسلمون والمنافقون فيقال لهم: ألا تذهبون قد ذهب الناس؟ فيقولون حتى يأتينا ربنا؛ فيقال لهم: أو تعرفونه؟ فيقولون: إن اعترف لنا عرفناه. قال فعند ذلك يكشف عن ساق ويتجلى لهم فيخر من كان يعبده مخلصا ساجدا، ويبقى المنافقون لا يستطيعون كأن في ظهورهم السفافيد، فيذهب بهم إلى النار، ويدخل هؤلاء الجنة؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾.

قوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾ أي ذليلة متواضعة؛ ونصبها على الحال. "ترهقهم ذلة" وذلك أن المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشد بياضا من الثلج. وتسود وجوه المنافقين والكافرين حتى ترجع أشد سوادا من القار.

قلت: معنى حديث أبي موسى وابن مسعود ثابت في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وغيره.

"وقد كانوا يدعون إلى السجود" أي في الدنيا. "وهم سالمون" معافون أصحاء. قال إبراهيم التيمي: أي يدعون بالأذان والإقامة فيأبونه. وقال سعيد بن جبير: كانوا يسمعون حي على الفلاح

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/٤٠٨) من رواية ابن جرير، وقال: ورواه أبو يعلى عن القاسم بن يحيى عن الوليد بن مسلم به، وفيه رجل مبهم.

(٢) الحديث أصله في الصحيحين وغيرهما من طرق، وله ألفاظ.

فلا يجيبون. وقال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا في الذين يتخلفون عن الجماعات. وقيل: أي بالتكليف الموجه عليهم في الشرع؛ والمعنى متقارب. وقد مضى في سورة "البقرة" الكلام في وجوب صلاة الجماعة. وكان الربيع بن خيثم قد فُلج وكان يُهَادَى بين الرجلين إلى المسجد؛ فقيل: يا أبا يزيد، لو صليت في بيتك لكانت لك رخصة. فقال: من سمع حي على الفلاح فليجب ولو حبوا. وقيل لسعيد بن المسيب: إن طارقا يريد قتلك فتغيّب. فقال: أبحيث لا يقدر الله علي؟ فقيل له: اجلس في بيتك. فقال: أسمع حي على الفلاح، فلا أجيب!

قوله تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: "فذرني" أي دعني. "ومن يكذب" "من" مفعول معه أو معطوف على ضمير المتكلم. "بهذا الحديث" يعني القرآن؛ قاله السدي. وقيل: يوم القيامة. وهذا تسلية للنبي ﷺ؛ أي فأنا أجازيهم وأنتقم منهم. "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون" معناه سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون؛ فعُذّبوا يوم بدر. وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر. وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه. وقال أبو روق: أي كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار. وقال ابن عباس: سنمكر بهم. وقيل: هو أن نأخذهم قليلا ولا نباغتهم. وفي حديث (أن رجلا من بني إسرائيل قال يا رب كم أعصيك وأنت لا تعاقبني - قال - فأوحى الله إلى نبي زمانهم أن قل له كم من عقوبة لي عليك وأنت لا تشعر. إن جمود عينيك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت). والاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرج. ومنه قيل درجة؛ وهي منزلة بعد منزلة. واستدرج فلان فلانا؛ أي استخرج ما عنده قليلا. ويقال: درجه إلى كذا واستدرجه بمعنى؛ أي أدناه منه على التدريج فتدرج هو.

قوله تعالى: ﴿وأملي لهم﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدة. والملاوة: المدة من الدهر. وأملى الله له أي أطال له. والملوان: الليل والنهار. وقيل: "وأملي لهم" أي لا أعاجلهم بالموت؛ والمعنى واحد. وقد مضى في "الأعراف" بيان هذا. "إن كيدي متين" أي إن عذابي لقوي شديد فلا يفوتني أحد.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

عاد الكلام إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿أم لهم شركاء﴾ (القلم: ٤١). أي أم تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله؟ فهم من غرامة ذلك مثقلون لما يشق عليهم من بذل المال؛ أي ليس عليهم كلفة، بل يستولون بمتابعتك على خزائن الأرض ويصلون إلى جنات النعيم.

قوله تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿أم عندهم الغيب﴾ أي علم ما غاب عنهم. "فهم يكتبون" وقيل: أينزل عليهم الوحي بهذا الذي يقولون. وعن ابن عباس: الغيب هنا اللوح المحفوظ فهم يكتبون مما فيه يخاصمونك به، ويكتبون أنهم أفضل منكم، وأنهم لا يعاقبون. وقيل: "يكتبون" يحكمون لأنفسهم بما يريدون.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾

قولـه تعالى: "فاصبر لحكم ربك" أي لقضاء ربك. والحكم هنا القضاء. وقيل: فاصبر على ما حكم به عليك ربك من تبليغ الرسالة. وقال ابن بحر: فاصبر لنصر ربك. قال قتادة: أي لا تعجل ولا تغاضب فلا بد من نصرك. وقيل: إنه منسوخ بآية السيف. "ولا تكن كصاحب الحوت" يعني يونس عليه السلام. أي لا تكن مثله في الغضب والضجر والعجلة. وقال قتادة: إن الله تعالى يعزي نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت؛ وقد مضى خبره في سورة "يونس، والأنبياء، والصافات" والفرق بين إضافة ذي وصاحب في سورة "يونس" فلا معنى للإعادة. "إذ نادى" أي حين دعا في بطن الحوت فقال: ﴿لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء: ٨٧). "وهو مكظوم" أي مملوء غما. وقيل: كربا. الأول قول ابن عباس ومجاهد. والثاني قول عطاء وأبي مالك. قال الماوردي: والفرق بينهما أن الغم في القلب، والكرب في الأنفاس. وقيل: مكظوم محبوس. والكظم الحبس؛ ومنه قولـهم: فلان كظم غيظه، أي حبس غضبه؛ قال ابن بحر. وقيل: إنه المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس؛ قالـه المبرد. وقد مضى هذا وغيره في "يوسف".

قوله تعالى:﴿ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾

قولـه تعالى: "لولا أن تداركه نعمة من ربه" قراءة العامة "تداركه". وقرأ ابن هرمز والحسن "تداركه" بتشديد الدال؛ وهو مضارع أدغمت التاء منه في الدال. وهو على تقدير حكاية الحال؛ كأنه قال: لولا أن كان يقال فيه تتداركه نعمة. ابن عباس وابن مسعود: "تداركته" وهو خلاف المرسوم. و"تداركه" فعل ماض مذكر حمل على معنى النعمة؛ لأن تأنيث النعمة غير حقيقي. و"تداركته" على لفظها. واختلف في معنى النعمة هنا؛ فقيل النبوة؛ قال الضحاك. وقيل: عبادته التي سلفت؛ قالـه ابن جبير. وقيل: نداؤه ﴿لا إلـه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ (الأنبياء: ٨٧)؛ قالـه ابن زيد. وقيل: نعمة الله عليه إخراجه من بطن الحوت؛ قالـه ابن بحر. وقيل: أي رحمة من ربه؛ فرحمه وتاب عليه. "لنبذ بالعراء وهو مذموم" أي لنبذ مذموما ولكنه نبذ سقيما غير مذموم. ومعنى "مذموم" في قول ابن عباس: مليم. قال بكر بن عبد الله: مذنب. وقيل: "مذموم" مبعد من كل خير. والعراء: الأرض الواسعة الفضـاء التي ليس فيها جبل ولا شجر يستر. وقيل: ولـولا فضل الله عليه لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، ثم نبذ بعراء القيامة مذموما. يدل عليه قولـه تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ (الصافات: ١٤٣). "فاجتباه ربه" أي اصطفاه واختاره. "فجعلـه من الصالحين" قال ابن عباس: رد الله إليه الوحي، وشفعه في نفسه وفي قومه، وقبل توبته، وجعلـه من الصالحين بأن أرسلـه إلى مائة ألف أو يزيدون.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾

قولـه تعالى: ﴿وإن يكاد الذين كفروا﴾ "إن" هي المخففة من الثقيلة. "ليزلقونك" أي يعتانونك. "بأبصارهم" أخبر بشدة عداوتهم النبي ﷺ، وأرادوا أن يصيبوه بالعين فنظر إليه قوم من قريش وقالوا: ما رأينا مثله ولا مثل حججه. وقيل: كانت العين في بني أسد، حتى إن البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر. وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث لا يأكل شيئا يومين أو ثلاثة، ثم يرفع جانب الخباء فتمر به الإبل أو الغنم فيقول: لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلا حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب لـهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم؛ فلما مر النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيدا وإخـال أنـك سـيد معـيون

فعصم الله نبيه ﷺ ونزلت: "وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك". وذكر نحوه الماوردي. وأن العرب كانت إذا أراد أحدهم أن يصيب أحدا ـ يعني في نفسه ومالـه ـ تجوع ثلاثة أيام، ثم يتعرض لنفسه ومالـه فيقول: تالله ما رأيت أقوى منه ولا أشجع ولا أكثر منه ولا أحسن؛ فيصيبه بعينه فيهلك هو وماله؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال القشيري: وفي هذا نظر؛ لأن الإصابة بالعين إنما تكون مع الاستحسان والإعجاب لا مع الكراهية والبغض؛ ولـهذا قال: "ويقولون إنه لمجنون" أي ينسبونك إلى الجنون إذا رأوك تقرأ القرآن.

قلت: أقوال المفسرين واللغويين تدل على ما ذكرنا، وأن مرادهم بالنظر إليه قتلـه. ولا يمنع كراهة الشيء من أن يصاب بالعين عداوة حتى يهلك. وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد "ليزهقونك" أي ليهلكونك. وهذه قراءة على التفسير، من زهقت نفسه وأزهقها. وقرأ أهل المدينة "ليزلقونك" بفتح الياء. وضمها الباقون؛ وهما لغتان بمعنى؛ يقال: زَلَقه يَزْلِقه وأزلقه يُزلقه إزلاقا إذا نحاه وأبعده. وزلق رأسه يزلقه زلقا إذا حلقه. وكذلك أزلقه وزلقه تزليقًا. ورجل زَلِق وزُمَلِق ـ مثال هُدَبِد ـ وزُمَالق وزُمّلق ـ بتشديد الميم ـ وهو الذي ينزل قبل أن يجامع؛ حكاه الجوهري وغيره. فمعنى الكَلمة إذاً التنحية وَالإزالة؛ وذلك لا يكون في حق النبي ﷺ إلا بهلاكه وموته. قال الـهروي: أراد ليعتانونك بعيونهم فيزيلونك عن مقامك الذي أقامك الله فيه عداوة لك. وقال ابن عباس: ينفذونك بأبصارهم؛ يقال: زلق السهم وزهق إذا نفذ؛ وهو قول مجاهد. أي ينفذونك من شدة نظرهم. وقال الكلبي: يصرعونك. وعنه أيضا والسدي وسعيد بن جبير: يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة. وقال العوفي: يرمونك. وقال المؤرج: يزيلونك. وقال النضر بن شميل والأخفش: يفتنونك. وقال عبد العزيز بن يحيى: ينظرون إليك نظرا شزرا بتحديق شديد. وقال ابن زيد: ليمسونك. وقال جعفر الصادق: ليأكلونك. وقال الحسن وابن كيسان: ليقتلونك. وهذا كما يقال: صرعني بطرفه، وقتلني بعينه. قال الشاعر:

ترميك مزلقة العيون بطرفها وتكل عنك نصال نبل الرامي

وقال آخر:

يتقارضون إذا التقوا في مجلس نظرا يـزل مواطـئ الأقـدام

وقيل: المعنى أنهم ينظرون إليك بالعداوة حتى كادوا يسقطونك. وهذا كلـه راجع إلى ما ذكرنا، وأن المعنى الجامع: يصيبونك بالعين. والله أعلم.

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

أي وما القرآن إلا ذكر للعالمين. وقيل: أي وما محمد إلا ذكر للعالمين يتذكرون به. وقيل: معناه شَرَفٌ؛ أي القرآن. كما قال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾ (الزخرف: ٤٤) والنبي ﷺ شرف للعالمين أيضا. شَرُفوا باتباعه والإيمان به ﷺ.

سورة الحاقة

مقدمة السورة :

مكية في قول الجميع وهي إحدى وخمسون آية.

روى أبو الزاهرية عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ إحدى عشرة آية من سورة الحاقة أجير من فتنة الدجال. ومن قرأها كانت له نورا يوم القيامة من فوق رأسه إلى قدمه)(١).

قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿الحاقة. ما الحاقة﴾ يريد القيامة؛ سميت بذلك لأن الأمور تُحَقّ فيها؛ قاله الطبري. كأنه جعلها من باب "ليل نائم". وقيل: سميت حاقة لأنها تكون من غير شك. وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة، وأحقت لأقوام النار. وقيل: سميت بذلك لأن فيها يصير كل إنسان حقيقا بجزاء عمله. وقال الأزهري: يقال حاققته فحققته أحقه؛ أي غالبته فغلبته. فالقيامة حاقة لأنها تحق كل محاق في دين الله بالباطل؛ أي كل مخاصم. وفي الصحاح: وحاقه أي خاصمه وادعى كل واحد منهما الحق؛ فإذا غلبه قيل حقه. ويقال للرجل إذا خاصم في صغار الأشياء: إنه لنزق الحقاق. ويقال: ماله فيه حق ولا حقاق؛ أي خصومة. والتحاق التخاصم. والاحتقاق: الاختصام. والحاقة والحقة والحق ثلاث لغات بمعنى. وقال الكسائي والمؤرج: الحاقة يوم الحق. وتقول العرب: لما عرف الحقة مني هرب. والحاقة الأولى رفع بالابتداء، والخبر المبتدأ الثاني وخبره وهو "ما الحاقة" لأن معناها ما هي. واللفظ استفهام، معناه التعظيم والتفخيم لشأنها؛ كما تقول: زيد ما زيد على التعظيم لشأنه. "وما أدراك ما الحاقة" استفهام أيضا؛ أي أي شيء أعلمك ما ذلك اليوم. والنبي ﷺ كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة فقيل تفخيما لشأنها: وما أدراك ما هي؛ كأنك لست تعلمها إذ لم تعاينها. وقال يحيى بن سلام: بلغني أن كل شيء في القرآن "وما أدراك" فقد أدراه إياه وعلمه. وكل شيء قال: "وما يدريك" فهو مما لم يعلمه. وقال سفيان بن عيينة: كل شيء قال فيه: "وما أدراك" فإنه أخبر به، وكل شيء قال فيه: "وما يدريك" فإنه لم يخبر به.

قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ ﴾

ذكر من كذب بالقيامة. والقارعة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها. يقال: أصابتهم قوارع الدهر؛ أي أهواله وشدائده. ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعه وقوارص لسانه؛ جمع قارصة وهي الكلمة المؤذية. وقوارع القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فزع من الجن أو الإنس، نحو آية الكرسي؛ كأنها تقرع الشيطان. وقيل: القارعة مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين؛ قاله المبرد. وقيل: عنى بالقارعة العذاب الذي نزل بهم في الدنيا؛ وكان نبيهم يخوفهم بذلك فيكذبونه. وثمود قوم صالح؛ وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز. قال محمد بن إسحاق:

---

(١) ضعيف.

وهو وادي القرى؛ وكانوا عربا. وأما عاد فقوم هود؛ وكانت منازلهم بالأحقاف. والأحقاف: الرمل بين عمان إلى حضرموت واليمن كله؛ وكانوا عربا ذوي خلق وبسطة؛ ذكره محمد بن إسحاق. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

فيه إضمار؛ أي بالفعلة الطاغية. وقال قتادة: أي بالصيحة الطاغية؛ أي المجاوزة للحد؛ أي لحد الصيحات من الهول. كما قال: ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ (القمر: ٣١). والطغيان: مجاوزة الحد؛ ومنه: ﴿إنا لما طغى الماء﴾ (الحاقة: ١١) أي جاوز الحد. وقال الكلبي: بالطاغية بالصاعقة. وقال مجاهد: بالذنوب. وقال الحسن: بالطغيان؛ فهي مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية. أي أهلكوا بطغيانهم وكفرهم. وقيل: إن الطاغية عاقر الناقة؛ قاله ابن زيد. أي أهلكوا بما أقدم عليه طاغيتهم من عقر الناقة، وكان واحدا، وإنما هلك الجميع لأنهم رضوا بفعله ومالؤوه. وقيل له طاغية كما يقال: فلان راوية الشعر، وداهية وعلامة ونسابة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى: "وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر" أي باردة تحرق ببردها كإحراق النار؛ مأخوذ من الصر وهو البرد؛ قاله الضحاك. وقيل: إنها الشديدة الصوت. وقال مجاهد: الشديدة السموم. "عاتية" أي عتت على خُزّانها فلم تطعهم، ولم يطيقوها من شدة هبوبا؛ غضبت لغضب الله. وقيل: عتت على عاد فقهرتهم. روى سفيان الثوري عن موسى بن المسيب عن شهر بن حوشب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أرسل الله من نسمة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة من ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخُزّان فلم يكن لهم عليه سبيل - ثم قرأ - "إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية" والريح لما كان يوم عاد عتت على الخُزّان فلم يكن لهم عليها سبيل - ثم قرأ - "بريح صرصر عاتية")[1]. "سخرها عليهم" أي أرسلها وسلطها عليهم. والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار. "سبع ليال وثمانية أيام حسوما" أي متتابعة لا تفْتُر ولا تنقطع؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. قال الفراء: الحسوم التباع، من حسم الداء إذا كَوي صاحبه، لأنه يكوى بالمكواة ثم يتابع ذلك عليه. قال عبد العزيز بن زرارة الكلابي:

ففرق بين بينهم زمان   تتابع فيه أعوام حسوم

وقال المبرد: هو من قولك حسمت الشيء إذا قطعته وفصلته عن غيره. وقيل: الحسم الاستئصال. ويقال للسيف حسام؛ لأنه يحسم العدو عما يريده من بلوغ عداوته. وقال الشاعر:

---

(١) ضعيف، لضعف شهر بن حوشب، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٤٠٥) إلى الفرياني وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس موقوفًا عليه، وهو الأرجح.

حســام إذا قــمت معتضــدا به كفى العود منه البدء ليس بمعضد

والمعنى أنها حسمتهم، أي قطعتهم وأذهبتهم. فهي القاطعة بعذاب الاستئصال. قال ابن زيد: حسمتهم فلم تبق منهم أحدا. وعنه أنها حسمت الليالي والأيام حتى استوعبتها. لأنها بدأت طلوع الشمس من أول يوم وانقطعت غروب الشمس من آخر يوم. وقال الليث: الحسوم الشؤم. ويقال: هذه ليالي الحسوم، أي تحسم الخير عن أهلها، وقاله في الصحاح. وقال عكرمة والربيع بن أنس: مشائيم، دليله قوله تعالى: ﴿في أيام نحسات﴾ (فصلت: ١٦). عطية العوفي: "حسوما" أي حسمت الخير عن أهلها. واختلف في أولها، فقيل: غداة يوم الأحد، قاله السدي. وقيل: غداة يوم الجمعة، قاله الربيع بن أنس. وقيل: غداة يوم الأربعاء، قاله يحيى بن سلام ووهب بن منبه. قال وهب: وهذه الأيام هي التي تسميها العرب أيام العجوز، ذات برد وريح شديدة، وكان أولها يوم الأربعاء وآخرها يوم الأربعاء؛ ونسبت إلى العجوز لأن عجوزا من عاد دخلت سربا فتبعتها الريح فقتلتها في اليوم الثامن. وقيل: سميت أيام العجوز لأنها وقعت في عجز الشتاء. وهي في آذار من أشهر السريانيين. ولها أسام مشهورة، وفيها يقول الشاعر وهو ابن أحمر:

كُسـع الشــتاء بســبعة غــبرِ أيــام شــهلتنا مــن الشــهر
فــإذا انقضــت أيامهــا ومضــتَ صــنٌ وصَــنَّبر مــع الوبــر
وبآمــر وأخــيه مؤتمــر ومُعَلِّــل وبمطفــئ الجمــر
ذهــب الشــتاء موليا عجــلا وأتتــك واقــدة مــن النــجْر

و"حسوما" نصب على الحال. وقيل على المصدر. قال الزجاج: أي تحسمهم حسوما أي تفنيهم، وهو مصدر مؤكد. ويجوز أن يكون مفعولا له؛ أي سخرها عليهم هذه المدة للاستئصال؛ أي لقطعهم واستئصالهم. ويجوز أن يكون جمع حاسم. وقرأ السدي "حسوما" بالفتح، حالا من الريح؛ أي سخرها عليهم مستأصلة.

قوله تعالى: ﴿فترى القوم فيها﴾ أي في تلك الليالي والأيام. "صرعى" جمع صريع؛ يعني موتى. وقيل: "فيها" أي في الريح. "كأنهم أعجاز" أي أصول. "نخل خاوية" أي بالية؛ قاله أبو الطفيل. وقيل: خالية الأجواف لا شيء فيها. والنخل يذكر ويؤنث. وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ (القمر: ٢٠) فيحتمل أنهم شُبِّهوا بالنخل التي صرعت من أصلها، وهو إخبار عن عظم أجسامهم. ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع؛ أي إن الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية. أي الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخلة الخاوية الجوف. وقال ابن شجرة: كانت الريح تدخل في أفواههم فتخرج ما في أجوافهم من الحشو من أدبارهم، فصاروا كالنخل الخاوية. وقال يحيى بن سلام: إنما قال "خاوية" لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية. ويحتمل أن يكون المعنى كأنهم أعجاز نخل خاوية عن أصولها من البقاع؛ كما قال تعالى: ﴿فتلك بيوتهم خاوية﴾ (النمل: ٥٢) أي خربة لا سكان فيها. ويحتمل الخاوية بمعنى البالية كما ذكرنا؛ لأنها إذا بليت خلت أجوافها. فشُبِّهوا بعد أن هلكوا بالنخل الخاوية.

قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾

أي من فرقة باقية أو نفس باقية. وقيل: من بقية. وقيل: من بقاء. فاعلة بمعنى المصدر؛ نحو العاقبة والعافية. ويجوز أن يكون اسما؛ أي هل تجد لهم أحدا باقيا. وقال ابن جريج: كانوا سبع ليال وثمانية أيام أحياء في عذاب الله من الريح، فلما أمسوا في اليوم الثامن ماتوا، فاحتملتهم الريح فألقتهم في البحر فذلك قوله عز وجل: "فهل ترى لهم من باقية"، وقوله عز وجل: ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ (الأحقاف: ٢٥).

قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وجاء فرعون ومن قبله﴾ قرأ أبو عمرو والكسائي "ومن قِبَله" بكسر القاف وفتح الباء؛ أي ومن معه وتبعه من جنوده. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم اعتبارا بقراءة عبد الله وأبي "ومن معه". وقرأ أبو موسى الأشعري "ومن تلقاءه". الباقون "قبله" بفتح القاف وسكون الباء؛ أي ومن تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية. "والمؤتفكات" أي أهل قرى لوط. وقراءة العامة بالألف. وقرأ الحسن والجحدري "والمؤتفكة" على التوحيد. قال قتادة: إنما سميت قرى قوم لوط "مؤتفكات" لأنها ائتفكت بهم، أي انقلبت. وذكر الطبري عن محمد بن كعب القرظي قال: خمس قريات: صبعة وصعرة وعمرة ودوما وسدوم؛ وهي القرية العظمى. "بالخاطئة" أي بالفعلة الخاطئة وهي المعصية والكفر. وقال مجاهد: بالخطايا التي كانوا يفعلونها. وقال الجرجاني: أي بالخطأ العظيم؛ فالخاطئة مصدر.

قوله تعالى: ﴿ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ فعصوا رسول ربهم﴾ قال الكلبي: هو موسى. وقيل: هو لوط لأنه أقرب. وقيل: عنى موسى ولوطا عليهما السلام؛ كما قال تعالى: ﴿فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ (الشعراء: ١٦). وقيل: "رسول" بمعنى رسالة. وقد يعبر عن الرسالة بالرسول؛ قال الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم   بسر ولا أرسلتهم برسول

"فأخذهم أخذة رابية" أي عالية زائدة على الأخذات وعلى عذاب الأمم. ومنه الربا إذا أخذ في الذهب والفضة أكثر مما أعطى. يقال: ربا الشيء يربو أي زاد وتضاعف. وقال مجاهد: شديدة. كأنه أراد زائدة في الشدة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا. وقال علي رضي الله عنه: طغى على خُزّانه من الملائكة غضبا لربه فلم يقدروا على حبسه. قال قتادة: زاد على كل شيء خمسة عشر ذراعا. وقال ابن

عباس: طغى الماء زمن نوح على خُزَّانه فكثر عليهم فلم يدروا كم خرج. وليس من الماء قطرة تنزل قبله ولا بعده إلا بكيل معلوم غير ذلك اليوم. وقد مضى هذا مرفوعا أول السورة. والمقصود من قصص هذه الأمم وذكر ما حل بهم من العذاب: زجر هذه الأمة عن الاقتداء بهم في معصية الرسول. ثم مَنَّ عليهم بأن جعلهم ذرية من نجا من الغرق بقوله: "حملناكم" أي حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم. "في الجارية" أي في السفن الجارية. والمحمول في الجارية نوح وأولاده، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك.

قوله تعالى: ﴿لنجعلها لكم تذكرة﴾ يعني سفينة نوح عليه الصلاة والسلام جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم؛ في قول قتادة. قال ابن جريج: كانت ألواحها على الجودي. والمعنى: أبقيت لكم تلك الخشبات حتى تذكروا ما حل بقوم نوح، وإنجاء الله آباءكم؛ وكم من سفينة هلكت وصارت ترابا ولم يبق منها شيء. وقيل: لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم؛ ولهذا قال الله تعالى: "وتعيها أذن واعية" أي تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله. والسفينة لا توصف بهذا. قال الزجاج: ويقال وعيت كذا أي حفظته في نفسي، أعيه وعيا. ووعيت العلم، ووعيت ما قلت؛ كله بمعنى. وأوعيت المتاع في الوعاء. قال الزجاج: يقال لكل ما حفظته في غير نفسك: "أوعيته" بالألف، ولما حفظته في نفسك "وعيته" بغير ألف. وقرأ طلحة وحميد والأعرج "وتعيها" بإسكان العين؛ تشبيها بقول: ﴿أرنا﴾ (البقرة: ١٢٨). واختلف فيها عن عاصم وابن كثير. الباقون بكسر العين؛ ونظير قوله تعالى: "وتعيها أذن واعية"، ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾ (ق: ٣٧). وقال قتادة: الأذن الواعية أذن عقلت عن الله تعالى، وانتفعت بما سمعت من كتاب الله عز وجل. وروى مكحول أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: (سألت ربي أن يجعلها أُذُنَ عليٍّ). قال مكحول: فكان علي رضي الله عنه يقول ما سمعت من رسول ﷺ شيئا قط فنسيته إلا وحفظته[1]. ذكره الماوردي. وعن الحسن نحوه ذكره الثعلبي قال: لما نزلت "وتعيها أذن واعية" قال النبي ﷺ: (سألت ربي أن يجعلها أذنك يا علي) قال علي: فوالله ما نسيت شيئا بعد، وما كان لي أن أنسى. وقال أبو برزة الأسلمي قال النبي ﷺ لعلي: (يا علي إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحقٌّ على الله أن تَعي)[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾

قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات. وجاز تذكير "نفخ" لأن تأنيث النفخة غير حقيقي. وقيل: إن هذه النفخة هي الأخيرة. وقال: "نفخة واحدة" أي لا تثنى. قال الأخفش: ووقع الفعل على النفخة إذ لم يكن قبلها اسم مرفوع فقيل: نفخة. ويجوز "نفخة" نصبا على المصدر. وبها قرأ أبو السمال. أو يقال: اقتصر على الإخبار عن الفعل كما تقول: ضرب ضربا. وقال الزجاج: "في الصور" يقوم مقام ما لم يسم فاعله.

---

(١) ذكره ابن كثير في "تفسيره"، (٤/ ٤١٣) وقال: "وهو حديث مرسل".

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤١٣): رواه ابن جرير عن محمد بن خلف عن بشر بن آدم، ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن داود الأعمى عن بريدة به ولا يصح.

قوله تعالى: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال﴾ قراءة العامة بتخفيف الميم؛ أي رفعت من أماكنها. "فدكتا" أي فتتا وكسرتا. "دكة واحدة" لا يجوز في "دكة" إلا النصب لارتفاع الضمير في "دكتا". وقال الفراء: لم يقل فدككن لأنه جعل الجبال كلها كالجملة الواحدة، والأرض كالجملة الواحدة. ومثله: ﴿أن السموات والأرض كانتا رتقا﴾ (الأنبياء: ٣٠) ولم يقل كن. وهذا الدك كالزلزلة؛ كما قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ (الزلزلة: ١). وقيل: "دكتا" أي بسطتا بسطة واحدة؛ ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش في ظهره. وقد مضى في سورة "الأعراف" القول فيه. وقرأ عبد الحميد عن ابن عامر "وَحُمِّلَت الأرض والجبال" بالتشديد على إسناد الفعل إلى المفعول الثاني. كأنه في الأصل وحملت قدرتنا أو ملكا من ملائكتنا الأرض والجبال؛ ثم أسند الفعل إلى المفعول الثاني فبني له. ولو جيء بالمفعول الأول لأسند الفعل إليه؛ فكأنه قال: وحملت قدرتنا الأرض. وقد يجوز بناؤه للثاني على وجه القلب فيقال: حُمِّلَت الأرضُ الملَك؛ كقولك: أُلبِس زيدٌ الجبة، وأُلبِست الجبةُ زيداً.

قوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فيومئذ وقعت الواقعة﴾ أي قامت القيامة. "وانشقت السماء" أي انصدعت وتفطرت. وقيل: تنشق لنزول ما فيها من الملائكة؛ دليله قوله تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾ (الفرقان: ٢٥) وقد تقدم. "فهي يومئذ واهية" أي ضعيفة. يقال: وَهَى البناء يهي وهياً فهو واه إذا ضعف جدا. ويقال: كلام واه؛ أي ضعيف. فقيل: إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف في الوهي ويكون ذلك لنزول الملائكة كما ذكرنا. وقيل: لهول يوم القيامة. وقيل: "واهية" أي متخرقة؛ قاله ابن شجرة. مأخوذ من قولهم: وهى السقاء إذا تخرق. ومن أمثالهم:

خل سبيل من وهى سقاؤه ومن أهريق بالفلاة ماؤه

أي من كان ضعيف العقل لا يحفظ نفسه. "والملك" يعني الملائكة؛ اسم للجنس. "على أرجائها" أي على أطرافها حين تنشق؛ لأن السماء مكانهم؛ عن ابن عباس. الماوردي: ولعله قول مجاهد وقتادة. وحكاه الثعلبي عن الضحاك، قال: على أطرافها مما لم ينشق منها. يريد أن السماء مكان الملائكة فإذا انشقت صاروا في أطرافها. وقال سعيد بن جبير: المعنى والملك على حافات الدنيا؛ أي ينزلون إلى الأرض ويحرسون أطرافها. وقيل: إذا صارت السماء قطعا تقف الملائكة على تلك القطع التي ليست متشققة في أنفسها. وقيل: إن الناس إذا رأوا جهنم هالتهم؛ فيندوا كما تند الإبل، فلا يأتون قطرا من أقطار الأرض إلا رأوا ملائكة فيرجعون من حيث جاؤوا. وقيل: "على أرجائها" ينتظرون ما يؤمرون به في أهل النار من السوق إليها، وفي أهل الجنة من التحية والكرامة. وهذا كله راجع إلى معنى قول ابن جبير. ويدل عليه: ﴿ونزل الملائكة تنزيلا﴾ (الفرقان: ٢٥) وقوله تعالى: ﴿ يا

معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض﴾ (الرحمن: ٣٣) على ما بيناه هناك. والأرجاء النواحي والأقطار بلغة هذيل، واحدها رجا مقصور، وتثنيته رجوان؛ مثل عصا وعصوان. قال الشاعر:

فلا يرمى بي الرجوان أني أقل القوم من يغني مكاني

ويقال ذلك لحرف البئر والقبر.

قوله تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ قال ابن عباس: ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله. وقال ابن زيد: هم ثمانية أملاك. وعن الحسن: الله أعلم كم هم، ثمانية أم ثمانية آلاف. وعن النبي ﷺ (أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة أيدهم الله تعالى بأربعة آخرين فكانوا ثمانية)[1]. ذكره الثعلبي. وخرجه الماوردي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يحمله اليوم أربعة وهم يوم القيامة ثمانية)[2]. وقال العباس بن عبد الملك: هم ثمانية أملاك على صورة الأوعال. ورواه عن النبي ﷺ. وفي الحديث (إن لكل ملك منهم أربعة أوجه وجه رجل ووجه أسد ووجه ثور ووجه نسر وكل وجه منها يسأل الله الرزق لذلك الجنس)[3]. ولما أنشد بين يدي النبي ﷺ قول أمية بن أبي الصلت:

رجل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد
والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد
ليست بطالعة لهم في رسلها إلا معذبة وإلا تجلد

قال النبي ﷺ: (صدق). وفي الخبر (أن فوق السماء السابعة ثمانية أو عال بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرش). ذكره القشيري وخرجه الترمذي من حديث العباس بن عبد المطلب[4]. وقد مضى في سورة "البقرة" بكماله. وذكر نحوه الثعلبي ولفظه. وفي حديث مرفوع (أن حملة العرش ثمانية أملاك على صورة الأوعال ما بين أظلافها إلى ركبها مسيرة سبعين عاما للطائر المسرع)[5]. وفي تفسير الكلبي: ثمانية أجزاء من تسعة أجزاء من الملائكة. وعنه: ثمانية أجزاء من عشرة أجزاء من الملائكة. ثم ذكر عدة الملائكة بما يطول ذكره. حكى الأول عنه الثعلبي والثاني القشيري. وقال الماوردي عن ابن عباس: ثمانية أجزاء من تسعة وهم الكروبيون. والمعنى ينزل بالعرش. ثم إضافة العرش إلى الله تعالى كإضافة البيت، وليس البيت للسكنى، فكذلك العرش. ومعنى: "فوقهم" أي فوق رؤوسهم. قال السدي: العرش تحمله الملائكة الحملة فوقهم ولا يحمل

---

(١) ضعيف.

(٢) ذكره السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٤٠٩) وعزاه إلى ابن جرير عن ابن زيد مرفوعاً، وحاله كسابقه.

(٣) موضوع مرفوعاً، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور"، (٦/ ٤٠٩) إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن وهب ابن منبه من قوله، وهذا الأليق به.

(٤) ضعيف، انظر ضعيف الجامع (٦١٠٦)، وراجع الضعيفة (١٢٤٦).

(٥) ضعيف، وهو من رواية الثعلبي، وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ لما قال في "مقدمة أصول التفسير"، (ص٧٦): "والثعلبي هو في نفسه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد من كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

حملة العرش إلا الله. وقيل: "فوقهم" أي إن حملة العرش فوق الملائكة الذين في السماء على أرجائها. وقيل: "فوقهم" أي فوق أهل القيامة.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يومئذ تعرضون﴾ أي على الله؛ دليله: "وعرضوا على ربك صفا" وليس ذلك عرضا يعلم به ما لم يكن عالما به، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة. وروى الحسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخذ بيمينه وآخذ بشماله)(١). خرجه الترمذي قال: ولا يصح من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. "لا تخفى منكم خافية" أي هو عالم بكل شي من أعمالكم. "فخافية" على هذا بمعنى خفية، كانوا يخفونها من أعمالهم؛ قاله ابن شجرة. وقيل: لا يخفى عليه إنسان؛ أي لا يبقى إنسان لا يحاسب. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: لا يخفى المؤمن من الكافر ولا البر من الفاجر. وقيل: لا تستتر منكم عورة؛ كما قال النبي ﷺ: (يحشر الناس حفاة عراة)(٢). وقرأ الكوفيون إلا عاصما "لا يخفى" بالياء؛ لأن تأنيث الخافية غير حقيقي؛ نحو قوله تعالى: ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة﴾ (هود: ٦٧) واختاره أبو عبيد؛ لأنه قد حال بين الفعل وبين الاسم المؤنث الجار والمجرور. الباقون بالتاء. واختاره أبو حاتم لتأنيث الخافية.

قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: "فأما من أوتي كتابه بيمينه" إعطاء الكتاب باليمين دليل على النجاة. وقال ابن عباس: أول من يعطى كتابه بيمينه من هذه الأمة عمر بن الخطاب، وله شعاع كشعاع الشمس. قيل له: فأين أبو بكر؟ فقال هيهات هيهات! زفته الملائكة إلى الجنة. ذكره الثعلبي(٣). وقد ذكرناه مرفوعا من حديث زيد بن ثابت بلفظه ومعناه في كتاب "التذكرة". والحمد لله. "فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه" أي يقول ذلك ثقة بالإسلام وسرورا بنجاته؛ لأن اليمين عند العرب من دلائل الفرح، والشمال من دلائل الغم. قال الشاعر:

(١) "ضعيف" أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وأحمد وابن ماجه عن أبي موسى، وانظر ضعيف الجامع (٦٤٤٦).
(٢) صحيح، وقد سبق.
(٣) الأثر لا يصح مرفوعاً ولا موقوفاً، وهو مما اشتهر على ألسنة الوعاظ، ويكفي أنه من رواية الثعلبي، وقد عرفت حاله آنفا.

أبيني أفي يمنى يديك جعلتني فأفرح أم صيرتني في شمالك

ومعنى: "هاؤم" تعالوا؛ قاله ابن زيد. وقال مقاتل: هلم. وقيل: أي خذوا؛ ومنه الخبر في الربا (إلا هاء وهاء) أي يقول كل واحد لصاحبه: خذ. قال ابن السكيت والكسائي: العرب تقول هاءَ يا رجل اقرأ، وللاثنين هاؤما يا رجلان، وهاؤم يا رجال، وللمرأة هاء (بكسر الهمزة) وهاؤما وهاؤمن. والأصل هاكم فأبدلت الهمزة من الكاف؛ قاله القتيبي. وقيل: إن "هاؤم" كلمة وضعت لإجابة الداعي عند النشاط والفرح. روي أن رسول الله ﷺ ناداه أعرابي بصوت عال فأجابه النبي ﷺ "هاؤم" يطول صوته. "وكتابيه" منصوب بـ "هاؤم" عند الكوفيين. وعند البصريين بـ "اقرؤوا" لأنه أقرب العاملين. والأصل "كتابي" فأدخلت الهاء لتبين فتحة الياء، وكان الهاء للوقف، وكذلك في أخواته: "حسابيه"، وماليه، وسلطانيه" وفي القارعة "ما هيه". وقراءة العامة بالهاء فيهن في الوقف والوصل معا؛ لأنهن وقعن في المصحف بالهاء فلا تترك. واختار أبو عبيد أن يتعمد الوقف عليها ليوافق اللغة في إلحاق الهاء في السكت ويوافق الخط. وقرأ ابن محيصن ومجاهد وحميد ويعقوب بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف فيهن جمع. ووافقهم حمزة في "ماليه وسلطانيه"، و"ما هيه" في القارعة. وجملة هذه الحروف سبعة. واختار أبو حاتم قراءة يعقوب ومن معه اتباعا للغة. ومن قرأهن في الوصل بالهاء فهو على نية الوقف.

قولـه تعالى: ﴿إني ظننت﴾ أي أيقنت وعلمت، عن ابن عباس وغيره. وقيل: أي إني ظننت أن يؤاخذني الله بسيئاتي عذبني فقد تفضل علي بعفوه ولم يؤاخذني بها. قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين. ومن الكافر فهو شك. وقال مجاهد: ظن الآخرة يقين، وظن الدنيا شك. وقال الحسن في هذه الآية: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل. "أني ملاق حسابيه" أي في الآخرة ولم أنكر البعث؛ يعني أنه ما نجا إلا بخوفه من يوم الحساب، لأنه تيقن أن الله يحاسبه فعمل للآخرة. "فهو في عيشة راضية" أي في عيش يرضاه لا مكروه فيه. وقال أبو عبيدة والفراء: "راضية" أي مرضية؛ كقولك: ماء دافق؛ أي مدفوق. وقيل: ذات رضا؛ أي يرضى بها صاحبها. مثل لابن وتامر؛ أي صاحب اللبن والتمر. وفي الصحيح عن النبي ﷺ (أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا ويصحون فلا يمرضون أبدا وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا ويشبون فلا يهرمون أبدا). "في جنة عالية" أي عظيمة في النفوس. "قطوفها دانية" أي قريبة التناول، يتناولها القائم والقاعد والمضطجع على ما يأتي بيانه في سورة "الإنسان". والقطوف جمع قطف (بكسر القاف) وهو ما يقطف من الثمار. والقطف (بالفتح) المصدر. والقطاف (بالفتح والكسر) وقت القطف. "كلوا واشربوا" أي يقال لهم ذلك. "هنيئا" لا تكدير فيه ولا تنغيص. "بما أسلفتم" قدمتم من الأعمال الصالحة. "في الأيام الخالية" أي في الدنيا. وقال: "كلوا" بعد قوله: "فهو في عيشة راضية" لقوله: "فأما من أوتي" و"من" يتضمن معنى الجمع.

وذكر الضحاك أن هذه الآية نزلت في أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي؛ وقاله مقاتل. والآية التي تليها في أخيه الأسود بن عبد الأسد؛ في قول ابن عباس والضحاك أيضا؛ قاله الثعلبي.

ويكون هذا الرجل وأخوه سبب نزول هذه الآيات. ويعم المعنى جميع أهل الشقاوة وأهل السعادة؛ يدل عليه قوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا﴾. وقد قيل: إن المراد بذلك كل من كان متبوعا في الخير والشر. فإذا كان الرجل رأسا في الخير، يدعو إليه ويأمر به ويكثر تبعه عليه، دعي باسمه واسم أبيه فيتقدم حتى إذا دنا أخرج له كتاب أبيض بخط أبيض، في باطنه السيئات وفي ظاهره الحسنات فيبدأ بالسيئات فيقرأها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه سيئاتك وقد غفرت لك" فيفرح عند ذلك فرحا شديدا، ثم يقلب كتابه فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحا؛ حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه حسناتك قد ضوعفت لك" فيبيض وجهه ويؤتى بتاج فيوضع على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى كل مفصل منه ويطول ستين ذراعا وهي قامة آدم عليه السلام؛ ويقال له: انطلق إلى أصحابك فأخبرهم وبشرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا. فإذا أدبر قال: هاؤم اقرؤوا كتابيه إني ظننت أني ملاق حسابيه. قال الله تعالى: ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي مرضية قد رضيها "في جنة عالية" في السماء "قطوفها" ثمارها وعناقيدها. "دانية" أدنيت منهم. فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان أبشر كل رجل منكم بمثل هذا. "كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية" أي قدمتم في أيام الدنيا. وإذا كان الرجل رأسا في الشر، يدعو إليه ويأمر به فيكثر تبعه عليه، نودي باسمه واسم أبيه فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في باطنه الحسنات وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرأها ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه حسناتك وقد ردت عليك" فيسود وجهه ويعلوه الحزن ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه فيقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزنا، ولا يزداد وجهه إلا سوادا، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه "هذه سيئاتك وقد ضوعفت عليك" أي يضاعف عليه العذاب. ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل ـ قال ـ فيعظم للنار وتزرق عيناه ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران ويقال له: انطلق إلى أصحابك وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا؛ فينطلق وهو يقول: "يا ليتني لم أوت كتابيه. ولم أدر ما حسابيه. يا ليتها كانت القاضية" يتمنى الموت.

قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هلك عني سلطانيه﴾ تفسير ابن عباس: هلكت عني حجتي. وهو قول مجاهد وعكرمة والسدي والضحاك. وقال ابن زيد: يعني سلطانيه في الدنيا الذي هو الملك. وكان هذا الرجل مطاعا في أصحابه؛ قال الله تعالى ﴿خذوه فغلوه﴾ قيل: يبتدره مائة ألف ملك ثم تجمع يده إلى عنقه وهو قوله عز وجل: "فغلوه" أي شدوه بالأغلال "ثم الجحيم صلوه" أي اجعلوه يصلى الجحيم "ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا" الله أعلم بأي ذراع، قاله الحسن. وقال ابن عباس: سبعون ذراعا بذراع الملك. وقال نوف: كل ذراع سبعون باعا، وكل باع أبعد ما بينك وبين مكة.

وكان في رحبة الكوفة. وقال مقاتل: لو أن حلقة منها وضعت على ذروة جبل لذاب كما يذوب الرصاص. وقال كعب: إن حلقة من السلسلة التي قال الله تعالى ذرعها سبعون ذراعا ـ أن حلقة منها ـ مثل جميع حديد الدنيا. "فاسلكوه" قال سفيان: بلغنا أنها تدخل في دبره حتى تخرج من فيه. وقاله مقاتل. والمعنى ثم اسلكوا فيه سلسلة. وقيل: تدخل عنقه فيها ثم يجرّ بها. وجاء في الخبر: أنها تدخل من دبره وتخرج من منخريه. وفي خبر آخر: تدخل من فيه وتخرج من دبره، فينادي أصحابه هل تعرفوني؟ فيقولون لا، ولكن قد نرى ما بك من الخزي فمن أنت؟ فينادي أصحابه أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

قلت: وهذا التفسير أصح ما قيل في هذه الآية، يدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم﴾ (الإسراء: ٧١). وفي الباب حديث أبي هريرة بمعناه خرجه الترمذي. وقد ذكرناه في سورة "الإسراء" فتأمله هناك. "إنه كان لا يؤمن بالله العظيم، ولا يحض على طعام المسكين" أي على الإطعام، كما يوضع العطاء موضع الإعطاء. قال الشاعر:

أكفـرا بعد رد الموت عني وبعد عطائك المائة الرتاعا

أراد بعد إعطائك. فبيّن أنه عُذّب على ترك الإطعام وعلى الأمر بالبخل، كما عُذّب بسبب الكفر. والحض: التحريض والحث. وأصل "طعام" أن يكون منصوبا بالمصدر المقدر. والطعام عبارة عن العين، وأضيف للمسكين للملابسة التي بينهما. ومن أعمل الطعام كما يعمل الإطعام فموضع المسكين نصب. والتقدير على إطعام المطعم المسكين؛ فحذف الفاعل وأضيف المصدر إلى المفعول.

قوله تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿فليس له اليوم هاهنا حميم﴾ خبر "ليس" قوله: "له" ولا يكون الخبر قوله: "ها هنا" لأن المعنى يصير: ليس ها هنا طعام إلا من غسلين، ولا يصح ذلك؛ لأن ثم طعاما غيره. و"ها هنا" متعلق بما في "له" من معنى الفعل. والحميم ها هنا القريب. أي ليس له قريب يرق له ويدفع عنه. وهو مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار؛ كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له. والغسلين فعلين من الغسل؛ فكأنه ينغسل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم؛ عن ابن عباس. وقال الضحاك والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. والغسل (بالكسر): ما يغسل به الرأس من خطمي وغيره. الأخفش: ومنه الغسلين، وهو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم. وزيد فيه الياء والنون كما زيد في عفرين. وقال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه. ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا الزقوم. وقال في موضع آخر: ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ (الغاشية: ٦) يجوز أن يكون الضريع من الغسلين. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين؛ ويكون الماء الحار. "ولا طعام" أي وليس لهم طعام ينتفعون به. "لا يأكله إلا الخاطئون" أي المذنبون. وقال ابن عباس: يعني المشركين. وقرئ "الخاطيون" بإبدال الهمزة ياء، و"الخاطون"

بطرحها. وعن ابن عباس: ما الخاطون! كلنا نخطو. وروى أبو الأسود الدؤلي: ما الخاطون! إنما هو الخاطئون. ما الصابون! إنما هو الصابئون. ويجوز أن يراد الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون﴾ المعنى أقسم بالأشياء كلها ما ترون منها وما لا ترون. و"لا" صلة. وقيل: هو رد لكلام سبق؛ أي ليس الأمر كما يقوله المشركون. وقال مقاتل: سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمدا ساحر. وقال أبو جهل: شاعر. وقال عقبة: كاهن؛ فقال الله عز وجل: ﴿فلا أقسم﴾ أي أقسم. وقيل: "لا" ها هنا نفي للقسم، أي لا يحتاج في هذا إلى قسم لوضوح الحق في ذلك، وعلى هذا فجوابه كجواب القسم. "إنه" يعني القرآن "لقول رسول كريم" يريد جبريل، قاله الحسن والكلبي ومقاتل. دليله: ﴿إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش﴾ (التكوير: ٢٠). وقال الكلبي أيضا والقتبي: الرسول ها هنا محمد ﷺ؛ لقوله: "وما هو بقول شاعر" وليس القرآن قول الرسول ﷺ، إنما هو من قول الله عز وجل ونسب القول إلى الرسول لأنه تاليه ومبلغه والعامل به، كقولنا: هذا قول مالك.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وما هو بقول شاعر﴾ لأنه مباين لصنوف الشعر كلها. "ولا بقول كاهن" لأنه ورد بسب الشياطين وشتمهم فلا ينزلون شيئا على من يسبهم. و"ما" زائدة في قوله: "قليلا ما تؤمنون"، "قليلا ما تذكرون"؛ والمعنى: قليلا تؤمنون وقليلا تذكرون. وذلك القليل من إيمانهم هو أنهم إذا سئلوا من خلقهم قالوا: الله. ولا يجوز أن تكون "ما" مع الفعل مصدرا وتنصب "قليلا" بما بعد "ما"، لما فيه من تقديم الصلة على الموصول؛ لأن ما عمل فيه المصدر من صلة المصدر. وقرأ ابن محيصن وابن كثير وابن عامر ويعقوب "ما يؤمنون"، و"يذكرون" بالياء. الباقون بالتاء لأن الخطاب قبله وبعده. أما قبله فقوله: "تبصرون" وأما بعده: "فما منكم" الآية.

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: "تنزيل" أي هو تنزيل. "من رب العالمين" وهو عطف على قوله: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ (الحاقة: ٤٠)، أي إنه لقوله رسول كريم، وهو تنزيل من رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾ "تقول" أي تكلف وأتى بقول من قبل نفسه. وقرئ "ولو تقول" على البناء للمفعول. "لأخذنا منه باليمين" أي بالقوة والقدرة، أي لأخذناه بالقوة. و"من" صلة زائدة. وعبر عن القوة والقدرة باليمين لأن قوة كل شيء في ميامنه، قاله القتبي. وهو معنى قول ابن عباس ومجاهد. ومنه قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

أي بالقوة. عرابة اسم رجل من الأنصار من الأوس. وقال آخر:

ولما رأيت الشمس أشرق نورها تناولت منها حاجتي بيميني

وقال السدي والحكم: "باليمين" بالحق. قال:

تلقاها عرابة باليمين

أي بالاستحقاق. وقال الحسن: لقطعنا يده اليمين. وقيل: المعنى لقبضنا بيمينه عن التصرف؛ قاله نفطويه. وقال أبو جعفر الطبري: إن هذا الكلام خرج مخرج الإذلال على عادة الناس في الأخذ بيد من يعاقب. كما يقول السلطان لمن يريد هوانه: خذوا يديه. أي لأمرنا بالأخذ بيده وبالغنا في عقابه. "ثم لقطعنا منه الوتين" يعني نياط القلب؛ أي لأهلكناه. وهو عرق يتعلق به القلب إذا انقطع مات صاحبه؛ قاله ابن عباس وأكثر الناس. قال:

إذا بلغتني وحملت رحلي عرابة فاشرقي بدم الوتين

وقال مجاهد: هو حبل القلب الذي في الظهر وهو النخاع؛ فإذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه. والموتون الذي قطع وتينه. وقال محمد بن كعب: إنه القلب ومراقه وما يليه. قال الكلبي: إنه عرق بين العلباء والحلقوم. والعلباء: عصب العنق. وهما علباوان بينهما ينبت العرق. وقال عكرمة: إن الوتين إذا قطع لا إن جاع عرف، ولا إن شبع عرف.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: "فما منكم من أحد عنه حاجزين" "ما" نفي و"أحد" في معنى الجمع، فلذلك نعته بالجمع؛ أي فما منكم قوم يحجزون عنه كقوله تعالى: ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة: ٢٨٥) هذا جمع، لأن "بين" لا تقع إلا على اثنين فما زاد. قال النبي ﷺ: (لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس قبلكم)[١]. لفظه واحد ومعناه الجمع. و"من" زائدة. والحجز: المنع. و"حاجزين" يجوز أن يكون صفة لأحد على المعنى كما ذكرنا؛ فيكون في موضع جر. والخبر "منكم". ويجوز أن يكون منصوبا على أنه خبر و"منكم" ملغى، ويكون متعلقا "بحاجزين". ولا يمنع الفصل به من انتصاب الخبر في هذا؛ كما لم يمتنع الفصل به في "إن فيك زيدا راغب". "وإنه" يعني القرآن "لتذكرة

(١) "صحيح" انظر صحيح الترمذي، وراجع الصحيحة (٢١٥٥).

للمتقين" أي للخائفين الذين يخشون الله. ونظيره: ﴿فيه هدى للمتقين﴾ (البقرة: ٢) على ما بيناه أول سورة البقرة. وقيل: المراد محمد ﷺ، أي هو تذكرة ورحمة ونجاة.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ قال الربيع: بالقرآن. "وإنه لحسرة" يعني التكذيب. والحسرة: الندامة. وقيل: أي وإن القرآن لحسرة على الكافرين يوم القيامة إذا رأوا ثواب من آمن به. وقيل: هي حسرتهم في الدنيا حين لم يقدروا على معارضته عند تحديهم أن يأتوا بسورة مثله. "وإنه لحق اليقين" يعني أن القرآن العظيم تنزيل من الله عزّ وجلّ؛ فهو لحق اليقين. وقيل: أي حقا يقينا ليكونن ذلك حسرة عليهم يوم القيامة. فعلى هذا "وإنه لحسرة" أي لتحسر؛ فهو مصدر بمعنى التحسر، فيجوز تذكيره. وقال ابن عباس: إنما هو كقولك: لعين اليقين ومحض اليقين. ولو كان اليقين نعتا لم يجز أن يضاف إليه؛ كما لا تقول: هذا رجل الظريف. وقيل: أضافه إلى نفسه لاختلاف اللفظين. "فسبح باسم ربك العظيم" أي فصَلِّ لربك؛ قاله ابن عباس. وقيل: أي نزه الله عن السوء والنقائص.

سورة المعارج

مقدمة السورة :

وهي مكية باتفاق. وهي أربع وأربعون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ قرأ نافع وابن عامر "سال سايل" بغير همزة. الباقون بالهمز. فمن همز فهو من السؤال. والباء يجوز أن تكون زائدة، ويجوز أن تكون بمعنى عن. والسؤال بمعنى الدعاء؛ أي دعا داع بعذاب؛ عن ابن عباس وغيره. يقال: دعا على فلان بالويل، ودعا عليه بالعذاب. ويقال: دعوت زيدا؛ أي التمست إحضاره. أي التمس ملتمس عذابا للكافرين؛ وهو واقع بهم لا محالة يوم القيامة. وعلى هذا فالباء زائدة؛ كقوله تعالى: ﴿تنبت بالدهن﴾ (المؤمنون: ٢٠)، وقوله: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ (مريم: ٢٥) فهي تأكيد. أي سأل سائل عذابا واقعا. "للكافرين" أي على الكافرين. وهو النضر بن الحارث حيث قال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ (الأنفال: ٣٢) فنزل سؤاله[(١)]، وقتل يوم بدر صبرا هو وعقبة بن أبي معيط؛ لم يقتل صبرا غيرهما؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: إن السائل هنا هو الحارث بن النعمان الفهري. وذلك أنه لما بلغه قول النبي ﷺ في علي ﷺ: (من كنت مولاه فعلي مولاه)[(٢)] ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ثم قال: يا محمد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك، وأن نصلي خمسا فقبلناه منك، ونزكي أموالنا فقبلناه منك، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك، وأن نحج فقبلناه منك، ثم لم ترض بهذا حتى فضلت ابن عمك علينا! أفهذا شيء منك أم من الله؟! فقال النبي ﷺ: (والله الذي لا إله إلا هو ما هو إلا من الله) فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله؛ فنزلت: "سأل سائل بعذاب واقع" الآية. وقيل: إن السائل هنا أبو جهل وهو القائل لذلك، قاله الربيع. وقيل: إنه قول جماعة من كفار قريش. وقيل: هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين. وقيل: هو رسول الله ﷺ أي دعا ﷺ بالعقاب وطلب أن يوقعه الله بالكفار؛ وهو واقع بهم لا محالة. وامتد الكلام إلى قوله تعالى: ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾ (المعارج: ٥) أي لا تستعجل فإنه قريب. وإذا كانت الباء بمعنى عن ـ وهو قول قتادة ـ فكأن سائلا سأل عن العذاب بمن يقع أو متى يقع. قال الله تعالى: ﴿فاسأل به خبيرا﴾ (الفرقان: ٥٩) أي سل عنه. وقال علقمة:

---

(١) أخرجه الحاكم في "المستدرك"، (٢/ ٥٠٢) وصححه وأقره الذهبي.

(٢) "صحيح" انظر صحيح الجامع (٦٥٢٣)، وراجع الصحيحة (١٧٥٠).

فإن تسألوني بالنساء فإنني   بصير بأدواء النساء طبيب

أي عن النساء. ويقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. فالمعنى سألوا بمن يقع العذاب ولمن يكون فقال الله: "للكافرين". قال أبو علي وغيره: وإذا كان من السؤال فأصله أن يتعدى إلى مفعولين ويجوز الاقتصار على أحدهما. وإذا اقتصر على أحدهما جاز أن يتعدى إليه بحرف جر؛ فيكون التقدير سأل سائل النبي ﷺ أو المسلمين بعذاب أو عن عذاب. ومن قرأ بغير همز فله وجهان: أحدهما: أنه لغة في السؤال وهي لغة قريش؛ تقول العرب: سال يسال؛ مثل نال ينال وخاف يخاف. والثاني: أن يكون من السيلان؛ ويؤيده قراءة ابن عباس "سال سيل". قال عبد الرحمن بن زيد: سال واد من أودية جهنم يقال له: سائل؛ وهو قول زيد بن ثابت. قال الثعلبي: والأول أحسن؛ كقول الأعشى في تخفيف الهمزة:

سالتاني الطلاق إذ رأتاني   قَلّ مالي قد جئتماني بنكر

وفي الصحاح: قال الأخفش: يقال خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وقد تخفف همزته فيقال: سال يسال. وقال:

ومرهق سال إمتاعا بأصْدَته   لم يستعن وحوامي الموت تغشاه

المرهق: الذي أدرك ليقتل. والأصدة بالضم: قميص صغير يلبس تحت الثوب. المهدوي: من قرأ "سال" جاز أن يكون خفف الهمزة بإبدالها ألفا، وهو البدل على غير قياس. وجاز أن تكون الألف منقلبة عن واو على لغة من قال: سلت أسال؛ كخفت أخاف. النحاس: حكى سيبويه سلت أسال؛ مثل خفت أخاف؛ بمعنى سألت. وأنشد:

سالت هذيلٌ رسول الله فاحشة   ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

ويقال: هما يتساولان. المهدوي: وجاز أن تكون مبدلة من ياء، من سال يسيل. ويكون سايل واديا في جهنم؛ فهمزة سايل على القول الأول أصلية، وعلى الثاني بدل من واو، وعلى الثالث بدل من ياء. القشيري: وسائل مهموز؛ لأنه إن كان من سأل بالهمز فهو مهموز، وإن كان من غير الهمز كان مهموزا أيضا؛ نحو قائل وخائف؛ لأن العين اعتل في الفعل واعتل في اسم الفاعل أيضا. ولم يكن الاعتلال بالحذف لخوف الالتباس، فكان بالقلب إلى الهمزة، ولك تخفيف الهمزة حتى تكون بين بين. "واقع" أي يقع بالكفار، بيّن أنه من الله ذي المعارج. وقال الحسن: أنزل الله تعالى: "سأل سائل بعذاب واقع" فقال لمن هو؟ فقال: للكافرين؛ فاللام في الكافرين متعلقة "بواقع". وقال الفراء: التقدير بعذاب للكافرين واقع؛ فالواقع من نعت العذاب واللام دخلت للعذاب لا للواقع، أي هذا العذاب للكافرين في الآخرة لا يدفعه عنهم أحد. وقيل: إن اللام بمعنى على، والمعنى: واقع على الكافرين. وروي أنها في قراءة أبي كذلك. وقيل: بمعنى عن؛ أي ليس له دافع عن الكافرين من الله. أي ذلك العذاب من الله ذي المعارج أي ذي العلو والدرجات الفواضل والنعم؛ قاله ابن عباس وقتادة. فالمعارج مراتب إنعامه على الخلق. وقيل: ذي العظمة والعلاء. وقال مجاهد: هي معارج السماء. وقيل: هي معارج الملائكة؛ لأن الملائكة تعرج إلى السماء فوصف نفسه بذلك.

وقيل: المعارج الغرف؛ أي إنه ذو الغرف، أي جعل لأوليائه في الجنة غرفا. وقرأ عبد الله "ذي المعاريج" بالياء. يقال: معرج ومعراج ومعارج ومعاريج؛ مثل مفتاح ومفاتيح. والمعارج الدرجات؛ ومنه: ﴿ومعارج عليها يظهرون﴾ (الزخرف: ٣٣).

قوله تعالى: ﴿تعرج الملائكة والروح﴾ أي تصعد في المعارج التي جعلها الله لهم. وقرأ ابن مسعود وأصحابه والسلمي والكسائي "يعرج" بالياء على إرادة الجمع؛ ولقوله: ذكّروا الملائكة ولا تؤنثوهم. وقرأ الباقون بالتاء على إرادة الجماعة. "والروح" جبريل عليه السلام؛ قاله ابن عباس. دليله قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ (الشعراء: ١٩٣). وقيل: هو ملك آخر عظيم الخلقة. وقال أبو صالح: إنه خلق من خلق الله كهيئة الناس وليس بالناس. قال قبيصة بن ذؤيب: إنه روح الميت حين يقبض. "إليه" أي إلى المكان الذي هو محلهم وهو في السماء؛ لأنها محل بره وكرامته. وقيل: هو كقول إبراهيم ﴿إني ذاهب إلى ربي﴾ (الصافات: ٩٩). أي إلى الموضع الذي أمرني به. وقيل: "إليه" أي إلى عرشه. "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" قال وهب والكلبي ومحمد بن إسحاق: أي عروج الملائكة إلى المكان الذي هو محلهم في وقت كان مقداره على غيرهم لو صعد خمسين ألف سنة. وقال وهب أيضا: ما بين أسفل الأرض إلى العرش مسيرة خمسين ألف سنة. وهو قول مجاهد. وجمع بين هذه الآية وبين قوله: "في يوم كان مقداره ألف سنة" في سورة السجدة، فقال: "في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" من منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسون ألف سنة. وقوله تعالى في (الم تنزيل): ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ (السجدة: ٥) يعني بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض، ومن الأرض إلى السماء في يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة لأن ما بين السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام. وعن مجاهد أيضا والحكم وعكرمة: هو مدة عمر الدنيا من أول ما خلقت إلى آخر ما بقي خمسون ألف سنة. لا يدري أحد كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل. وقيل: المراد يوم القيامة، أي مقدار الحكم فيه لو تولاه مخلوق خمسون ألف سنة، قاله عكرمة أيضا والكلبي ومحمد بن كعب. يقول سبحانه وتعالى وأنا أفرغ منه في ساعة. وقال الحسن: هو يوم القيامة، ولكن يوم القيامة لا نفاد له فالمراد ذكر موقفهم للحساب فهو في خمسين ألف سنة من سني الدنيا، ثم حينئذ يستقر أهل الدارين في الدارين. وقال يمان: هو يوم القيامة، فيه خمسون موطنا كل موطن ألف سنة. وقال ابن عباس: هو يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة، ثم يدخلون النار للاستقرار.

قلت: وهذا القول أحسن ما قيل في الآية إن شاء الله، بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة). فقلت: ما أطول هذا! فقال النبي ﷺ: (والذي نفسي بيده إنه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة المكتوبة يصليها في الدنيا)[1]. واستدل النحاس على صحة هذا القول بما رواه سهيل عن أبيه عن أبي

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥) من طريق ابن لهيعة عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً، وقال ابن كثير (٤/ ٤١٩) بعدما ذكره من رواية أحمد وابن جرير: إلا أن دراجاً وشيخه أبا الهيثم ضعيفان".

هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من رجل لم يؤد زكاة مال إلا جعل شجاعا من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي الله بين الناس)[١] . قال: فهذا يدل على أنه يوم القيامة. وقال إبراهيم التيمي: ما قدر ذلك اليوم على المؤمن إلا قدر ما بين الظهر والعصر. وروي هذا المعنى مرفوعا من حديث معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: (يحاسبكم الله تعالى بمقدار ما بين الصلاتين ولذلك سمى نفسه سريع الحساب وأسرع الحاسبين). ذكره الماوردي. وقيل: بل يكون الفراغ لنصف يوم، كقوله تعالى: ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ (الفرقان: ٢٤). وهذا على قدر فهم الخلائق، وإلا فلا يشغله شأن عن شأن. وكما يرزقهم في ساعة كذا يحاسبهم في لحظة، قال الله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ (لقمان: ٢٨). وعن ابن عباس أيضا أنه سُئل عن هذه الآية وعن قوله تعالى: ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾ (السجدة: ٥) فقال: أيام سماها الله عز وجل هو أعلم بها كيف تكون، وأكره أن أقول فيها ما لا أعلم. وقيل: معنى ذكر خمسين ألف سنة تمثيل، وهو تعريف طول مدة القيامة في الموقف، وما يلقى الناس فيه من الشدائد. والعرب تصف أيام الشدة بالطول، وأيام الفرح بالقصر؛ قال الشاعر:

ويوم كظل الرمح قصر طوله   دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير؛ والمعنى: سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له من الله دافع، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة تعرج الملائكة والروح إليه. وهذا القول هو معنى ما اخترناه، والموفق الإله.

قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾ أي على أذى قومك. والصبر الجميل: هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله. وقيل: هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يُدْرَى من هو. والمعنى متقارب. وقال ابن زيد: هي منسوخة بآية السيف. "إنهم يرونه بعيدا" يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيدا؛ أي غير كائن. "ونراه قريبا" لأن ما هو آت فهو قريب. وقال الأعمش: يرون البعث بعيدا لأنهم لا يؤمنون به كأنهم يستبعدونه على جهة الإحالة. كما تقول لمن تناظره: هذا بعيد لا يكون وقيل: أي يرون هذا اليوم بعيدا "ونراه" أي نعلمه؛ لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود. وهو كقولك: الشافعي يرى في هذه المسألة كذا وكذا.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾ العامل في "يوم" "واقع"؛ تقديره يقع بهم العذاب يوم. وقيل: "نراه" أو "يبصرونهم" أو يكون بدلا من قريب. والمهل: دردي الزيت وعكره؛ في

---

(١) صحيح، بنحوه في صحيح الجامع (٥٧١٩) من رواية ابن مسعود.

قول ابن عباس وغيره. وقال ابن مسعود: ما أذيب من الرصاص والنحاس والفضة. وقال مجاهد: "كالمهل" كقيح من دم وصديد. وقد مضى في سورة "الدخان"، و"الكهف" القول فيه. "وتكون الجبال كالعهن" أي كالصوف المصبوغ. ولا يقال للصوف عهن إلا أن يكون مصبوغا. وقال الحسن: "وتكون الجبال كالعهن" وهو الصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف. ومنه قول زهير:

كأن فتات العهن في كل منزل نزلـن به حـب الفنا لم يحطم

الفتات القطع. والعهن الصوف الأحمر؛ واحده عهنة. وقيل: العهن الصوف ذو الألوان؛ فشبه الجبال به في تلونها ألوانا. والمعنى: أنها تلين بعد الشدة، وتتفرق بعد الاجتماع. وقيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملا مهيلا، ثم عهنا منفوشا، ثم هباء منبثا. "ولا يسأل حميم حميما" أي عن شأنه لشغل كل إنسان بنفسه، قاله قتادة. كما قال تعالى: ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (عبس: ٣٧). وقيل: لا يسأل حميم عن حميم، فحذف الجار ووصل الفعل. وقراءة العامة "يسأل" بفتح الياء. وقرأ شيبة والبزي عن عاصم "ولا يسأل" بالضم على ما لم يسم فاعله، أي لا يسأل حميم عن حميمه ولا ذو قرابة عن قرابته، بل كل إنسان يسأل عن عمله. نظيره: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر: ٣٨).

قوله تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿يبصرونهم﴾ أي يرونهم. وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والإنس. فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسألـه ولا يكلمه؛ لاشتغالـهم بأنفسهم. وقال ابن عباس: يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة. وفي بعض الأخبار: أن أهل القيامة يفرون من المعارف مخافة المظالم. وقال ابن عباس أيضا: "يبصرونهم" يبصر بعضهم بعضا فيتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض. فالضمير في "يبصرونهم" على هذا للكفار، والميم للأقرباء. وقال مجاهد: المعنى يبصّر الله المؤمنين الكفار في يوم القيامة؛ فالضمير في "يبصرونهم" للمؤمنين، والـهاء والميم للكفار. ابن زيد: المعنى يبصر الله الكفار في النار الذين أضلوهم في الدنيا؛ فالضمير في "يبصرونهم" للتابعين، والـهاء والميم للمتبوعين. وقيل: إنه يبصر المظلوم ظالمه والمقتول قاتلـه. وقيل: "يبصرونهم" يرجع إلى الملائكة؛ أي يعرفون أحوال الناس فيسوقون كل فريق إلى ما يليق بهم. وتم الكلام عند قولـه: "يبصرونهم". ثم قال: "يود المجرم" أي يتمنى الكافر. "لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه. يعني من عذاب جهنم بأعز من كان عليه في الدنيا من أقاربه فلا يقدر. ثم ذكرهم فقال: "ببنيه. وصاحبته" زوجته "وأخيه. وفصيلته " أي عشيرته. "التي تؤويه" تنصره؛ قالـه مجاهد وابن زيد. وقال مالك: أمه التي تربيه. حكاه الماوردي ورواه عنه أشهب. وقال أبو عبيدة: الفصيلة دون القبيلة. وقال ثعلب: هم آباؤه الأدنون. وقال المبرد: الفصيلة القطعة من أعضاء الجسد، وهي دون القبيلة. وسميت عترة الرجل فصيلته تشبيها بالبعض منه. وقد مضى في سورة "الحجرات" القول في القبيلة وغيرها.

وهنا مسألة، وهي: إذا حبس على فصيلته أو أوصى لها فمن ادعى العموم حمله على العشيرة، ومن ادعى الخصوص حمله على الآباء؛ الأدنى فالأدنى. والأول أكثر في النطق. والله أعلم. ومعنى: "تؤويه" تضمه وتؤمنه من خوف إن كان به. "ومن في الأرض جميعا" أي ويود لو فدي بهم لافتدى "ثم ينجيه" أي يخلصه ذلك الفداء. فلا بد من هذا الإضمار، كقوله: ﴿وإنه لفسق﴾ (الأنعام: ١٢١) أي وإن أكله لفسق. وقيل: "يود المجرم" يقتضي جوابا بالفاء؛ كقوله: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ (القلم: ٩). والجواب في هذه الآية "ثم ينجيه" لأنها من حروف العطف؛ أي يود المجرم لو يفتدي فينجيه الافتداء.

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كلا﴾ تقدم القول في "كلا" وأنها تكون بمعنى حقا، وبمعنى لا. وهي هنا تحتمل الأمرين؛ فإذا كانت بمعنى حقا كان تمام الكلام "ينجيه". وإذا كانت بمعنى لا كان تمام الكلام عليها؛ أي ليس ينجيه من عذاب الله الافتداء ثم قال: "إنها لظى" أي هي جهنم؛ أي تتلظى نيرانها؛ كقوله تعالى: ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ (الليل: ١٤) واشتقاق لظى من التلظي. والتظاء النار التهابها، وتلظيها تلهبها. وقيل: كان أصلها "لظظ" أي ما دامت لدوام عذابها؛ فقلبت إحدى الظاءين ألفا فبقيت لظى. وقيل: هي الدركة الثانية من طبقات جهنم. وهي اسم مؤنث معرفة فلا ينصرف. "نزاعة للشوى" قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم في رواية أبي بكر عنه والأعمش وأبو عمرو وحمزة والكسائي "نزاعة" بالرفع. وروى أبو عمرو عن عاصم "نزاعة" بالنصب. فمن رفع فله خمسة أوجه: أحدها أن تجعل "لظى" خبر "إن" وترفع "نزاعة" بإضمار هي؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على "لظى". والوجه الثاني أن تكون "لظى" و"نزاعة" خبران لإن. كما تقول إنه خلق مخاصم. والوجه الثالث أن تكون "نزاعة" بدلا من "لظى" و"لظى" خبر "إن". والوجه الرابع أن يكون "لظى" بدلا من اسم "إن" و"نزاعة" خبر "إن". والوجه الخامس: أن يكون الضمير في "إنها" للقصة و"لظى" مبتدأ "ونزاعة" خبر الابتداء والجملة خبر "إن". والمعنى: أن القصة والخبر لظى نزاعة للشوى ومن نصب "نزاعة" حسن له أن يقف على "لظى" وينصب "نزاعة" على القطع من "لظى" إذ كانت نكرة متصلة بمعرفة. ويجوز نصبها على الحال المؤكدة؛ كما قال: ﴿وهو الحق مصدقا﴾ (البقرة: ٩١). ويجوز أن تنصب على معنى أنها تتلظى نزاعة؛ أي في حال نزعها للشوى. والعامل فيها ما دل عليه الكلام من معنى التلظي. ويجوز أن يكون حالا؛ على أنه حال للمكذبين بخبرها. ويجوز نصبها عل القطع؛ كما تقول: مررت بزيد العاقل الفاضل. فهذه خمسة أوجه للنصب أيضا. والشوى: جمع شواة وهي جلدة الرأس. قال الأعشى:

قالت قُتَيلة ما له   قد جللت شيبا شواته

وقال آخر:

لأصبحت هدتك الحوادث هدة لـها فشـولـة الرأس باد قتيرها

القتير: الشيب. وفي الصحاح: "والشوى: جمع شواة وهي جلدة الرأس". والشوى: اليدان والرجلان والرأس من الآدميين، وكل ما ليس مقتلا. يقال: رماه فأشواه إذا لم يصب المقتل. قال الـهذلي:

فإن مـن القول التي لا شوى لـها إذا زل عن ظهر اللسان انفلاتها

يقول: إن من القول كلمة لا تشوي ولكن تقتل. قال الأعشى:

قالـــت قتيلة ما لـه قد جللت شيبا شواته

قال أبو عبيد: أنشدها أبو الخطاب الأخفش أبا عمرو بن العلاء فقال لـه: "صحّفت! إنما هو سراته؛ أي نواحيه فسكت أبو الخطاب ثم قال لنا: بل هو صحّف، إنما هو شواته". وشوى الفرس: قوائمه؛ لأنه يقال: عبل الشوى، ولا يكون هذا للرأس؛ لأنهم وصفوا الخيل بإسالة الخدين وعتق الوجه وهو رقته. والشوى: رذال المال. والشوى: هو الشيء الـهين اليسير. وقال ثابت البناني والحسن: "نزاعة للشوى" أي لمكارم وجهه. أبو العالية: لمحاسن وجهه. قتادة: لمكارم خلقته وأطرافه. وقال الضحاك: تفري اللحم والجلد عن العظم حتى لا تترك منه شيئا. وقال الكسائي: هي المفاصل. وقال بعض الأئمة: هي القوائم والجلود. قال امرؤ القيس:

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا لـه حجبات مشـــــرفات على الفال

وقال أبو صالح: أطراف اليدين والرجلين. قال الشاعر:

إذا نظرت عرفت الفخر منها وعينيها ولم تعرف شـــواها

يعني أطرافها. وقال الحـسن أيضا: الشوى الـهام. "تدعو من أدبر وتولى" أي تدعو لظى من أدبر في الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الإيمان. ودعاؤها أن تقول: إلي يا مشرك، إلي يا كافر. وقال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسـان فصيح: إلي يا كافر، إلي يا منافق؛ ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب. وقال ثعلب: "تدعو" أي تهلك. تقول العرب: دعاك الله؛ أي أهلكك الله. وقال الخليل: إنه ليس كالدعاء "تعالوا" ولكن دعوتها إياهم تمكنها من تعذيبهم. وقيل: الداعي خزنة جهنم؛ أضيف دعاؤهم إليها. وقيل هو ضرب مثل؛ أي إن مصير من أدبر وتولى إليها؛ فكأنها الداعية لـهم. ومثلـه قول الشاعر:

ولقــد هبطـنا الواديـــين فواديا يدعو الأنيس به العضيض الأبكم

العضيض الأبكم: الذباب. وهو لا يدعو وإنما طنينه نبه عليه فدعا إليه.

قلت: القول الأول هو الحقيقة؛ حسب ما تقدم بيانه بآي القرآن والأخبار الصحيحة. القشيري: ودعاء لظى بخلق الحياة فيها حين تدعو، وخوارق العادة غدا كثيرة. "وجمع فأوعى" أي جمع المال فجعلـه في وعائه ومنع منه حق الله تعالى؛ فكان جموعا منوعا. قال الحكم: كان عبد الله بن عُـكَيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله يقول: "وجمع فأوعى".

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا﴾ يعني الكافر؛ عن الضحاك. والهلع في اللغة: أشد الحرص وأسوأ الجزع وأفحشه. وكذلك قال قتادة ومجاهد وغيرهما. وقد هلع (بالكسر) يهلع فهو هليع وهلوع؛ على التكثير. والمعنى أنه لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي. عكرمة: هو الضجور. الضحاك: هو الذي لا يشبع. والمنوع: هو الذي إذا أصاب المال منع منه حق الله تعالى. وقال ابن كيسان: خلق الله الإنسان يحب ما يسره ويرضيه، ويهرب مما يكرهه ويسخطه، ثم تعبده الله بإنفاق ما يحب والصبر على ما يكره. وقال أبو عبيدة: الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الضر لم يصبر؛ قاله ثعلب. وقال ثعلب أيضا: قد فسر الله الهلوع، وهو الذي إذا ناله الشر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله الخير بخل به ومنعه الناس. وقال النبي ﷺ: (شر ما أعطي العبد شح هالع وجبن خالع)[1]. والعرب تقول: ناقة هلواعة وهلواع؛ إذا كانت سريعة السير خفيفة. قال:

صكّاء ذِعْلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع

الذعلب والذعلبة الناقة السريعة. و"جزوعا" و"منوعا" نعتان لهلوع. على أن ينوى بهما التقديم قبل "إذا". وقيل: هو خبر كان مضمرة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إلا المصلين﴾ دل على أن ما قبله في الكفار؛ فالإنسان اسم جنس بدليل الاستثناء الذي يعقبه كقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا﴾ (العصر: ٣). النخعي: المراد بالمصلين الذي يؤدون الصلاة المكتوبة. ابن مسعود: الذين يصلونها لوقتها، فأما تركها فكفر. وقيل: هم الصحابة. وقيل: هم المؤمنون عامة، فإنهم يغلبون فرط الجزع بثقتهم بربهم ويقينهم. "الذين هم على صلاتهم دائمون" أي على مواقيتها. وقال عقبة بن عامر: هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا. والدائم الساكن، ومنه: نهي عن البول في الماء الدائم، أي الساكن. وقال ابن جريج والحسن: هم الذين يكثرون فعل التطوع منها. "والذين في أموالهم حق معلوم" يريد الزكاة المفروضة، قاله قتادة وابن سيرين. وقال مجاهد: سوى الزكاة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: صلة رحم وحمل كل[2]. والأول أصح؛ لأنه وصف الحق بأنه معلوم، وسوى الزكاة ليس بمعلوم، إنما هو على قدر الحاجة، وذلك يقل ويكثر. "للسائل والمحروم" تقدم في "الذاريات".

---

(١) "صحيح" أخرجه أحمد وأبو داود وابن حبان وغيرهم بلفظ: "شر ما في الرجل..." وانظر الصحيحة (٥٦٠).
(٢) الكل (بالفتح): الثقل من كل ما يتكلف. وقد تأتي بمعنى: العيال، أو: اليتيم.

"والذين يصدقون بيوم الدين" أي بيوم الجزاء وهو يوم القيامة. وقد مضى في سورة "الفاتحة" القول فيه. "والذين هم من عذاب ربهم مشفقون" أي خائفون. "إن عذاب ربهم غير مأمون" قال ابن عباس: لمن أشرك أو كذب أنبياءه. وقيل: لا يأمنه أحد، بل الواجب على كل أحد أن يخافه ويشفق منه.

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى جَنَّـٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾ " تقدم القول فيه فى سورة: "قد أفلح المؤمنون". "والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون" تقدم أيضا. "والذين هم بشهاداتهم قائمون" على من كانت عليه من قريب أو بعيد، يقومون بها عند الحاكم ولا يكتمونها ولا يغيرونها. وقد مضى القول في الشهادة وأحكامها في سورة "البقرة". وقال ابن عباس: "بشهاداتهم" أن الله واحد لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. وقرئ "لأمانتهم" على التوحيد. وهي قراءة ابن كثير وابن محيصن. فالأمانة اسم جنس، فيدخل فيها أمانات الدين، فإن الشرائع أمانات ائتمن الله عليها عباده. ويدخل فيها أمانات الناس من الودائع؛ وقد مضى هذا كله مستوفى في سورة "النساء". وقرأ عباس الدوري عن أبي عمرو ويعقوب "بشهاداتهم" جمعا. الباقون "بشهادتهم" على التوحيد، لأنها تؤدي عن الجمع. والمصدر قد يفرد وإن أضيف إلى جمع، كقوله تعالى: ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ (لقمان: ١٩) وقال الفراء: ويدل على أنها "بشهادتهم" توحيدا قوله تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ (الطلاق: ٢).

قوله تعالى: ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾ قال قتادة: على وضوئها وركوعها وسجودها. وقال ابن جريج: التطوع. وقد مضى في سورة "المؤمنون". فالدوام خلاف المحافظة. فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها، ويقيموا أركانها، ويكملوها بسننها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراب المأثم. فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها. "أولئك في جنات مكرمون" أي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات.

قوله تعالى: ﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾ قال الأخفش: مسرعين. قال:

بمكة أهلـها ولقد أراهم إليه مهطـــعين إلى السـماع

والمعنى: ما بالـهم يسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم. وقيل: أي ما بالـهم مسرعين في التكذيب لك. وقيل: أي ما بال الذين كفروا يسرعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزئوا بك. وقال عطية: مهطعين: معرضين. الكلبي: ناظرين إليك تعجبا. وقال قتادة: عامدين. والمعنى متقارب؛ أي ما بالـهم مسرعين عليك، مادين أعناقهم، مدمني النظر إليك. وذلك من نظر العدو. وهو منصوب على الحال. نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين، كانوا يحضرونه ـ عليه السلام ـ ولا يؤمنون به. و "قبلك" أي نحوك. "عن اليمين وعن الشمال عزين" أي عن يمين النبي ﷺ وشماله حلقا حلقا وجماعات. والعزين: جماعات في تفرقة، قالـه أبو عبيدة. ومنه حديث النبي ﷺ أنه خرج على أصحابه فرأهم حلقا فقال: (ما لي أراكم عزين ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ـ قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف) خرّجه مسلم[1] وغيره. وقال الشاعر:

ترانا عنده والليل داج على أبوابه حلقا عزينا

أي متفرقين. وقال الراعي:

أخليفة الرحمن إن عشيرتي أمسى سراتهم إليك عزينا

أي متفرقين. وقال آخر:

كأن الجماجـــم من وقعها خناطيل[2] يهوين شتى عزينا

أي متفرقين. وقال آخر:

فلما أن أتين على أضَـــاخٍ ضرحن حصاه أشتاتا عزينا

وقال الكميت:

ونحـــن وجندل باغ تركنا كتائب جندل شتى عزينا

وقال عنترة:

وقِرْن قد تركـــت لذي ولِيٍّ عليه الطير كالعصب العزين

وواحد عزين عزة، جمع بالواو والنون ليكون ذلك عوضا مما حذف منها. وأصلـها عزْهة، فاعتلت كما اعتلت سنة فيمن جعل أصلـها سنهة. وقيل: أصلـها عزوة، من عزاه يعزوه إذا أضافه إلى غيره. فكل واحد من الجماعات مضافة إلى الأخرى، والمحذوف منها الواو. وفي الصحاح: "والعزة الفرقة من الناس، والـهاء عوض من الياء، والجمع عزىً ـ على فعَل ـ وعزون وعُزون أيضا بالضم، ولم يقولوا عزات كما قالوا ثبات". قال الأصمعي: يقال في الدار عزون، أي أصناف من الناس. و "عن اليمين وعن الشمال" متعلق "بمهطعين" ويجوز أن يتعلق "بعزين" على حد قولك: أخذته عن زيد.

(١) أخرجه مسلم في "الصلاة"، (٤٣٠).
(٢) الخناطيل: لا واحد لها من جنسها وهي جماعات من الوحش والطير في تفرقة.

"أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم" قال المفسرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه، ويستهزئون بأصحابه ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئا لنعطين أكثر منه؛ فنزلت: "أيطمع" الآية. وقيل: كان المستهزئون خمسة أرهط. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف والأعرج "أن يدخل" بفتح الياء وضم الخاء مسمى الفاعل. ورواه المفضل عن عاصم. الباقون "أن يدخل" على الفعل المجهول. "كلا" لا يدخلونها. "إنا خلقناهم مما يعلمون" ثم ابتدأ فقال: "إنا خلقناهم مما يعلمون" أي إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة؛ كما خلق سائر جنسهم. فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى. وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبرون عليهم. فقال: "إنا خلقناهم مما يعلمون" من القذر، فلا يليق بهم هذا التكبر. وقال قتادة في هذه الآية: إنما خلقت يا ابن آدم من قذر فاتق الله. وروي أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب بن أبي صفرة يتبختر في مطرف خز وجبة خز فقال له: يا عبد الله، ما هذه المشية التي يبغضها الله؟ فقال له: أتعرفني؟ قال: نعم، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فمضى المهلب وترك مشيته. نظم الكلام محمود الوراق فقال:

عجبت من معجب بصورته وكان في الأصل نطفة مذره
وهو غداً بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قذره
وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقال آخر:

هل في ابن آدم غير الرأس مكرمة وهو بخمس من الأوساخ مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك والعين مُرْمَصة والثغر ملهوب
يا بن التراب غداً قصر فإنك مأكول ومشروب

وقيل: معناه من أجل ما يعلمون؛ وهو الأمر والنهي والثواب والعقاب. كقول الشاعر وهو الأعشى:

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذي هوى أن تزارا

أي من أجل ليلى.

قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فلا أقسم﴾ أي أقسم. و"لا" صلة. "برب المشارق والمغارب" هي مشارق الشمس ومغاربها. وقد مضى الكلام فيها. وقرأ أبو حيوة وابن محيصن وحميد "برب المشرق والمغرب" على التوحيد. "إنا لقادرون. على أن نبدل خيرا منهم" يقول: نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم والمجيء بخير منهم في الفضل والطوع والمال. "وما نحن بمسبوقين" أي لا يفوتنا شيء ولا يعجزنا أمر نريده.

قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم؛ على جهة الوعيد. واشتغل أنت بما أمرت به ولا يعظمن عليك شركهم؛ فإن لهم يوما يلقون فيه ما وعدوا. وقرأ ابن محيصن ومجاهد وحميد "حتى يلقوا يومهم الذي يوعدون". وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب﴾ "يوم" بدل من "يومهم الذي قبله، وقراءة العامة "يخرجون" بفتح الياء وضم الراء على أنه مسمى الفاعل. وقرأ السلمي والمغيرة والأعشى عن عاصم "يخرجون" بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. والأجداث: القبور؛ وأحدها جدث. وقد مضى في سورة "يس". "سراعا" حين يسمعون الصيحة الآخرة إلى إجابة الداعي؛ وهو نصب على الحال "كأنهم إلى نصب يوفضون" قراءة العامة بفتح النون وجزم الصاد. وقرأ ابن عامر وحفص بضم النون والصاد. وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رجاء وغيرهما بضم النون وإسكان الصاد. والنَّصْب والنُّصْب لغتان مثل الضَّعْف والضُّعْف. الجوهري: والنصب ما نصب فعبد من دون الله، وكذلك النصب بالضم؛ وقد يحرك. قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تنسكنه لعافيـــــة والله ربك فاعبدا

أراد "فاعبدن" فوقف بالألف؛ كما تقول: رأيت زيدا. والجمع الأنصاب. وقوله: "وذا النصب" بمعنى إياك وذا النصب. والنصب الشر والبلاء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿أني مسني الشيطان بنصب وعذاب﴾ (ص: ٤١). وقال الأخفش والفراء: النُّصُب جمع النَّصْب مثل رَهْن ورُهُن، والأنصاب جمع نُصُب؛ فهو جمع الجمع. وقيل: النصب والأنصاب واحد. وقيل: النّصُب جمع نصاب، هو حجر أو صنم يذبح عليه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وما ذبح على النصب﴾ (المائدة: ٣). وقد قيل: نَصْب ونُصُب بمعنىً واحد؛ كما قيل عَمْر وعُمْر وعُمُر. ذكره النحاس. قال ابن عباس: "إلى نصب" إلى غاية، وهي التي تنصب إليها بصرك. وقال الكلبي: إلى شيء منصوب؛ علم أو راية. وقال الحسن: كانوا يبتدرون إذا طلعت الشمس إلى نصبهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لا يلوي أولهم على آخرهم.

قوله تعالى: ﴿يوفضون﴾ يسرعون والإيفاض الإسراع. قال الشاعر:

فوارس ذبيان تحت الحديــ ـد كالجن يوفضن من عبقر

عبقر: موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن. قال لبيد:

كهول وشبان كجنة عبقر

وقال الليث: وفضت الإبل تفض وفضاً؛ وأوفضها صاحبها. فالإيفاض متعد، والذي في الآية لازم. يقال: وفض وأوفض واستوفض بمعنى أسرع.

قوله تعالى: ﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: "خاشعة أبصارهم" أي ذليلة خاضعة، لا يرفعونها لما يتوقعونه من عذاب الله. "ترهقهم ذلة" أي يغشاهم الهوان. قال قتادة: هو سواد الوجوه. والرهق: الغشيان؛ ومنه غلام مراهق إذا غشي الاحتلام. رهقه (بالكسر) يرهقه رهقا أي غشيه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ (يونس: ٢٦). "ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون" أي يوعدونه في الدنيا أن لهم فيه العذاب. وأخرج الخبر بلفظ الماضي لأن ما وعد الله به يكون ولا محالة.

سورة نوح

مقدمة السورة :

مكية، وهي ثمان وعشرون آية.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه﴾ قد مضى القول في "الأعراف" أن نوحا عليه السلام أول رسول أرسل. ورواه قتادة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (أول رسول أرسل نوح وأرسل إلى جميع أهل الأرض). فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً. وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلايل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام. قال وهب: كلـهم مؤمنون. أرسل إلى قومه وهو ابن خمسين سنة. وقال ابن عباس: ابن أربعين سنة. وقال عبد الله بن شداد: بعث وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة. وقد مضى في سورة "العنكبوت" القول فيه. والحمد لله.

"أن أنذر قومك" أي بأن أنذر قومك؛ فموضع "أن" نصب بإسقاط الخافض. وقيل: موضعها جر لقوة خدمتها مع "أن". ويجوز "أن" بمعنى المفسرة فلا يكون لـها موضع من الإعراب؛ لأن في الإرسال معنى الأمر، فلا حاجة إلى إضمار الباء. وقراءة عبد الله "أنذر قومك" بغير "أن" بمعنى قلنا لـه أنذر قومك. وقد تقدم معنى الإنذار في أول "البقرة". "من قبل أن يأتيهم عذاب أليم" النار في الآخرة. وقال الكلبي: هو ما نزل عليهم من الطوفان. وقيل: أي أنذرهم العذاب الأليم على الجملة إن لم يؤمنوا. فكان يدعو قومه وينذرهم فلا يرى منهم مجيباً؛ وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه فيقول (رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون). وقد مضى هذا مستوفى في سورة "العنكبوت" والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾

قولـه تعالى: ﴿قال يا قوم إني لكم نذير﴾ أي مخوف. "مبين" أي مظهر لكم بلسانكم الذي تعرفونه. "أن اعبدوا الله واتقوه" و"أن" المفسرة على ما تقدم في "أن أنذر". "اعبدوا" أي وحدوا. واتقوا: خافوا. "وأطيعون" أي فيما آمركم به، فإني رسول الله إليكم. "يغفر لكم من ذنوبكم" جزم "يغفر" بجواب الأمر. و"من" صلة زائدة. ومعنى الكلام يغفر لكم ذنوبكم، قالـه السدي. وقيل: لا يصح كونها زائدة؛ لأن "من" لا تزاد في الواجب، وإنما هي هنا للتبعيض، وهو بعض الذنوب، وهو ما لا يتعلق بحقوق المخلوقين. وقيل: هي لبيان الجنس. وفيه بعد، إذ لم يتقدم جنس يليق به. وقال زيد بن أسلم: المعنى يخرجكم من ذنوبكم. ابن شجرة: المعنى يغفر لكم من ذنوبكم ما استغفرتموه منها "ويؤخركم إلى أجل مسمى" قال ابن عباس: أي ينسئ في أعماركم. ومعناه أن الله تعالى كان قضى قبل خلقهم أنهم إن آمنوا بارك في أعمارهم، وإن لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب. وقال

مقاتل: يؤخركم إلى منتهى آجالكم في عافية؛ فلا يعاقبكم بالقحط وغيره. فالمعنى على هذا يؤخركم من العقوبات الشدائد إلى آجالكم. وقال الزجاج: أي يؤخركم عن العذاب فتموتوا غير موتة المستأصلين بالعذاب. وعلى هذا قيل: "أجل مسمى" عندكم تعرفونه، لا يميتكم غرقا ولا حرقا ولا قتلا؛ ذكره الفراء. وعلى القول الأول "أجل مسمى" عند الله. "إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر" أي إذا جاء الموت لا يؤخر بعذاب كان أو بغير عذاب. وأضاف الأجل إليه سبحانه لأنه الذي أثبته. وقد يضاف إلى القوم، كقوله تعالى: ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ (النحل: ٦١) لأنه مضروب لهم. و"لو" بمعنى "إن" أي إن كنتم تعلمون. وقال الحسن: معناه لو كنتم تعلمون لعلمتم أن أجل الله إذا جاءكم لم يؤخر.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا﴾ أي سرا وجهرا. وقيل: أي واصلت الدعاء. "فلم يزدهم دعائي إلا فرارا" أي تباعدا من الإيمان. وقراءة العامة بفتح الياء من "دعائي" وأسكنها الكوفيون ويعقوب والدوري عن أبي عمرو.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿ وإني كلما دعوتهم ﴾ أي إلى سبب المغفرة، وهي الإيمان بك والطاعة لك. "جعلوا أصابعهم في آذانهم" لئلا يسمعوا دعائي "واستغشوا ثيابهم" أي غطوا بها وجوههم لئلا يروه. وقال ابن عباس: جعلوا ثيابهم على رؤوسهم لئلا يسمعوا كلامه. فاستغشاء الثياب إذاً زيادة في سد الآذان حتى لا يسمعوا، أو لتنكيرهم أنفسهم حتى يسكت، أو ليعرّفوه إعراضهم عنه. وقيل: هو كناية عن العداوة. يقال: لبس لي فلان ثياب العداوة. "وأصروا" أي على الكفر فلم يتوبوا. "واستكبروا" عن قبول الحق؛ لأنهم قالوا: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ (الشعراء: ١١١). "استكبارا" تفخيم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿ثم إني دعوتهم جهارا﴾ أي مظهرا لهم الدعوة. وهو منصوب "بدعوتهم" نصب المصدر؛ لأن الدعاء أحد نوعيه الجهار، فنصب به نصب القرفصاء بقعد؛ لكونها أحد أنواع القعود، أو لأنه أراد "بدعوتهم" جاهرتهم. ويجوز أن يكون صفة لمصدر دعا؛ أي دعاء جهارا؛ أي مجاهرا به. ويكون مصدرا في موضع الحال؛ أي دعوتهم مجاهرا لهم بالدعوة. "ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا" أي لم أبق مجهودا. وقال مجاهد: معنى أعلنت: صحت، "وأسررت لهم إسرارا". بالدعاء عن بعضهم من بعض. وقيل: "أسررت لهم" أتيتهم في منازلهم. وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم، وتلطف في الاستدعاء. وفتح الياء من "إني أعلنت لهم" الحرميون وأبو عمرو. وأسكن الباقون.

قوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فقلت استغفروا ربكم﴾ أي سلوه المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان. "إنه كان غفارا" وهذا منه ترغيب في التوبة. وقد روى حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ أنه قال: (الاستغفار ممحاة للذنوب)[1]. وقال الفضيل: يقول العبد أستغفر الله؛ وتفسيرها أقلني.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ أي يرسل ماء السماء؛ ففيه إضمار. وقيل: السماء المطر؛ أي يرسل المطر. قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

و"مدرارا" ذا غيث كثير. وجزم "يرسل" جوابا للأمر. وقال مقاتل: لما كذبوا نوحا زمانا طويلا حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة؛ فهلكت مواشيهم وزروعهم، فصاروا إلى نوح ﷺ واستغاثوا به. فقال "استغفروا ربكم إنه كان غفارا" أي لم يزل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيبا في الإيمان: "يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا". قال قتادة: علم نبي الله ﷺ أنهم أهل حرص على الدنيا فقال: (هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة).

الثالثة: في هذه الآية والتي في "هود" دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار. قال الشعبي: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى رجع، فأمطروا فقالوا: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر؛ ثم قرأ: "استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا". وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون، فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: اللهم إنا سمعناك تقول: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (التوبة: ٩١) وقد أقررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟! اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا! فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقال ابن صبيح: شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له: استغفر الله. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: استغفر الله. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدا؛ فقال له: استغفر الله. وشكا إليه آخر جفاف بستانه؛ فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئا؛ إن الله تعالى يقول في سورة "نوح": "استغفروا ربكم إنه كان غفارا. يرسل السماء عليكم مدرارا. ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا". وقد مضى في سورة "آل عمران" كيفية الاستغفار، وإن ذلك يكون عن إخلاص وإقلاع من الذنوب. وهو الأصل في الإجابة.

---

(١) ضعيف جداً، انظر ضعيف الجامع (٢٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾

قيل: الرجاء هنا بمعنى الخوف؛ أي ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أحدكم بالعقوبة. أي أي عذر لكم في ترك الخوف من الله. وقال سعيد بن جبير وأبو العالية وعطاء بن أبي رباح: ما لكم لا ترجون لله ثوابا ولا تخافون لـه عقابا. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: ما لكم لا تخشون لله عقابا وترجون منه ثوابا. وقال الوالبي والعوفي عنه: ما لكم لا تعلمون لله عظمة. وقال ابن عباس أيضا ومجاهد: ما لكم لا ترون لله عظمة. وعن مجاهد والضحاك: ما لكم لا تبالون لله عظمة. قال قطرب: هذه لغة حجازية. وهذيل وخزاعة ومضر يقولون: لم أرج: لم أبال. والوقار: العظمة. والتوقير: التعظيم. وقال قتادة: ما لكم لا ترجون لله عاقبة؛ كأن المعنى ما لكم لا ترجون لله عاقبة الإيمان. وقال ابن كيسان: ما لكم لا ترجون في عبادة الله وطاعته أن يثيبكم على توقيركم خيرا. وقال ابن زيد: ما لكم لا تؤدون لله طاعة. وقال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقا ولا تشكرون لـه نعمة. وقيل: ما لكم لا توحدون الله؛ لأن من عظمه فقد وحده. وقيل: إن الوقار الثبات لله عز وجل؛ ومنه قولـه تعالى: ﴿وقرن في بيوتكن﴾ (الأحزاب: ٣٣) أي اثبتن. ومعناه ما لكم لا تثبتون وحدانية الله تعالى وأنه إلـهكم لا إلـه لكم سواه؛ قاله ابن بحر. ثم دلـهم على ذلك فقال: "وقد خلقكم أطوارا" أي جعل لكم في أنفسكم آية تدل على توحيده. قال ابن عباس: "أطوارا" يعني نطفة ثم علقة ثم مضغة؛ أي طورا بعد طور إلى تمام الخلق، كما ذكر في سورة "المؤمنون". والطور في اللغة: المرة؛ أي من فعل هذا وقدر عليه فهو أحق أن تعظموه. وقيل: "أطوارا" صبيانا، ثم شبابا، ثم شيوخا وضعفاء، ثم أقوياء. وقيل: أطوارا أي أنواعا: صحيحا وسقيما، وبصيرا وضريرا، وغنيا وفقيرا. وقيل: إن "أطوارا" اختلافهم في الأخلاق والأفعال.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾

قولـه تعالى: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ﴾ ذكر لـهم دليلا آخر؛ أي ألم تعلموا أن الذي قدر على هذا، فهو الذي يجب أن يعبد ومعنى "طباقا" بعضها فوق بعض، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب؛ قالـه ابن عباس والسدي. وقال الحسن: خلق الله سبع سموات طباقا على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض، وسماء وسماء خلق وأمر. وقولـه: "ألم تروا" على جهة الإخبار لا المعاينة؛ كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا. وطباقا" نصب على أنه مصدر؛ أي مطابقة طباقا. أو حال بمعنى ذات طباق؛ فحذف ذات وأقام طباقا مقامه. "وجعل القمر فيهن نورا" أي في سماء الدنيا؛ كما يقال: أتاني بنو تميم وأتيت بني تميم والمراد بعضهم؛ قالـه الأخفش. قال ابن كيسان: إذا كان في إحداهن فهو فيهن. وقال قطرب: "فيهن" بمعنى معهن؛ وقالـه الكلبي. أي خلق الشمس والقمر مع خلق السموات والأرض. وقال جلة أهل اللغة في قول امرئ القيس:

وهل ينعمن من كان آخر عهده ثلاثين شـــهرا في ثلاثة أحوال

"في" بمعنى مع. النحاس: وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية فقال: جواب النحويين أنه إذا جعله في إحداهن فقد جعله فيهن؛ كما تقول: أعطني الثياب المعلمة وإن كنت إنما أعلمت أحدها. وجواب آخر: أنه يروى أن وجه القمر إلى السماء، وإذا كان إلى داخلها فهو متصل بالسموات، ومعنى "نورا" أي لأهل الأرض؛ قاله السدي. وقال عطاء: نورا لأهل السماء والأرض. وقال ابن عباس وابن عمر: وجهه يضيء لأهل الأرض وظهره يضيء لأهل السماء. "وجعل الشمس سراجا" يعني مصباحا لأهل الأرض ليتوصلوا إلى التصرف لمعايشهم. وفي إضاءتها لأهل السماء القولان الأولان حكاه الماوردي. وحكى القشيري عن ابن عباس أن الشمس وجهها في السموات وقفاها في الأرض. وقيل: على العكس. وقيل لعبد الله بن عمر: ما بال الشمس تقلينا أحيانا وتبرد علينا أحيانا؟ فقال: إنها في الصيف في السماء الرابعة، وفي الشتاء في السماء السابعة عند عرش الرحمن؛ ولو كانت في السماء الدنيا لما قام لها شيء.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾﴾

يعني آدم عليه السلام خلقه من أديم الأرض كلها؛ قاله ابن جريج. وقد مضى في سورة "الأنعام والبقرة" بيان ذلك. وقال خالد بن معدان: خلق الإنسان من طين؛ فإنما تلين القلوب في الشتاء. و"نباتا" مصدر على غير المصدر؛ لأن مصدره أنبت إنباتا، فجعل الاسم الذي هو النبات في موضع المصدر. وقد مضى بيانه في سورة "آل عمران" وغيرها. وقيل: هو مصدر محمول على المعنى؛ لأن معنى: "أنبتكم" جعلكم تنبتون نباتا؛ قاله الخليل والزجاج. وقيل: أي أنبت لكم من الأرض النبات. "فنباتا" على هذا نصب على المصدر الصريح. والأول أظهر. وقال ابن جريج: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر وبالطول بعد القصر. "ثم يعيدكم فيها" أي عند موتكم بالدفن. "ويخرجكم إخراجا" بالنشور للبعث يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطا﴾ أي مبسوطة. "لتسلكوا منها سبلا فجاجا" السبل: الطرق. والفجاج جمع فج، وهو الطريق الواسعة؛ قاله الفراء. وقيل: الفج المسلك بين الجبلين. وقد مضى في سورتي "الأنبياء والحج".

قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٢١﴾﴾

شكاهم إلى الله تعالى، وأنهم عصوه ولم يتبعوه فيما أمرهم به من الإيمان. وقال أهل التفسير: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما داعيا لهم وهم على كفرهم وعصيانهم. قال ابن عباس: رجا نوح عليه السلام الأبناء بعد الآباء؛ فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبعة قرون، ثم دعا عليهم بعد

الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا. قال الحسن: كان قوم نوح يزرعون في الشهر مرتين؛ حكاه الماوردي. "واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا" يعني كبراءهم وأغنياءهم الذين لم يزدهم كفرهم وأموالهم وأولادهم إلا ضلالا في الدنيا وهلاكا في الآخرة. وقرأ أهل المدنية والشام وعاصم "وولده" بفتح الواو واللام. الباقون "ولده" بضم الواو وسكون اللام وهي لغة في الولد. ويجوز أن يكون جمعا للولد، كالفلك فإنه واحد وجمع. وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ ﴾

أي كبيرا عظيما. يقال: كَبير وكُبَار وكُبَّار، مثل عجيب وعُجَاب وعُجّاب بمعنى، ومثله طويل وطُوَال وطُوَّال. يقال: رجل حسن وحسان، وجميل وجمال، وقراء للقارئ، ووضاء للوضيء. وأنشد ابن السكيت:

بيضاء تصطاد القلوب وتستبي بالحسـن قلب المسلم القُرّاء

وقال آخر:

والمـرء يلحقه بفتيان الندى خلق الكريم وليس بالوضاء

وقال المبرد: "كبارا" (بالتشديد) للمبالغة. وقرأ ابن محيصن وحميد ومجاهد "كبارا" بالتخفيف. واختلف في مكرهم ما هو؟ فقيل: تحريشهم سفلتهم على قتل نوح. وقيل: هو تعزيرهم الناس بما أوتوا من الدنيا والولد؛ حتى قالت الضعفة: لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي: هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقيل: مكرهم كفرهم. وقال مقاتل: هو قول كبرائهم لأتباعهم: "لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا".

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قال ابن عباس وغيره: هي أصنام وصور، كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب وهذا قول الجمهور. وقيل: إنها للعرب لم يعبدها غيرهم. وكانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم؛ فلذلك خصوها بالذكر بعد قوله تعالى: ﴿لا تذرن آلهتكم﴾. ويكون معنى الكلام كما قال قوم نوح لأتباعهم: "لا تذرن آلهتكم" قالت العرب لأولادهم وقومهم: لا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا؛ ثم عاد بالذكر بعد ذلك إلى قوم نوح عليه السلام. وعلى القول الأول، الكلام كله منسوق في قوم نوح. وقال عروة بن الزبير وغيره: اشتكى آدم عليه السلام وعنده بنوه: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. وكان ود أكبرهم وأبرهم به. قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمسة بنين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر؛ وكانوا عبادا فمات واحد منهم فحزنوا عليه؛ فقال الشيطان: أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه. قالوا: افعل. فصوره في المسجد من صفر ورصاص. ثم مات آخر، فصوره حتى ماتوا كلهم فصورهم. وتنقصت الأشياء كما تنقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله

تعالى بعد حين. فقال لـهم الشيطان: ما لكم لا تعبدون شيئا؟ قالوا: وما نعبد؟ قال: آلـهتكم وآلـهة آبائكم، ألا ترون في مصلاكم. فعبدوها من دون الله؛ حتى بعث الله نوحا فقالوا: ﴿ لا تذرن آلـهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ﴾ الآية. وقال محمد بن كعب أيضا ومحمد بن قيس: بل كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح، وكان لـهمّ تبع يقتدون بهم، فلما ماتوا زين لـهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم، وليتسلوا بالنظر إليها؛ فصورهم. فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا: ليت شعرنا! هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها؟ فجاءهم الشيطان فقال: كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر. فعبدوها فابتدئ عبادة الأوثان من ذلك الوقت.

قلت: وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة تسمى مارية، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ؛ فقال رسول الله ﷺ: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)[1]. وذكر الثعلبي عن ابن عباس قال: هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح؛ فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذكروهم بها؛ ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت من دون الله. وذكر أيضا عن ابن عباس: أن نوحا عليه السلام، كان يحرس جسد آدم عليه السلام على جبل بالـهند، فيمنع الكافرين أن يطوفوا بقبره؛ فقال لـهم الشيطان: إن هؤلاء يفخرون عليكم ويزعمون أنهم بنو آدم دونكم، وإنما هو جسد، وأنا أصور لكم مثلـه تطوفون به؛ فصور لـهم هذه الأصنام الخمسة وحملـهم على عبادتها. فلما كان أيام الطوفان دفنها الطين والتراب والماء؛ فلم تزل مدفونة حتى أخرجها الشيطان لمشركي العرب. قال الماوردي: فأما ود فهو أول صنم معبود، سمي ودا لودهم لـه؛ وكان بعد قوم نوح لكلب بدومة الجندل؛ في قول ابن عباس وعطاء ومقاتل. وفيه يقول شاعرهم:

حيـــاك ود فـــإنا لا يحـــل لنا   لـهو النساء وإن الدين قد عزما

وأما سواع فكان لـهذيل بساحل البحر؛ في قولـهم.

وأما يغوث فكان لغطيف من مراد بالجوف من سبأ؛ في قول قتادة. وقال المهدوي: لمراد ثم لغطفان. الثعلبي: وأخذت أعلى وأنعم ـ وهما من طيئ ـ وأهل جرش من مذحج يغوث فذهبوا به إلى مراد فعبدوه زمانا. ثم إن بني ناجية أرادوا نزعه من أعلى وأنعم، ففروا به إلى الحصين أخي بني الحارث بن كعب من خزاعة. وقال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث وكان من رصاص، وكانوا يحملونه على جمل أحرد، ويسيرون معه ولا يهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضي لكم المنزل؛ فيضربون عليه بناء ينزلون حولـه.

وأما يعوق فكان لـهمدان ببلخع؛ في قول عكرمة وقتادة وعطاء. ذكره الماوردي. وقال الثعلبي: وأما يعوق فكان لكهلان من سبأ، ثم توارثه بنوه؛ الأكبر فالأكبر حتى صار إلى همدان. وفيه يقول مالك بن نمط الـهمداني:

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧)، وفي غير موضع من صحيحه، ومسلم (٥٢٨).

يريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري يعوق ولا يريش

وأما نسر فكان لذي الكلاع من حمير؛ في قول قتادة، ونحوه عن مقاتل. وقال الواقدي: كان ود على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر من الطير؛ فالله أعلم. وقرأ نافع "ولا تذرن ودا" بضم الواو. وفتحها الباقون. قال الليث: ود (بفتح الواو) صنم كان لقوم نوح. وود (بالضم) صنم لقريش؛ وبه سمي عمرو بن ود. وفي الصحاح: والود (بالفتح) الوتد في لغة أهل نجد؛ كأنهم سكنوا التاء وأدغموها في الدال. والود في قول امرئ القيس:

تظهر الود إذا ما أشجذت وتواريه إذا ما تعتكر

قال ابن دريد: هو اسم جبل: وود صنم كان لقوم نوح عليه السلام ثم صار لكلب وكان بدومة الجندل؛ ومنه سموه عبد ود وقال: "لا تذرن آلهتكم" ثم قال: "ولا تذرن ودا ولا سواعا" الآية. خصها بالذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ (الأحزاب: ٧). "وقد أضلوا كثيرا" هذا من قول نوح؛ أي أضل كبراؤهم كثيرا من أتباعهم؛ فهو عطف على قوله: "ومكروا مكرا كبارا". وقيل: إن الأصنام "أضلوا كثيرا" أي ضل بسببها كثير؛ نظيره قول إبراهيم: ﴿رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾ (إبراهيم: ٣٦) فأجرى عليهم وصف ما يعقل؛ لاعتقاد الكفار فيهم ذلك. "ولا تزد الظالمين إلا ضلالا" أي عذابا؛ قاله ابن بحر. واستشهد بقوله تعالى: ﴿إن المجرمين في ضلال وسعر﴾ (القمر: ٤٧). وقيل إلا خسرانا. وقيل إلا فتنة بالمال والولد. وهو محتمل.

قوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ "ما" صلة مؤكدة؛ والمعنى من خطاياهم. وقال الفراء: المعنى من أجل خطاياهم؛ فأدت "ما" هذا المعنى. قال: و"ما" تدل على المجازاة. وقراءة أبي عمرو "خطاياهم" على جمع التكسير؛ الواحدة خطية. وكان الأصل في الجمع خطائي على فعائل؛ فلما اجتمعت الهمزتان قلبت الثانية ياء، لأن قبلها كسرة ثم استثقلت والجمع ثقيل، وهو معتل مع ذلك؛ فقلبت الياء ألفا ثم قلبت الهمزة الأولى ياء لخفائها بين الألفين. الباقون "خطيئاتهم" على جمع السلامة. قال أبو عمرو: قوم كفروا ألف سنة فلم يكن لهم إلا خطيات؛ يريد أن الخطايا أكثر من الخطيات. وقال قوم: خطايا وخطيات واحد؛ جمعان مستعملان في الكثرة والقلة؛ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ (لقمان: ٢٧) وقال الشاعر:

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وقرئ "خطيئاتهم" و"خطياتهم" بقلب الهمزة ياء وإدغامها. وعن الجحدري وعمرو بن عبيد والأعمش وأبي حيوة وأشهب العقيلي "خطيئتهم" على التوحيد، والمراد الشرك. "فأدخلوا نارا" أي بعد إغراقهم. قال القشيري: وهذا يدل على عذاب القبر. ومنكروه يقولون: صاروا مستحقين

دخول النار، أو عرض عليهم أماكنهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ (غافر: ٤٦). وقيل: أشاروا إلى ما في الخبر من قوله: (البحر نار في نار). وروى أبو روق عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿أغرقوا فأدخلوا نارا﴾ قال: يعني عذبوا بالنار في الدنيا مع الغرق في الدنيا في حالة واحدة؛ كانوا يغرقون في جانب ويحترقون في الماء من جانب. ذكره الثعلبي قال: أنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال أنشدنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن رميح قال أنشدني أبو بكر بن الأنباري:

الخلق مجتمع طورا ومفترق والحادثات فنون ذات أطوار
لا تعجبن لأضداد إن اجتمعت فالله يجمع بين الماء والنار

"فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا" أي من يدفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين﴾ دعا عليهم حين يئس من اتباعهم إياه. وقال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ (هود: ٣٦) فأجاب الله دعوته وأغرق أمته؛ وهذا كقول النبي ﷺ: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم)(١). وقيل: سبب دعائه أن رجلا من قومه حمل ولدا صغيرا على كتفه فمر بنوح فقال: (احذر هذا فإنه يضلك). فقال: يا أبت أنزلني؛ فأنزله فرماه فشجه؛ فحينئذ غضب ودعا عليهم. وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: إنما قال هذا حينما أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم. وأعقم أرحام النساء وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين سنة. وقيل: بأربعين. قال قتادة: ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب. وقال الحسن وأبو العالية: لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلا فيهم؛ ولكن الله أهلك أطفالهم وذريتهم بغير عذاب، ثم أهلكهم بالعذاب؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم﴾ (الفرقان: ٣٧).

الثانية: قال ابن العربي: "دعا نوح على الكافرين أجمعين، ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين وألب عليهم. وكان هذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهول، وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عتبة وشيبة وأصحابهما؛ لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم".

قلت: قد مضت هذه المسألة مجودة في سورة "البقرة" والحمد لله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

الثالثة: قال ابن العربي: "إن قيل لم جعل نوح دعوته على قومه سببا لتوقفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا قال الناس في ذلك وجهان: أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة؛ والشفاعة تكون عن رضا ورقة، فخاف أن يعاتب ويقال: دعوت على الكفار بالأمس وتشفع لهم اليوم. الثاني: أنه دعا غضبا بغير نص ولا إذن صريح في ذلك؛ فخاف الدرك فيه يوم القيامة؛ كما قال موسى عليه السلام: (إني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها). قال: وبهذا أقول".

قلت: وإن كان لم يؤمر بالدعاء نصا فقد قيل له: ﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ (هود: ٣٦). فأعلم عواقبهم فدعا عليهم بالهلاك؛ كما دعا نبينا ﷺ على شيبة وعتبة ونظرائهم فقال: (اللهم عليك بهم) لما أعلم عواقبهم؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ديارا﴾ أي من يسكن الديار؛ قاله السدي. وأصله ديوار على فيعال من دار يدور؛ فقلبت الواو ياء وأدغمت إحداهما في الأخرى. مثل القيام؛ أصله قيوام. ولو كان فعالا لكان دوارا. وقال القتبي: أصله من الدار؛ أي نازل بالدار. يقال: ما بالدار ديار؛ أي أحد. وقيل: الديار صاحب الدار.

قوله تعالى: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾ دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين. وهما: لمك بن متوشلخ وشمخى بنت أنوش؛ ذكره القشيري والثعلبي. وحكى الماوردي في اسم أمه منجل. وقال سعيد بن جبير: أراد بوالديه أباه وجده. وقرأ سعيد بن جبير "لوالدي" بكسر الدال على الواحد. قال الكلبي: كان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون. وقال ابن عباس: لم يكفر لنوح والد فيما بينه وبين آدم عليهما السلام. "ولمن دخل بيتي مؤمنا" أي مسجدي ومصلاي مصليا مصدقا بالله. وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة. وقد قال النبي ﷺ: (الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه ما لم يحدث فيه تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه) الحديث. وقد تقدم. وهذا قول ابن عباس: "بيتي" مسجدي؛ حكاه الثعلبي وقاله الضحاك. وعن ابن عباس أيضا: أي ولمن دخل ديني؛ فالبيت بمعنى الدين؛ حكاه القشيري وقاله جويبر. وعن ابن عباس أيضا: يعني صديقي الداخل إلى منزلي؛ حكاه الماوردي. وقيل: أراد داري. وقيل: سفينتي. "وللمؤمنين والمؤمنات" عامة إلى يوم القيامة؛ قاله الضحاك. وقال الكلبي: من أمة محمد ﷺ. وقيل: من قومه؛ والأول أظهر. "ولا تزد الظالمين" أي الكافرين. "إلا تبارا" إلا هلاكا؛ فهي عامة في كل كافر ومشرك. وقيل: أراد مشركي قومه. والتبار: الهلاك. وقيل: الخسران؛ حكاهما السدي. ومنه قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه﴾ (الأعراف: ١٣٩). وقيل: التبار الدمار؛ والمعنى واحد. والله أعلم بذلك. وهو الموفق للصواب.

المجلد التاسع